

أ. د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى - مكة المكرمة



ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحميدي، عبدالعزيز عبدالله

المنافقون في القرآن الكريم/ عبدالعزيز عبدالله الحميدي – الرياض ١٤٣١هـ

٦٦٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٨-٥٢٠٨-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- النفاق أ- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٣١/٤٣٢٠

رقم الإيداع: ١٤٣١/٤٣٢٠

ردمك: ٠-٨-٥٢٠٨-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م

الطبعة الثانية

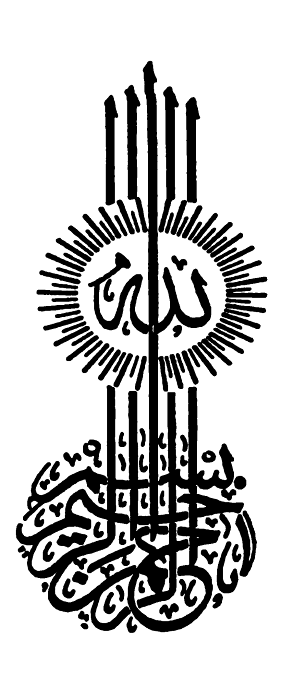
١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص. ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٧٣٩٥٩ – ٤٩١٤٧٧٦–٤٩٦٨٩٩٤ فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣

E-mail: eshbelia@hotmail.com



مقدمة

الحمد لله الذي أوجد البشر في هذه الحياة الدنيا ولم يتركهم سدى، بل بين لهم سبيله الهادي إلى الصراط المستقيم، فأرسل لهم رسلا مبشرين ومنذرين، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، وأنزل معهم الكتب التي تنير لهم الطريق لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وصلى الله تعالى على سيد الخلق محمد الذي بلغ الأمانة التي كلفه الله بها، ونصح لأمته حتى تركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وجاهد في سبيل الدعوة إلى الإسلام وحمايته حتى لحق بالرفيق الأعلى وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فإن الله سبحانه لما خلق الناس واستعمرهم في هذه الأرض أوجد فيهم الغرائز التي تدعو صاحبها إلى الاستجابة لندائها من غير حد ولا نظام، وأوجد لهم مع الغرائز العقل الذي ينظم سلوك الإنسان تجاه الاستجابة لغرائزه؛ فيدرك حقها من باطلها ونافعها من ضارها ليحولها عما يضر إلى ماينفع، وجعله مناط تكليفه ومركز مسؤوليته.

ولما كان العقل وحده في الغالب عاجزًا عن إدراك قيمة الإنسان ووظيفته في هذه الحياة وعن معرفة كل حق يجب أن يكون عليه في سلوكه بين الله تعالى له أنه مخلوق من مخلوقاته وعبد من عبيده، وبين له أن وظيفته في هذه الحياة هي عمران الأرض بعبادته تعالى وحده والخضوع لأمره ونهيه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وذلك بأن يرتب العبد سلوكه في هذه الحياة على اعتبار طلب ما يُرضي الله واجتناب ما يسخطه، وبين له ثمرة سلوك هذا الطريق والنهاية الحتمية لالتزامه أو الحيدة عنه.

ولقد افترق الناس إزاء هذا البيان الإلهي إلى فريقين: فريق آمن به والتزم بتطبيق تعاليمه السامية، وفريق كفر به وناصبه العداء.

ومن المسلم به أن يحدث الصراع بين المؤمنين والكفار، لأن كل فريق يريد أن ينتصر لفكرته التي يؤمن بها.

ولقد كان مقدرًا لدين الإسلام أن يواجه حَمَلَتُهُ عداء قويا وصراعا عنيفا من أعدائه منذ بزوغ شمسه وقبل أن تكون له دولة وسلطان.

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة دخل أكثر أهلها من الأوس والخزرج في الإسلام، وأصبحت الدولة فيها لأنصار هذا الدين، وشذ منهم طائفة شَرِقوا بهذا الدين ولم تقبله نفوسهم التي استسلمت لأهوائهم المنحرفة.

ولما لم يكن في ميسور هذه الطائفة الشاذة أن تقاوم بالقوة دولة الإسلام القوية التي اجتذبت أزكى العناصر الإنسانية وأقواها؛ لجأت إلى وسيلة تؤمّن لها سبيل العيش في ظلال هذه القوة المهيمنة عليها، كما تهيئ لها المخابئ والأوكار التي تنطلق منها في أعمال الهدم والإفساد التي ستوجهها إلى هذه الدولة الناشئة، فسلكت سبيل النفاق حيث أعلنت إيمانها بهذا الدين وهي تبطن الكفر به.

ولما كان خطر هذه الطائفة على دولة الإسلام عظيما، وبلاؤهم على المؤمنين جسيما مع خفاء حقيقتهم، حيث يتسترون بالإيمان فيكيدون للمؤمنين من مأمنهم، ويغدرون بهم بعدما يظهرون لهم الأخوة والمودة، جلا الله سبحانه أمرهم في القرآن في آيات كثيرة وكشف أسرارهم، وهتك أستارهم وأوضح للأمة الإسلامية خطرهم حتى يكونوا منهم على حذر.

أما الكفار المستعلنون بكفرهم فإن المؤمنين يعرفونهم ويُقدِّرون مدى قوتهم، فيستعدون لهم الاستعداد الكافي، وفرق كبير بين عدو يُقدم عليك شاهرًا سلاحه ليقاتلك وعدو يتظاهر بأخوتك والاشتراك معك في أهدافك؛ ثم يغدر بك من جوانب لم تحسب لها حسابا ولم تُعدَّ لها عدة.

ولما كان وجود هذا النوع من الناس يتكرر كلما قامت للإسلام دولة وسلطان؛ كان مما يشغل بال كل مسلم غيور على دينه أن يعرف صفات هذا النوع الهابط نحو الرذيلة، وأن يدرك سبيل الخلاص منه، حتى يأمن من شره ويؤدي واجبه نحو حماية دينه من بلائه.

أما بالنسبة للمنهج الذي سرت عليه فإنني قد اعتمدت في نقل الروايات على كتب التفسير بالمأثور المشهورة؛ مثل تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، مع الموازنة والترجيح بين الروايات واستبعاد الأخبار المردودة.

وفي شرح الكلمات التي تحتاج إلى بيان اعتمدت على كتب اللغة المعتبرة، وقد أعتمد على كتب التفسير التي يعتني أصحابها بمباحث اللغة.

أما معنى الآيات فإني أبينه بناء على ما تدل عليه ألفاظ الآيات في اللغة مع ملاحظة أسباب النزول والموقف الذي نزلت فيه الآيات، وما أذكره عن المفسرين أعزوه إلى أول من قاله إلا إذا كان في كلام المتأخر مزيد من البيان فإني أشير إليه، وهذه الطريقة إضافة إلى أنها هي الموافقة لأصول البحث فيها إيجاز للقول، حيث إن المفسرين ينقل بعضهم من بعض في الغالب، فمن التكرار الممل أن أذكر جميع كتب التفسير كمصادر للبحث في كل جملة من الآيات.

كما التزمت ذكر آيات المنافقين على حسب ترتيبها في النـزول؛ لأن ذلك يعين على فهم الآيات القرآنية، وتَدرُّج التوجيهات الإلهية في كشف المنافقين، وبيان كيفية معاملتهم، كما يعين على فهم تاريخ المنافقين في عهد النبي ﷺ وبيان موقفهم من الإسلام في كل فترة من فترات ذلك العهد.

وقد اعتمدت في تحديد وقت النـزول على تاريخ الوقائع التي نزلت بسببها الآيات، وما نزل بلا سبب معين أولم يذكر لسببه تاريخ محدد رجعت في تحديد وقت نزوله على روايات ترتيب النـزول، وقد سرْتُ في هذا على ما أخرجه محمد بن أيوب بن يحيى بن

الضريس في (فضائل القرآن) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت إذا نزلت فاتحة الكتاب بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما أنزل من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى﴾ ... ثم ذكر ترتيب السور المكية إلى أن قال: ثم أنزل بالمدينة: سورة البقرة،ثم سورة الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء،ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم إذا جاء نصر الله، ثم النور،ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة.

ذكره السيوطي في «الاتقان» وذكر روايات أخرى فيها بيان ما نزل في مكة وما نزل في المدينة لكن ليس فيها بيان ترتيب النـزول[1].

وإنما لم أعتمد على روايات ترتيب النـزول فيما له سبب نزول في واقعة معينة قد حدد تاريخها لأن السور لا تنـزل جملة واحدة، فقد تكون السورة متأخرة في النـزول ولكن بعض آياتها مما نزل متقدما، كسورة المائدة مثلا فهي من آخر ما نزل من القرآن حيث لم ينـزل بعدها غير سورة التوبة، ولكن آيات منها قد نزلت في أوائل العهد المدني كالآيات التي ذكر فيها خبر إجلاء يهود بني قينقاع. أما ما لم يُعلم وقت نزوله من أسباب النـزول -وهو قليل في هذه الرسالة- فليس هناك من طريق لمعرفة وقت نزوله إلا الرجوع إلى ترتيب نزول السور.

وقد واجهتني بعض الصعوبات في تحديد وقت النـزول لكثرة الاختلاف في تحديد تاريخ الوقائع التي بسببها تنـزل الآيات، ولكن ما رأيته من فوائد هذا المنهج سهل لي المضي في هذا الطريق.

---

(١) الاتقان في علوم القرآن ١/ ٢٦.

أما موضوعات هذه الرسالة فقد استنبطتها من النصوص القرآنية.

والمنهج الذي سرت عليه في عرض هذه الموضوعات يتلخص في النقاط التالية:

١ - ذكر النص القرآني في الموضوع الذي أريد أن أكتب عنه.

٢ - بيان من نزل فيه هذا النص.

٣ - بيان وقت نزول النص.

٤ - تصوير الموقف الذي نزل فيه.

٥ - بيان مفردات النص.

٦ - بيان معنى النص.

٧ - إذا كان النص وثيق الصلة بواقع المجتمع أكتب فصلا بعد ذلك بعنوان واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص.

وهذا المنهج الذي سرت عليه قد كشف لي كثيرًا من معاني الآيات،إذ أن معرفة سبب النـزول ووقت نزول النص ودراسة الموقف الذي نزل فيه يعين على فهم الآيات والإحاطة بموضوعها، كما أن هذا المنهج أتاح لي إفراد التفسير البياني للآيات عن المعاني اللغوية، وأسباب النـزول حتى يتكامل انسجام القارئ مع معاني القرآن الكريم.

وقد قدمت للرسالة بمقدمة اشتملت على تعريف النفاق، وبيان أنواعه وبواعثه، وعلى بيان أهداف المنافقين من النفاق.

ولما كانت آيات المنافقين مرتبطة بتاريخهم مع دعوة الإسلام في المدينة؛ كان لا بد من بيان تاريخهم خلال عشر سنوات بعد هجرة النبي ﷺ إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، وقد قسمت هذه المدة إلى خمس مراحل: هي مابين الهجرة وغزوة بدر، ومابين بدر وغزوة أحد، ومابين أحد وغزوة الخندق، وما بين الخندق وغزوة تبوك، وما بين تبوك وموت

النبي ﷺ، وقسمت الرسالة إلى خمسة أقسام على حسب هذه المراحل، وذكرت في كل فترة ما نزل فيها من الآيات وما تمتاز به كل فترة عن الأخرى بالنسبة لحياة المنافقين، وإنما قسمت تاريخ المنافقين في عهد النبي ﷺ إلى هذه الأقسام الخمسة، لأن لكل فترة من هذه الفترات ملامح وخصائص تميزها عن الفترات الأخرى،وهذه الملامح والخصائص مترتبة على الأحداث التاريخية الكبرى التي سبقت كل فترة، فالفترة الأولى ترتبت على هجرة النبي ﷺ وانضمام المؤمنين إليه بحماسة وصلابة، والفترة الثانية ترتبت على انتصار المؤمنين العظيم يوم بدر، والفترة الثالثة ترتبت على إصابتهم يوم أحد، والفترة الرابعة ترتبت على فشل الأحزاب يوم الخندق، وما أعقب ذلك من القضاء على اليهود، والفترة الخامسة ترتبت على انكشاف المنافقين الفاضح يوم تبوك، حينما استأذنوا في التخلف، وتخلف بعضهم من غير استئذان.

وقد اقتصرتُ في ذكر تاريخ المنافقين على ما أشار إليه القرآن فقط، لأنني لم أرد استقصاء تاريخهم، ومع هذا فإن القرآن لم يترك من بيان أخبارهم إلا القليل النادر الذي لا أهمية له، بل إن القرآن قد ذكر من أخبارهم ما لم يذكره المؤرخون عنهم، لكون الكثير من أخبارهم أسرارًا كانوا يخفونها عن المؤمنين.

ثم ختمت الرسالة بخاتمة ذكرت فيها مجمل صفات المنافقين، وأثرهم السيئ على المجتمع الإسلامي، وحكم الإسلام فيهم، وبينت فيها نهاية المنافقين في عصر التنـزيل كما بينت بعض الأفعال التي تشبه النفاق في ظاهرها وليست من النفاق.

والله أسأل أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به إخواني المسلمين.

وفي الختام أقدم شكري الجزيل للعالم الجليل فضيلة الشيخ الدكتور محمد بن محمد السماحي، المشرف على هذه الرسالة لقاء ما قدم لي من جهد كبير في التوجيه والإرشاد[1].

---

(١) وقد توفي رحمه الله تعالى وهو من علماء الأزهر الكبار وله تميز ظاهر في التفسير وعلوم اللغة العربية.

كما أقدم شكري لفضيلة العالم الجليل الشيخ محمد بن صالح العثيمين الذي كان أول شيخ تلقيت منه العلم، والذي حبب إلي منذ الصغر التعليم الديني فجزاهما الله خير الجزاء[1].

المؤلف

مكة المكرمة

١٣٩٥/٣/١هـ

---

(١) وقد توفي رحمه الله تعالى في ١٥/ ١٠/ ١٤٢١هـ في مكة المكرمة وهو من أعلام علماء المسلمين في هذا العصر.

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..

أما بعد: فإن هذا الكتاب قد طبع في عام ١٣٩٥هـ ولما عزمت على إعادة طباعته قرأته وأضفت إليه إضافات قليلة، وحذفت الكلام على أسانيد الروايات؛ لأن الكلام على رجال الأسانيد قد أثقل الهوامش، ورأيت الاكتفاء ببيان الحكم على الأحاديث والآثار، لأن هذا هو الذي يحتاج إليه أكثر القراء.

ومما أحب أن أشير إليه أن ما نزل من الآيات القرآنية في المنافقين وما جاء عن رسول الله ﷺ فيهم لا يختص بالعهد النبوي، وإنما هو منطبق على المنافقين في كل زمن، فالعلمانيون في هذا الزمن ينطبق عليهم النفاق في بعض أصنافهم.

والعلمانيون قسمان:

القسم الأول الذين أصبحوا لا يؤمنون بالإسلام في معتقدهم القلبي، وإنما هم منتسبون للإسلام لأنهم نشأوا في مجتمع مسلم، ثم عرضت لهم الردة عن الإسلام حينما خالطوا أعداء الإسلام، وتتلمذوا عليهم في وسائل الإعلام والتعليم، ولكنهم يخفون كفرهم لوجودهم في مجتمعات إسلامية، ولِمَا لبعضهم من أهداف سيئة في التخطيط لإبعاد الإسلام عن مجتمعاتهم، ومحاربة المسلمين المتقين المتحمسين للإسلام.

وهؤلاء من أبرز أعمالهم الكفرية الولاء لأعداء الإسلام، والاستنصار بهم، والتبعية لهم في الأمور السياسية وغيرها، وتمكينهم من السيطرة على بلاد الإسلام.

وكذلك فإن من أبرز صفات هؤلاء الانتقاد اللاذع والهجوم السافر على الله عز وجل أو على رسوله ﷺ، أو على الإسلام، أو على دعاة الإسلام المتحمسين لقضاياه، من أجل تدينهم ودفاعهم عن الإسلام.

والأعداء يسعون جاهدين لتمكين هؤلاء العلمانيين من السيطرة على مقاليد الحكم والقيادة في بلاد المسلمين، ويبذلون الأموال الكثيرة، والخبرات الدقيقة من أجل فرض سيطرتهم على المسلمين، فهؤلاء منافقون يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وينطبق عليهم كل ما جاء في الكتاب والسنة عن المنافقين.

والقسم الثاني من العلمانيين هم الذين مازالوا يؤمنون بالإسلام ولكنهم يؤمنون به ناقصا؛ حيث يؤمنون به فيما يتعلق بالشعائر التعبدية، والأحوال الشخصية، والجوانب الأخلاقية، ولا يؤمنون به في الأمور السياسية، وتنظيم شؤون الحياة، وهؤلاء هم أكثر العلمانيين في هذا الزمن.

فأصحاب هذا القسم لا ينطبق عليهم النفاق لأنهم يصرحون بأنهم لا يؤمنون بالإسلام كاملا كما يؤمن به أهل الاستقامة الكاملة، وإنما يؤمنون به على الوضع الذي اقتنعوا به.

ولا يُخرج العلمانيين من دائرة العلمانية ما إذا سموا أنفسهم بأسماء قد اشتهرت في بعض بلاد العالم كالليبرالية، لأن العبرة بكونهم قد أقروا بعض الإسلام وأنكروا بعضه.

تمهيد

ويشتمل على اربعة مباحث:

١- تعريف النفاق

النفاق في اللغة:

اختلف أهل اللغة في أصل النفاق، فقيل: إنه مأخوذ من النَّفَق وهو السَّربُ في الأرض الذي يُستتر فيه، سُمي النفاق بذلك لأن المنافق يستر كفره، وبهذا قال أبوعبيد كما ذكر ابن منظور[1].

وقيل إنه مأخوذ من نافقاء اليربوع وهو باب جحره، فاليربوع يحفر له جحرًا ثم يسد بابه بترابه ويسمَّى هذا المدخل «القاصعاء» ثم يحفر له مخرجا آخر حتى إذا بقيَّ من التراب قشرة رقيقة تركها حتى لا يُعرف مكان هذا المخرج، ويسمَّى هذا المخرج «النافقاء» فإذا أُتِيَ من قبَل القاصعاء عدا فضرب النافقاء برأسه وخرج منها وهرب، فكذلك المنافق يُظهر خلاف ما يبطن وبهذا قال ابن فارس[2].

وإنما أشبه النفاق نافقاء اليربوع من حيث إنه في ظاهره أرض مستوية وباطنه حفرة قد أعدها اليربوع للتخلص وقت الحاجة، فاستطاع بهذا أن يخدع الصائد، فكذلك المنافق أظهر الإسلام وأبطن الكفر ليخدع المؤمنين بذلك.

وقيل إنه مأخوذ من نافقاء اليربوع ولكن لا من جهة أن المنافق يُظهر خلاف ما يبطن ولكن من جهة أنه يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه، وبهذا قال ابن دريد والراغب الأصفهاني[3].

---

(١) لسان العرب.

(٢) مقاييس اللغة.

(٣) الجمهرة، المفردات في غريب القرآن.

وأكثر علماء اللغة على أنه مأخوذ من نافقاء اليربوع لا من النفق[1]، وهو الراجح لأن النفق ليس فيه إظهار شيء وإبطان شيء آخر كما هو الحال في النفاق.

وكونه مأخوذا منه باعتبار أنه يخرج من غير الوجه الذي دخل فيه لأن الذي يتحقق فيه الشبه الكامل بين النافقاء والنفاق هو إظهار شيء وإخفاء شيء آخر إضافة إلى أن المنافق لم يدخل في الإسلام دخولا حقيقيا حتى يخرج منه.

النفاق في الاصطلاح الشرعي:

والنفاق في الإسلام هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بهذا المعنى الخاص، وإن كان أصله الذي أخذ منه في اللغة معروفًا[2].

* * *

---

(١) مقاييس اللغة، لسان العرب، تاج العروس.

(٢) المزهر للسيوطي ١/ ٣٠١، النهاية لابن الأثير، لسان العرب، تاج العروس.

٢- أنواع النفاق

علمنا أن النفاق في الاصطلاح الشرعي هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر وهذا هو النفاق الذي كان مشهورا في عهد النبي ﷺ.

وجاء في الأحاديث الصحيحة والآثار ما يفيد إطلاق النفاق على نوع آخر قد يقع من المؤمن، فمن ذلك قوله ﷺ «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» أخرجه الشيخان(١) .

فهذه الصفات قد تنطبق على المسلم وهي لا تخرجه من الإسلام باتفاق العلماء، فلابد من تأويل ذلك على أن المراد بهذا النفاق نوع آخر غير النفاق الكفري، وقد ذكر شراح الحديث ما يبين المقصود منه فقال الإمام الترمذي: «وإنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل، وإنما كان نفاق التكذيب على عهد رسول الله ﷺ، هكذا رُوي عن الحسن البصري شيء من هذا»(٢) .

وقال الإمام النووي: هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث إن هذه الخصال توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك، وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يُحكم عليه بكفر ولا هو منافق يخلد في النار.. ثم اختار في معنى الحديث أنه على سبيل التشبيه بمعنى أن من فعل هذه الخصال كان شبيها بالمنافقين(٣) .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (فتح الباري ١/ ٨٩) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب خصال المنافق (ص٧٨).

(٢) سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (حديث رقم ٢٧٦٨).

(٣) فتح الباري ١/ ٨٩ – ٩٠.

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث: «والنفاق لغة مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر؛ وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه، وذُكِر عن القرطبي أن المراد بالنفاق في الحديث نفاق العمل قال: واستدل له بقول عمر لحذيفة: هل تعلم فيَّ شيئا من النفاق؟ فإنه لم يُرد بذلك نفاق الكفر وإنما أراد نفاق العمل.

ومن هنا نعلم أن العلماء قسموا النفاق إلى نوعين: نفاق أكبر وهو الذي سماه الترمذي نفاق التكذيب؛ وسماه غيره النفاق الاعتقادي، ونفاق أصغر وهو الذي سماه العلماء نفاق العمل[(١)].

والنفاق الأكبر يتضمن النفاق الأصغر؛ لأن من كان كافرًا في باطنه ظهرت آثار نفاقه على سلوكه، بخلاف النفاق الأصغر فإنه لا يتضمن النفاق الأكبر؛ لأنه لا يكون أصغر إلا مع سلامة العقيدة من الكفر.

ومما يدل على تنوع النفاق ما أخرجه الإمام البخاري عن ابن أبي مليكة قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل، قال: ويُذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق»[(٢)].

قال ابن حجر: والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلِّهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجلَّ من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد ابن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم يُنقل عن غيرهم

(١) فتح الباري ١/ ٨٩-٩٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله (فتح الباري ١/ ١٠٩).

خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى ﷺ.

قال: وقال ابن بطال: إنما خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت.

ثم قال في قوله «ويُذكر عن الحسن»: هذا التعليق وصله جعفر الفريابي في كتاب «صفة المنافق» له من طرق متعددة بألفاظ مختلفة.. ثم ذكر إحدى هذه الطرق فقال: «قال جعفر الفريابي: حدثنا قتيبة حدثنا جعفر بن سليمان عن المعلَّى بن زياد سمعت الحسن يحلف في هذا المسجد بالله الذي لا إله إلا هو، ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن، وكان يقول: من لم يخف النفاق فهو منافق»[(١)].

قال ابن حجر: وقال أحمد بن حنبل في كتاب الإيمان: حدثنا روح بن عبادة حدثنا هشام سمعت الحسن يقول: «والله ما مضى مؤمن ولا بقي إلا وهو يخاف النفاق، وما أمنه إلا منافق» أهـ[(٢)].

فهذا النفاق الذي خافه الصحابة ﷺ على أنفسهم لا يمكن أن يكون النفاق الأكبر، إذ أنهم يعلمون أن النفاق الأكبر هو إبطان الكفر وإظهار الإيمان، وهم بريئون من هذا ويعلمون براءتهم منه، فيتعين أن يكون المراد منه نوعًا آخر يمكن صدوره من المؤمنين، وما ذكره ابن حجر عن ابن بطال يبعد أن يقع من الصحابة، خصوصا وأن

---

(١) فتح الباري ١/ ١١٠ – ١١١، صفة المنافق للفريابي ص ١١.

(٢) فتح الباري ١/ ١١١.

الذين أدركهم ابن أبي مليكة بعضهم من أكابر الصحابة، فالظاهر أن المقصود بالنفاق هنا ما يخالط العمل مما يتنافى مع الإخلاص كما ذكر ابن حجر.

ومما يدخل في هذا النوع ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأُسيِّدي - قال وكان من كتَّاب رسول الله ﷺ -قال: لقيني أبوبكر فقال:كيف أنت يا حنظلة؟قال قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال قلت نكون عند رسول الله يذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأي عين؛ فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات[1] فنسينا كثيرًا قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين؛ فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات[2].

فحنظلة رضي الله عنه حينما أطلق النفاق على نفسه لم يُرد النفاق الأكبر، وإنما أراد نوعًا من النفاق يتنافى مع كمال الإيمان، فبين له النبي ﷺ أن ما ظنه نفاقا من الانشغال بالأزواج والأولاد والأموال لا يعدُّ نفاقًا؛ وإنما هو سير على مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: المعافسة المعالجة والممارسة والملاعبة أي انشغلنا بشؤون الدنيا من الأزواج والأولاد والأموال.

(٢) صحيح مسلم، كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر ص ٢١٠٦.

ومما يُحمل على هذا النوع ما أخرجه الإمام البخاري بسنده عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال «قال أناس لابن عمر: إنا ندخل على سلطاننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم به إذا خرجنا من عندهم، قال: كنا نعدُّها نفاقًا»[١].

قال ابن حجر: وفي رواية عروة بن الزبير عند الحارث بن أبي أسامة والبيهقي قال: «أتيت ابن عمر فقلت إننا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون في شيء نعلم أن الحق غيره فنصدقهم، فقال: كنا نعد هذا نفاقًا فلا أدري كيف هو عندكم»[٢].

فابن عمر رضي الله عنهما لا يريد بهذا النفاق النفاق الأكبر لعلمه بأن الذين سألوه لا يبطنون الكفر، بل يريد أنهم كانوا يعدُّون هذا نوعًا من النفاق يمكن أن يقع من المؤمن.

والذي يتلخص لنا من هذا أن النفاق الأصغر هو ما يصدر من المؤمن من تصرفات يُظهر فيها خلاف ما يضمر مما هو دون الكفر وذلك كالرياء الذي لا يكون في أصل العمل وإنما يَعرض له في أثنائه، كإظهار مودة الغير، والقيام بخدمته مع إضمار بغضه والإساءة إليه، وكالتقرب للمسئولين والثناء عليهم وهم مصرون على مخالفة تعاليم الإسلام، وإذا ترتب على ذلك الإضرار بالغير كان الجرم أشنع والإثم أعظم.

* * *

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من ثناء السلطان رقم ٧١٧٨ (فتح الباري ١٣/ ١٧٠).

(٢) فتح الباري ١٣/ ١٧٠.

٣- بواعث النفاق

النفاق في العقيدة كفر كما سبق لأن العبرة بمعتقد القلب لا بما يظهر على اللسان، فالمنافق كافر يخفي كفره، ولكن لماذا أخفى الكفر وأظهر الإيمان؟ وما هو الباعث على هذا السلوك المنحرف؟

الواقع أن الباعث على النفاق مكون من أمور:

١ - اعتقاد الكفر وكراهية الإسلام.

٢ - وجود المنافق تحت سيطرة حكومة إسلامية.

٣ - ضعفه عن مواجهة هذه الحكومة بعقيدته التي يضمرها في نفسه.

والنفاق من الناحية النفسية يعدُّ نتيجة لضعف النفس، وعدم قدرتها على التصريح بمعتقداتها، فالنفوس إذا كانت قوية تصرح بمعتقداتها، مهما ترتب على ذلك من نتائج، لأن النفاق يورثها عذابا في النفس، ووخزا في الضمير يهون احتمال عذاب البدن دون احتماله، أما النفوس الضعيفة فإنها عندما تواجه معتقدا قويا يخالف معتقداتها وهو يملك الهيمنة عليها لا تصرح بمعتقداتها، بل تضعف أمام تلك القوة المهيمنة عليها، وتحاول أن تسلك طريقًا يؤمِّن لها سبيل الحياة في ظلال تلك القوة المهيمنة عليها، وإن كان ذلك يؤدي إلى تغطية معتقداتها، وكلما زادت قوة الدولة المهيمنة عليها وتكررت انتصاراتها زاد ضعف تلك النفوس الضعيفة واشتد هلعها.

وقد يوجد النفاق ممن يملك قوة وهيمنة على المسلمين فيظهر لهم الإسلام نفاقًا ليحتفظ بمركزه بينهم، ومع ذلك فإن هذا لا يُخرج النفاق عن كونه ضعفًا في النفس، لأن صاحب النفس القوية لا يرضى لنفسه أن يقيم حكمه على مداهنة من يختلفون معه في العقيدة.

٤ - أهداف المنافقين من النفاق

تقدم لنا أن الباعث النفسي على النفاق هو ضعف النفس عن إظهار المبدأ فينتج عن ذلك تظاهر المنافقين باعتناق مبدأ الدولة المهيمنة عليهم، وهذا السلوك يوقعهم في حرج كبير ومآزق خطيرة، فما هي أهدافهم التي من أجلها تحملوا هذه المخاطر وأخفوا معتقدهم الحقيقي؟

الواقع أن المنافقين لهم أهداف يقصدونها من وراء النفاق، ومن أهم هذه الأهداف:

١ - الحصول على المصالح المادية، وذلك لأن المسلم في دولة الإسلام له الحرية التامة في التصرف بأمواله في حدود تعاليم الشريعة، كما أن له حقوقًا مشروعة في بيت مال المسلمين تضمن له عيشًا كريمًا، وإذا كان من أهل الكفاءة فإنه يستطيع أن يصل إلى عمل في الدولة يتقاضى به أجرا من بيت المال، وإذا اشترك في الجهاد كان له حظ من الغنائم، فالمنافقون يلاحظون هذه المصالح التي تفوتهم فيما لو أظهروا كفرهم.

٢ - الحصول على المصالح المعنوية، وذلك لأن المسلم في دار الإسلام إذا كان متمسكًا بدينه يحصل على الجاه الرفيع والمنزلة العالية بين المسلمين وعند ولاة الأمر، وهذا أمر مرغوب فيه وتشتهيه بعض النفوس كما تشتهي المال أو أشد عند بعض الناس، فإذا أظهر المنافقون التقوى والورع، حصلوا على ما يريدونه من هذا الهدف.

٣ - اتخاذ النفاق وسيلة للوصول إلى مراكز الحكم والقيادة، إما تلبية لنداء شهوة الرئاسة التي يُبتلى بها بعض الناس، وإما ليتوصلوا بذلك إلى تنفيذ مخططاتهم الخبيثة وأهدافهم السيئة إذا كانوا من أصحاب المبادئ الهدامة، وبغير النفاق لا يستطيعون الوصول إلى ذلك ماداموا في دار الإسلام لأن المسلمين مهما كانت درجة إيمانهم سيمقتونهم ويحاربونهم.

٤- وقاية أنفسهم وأموالهم، وذلك لأن الإسلام يعصم دماء معتنقيه وأموالهم، والمنافقون من الكفار في باطن أمرهم، فإذا أظهروا كفرهم عاملهم المؤمنون معاملة الكفار المرتدين.

٥- اتخاذ النفاق وسيلة لحرب الإسلام والمسلمين، وذلك بنشر الرذائل في المجتمع الإسلامي، ومحاولة تثبيط المؤمنين عن التمسك بدينهم والجهاد في سبيله، وتشكيك ضعفاء الإيمان منهم بدينهم، والتجسس على دولة الإسلام لصالح أعدائها، وهم بهذا يجمعون بين محاربة المؤمنين وكسب رضا أعدائهم عنهم والتقرب إليهم.

* * *

القسم الأول

المنافقون بعد الهجرة

وفيه مباحث:

١- حقيقة النفاق.

٢- دور اليهود في حركة النفاق.

٣- موقف المنافقين من تحويل القبلة.

٤- مسارعتهم في الكفر بخدمة الكفار.

٥- المنافقون في بدر.

مقدمة

حينما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان الإسلام قد انتشر فيها ودخل أكثر دورها، وأصبح أهلها بين معتنق للإسلام متحمس له وبين كافر به مناصب له العداء من اليهود وعبدة الأوثان.

ولقد كان موقف اليهود من الإسلام موقفا عدائيًا منذ أن وطئت أقدام النبي ﷺ أرض المدينة؛ بعد أن تأكدوا من صحة رسالته وأنه النبي المبشر به في التوراة؛ فأضمروا عداوته وبذلوا الجهد في محاربته.

ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن هشام من طريق زياد البكائي عن ابن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: حُدِّثت عن صفية بنت حييّ بن أخطب أنها قالت: كنت أحبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبى حييّ بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغلِّسين[1].

قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالَّين كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى، قالت: فهششت لهما كما كنت أصنع فو الله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي أهو هو؟ قال: نعم والله،قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم قال:فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[2].

وهذا وإن كان لا يعبر عن مشاعر اليهود جميعًا نحو هذا الدين إلا أنه يبين رأي بعض زعمائهم، والعامة عادة يتبعون الزعماء، ولما كان مجتمع المدينة مكونا من المهاجرين

---

(١) الغلس هو ظلمة آخر الليل كما ذكر صاحب القاموس المحيط أي خرجا في وقت الغلس.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٥٣.

والأنصار على مختلف قبائلهم، واليهود كتب النبي ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار أقرهم فيه على عادتهم في تحمُّل الديات، وفك الأسرى، ووادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط عليهم واشترط لهم.

وقد ذكر ابن إسحاق هذا الكتاب كما أخرجه ابن هشام عنه ومما جاء فيه مما يختص باليهود: «وإنه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، - وجاء فيه - وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتِغ إلا نفسه وأهل بيته»(1) ثم ذكر لسائر قبائل اليهود ما لبني عوف، وجاء فيه أيضا «وإنَّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة»(2).

ولقد تظاهر بعض اليهود بالإسلام نفاقا في هذه الفترة كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٧٦].

ويحتمل أن هؤلاء اليهود أرادوا من التظاهر بالإسلام أن يأمنوا جانب المؤمنين فيما إذا قامت الحرب بينهم وبين اليهود، كما يحتمل أنهم أرادوا بذلك كيد المؤمنين من طريق الاطلاع على أسرارهم ومحاولة إيقاع الفتنة بينهم، وهذا هو الأقرب لأنه يتفق مع أخلاق

---

(١) قال ابن هشام: يوتغ يهلك أو قال يفسد - سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٤- وفسره ابن الأثير في النهاية بالإهلاك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٠ - ١٣٣.

اليهود القائمة على الغدر والخيانة، ولأن المعاهدة السابقة تستلزم حماية اليهود ماداموا ملتزمين بشروطها،فليس هنالك احتمالٌ لوقوع الحرب بينهم وبين المؤمنين إلا إذا نقضوا العهد.

أما عبدة الأوثان من الأوس والخزرج فإنهم بقوا مشدوهين من سرعة دخول قومهم في الإسلام وشدة تمسكهم به وصاروا يتنكرون لدعوة هذا الدين ويشمئزون من سماعه.

وكان لموقف عبد الله بن أبي ابن سلول[1] العدائي من الإسلام أثر بالغ على بعض أفراد قومه في تحديد موقفهم من هذا الدين.

ومما يدل على كراهية ابن أبيّ للإسلام وبغضه للنبي ﷺ ما أخرجه ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن عروة بن الزبير عن أسامة بن زيد بن حارثة حبِّ رسول الله قال: ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة يعوده من شَكوٍ أصابه على حمار عليه إكاف[2] فوقه قطيفة فدكية مختطمة بحبل من ليف وأردفني رسول الله ﷺ خلفه قال: فمرَّ بعبد الله بن أبي وهو في ظل «مزاحم» أطمه[3] وحوله رجال من قومه، فلما

---

(١) هو عبد الله بن أبيّ بن مالك الخزرجي المشهور بابن سلول، وسلول جدته لأبيه من خزاعة، وكانت له سيادة في قومه من الخزرج بعدما قتل كبراؤهم في «بعاث» وكانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ويسودوه عليهم، فلما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة انصرف عنه أكثر قومه إلى الإسلام، وبقي هو على وثنيته، فتحولت سيادة قومه إلى سعد بن عبادة ﷺ، فحقد ابن أبي على رسول الله ﷺ، ثم لما رأى عزة المسلمين بعد معركة بدر أظهر الإسلام نفاقا وتبعه على ذلك طائفة من قومه.

(٢) الأكاف بكسر الهمزة وضمها البرذعة كما في القاموس المحيط.

(٣) قال ابن هشام: مزاحم اسم الأطم – سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٨ – والأطم بضم الهمزة والطاء وبضم الهمزة وتسكين الطاء القصر وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح كما في القاموس المحيط.

رآه رسول الله «تذمم[1] من أن يجاوزه حتى ينـزل، فنـزل ثم جلس قليلا فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل وذكّر بالله وحذر وبشر وأنذر، قال وهو زامٌّ[2] لا يتكلم حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته قال: يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغتّه به[3] ولا تأته في مجلسه بما يكره منه، قال: فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى فاغشنا به وائتنا به في مجالسنا فهو والله مما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له، فقال عبد الله بن أبي حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل ... تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه ... وإن جُذَّ يوما ريشه فهو واقع[4]

قال: وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي فقال: والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئا لكأنك سمعت شيئا تكرهه قال: أجل، ثم أخبره بما قال ابن أبيّ، فقال سعد: يا رسول الله ارفق به فو الله لقد جاءنا الله بك وإننا لننظم له الخرز لتتوّجه فو الله إنه ليرى أنْ قد سلبته ملكا[5].

ولما كانت الدولة للإسلام كان من الطبيعي أن يسلك عبدة الأوثان في موقفهم من الإسلام أحد طريقين: إما الجلاء عن المدينة، وإما البقاء فيها والتظاهر بالإسلام نفاقا، وقد سلكوا كلا الطريقين، وإن كانت كثرتهم سلكت الطريق الثاني، وممن سلك الطريق

---

(١) أي استنكف واستعاب كما ذكر في القاموس المحيط.

(٢) أي رافع رأسه لا يقبل عليه – والزّم الكبر وزمّم بأنفه إذا شمخ وتكبر – النهاية لابن الأثير.

(٣) أي تغمه وتخنقه به كما في القاموس.

(٤) قال ابن هشام: البيت الثاني عن غير ابن إسحاق.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٨.

الأول أبو عامر الفاسق[1]، حيث خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلا مفارقًا للإسلام ولرسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن هشام خبره عن ابن إسحاق قال: وحدثني جعفر بن عبدالله بن أبي الحكم وكان قد أدرك وسمع وكان راوية أن أبا عامر أتى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة فقال: ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها، فقال له رسول الله ﷺ: إنك لست عليها، قال:بلى، قال: إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها قال: ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية، قال: الكاذب أماته الله طريدًا غريبًا وحيدًا، يعرض برسول الله ﷺ أي أنك جئت بها كذلك، قال رسول الله ﷺ: أجل فمن كذب فعل الله تعالى ذلك به، فكان هو ذلك عدو الله خرج إلى مكة فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريدًا غريبًا وحيدًا[2].

أما أبرز من سلك الطريق الثاني فهو عبد الله بن أبيّ ابن سلول الذي أصبح بعد ذلك زعيم المنافقين، وقد تبعه في سلوك هذا الطريق المنافقون من الخزرج والأوس، ولكنه لم يظهر الإسلام إلا بعد غزوة بدر كما سيأتي.

وقد كان هناك بعض المنافقين أظهروا الإسلام نفاقًا قبل غزوة بدر كما تدل عليه الآيات التي نزلت في هذه الفترة، إلا أن حركتهم كانت ضعيفة ولم تتخذ شكلا بارزا

---

(١) هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد وهو أبو حنظلة الغسيل الذي استشهد بأحد وغسلته الملائكة – وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح فكان يقال له الراهب فلما كفر بالإسلام قال رسول الله ﷺ: لاتقولوا الراهب ولكن قولوا: الفاسق- سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٥ – ٢٥٦.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٦ – ٢٥٧.

ومنظما كما كانت عليه حركة المنافقين بعد بدر، نظرا إلى أن زعماء المنافقين الذين اشتهروا بعد ذلك كانوا لا يزالون على عبادة الأوثان ظاهرًا وباطنا في هذه الفترة.

ومن أبرز حوادث المنافقين في هذه الفترة اشتراكهم مع سائر الكفار في الاعتراض على تحويل القبلة، حيث قالوا عن المؤمنين: ما بالهم كانوا على قبلة زمانا ثم تركوها وتوجهوا إلى غيرها كما سيأتي في تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ الآية [البقرة:١٤٢].

ومن حوادثهم في هذه الفترة خدمتهم لليهود حينما كلفوهم بمعرفة رأي النبي ﷺ في قضية أرادوا أن يتحاكموا إليه فيها وقد أنزل الله سبحانه في ذلك قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ﴾الآية [المائدة:٤١].

ومن أهم ما نزل في هذه الفترة آيات سورة البقرة من قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية [البقرة: ٨-٢٠] وقد كشف الله سبحانه في هذه الآيات عن كثير من صفات المنافقين وأخلاقهم وأهدافهم.

* * *

١ - حقيقة النفاق

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨- ٢٠].

بيان من نزل فيه النص:

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري بإسناده عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أن هذه الآيات نزلت في المنافقين[1].

---

(١) جامع البيان ١/ ١١٦.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات من سورة البقرة وهي أول سورة نزلت في المدينة كما سبق في رواية ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنهما فتكون هذه الآيات مما نزل في السنة الأولى للهجرة.

بيان مفردات النص:

آمنوا: الإيمان في اللغة التصديق المقرون بالأمن و الثقة(١).

وقد نقله الشرع إلى معنى خاص وهو: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

يخادعون: من الخدع وهو الإيهام وإظهار الخير للغير مع إخفاء إرادة الشر به، والمخادعة في الأصل مفاعلة من الجانبين كما يقال: قاتل وضارب، وقد تأتي من جانب واحد كما يقال عاقبت اللص وزاولت هذا العمل ومارسته(٢).

يشعرون: الشعور هو الإدراك والفطنة والعلم بدقة، ومنه سُمِّيَ الشاعر بذلك لفطنته ودقة معرفته، ويطلق الشعور على الإحساس، ومنه مشاعر الإنسان وهي حواسه(٣).

مرض: المرض هو ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة والاعتدال(٤) وهو إما حسي وإما معنوي فالحسي هو اعتلال البدن، والمعنوي هو اعتلال القلب بما يخرجه عن الاستقامة كالشك والحيرة والغل والحسد، و الجبن والضعف.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، القاموس المحيط.

(٢) لسان العرب، تاج العروس، الصحاح، المفردات في غريب القرآن.

(٣) القاموس المحيط، المفردات في غريب القرآن، الكشاف ١/ ١٥٧.

(٤) مقاييس اللغة، المفردات في غريب القرآن.

يفسدون: الفساد هو الخروج عن حال الاستقامة والنفع[1].

السفهاء: السفه ضد الرشد وهو التصرف في غير حكمة بما يدفع النفع ويجلب الضرر، وهو مترتب على خفة العقل، وأصله خفة البدن، ومنه قيل زمام سفيه أي كثير الاضطراب، وثوب سفيه أي خفيف النسج[2].

خلوا: الخلو يأتي بمعنى الانفراد ويتعدى فعله بالباء وإلى، ويأتي بمعنى المضي، فالمعنى على الأول: وإذا انفردوا مع شياطينهم، وعلى الثاني: وإذا مضوا إلى شياطينهم، ونقل الطبري عن بعض نحويي البصرة السر في تعدية الفعل بإلى دون الباء مع أن هذا أشهر أن قول القائل «خلوت إلى فلان» إذا أُريد به خلوت إليه في حاجة خاصة لا يحتمل -إذا قيل كذلك- إلا الخلاء إليه في قضاء الحاجة فأما إذا قيل- «خلوت به» احتمل معنيين: أحدهما الخلاء به في الحاجة والآخر السخرية به، فكان تعديته بإلى أفصح لخلوه من الالتباس[3].

شياطينهم: الشياطين جمع شيطان وهو إما من شطن إذا جعلت نونه أصلية ومعناه تباعد ومنه بئر شطون، وشطنت الدار، وغربة شطون، وإما من شاط إذا جعلت نونه زائدة ومعناه إما بطل وإما احترق[4].

مستهزءون: الاستهزاء هو السخرية والاستخفاف، وأصله الخفة من الهزء وهو القتل السريع، يقال: هزأ فلان إذا مات على مكانه، وناقته تهزأ به أي تسرع وتخف[5].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الكشاف ١/ ١٧٩.

(٢) لسان العرب، جمهرة اللغة، المفردات في غريب القرآن.

(٣) جامع البيان ١/ ١٣٠، الكشاف ١/ ١٨٤.

(٤) المفردات في غريب القرآن، جمهرة اللغة، القاموس المحيط، الكشاف ١/ ١٨٤.

(٥) الكشاف ١/ ١٨٦، القاموس المحيط.

يمدهم: يحتمل أن يكون من المدد بمعنى الزيادة كما تقول مد الجيش وأمده أي ألحق به ما يقويه، ويحتمل أن يكون من المد بمعنى الإمهال، وقد رجح الزمخشري الأول لوجهين (أولا) لقراءة ابن كثير وابن محيصن (ويُمدهم) بضم الياء، (وثانيا) لأن مد بمعنى أمهل يتعدى باللام لا بنفسه فيقال مد له كما يقال أملى[1] له ولكن ورد في كتب اللغة تعدية هذا الفعل بنفسه وهو بمعنى الإمهال، فيقال: مد الله في عمره، ومده في غيه أمهله وطول له كما ذكر الجوهري في الصحاح، ولا بعد بين المعنيين إذ الإملاء زيادة في الزمان، ولذلك قال ابن جرير في تفسير هذه الكلمة يزيدهم على وجه الإملاء لهم والترك في عتوهم وتمردهم[2].

طغيانهم: الطغيان مجاوزة الحد، والمراد به هنا الغلو في الكفر ومجاوزة الحد في العتو[3].

يعمهون: العمه التردد في الأمر والتحير، أي يترددون متحيرين لا يستطيعون الخروج من الكفر[4].

الضلالة: هي الانحراف عن الطريق المستقيم الموصل إلى الهدف، يقال ضل منزلته وضل دُريص نفقه[5]. ويطلق الضلال ويراد به ترك الهدى، سواء كان عمدا أو غير عمد، فإذا كان عمدا فإما أن يكون لرغبة في ذلك مقصودة فيكون اتباعا للهوى، وإما عن اعتقاد فاسد فيكون غيا، أما إذا كان غير عمد فهو الضلال فحسب وهو الضياع والحيرة.

---

(١) الكشاف ١/ ١٨٨.

(٢) جامع البيان ١/ ١٣٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن، جامع البيان ١/ ١٣٥، الكشاف ١/ ١٨٩.

(٤) المصادر السابقة.

(٥) المفردات، الكشاف ١/ ١٩١ وقولهم (ضل دريص نفقه) دريص تصغير درص وهو ولد الفأرة واليربوع ونظائرهما، والنفق الجحر، وهو مثل يضرب لمن ينسى الحجة عند الحاجة (حاشية الجرجاني على الكشاف ١/ ١٩١).

الهدى: ضد الضلال ومعناه في اللغة الدلالة بلطف، ومنه هوادي الوحش أي متقدماتها الهادية لغيرها، والهادية العصا لأنها تتقدم ممسكها كأنها ترشده[1].

صيب: الصيب المطر، من قولهم صاب المطر يصوب إذا انحدر ونزل كما قال علقمة ابن عبدة:

كأنهمُ صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن دبيب

فلا تَعْدِلي بيني وبين مُغمَّر[2] سُقيت روايا المزن حين تَصُوب

يعني حين تنحدر[3].

وأخرج ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس[4] وعن طريق السدى عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أنه المطر[5].

ظلمات: المراد بالظلمات في الآية ظلمة السحاب مع ظلمة المطر، وهو ينزل مع ظلمة الليل[6].

ومما يرشد إلى إرادة ظلمة الليل قوله تعالى ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾[7].

أصابعهم: المراد بالأصابع هنا الأنامل إذ أن الأصابع كلها لاتدخل في الآذان وإنما عبر بالأصابع عن الأنامل مبالغة في تصوير دهشتهم وكمال حيرتهم[8].

---

(١) مقاييس اللغة، المفردات.

(٢) المغمر لم يجرب الأمور كما قال صاحب القاموس.

(٣) جامع البيان ١/ ١٤٨.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٤٨.

(٥) المصدر السابق ١/ ١٤٨.

(٦) المصدر السابق ١/ ١٤٩.

(٧) روح المعاني ١/ ١٧٢.

(٨) المصدر السابق ١/ ١٧٣.

حذر الموت: الحذر هو الاحتراز عما يخيف[١].

قاموا: أي وقفوا، يقال قامت الدابة أي وقفت[٢].

بيان معنى النص:

افتتح الله سبحانه وتعالى سورة البقرة بالإشارة إلى القرآن الكريم، مبينا علو منزلته ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي ذلك الكتاب المعهود الذي هو القرآن المجيد والذكر الحكيم والفرقان الذي علا على كل كتاب ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ فهو الحق الذي لاشك فيه ولا شبهة، ولو كان فيه أدنى شك لما كان مجيدا ولا ذكرا حكيما ولا فرقانا، ولما تُحدي به ﴿هُدٗى﴾ فهو مصدر الهداية لمن أراد أن يتقي الضرر والزلل في الدنيا والآخرة، ومتى استوفى الكتاب الصدق الذي لا يشوبه ريب، والهدى لمن أراد أن يهتدي فقد استوفى الكمال كله ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين آمنوا بالله عز وجل والتزموا بشريعته فهو هداية لمن اتخذوا لأنفسهم الوقاية من الضرر الدنيوي والأخروي، لأنه يدلهم على ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ فلم يقتصروا في إيمانهم على ما تدركه حواسهم بل ارتفعوا عن تلك المرتبة البهيمية إلى الإيمان بما وراء الحس الذي هو المدرك الواضح لذوي العقول السليمة، فآمنوا بأن هناك قوة هي أعلى مما يتصوره البشر تدبر هذا الكون.. هي قوة الله جل وعلا فآمنوا به، وهذا هو المبدأ الأساسي لهذا الدين، فإذا رسخ هذا الإيمان بالقلب أصبح التصديق بالأمور الغيبية بعد ذلك قريبا إلى النفس؛ إذا هي اقتنعت بصدق الخبر ودلالته اليقينية ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي تصلهم بالله عز وجل وتغذي إيمانهم به شيئا فشيئا، حتى يتكامل إيمانهم ويظهر أثره على سلوكهم ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

(١) المفردات في غريب القرآن.

(٢) القاموس المحيط.

فيبذلون من أموالهم في سبيل المبدأ الذي آمنوا به، وهذا هو المقياس الذي يبين مدى رسوخ هذا المبدأ في نفوس معتنقيه لأن المال من أعز ما يملكه الإنسان؛ إن لم يكن أعز شيء عند بعض الناس، فإذا بذله المؤمن في سبيل المبدأ الذي ارتضاه لنفسه دل ذلك على قوة إيمانه به وعمق فهمه له. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فلم يحملهم التعصب لدينهم على الكفر بالرسالات السماوية الأخرى، لأنها كلها حق من عند الله تعالى ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لأن الله أخبرهم بوجودها فأصبح إيمانهم بها دافعا لهم إلى الامتثال والطاعة، ورادعا لهم عن التأبي والعصيان. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الذين آمنوا بالله عز وجل والتزموا بما أمرهم به ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ حيث وفقهم إلى سلوك الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية الحميدة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون الذين ظفروا بسعادة الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]. وهذه هي النتيجة العظيمة التي وصل إليها المؤمنون حينما آمنوا بهذا الدين وطبقوا تعاليمه السامية.

فإذا كان القرآن هدى للمتقين الذين اتصفوا بهذه الصفات العظيمة، وحازوا على تلك العاقبة الحميدة فما هو الدافع لبعض الناس إلى الكفر بهذا القرآن الذي يهديهم إلى سعادة الدنيا والآخرة؟ هل هم بحاجة إلى مزيد من الإقناع أم أنهم قد ضلوا عن علم فلم ينفع فيهم إنذار ولا تذكير؟

هذا ما يبينه الله جل وعلا بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يتبعون هدى القرآن لعلّة فيهم وهي اتباعهم ما تمليه عليهم أهواؤهم المنحرفة، فلا جدوى في إنذارهم بالقرآن لأنهم قد أصروا على الكفر عنادا وتكبرا عن اتباع الحق بعدما عرفوه، ولذلك طبع الله على قلوبهم فأصبحت لا تؤمن بغير

المفاهيم التي كانت تعتقدها، وعلى سمعهم فلا يطيقون سماع آيات الله المنزلة، وجعل على أبصارهم غطاء فلا يبصرون آيات الله الدالة على وحدانيته ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن هؤلاء الكفار من أخفوا كفرهم وتظاهروا بالإيمان بهذا الدين ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي وبعض الناس الذين كفروا بهذا الدين يظهرون الإيمان بالله ورسوله وما هم بمؤمنين، بل يتظاهرون بذلك أمام المؤمنين لمصالح دنيوية، وهؤلاء هم الذين سماهم القرآن بعد ذلك منافقين، وهذه هي حقيقة النفاق كما سيتبين من الآيات التي نزلت بعد ذلك.. تديُّن وولاء للمؤمنين في الظاهر، وكفر وعداء لهم في الباطن. ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وما هؤلاء الذين تفوهوا بالإيمان بالله واليوم الآخر بمؤمنين حقا، بل هم منافقون يظهرون مالا يبطنون.

وإذا كانوا يدَّعون الإيمان وهم ليسوا كذلك فلماذا يتظاهرون به؟

هذا ما يبينه الله سبحانه بقوله ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر محاولين بذلك أن يخدعوا الله والذين آمنوا، حتى يتمتعوا بما يتمتع به المسلم من عصمة الدم والمال، والحصول على المنافع المادية والمعنوية التي يحصل عليها المسلم، وليتمكنوا من الكيد للمسلمين في الخفاء، وإلحاق الضرر بهم وهم آمنون من نقمتهم بهم، لكنهم إن استطاعوا أن يحصلوا على تلك المقاصد الدنيئة أو بعضها فإنهم قد خسروا ما هو أكبر من ذلك حيث خسروا سعادة الدنيا والآخرة. خسروا سعادة الدنيا لأنهم عاشوا في قلق نفسي ورعب دائم، فقد كانوا يتوقعون في كل يوم أن ينكشف أمرهم فيبطش بهم المؤمنون، وخسروا سعادة الآخرة لأن

الله تعالى قد أعد لهم العذاب الأليم في الدرك الأسفل من النار، وهذه هي الخسارة الكبرى التي لا تعادلها خسارة.

وإذا كان الأمر كذلك فإن المنافقين في الحقيقة لم يخدعوا الله عز وجل ولم يخدعوا المؤمنين وإنما خدعوا أنفسهم، لأنهم هم الذين وقع عليهم الضرر في هذه المخادعة، ولكنهم لا يدركون ذلك لأنهم سادرون في غيهم غافلون عن مستقبل أمرهم.

وبعد أن كشف سبحانه حقيقة إيمانهم المزعوم بيّن البواعث التي دفعتهم إلى الكفر والنفاق بقوله ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ والمراد هنا المرض المعنوي وهو اعتلال القلب بما يخرجه عن الاستقامة كالشك والحيرة، والغل والحسد، والجبن والضعف.

وحدُّ صحة العقل أن يفكر في مداركه تفكيرًا سليما، ويستنتج الحق ويكشف عن الباطل، وحدّ صحة الإرادة أنه متى علم صاحبها الحق حقا والباطل باطلا صمم على الحق وابتغاه ورفض الباطل وتجنبه، وإذا فقد الإنسان صحة العقل أصبح في شك وحيرة، وإذا فقد صحة الإرادة اتبع الباطل ورفض الحق فماذا كان مرض المنافقين؟

الواقع أن أغلب المنافقين لم يكونوا في شك من أن هذا القرآن منزل من عند الله؛ ولا أن ما أمرهم به النبي ﷺ هو الحق الذي يجب اتباعه، ولكنهم لضعف إرادتهم لم يستطيعوا السيطرة على أهوائهم المنحرفة، .ولا التحكم في غرائزهم الجامحة فاتبعوا أهواءهم التي زينت لهم التمسك بما ضاع عنهم من رئاسة يرون أن الإسلام قد سلبها منهم، فأصبحوا تابعين بعدما كانوا متبوعين، وزينت لأتباعهم أن يتمسكوا بما يرونه لهم من شرف وزعامة واستجابوا لنداء غرائزهم التي زينت لهم الاستمتاع بمباهج الحياة الدنيا بلا قيد ولا شرط. فزادهم الله ضعفا في إرادتهم عقوبة لهم، إما لتفريطهم في طلب الحق والانشغال عنه بمعتقداتهم الزائفة، وإما لابتعادهم عن الحق بعد معرفته.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع في نار جهنم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بسبب كذبهم على الله ورسوله حيث تظاهروا بالإيمان وهم كافرون.

ثم بين سبحانه أن الدوافع التي جعلتهم يتمسكون بما هم عليه من الغي والضلال هي ما يتصفون به من اختلال الموازين، وانقلاب المفاهيم في العقول والأفكار، فقال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وإذا طلب منهم أحد الناصحين لهم أن يكفوا عن الإفساد في الأرض بأنواع الفساد التي تنتج عن الكفر بالله واليوم الآخر ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي فلسنا مفسدين في الأرض بهذا السلوك الذي التزمناه لأنفسنا لأننا لا نؤمن إلا بهذه الحياة الدنيا.

فالإصلاح الذي زعموه لأنفسهم هو التمتع بنعيم الحياة وملذاتها بلا حدود ولا قيود، وذلك لأن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر يكون هدفه طلب رضوان الله تعالى وابتغاء الآخرة، وهذا قد يضر بدنياه، أما الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر فإن هدفه إشباع شهواته وتحقيق رغباته في هذه الحياة الدنيا وهذا يضر بآخرته، وما الأعمال التي يقوم بها في حرب الإسلام إلا محاولة منه لتحقيق هذه الغاية، فالعمل للدنيا وترك الآخرة هو إصلاح في نظر الكافر والمنافق ولكنه إفساد في نظر المؤمن، والعمل للآخرة هو إصلاح في نظر المؤمن وإن أضر بالدنيا، ولكنه إفساد في نظر الكافر والمنافق، ومن هنا وقع الاختلاف بين المؤمنين والمنافقين في الحكم على عمل كلٍّ منهم.

وقد حكم الله سبحانه على مبدأ المنافقين هذا بأنه هو الإفساد بعينه حيث قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ البالغون الغاية في الإفساد، وذلك لأن الحياة الدنيا ليست محل موازنة مع الحياة الآخرة، فالدنيا دار تكليف، والآخرة دار جزاء، والدنيا دار فناء والآخرة دار خلود وبقاء، ونعيم الدنيا لا يقاس بنعيم الآخرة، وما رغب به هؤلاء المنافقون من

نعيم الدنيا قد حظي بمثله أو أكثر المؤمنون في حدود المنهج الإسلامي، لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وإذا كان المنافقون قد عاشوا في قلق ورعب فإن المؤمنين يعيشون في طمأنينة وراحة نفسية لا يتمتع بها غيرهم.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي ولكن لا يدرك هؤلاء المنافقون أن مبدأهم الذي اتخذوه لأنفسهم هو الإفساد في الأرض لأنهم لا يؤمنون بالآخرة فلم يحسبوا لها حسابا في منهج أعمالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي وإذا طُلب منهم أن يؤمنوا بالإسلام الذي آمن به ذوو العقول الراجحة والأفكار الصائبة من الناس أعرضوا عن الإيمان، واتهموا المؤمنين بخفة العقل، وضعف الرأي لأنهم على حد زعمهم قد ضيعوا دنياهم وعرّضوا حياتهم للخطر في سبيل خدمة دينهم.

ولما كان العقل السليم يهدي إلى الإيمان بالله تعالى ويستسخف الكفر به رد الله عليهم بقوله ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي الذين بلغوا في خفة العقول وضعف الآراء حدا لا يبلغه غيرهم حيث اشتغلوا بدنياهم وضيعوا آخرتهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنهم لضعف أفكارهم وانحراف أهوائهم لا يدركون أنهم هم السفهاء.

هذا وقد ختم الله سبحانه الآية الأولى بنفي الشعور عنهم وختم هذه الآية بنفى العلم، ولعل السر في اختلاف التعبير في الآيتين هو أنه لما كانت الآية الأولى فيها الحكم على مبدئهم بالفساد ختمها سبحانه بنفي الشعور عنهم لبيان أنهم لم يستعملوا مداركهم في التمييز بين المبدأ الصحيح والمبدأ الفاسد فوقعوا في الضلال، أما الآية الثانية ففيها الحكم على معتنق أحد هذين المبدأين، ولما كان الحكم على معتنق المبدأ الصحيح بالسفه يعتبر جهلا بأصول الحكم إذ أنه حُكمٌ لم يقم على الموازنة والنظر الصحيح نفى الله سبحانه عنهم العلم.

وبعد أن ذكر سبحانه حقيقة النفاق وبواعثه ودوافع التمسك به ذكر صورة واقعية للمنافقين في تطبيقهم النفاق عندما يواجهون المؤمنين حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي وإذا قابل هؤلاء المنافقون المؤمنين واجتمعوا بهم أظهروا لهم الإيمان بدينهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي و إذا انصرفوا عن المؤمنين واجتمعوا بشياطينهم في خلوة من المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي في الكفر بالإسلام وعداوة المؤمنين به، والمراد بشياطينهم شياطين الإنس المتمردون في الكفر وهم اليهود، وبهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما كما أخرجه ابن جرير عنه عن طريق ابن إسحاق ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وقالوا لشياطينهم معتذرين عن تظاهرهم للمؤمنين بالإيمان: إنما نحن ساخرون منهم مستخفون بهم، لا صادقون في دعوى الإيمان بدينهم.

وقد كان شياطين المنافقين في وقت نزول هذه الآيات هم اليهود، كما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1]، والمقصود زعماؤهم.

وللمنافقين شياطين من الكفار في كل زمن، يعملون بتوجيهاتهم، ويحققون لهم مطالبهم، ويستمدون منهم القوة في حربهم السرية مع المسلمين.

وإذا كان شياطين المنافقين في العهد النبوي ليست لهم دولة؛ فإن شياطين المنافقين في العصر الحاضر يملكون دولاً قوية، ويهيمنون على السياسة العالمية، ولهذا فإن أثرهم في دعم المنافقين في المجتمع الإسلامي أكبر وأخطر، ومعاناة المؤمنين منهم أشق وأعسر، ومع ذلك فإنهم مخذولون أمام المؤمنين المتقين باتحاد المؤمنين وتوكلهم على الله تعالى وحده.

وإذا كانوا يستخفُّون بالمؤمنين ويسخرون منهم على حد زعمهم لأنهم لا يعلمون حقيقة ما يضمرونه للمؤمنين؛ فإن المؤمنين ليسوا وحدهم في المعركة ولا معزولين عن أي

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٣٠٧.

سند، كما يتصور ذلك المنافقون وغيرهم من الكفار بل هم يركنون إلى الله تعالى القدير الذي أوجدهم وأوجد أعداءهم من العدم، والذي بيده مقاليد أمورهم جميعا، وهو سبحانه يعلم بواطن أمورهم وسيكشفهم للمؤمنين حتى يكونوا منهم على حذر، وإن قوة المؤمنين التي تبدو ضعيفة أمام أعدائهم الكثيرين الأقوياء ليست في الحقيقة كذلك لأنها موصولة بقوة الله جل وعلا، فهم حينما يحاربون المؤمنين إنما يحاربون الله، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى رد كيدهم ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يستدرجهم حتى تتراكم ذنوبهم، ثم يعاقبهم وينتقم منهم ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يمهلهم في عتوهم في الكفر والضلال الذي جاوز الحد، يترددون متحيرين كالذي يسير في الظلمات يتخبط هنا وهناك لا يجد مخرجا ولا يهتدي سبيلا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي أولئك الذين اختاروا لأنفسهم طريق الضلال على طريق الهدى، حيث كفروا بالله تعالى وكذبوا رسوله ﷺ بعد ما وضحت لهم معالم طريق الهدى وأصبح في متناول أيديهم لو أرادوا سلوكه ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ حيث استبدلوا الغالي النفيس بالرخيص الخسيس، وفضلوا الأدنى على الأعلى فخسروا في تجارتهم.. خسروا الحياة الآخرة حيث حرموا من نعيمها وباءوا بجحيمها، وخسروا الحياة الدنيا التي هي غاية مطلبهم لأن السعادة الحقيقية ليست في تلبية المطالب الجسدية، فهذه لها غاية تنتهي إليها، كما أن فيها مخاطر تحيلها في أغلب الأحيان إلى هم وشقاء يعذب النفس ويؤلم الضمير، بل السعادة الحقيقية هي في تغذية الروح؛ وانطلاقها من سلطان المادة، وتحرر العقل من سلطان الهوى والعاطفة، ولا يمكن أن تتحقق هذه السعادة إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر، فهؤلاء الكفار والمنافقون قد خسروا سعادة الدارين ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ إلى الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى الربح في تجارتهم، حيث بحثوا عن السعادة في هذه الحياة الدنيا من غير طريقها الصحيح، وغفلوا عن العمل للآخرة،

وقد بين لنا الله سبحانه الطريق إلى الربح في التجارة والفوز بسعادة الدارين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[الصف١٠-١١].

ثم ضرب الله سبحانه لهم المثل بأمور حسية ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في التنفير من أحوالهم؛ فبدأ بالتمثيل للمصرين منهم على الكفر الذين لا يخطر الإيمان ببالهم حيث قال تعالى ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية قولان:

١- ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن إسحاق عنه أنه قال: ضرب الله للمنافقين مثلا فقال ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ أي يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق[1].

٢- ما أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ إلى آخر الآية: هذا مثل ضربه الله للمنافقين، أنهم كانوا يعتزون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون، ويوارثونهم، ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سُلب صاحب النار ضوءه ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ يقول في عذاب[2].

---

(١) جامع البيان ١/ ١٤٢.

(٢) جامع البيان ١/ ١٤٢.

=

والقول الثاني أرجح لأن مقتضى القول الأول أن المنافقين آمنوا بالإسلام حقا ثم كفروا، وهذا لا ينطبق على جميع المنافقين إذ أن أغلبهم دخلوا في الإسلام نفاقا فيكون معنى الآية على القول الثاني: صفة هؤلاء المنافقين العجيبة في استفادتهم من التظاهر بالإسلام في حال الحياة الدنيا، حيث عاشوا تحت ظلاله في أمن، ونالوا من خير الدنيا الذي أفاءه عليهم الإسلام كما نال المؤمنون، ثم انقضت حياتهم فواجهوا الحساب والعذاب وهم قد تعروا من سربال الإيمان الذي طالما لجئوا إليه في الحياة الدنيا، كمثل قوم أوقدوا لهم نارا يستضيئون بها فلما أضاءت ما حولهم من الظلمات واستضاءوا بها بعض الوقت نزع الله نورهم فأصبحوا في الظلمات يتخبطون ولا يبصرون الطريق إلى النجاة من هذه الظلمات.

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين قد عطلوا حواسهم التي يدركون بها الهدى من الضلال؛ ويعترفون به إذا أدركوه حيث قال تعالى: ﴿صُمٌّ﴾ فلا يستفيدون من الآيات المسموعة، ﴿بُكْمٌ﴾ فلا ينطقون بالحق بعد إدراكه، ﴿عُمْيٌ﴾ عن رؤية الآيات المبصرة، وذلك لقيام الحوائل التي حالت بينهم وبين إدراك الهدى والاعتراف به، كالحسد والتنافس على الرئاسة، وتقليد الأكابر، ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلال الذي اشتروه بالهدى.

ثم ضرب الله سبحانه مثلا لفريق آخر من المنافقين لم يصروا على الكفر طوال حياتهم بل يؤمنون في وقت الرخاء أحيانًا، فإذا أحدقت بهم الشدائد أو عرضت لهم الشبهات

= وعلي بن أبي طلحة هو أبو الحسن علي بن أبي طلحة سالم مولى بني العباس، وهو صدوق قد يخطئ، أرسل عن ابن عباس رضي الله عنهما ولم يره، من الطبقة السادسة، مات سنة ثلاث وأربعين ومائة.

وهذا الأثر من صحيفة علي بن أبي طلحة التي يرويها عن ابن عباس بواسطة مجاهد، وقد حكم الحافظ ابن حجر على حديث من هذا الطريق بالصحة – فتح الباري ١٣/ ٢٧١ – مع أن في بعض رجاله كلاما من حديث الحفظ لأنه من صحيفة والصحيفة لا يشترط فيها تمام الضبط.

كفروا ونافقوا، حيث قال تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾.

ومما يدل على أن المراد بمن ضرب لهم المثل في هذه الآية فريق آخر من المنافقين يطمئنون إلى الإيمان في وقت الرخاء ويكفرون به في وقت الشدة، ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو المطر ضُرب مثله في القرآن، يقول ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ يقول: ابتلاء، ﴿وَرَعْدٌ﴾ يقول: فيه تخويف، ﴿وَبَرْقٌ﴾، ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ﴾ يقول:يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾يقول: كلما أصاب المنافقون من الإسلام عزا اطمأنوا وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، يقول: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾ كقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج: ١١][(١)].

وما أخرجه ابن جرير أيضا من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي هم من ظلمات ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل - على الذي هم عليه من الخلاف والتخوف منكم- على مثل ما وصف من الذي هو في ظلمة الصيب فجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حذر الموت ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ﴾ أي لشدة ضوء الحق ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾ أي يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين[(٢)].

---

(١) جامع البيان ١/ ١٥٤.

(٢) المرجع السابق ١/ ١٥٣.

المعنى: لا يخلو حال هؤلاء المنافقين بنوعيهم من أن يكونوا كالمثل السابق، أو مثلهم في موقفهم من نزول الوحي الإلهي بما يحمل في طياته من وعيد شديد لهم في الدنيا والآخرة، وهجوم على معتقداتهم الباطلة وكشف لأسرارهم، وتكليف لهم بما يرونه شاقا عليهم، وبما يلمحونه فيه أحيانا من حق وهدى فيفيئون إلى ظلاله فترة من الزمن، ثم تعصف بهم الشدائد والشبهات فيقفون متحيرين لا يدرون هل يسيرون في طريق الهدى الذي يسبب لهم بعض المتاعب في نظرهم، أم يسيرون في طريق الضلال الذي يعيشون فيه في خوف وقلق، ويترقبون كل يوم أن ينزل الوحي بكشف أمرهم وهتك سترهم، كمثل قوم هطل عليهم مطر عظيم من السماء قد تكاثفت فيه الظلمات.. ظلمة السحاب مع ظلمة المطر مع ظلمة الليل، وزمجر رعده ولمع برقه حتى خافوا من الصواعق التي تقترن بالرعد أحيانا أن تهلكهم، فوضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا أصواتها المزعجة، وكلما أضاء لهم البرق مشوا في ضوئه إلى الأمام فإذا خبا ضوؤه وقفوا عن المسير. ووجه الشبه: الهيئة المنتزعة من حال قوم نزل عليهم ما يوجب الفزع من أمر مشتمل على أهوال مخيفة وعلى نور ساطع يضيء الطريق للسالكين، فإذا لاح لهم ساروا وإذا انقطع وقفوا.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ولو شاء الله لسلبهم مداركهم التي يدركون بها فلم يستطيعوا إدراك الحق إطلاقا كما هو الحال في الفريق الأول، إن الله سبحانه بليغ القدرة لا يعجزه شيء.

* * *

٢- دور اليهود في حركة النفاق

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[البقرة: ٧٥ - ٧٧].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج ابن جرير من طريق عطية بن سعد العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك أن نفرا من اليهود كانوا إذا لقوا محمدا ﷺ قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم.

٢- أخرج ابن جرير من طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ يعني المنافقين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا آمنا.

٣- أخرج ابن جرير من طريق أسباط عن السدي أنه قال في هذه الآية: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا[1].

والذي يؤخذ من هذه الروايات أن هذه الآية قد نزلت في طائفة من اليهود أظهروا الإسلام نفاقا.

---

(١) جامع البيان ١/ ٣٦٩.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات من سورة البقرة وهي أول سورة نزلت في المدينة كما سبق في رواية ابن الضريس، فتكون هذه الآيات مما نزل في السنة الأولى للهجرة.

تصوير الموقف:

تبين لنا من الروايات السابقة أن هذه الآيات قد نزلت في اليهود الذين في المدينة، مبينة نوعا من تصرفاتهم التي يقومون بها للتقرب من المؤمنين بعدما انتشر الإسلام في المدينة واعتز المؤمنون به، فبين سبحانه أن من هؤلاء اليهود من يتظاهر بالدخول في هذا الدين ويتقرب إلى المؤمنين به، بإخبارهم ببعض ما في كتبهم مما يؤيد هذا الدين، كذكر صفات النبي ﷺ المبينة في التوراة.

وكان اليهود يحرصون على كتمان هذا الأمر حتى لا يكون في ظهوره حجة للمؤمنين عليهم ومؤيدا لدعوة الإسلام، ولذلك أصبح بعضهم يلوم بعضا على هذا التصرف.

وقد نبه الله المؤمنين إلى سلوك هؤلاء المنافقين المنحرف ليكونوا على علم بأن وجههم الآخر الذي أخفوه عنهم يختلف عن وجههم الذي أظهروه لهم فيحذروا منهم.

بيان مفردات النص:

أفتطمعون: الهمزة للاستفهام، والاستفهام للإنكار والتعجب، والفاء عاطفة، والمعطوف عليه جملة مقدرة تفهم من الآية السابقة وهي قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي أتعلمون قسوة قلوبهم بهذا الشكل فتطمعون؟ والطمع هو نزوع النفس إلى الشيء رغبة فيه[1].

أن يؤمنوا لكم: أي يصدقوكم مستجيبين لكم فتعدية الفعل باللام للتضمين، أو اللام لام التعليل أي يؤمنوا لأجل دعوتكم إياهم[2].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مقاييس اللغة.

(٢) روح المعاني ١/ ٢٩٨.

يحرفون: التحريف إمالة الشيء والعدول به كتحريف القلم. أي يحرفون الكلام عن معناه إلى معنى آخر لم يدل الكلام عليه.

فتح: الفتح في اللغة ضد الإغلاق ويطلق على الحكم والنصر والإعلام بالشيء[1].

يحاجوكم: الحج في الأصل القصد، والحجة مصدر بمعنى الاحتجاج ومعناه الدليل والبرهان وما يدفع به الخصم، ويقال حج فلانا حجا، وحجه خصمه غلبه بالحجة، والمحاجة المقارعة بالحجة، والحجة الدلالة المبينة للمحَجَّة، أي المقصد المستقيم[2].

بيان معنى النص:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي أتعلمون أيها المؤمنون قسوة قلوب اليهود بما تبين لكم؛ فترغبون مع ذلك في أن يستجيبوا لكم فيتبعوا دينكم؟! ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ المنزل على موسى ﷺ في التوراة.. ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ بتأويل معناه على غير مراد الله ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي من بعد مافهموا معناه على مراد الله وأدركته عقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي والحال أنهم حينما فعلوا ذلك يعلمون أنهم بعملهم هذا قد ابتعدوا عن الحق، واتبعوا الباطل حيث حرفوا كلام الله عمدا، وهذا يدل على تناهي قسوة قلوبهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي هؤلاء اليهود ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد وبما أنزل عليه ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي صدقنا بكتابكم وبنبيكم فقد بين لنا الله في التوراة صفة محمد ﷺ وألزمنا باتباعه، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي وإذا انصرفوا عن المؤمنين وأصبحوا في خلوة منهم، ﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض منكرين ما حدث منهم من إفشاء السر الذي كانوا

---

(١) مقاييس اللغة، لسان العرب، تاج العروس.

(٢) معجم متن اللغة، المفردات في غريب القرآن.

يحرصون على كتمانه وهو ذكر صفة النبي ﷺ في كتابهم من صفة محمد ﷺ وأن الله قد حكم عليكم بالإيمان به؟ ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾ أي ليغلبوكم في الحجة عند المحاجة بكلام ربكم، لأنكم قد اعترفتم لهم بما في كتابكم مما يؤيد دينهم ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي أترتكبون هذا الخطأ الفاحش نحو دينكم فلا تدركون أن إفشاء الأسرار التي اختصكم الله بها نحو الإسلام مما يؤثر في موقفكم من هذا الدين ؟!

ولقد أدركوا أن ما قاموا به من النفاق حينما حدثوا المؤمنين بما في كتابهم مجانب للعقل السليم، لأنه يظهر تناقضهم حيث يؤمنون بما يعتقدون بطلانه، ويكفرون بما يعتقدون أنه الحق، ولأنه يفقدهم ثقة الناس بهم، ويعطي المؤمنين سلاحا قويا يحاربونهم به، فوبخوا أنفسهم بهذا الكلام.

ثم ويخهم الله تعالى وجهّلهم على غفلتهم عن علم الله الشامل لجميع تصرفاتهم ما يظهرون منها كالإيمان بالإسلام إذا لقوا الذين آمنوا؛ وما يخفونه كالتلاوم بينهم إذا خلا بعضهم إلى بعض، حيث قال تعالى ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة:٧٧] أي أيلوم بعضهم بعضا على التحديث بصفة النبي ﷺ خوفا من قيام الحجة عليهم ولا يعلمون أن الله سبحانه عالم بجميع تصرفاتهم الظاهرة والباطنة؟

* * *

٣- موقف المنافقين من تحويل القبلة

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٤٢-١٤٣].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج ابن جرير من طريق محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة -وصُرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله ﷺ المدينة- أتى رسولَ الله، رفاعة بن قيس، وقردم بن عمرو وكعب ابن الأشرف، ونافع بن أبي نافع -هكذا قال ابن حميد وقال أبو كريب: ورافع بن أبي رافع[1]- والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق فقالوا: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك ! وإنما يريدون فتنته عن دينه، فأنزل الله فيهم ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[2].

---

(١) وهذا هو الراجح لأنه يتأيد برواية ابن هشام عن ابن إسحاق ففيها: ورافع بن أبي رافع «سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٢».

(٢) جامع البيان ٢/ ٢.

وما ذكر في هذه الرواية ممن أتوا رسول الله ﷺ كلهم من اليهود.

٢- وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا، فكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام وكان يدعو وينظر إلى السماء فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله عز وجل ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾[1].

٣- وأخرج ابن جرير من طريق أسباط بن نصر عن السدي قال: كان النبي ﷺ يصلي قِبَل بيت المقدس فنسختها الكعبة، فلما وُجِّه قِبَل المسجد الحرام اختلف الناس فيها فكانوا أصنافا، فقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلة زمانا ثم تركوها وتوجهوا إلى غيرها؟ وقال المسلمون: ليت شعرنا عن إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون قِبَل بيت المقدس هل تقبل الله منا ومنهم أم لا؟ وقالت اليهود: إن محمدا اشتاق إلى بلد أبيه ومولده ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي كنا ننتظره ! وقال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه فتوجه بقبلته إليكم، وعلم أنكم كنتم أهدى منه ويوشك أن يدخل في دينكم.

فأنزل الله جل ثناؤه في المنافقين ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وأنزل في الآخرين الآيات بعدها[2].

---

(١) هكذا ذكرت هذه الجملة في هذه الرواية والمقصود بيان أكثر أهلها. وقد ذكر ابن جرير هذه الرواية في موضعين آخرين وفيها وكان أكثر أهلها اليهود ٢/ ٢٠.

(٢) جامع البيان ٢/ ١٢.

وهذه الرواية قد بينت موقف كل من المنافقين واليهود والمشركين من تحويل القبلة كما بينت تساؤل المؤمنين عن عمل من مات منهم قبل ذلك، وقد نصت على أن قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قد نزلت في المنافقين، وظاهر الروايتين السابقتين أنها نزلت في اليهود ولا تعارض بين هذه الروايات إذ أن الآية تشمل هؤلاء جميعا.

٤ - أخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب ﷺ قال: «وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قِبَل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم» فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)].

وهذه الرواية تبين لنا أن هذه الآية قد نزلت مطمئنة المؤمنين حينما أهمهم مصير إخوانهم الذين ماتوا قبل تحويل القبلة وتحيروا في أمرهم.

وقت نزول هذا النص:

هاتان الآيتان قد نزلتا في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكان ذلك في منتصف رجب من السنة الثانية، كما أخرج ذلك الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس ﷺ وبه قال الجمهور كما ذكر ابن حجر[(٢)].

وقد أخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب ﷺ أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده -أو قال على أخواله- من الأنصار، وأنه صلى قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا[(٣)]... الحديث[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سيقول السفهاء «الآية» فتح الباري ٨/ ١٧١).

(٢) فتح الباري ١/ ٩٧.

(٣) أو هنا يحتمل أن تكون من كلام البراء، ويحتمل أن تكون شكا من أحد الرواة، وقد ذكر ابن حجر أن مجيء الشك هنا من مراعاة إلغاء الزيادة أو إكمالها فمن اعتبر بقية الشهر الذي قدم فيه النبي ﷺ المدينة وأول الشهر الذي تم فيه التحويل جعل منهما شهرا وقال ستة عشر ومن اعتبر الشهرين معا وعدهما مع المدة قال سبعة عشر ومن شك تردد في ذلك «فتح الباري ١/ ٩٦-٩٧».

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان «فتح الباري ١/ ٩٥».

تصوير الموقف:

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان يصلي إلى بيت المقدس واستمر على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهرا.

وهل كان ذلك استمرارا على قبلته وهو في مكة أم كان بأمر جديد؟ يقول ابن حجر: إن العلماء اختلفوا في الجهة التي كان النبي ﷺ يتوجه إليها للصلاة وهو بمكة، فقال ابن عباس وغيره: كان يصلي إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس، وأطلق آخرون أنه كان يصلي إلى بيت المقدس، وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصح لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس"[1].

ومما يؤيد القول بأن النبي ﷺ كان وهو في مكة يستقبل الكعبة فلما هاجر استقبل بيت المقدس؛ ما أخرجه الحاكم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما نسخ من القرآن فيما ذُكر لنا شأن القبلة قال الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، فقال تعالى ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ يعنون بيت المقدس فنسختها، وصرفه إلى البيت فقال تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة.

أقول: وقد سكت عنه الذهبي"[2].

---

(١) فتح الباري ١/ ٩٦.

(٢) المستدرك ٢/ ٢٦٨.

وهذا الحديث صريح في أن النبي ﷺ كان يستقبل الكعبة أولا ثم استقبل بيت المقدس ثم استقبل الكعبة أخيرا، ويفهم منه أن استقباله بيت المقدس كان عن اجتهاد منه في تطبيق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ١١٥].

ولما كان أمر التغيير في التشريع يعتبر منقصة فيه عند من يجهلون الحكمة الإلهية في ذلك، وعند أصحاب الأهواء المنحرفة، استغل أعداء الإسلام المحيطون به آنذاك هذه الفرصة للطعن في النبي ﷺ، وتشويه سمعة الإسلام، فتكلم اليهود والمنافقون والمشركون بكلمات السخرية والإنكار، وأثاروا الشبهات حول الإسلام في هذه القضية، ليصدوا الناس عنه وليزلزلوا الإيمان به عند عامة المؤمنين، وقد سبق بيان تلك الكلمات التي صدرت من أولئك الأعداء في بيان من نزل فيه النص.

أما بالنسبة للمؤمنين فقد حصل عندهم بسبب تحويل القبلة تساؤل نحو صلاتهم فيما مضى نحو بيت المقدس، هل يثابون عليها أم لا ؟ وعن إخوانهم الذين ماتوا قبل تحويل القبلة هل تقبل الله منهم أم لا ؟ كما سبق بيان ذلك في رواية البخاري والسدي، فنزل القرآن مطمئنا المؤمنين بأن ثواب عملهم محفوظ لهم عند الله تعالى؛ ومسفها أعداءهم الذين استغلوا الفرصة للنيل منهم ومن دينهم ومبينا الحكمة التي أرادها الله من هذا التشريع.

بيان مفردات النص:

ولأهم: ولّى بمعنى صرف من الوَلْي وهو القرب والدنو وهو حصول الثاني بعد الأول من غير فصل[1].

---

(١) المفردات: جامع البيان ٢/ ٢ معجم متن اللغة.

قبلتهم: القبلة في الأصل اسم للجهة المقابلة، وفي التعارف صار اسما للمكان المقابل التوجّه إليه في الصلاة[1].

صراط: الصراط والسراط: الطريق المستسهل، أصله من سرطت الطعام، فقيل في الطريق سراط تصورا أنه يبتلعه سالكه أو يبتلع سالكه[2].

مستقيم: المستقيم المعتدل الذي لا التواء فيه[3].

وسطا: الوسط العدل الخيار، والوسط من كل شيء أعدله[4].

رءوف: الرأفة قيل هي الرحمة، وقيل هي أشد الرحمة أو أرقها[5].

رحيم: الرحمة في اللغة هي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم[6].

وقال القفال: الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي: دفع المكروه وإزالة الضرر كقوله تعالى ﴿تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٢] أي لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما، وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى[7].

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ قوله ﴿سَيَقُولُ﴾ السين للاستقبال، وظاهر هذا أن هؤلاء السفهاء لم يقولوا هذا الكلام

---

(١) المفردات: مقاييس اللغة، معجم متن اللغة، النهاية.

(٢) المفردات، مقاييس اللغة.

(٣) المفردات.

(٤) القاموس المحيط، تفسير غريب القرآن / ٦٤.

(٥) لسان العرب، تاج العروس، المفردات.

(٦) المراجع السابقة.

(٧) التفسير الكبير ٤/ ١٢١.

قبل نزول هذه الآية، وفائدة الإخبار بهذا القول قبل وقوعه: أن مفاجأة المكروه أشد وقعا على النفس، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لما يتقدمه من توطين النفس، ولأن معرفة الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأَرَدُّ لشغبه كما قال الزمخشري[1].

﴿ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي خفاف العقول ضعفاء الرأي منهم، ووصفهم بالسفه لتحقيرهم والتهوين من شأنهم ببيان أن قولهم الذي قالوه لا رشد فيه، والتعبير بقوله «من الناس» لبيان تميزهم بهذا الوصف الحقير من بين سائر أفراد جنس الناس.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ الاستفهام للإنكار، والضمائر تعود على المؤمنين. أي سيقول السفهاء من اليهود والمنافقين والمشركين عن المؤمنين: ما الذي صرفهم عن التوجه إلى قبلتهم التي كانوا يتوجهون إليها وهي بيت المقدس إلى التوجه نحو الكعبة؟

ثم لقن الله سبحانه نبيه ﷺ الجواب على هذا الاعتراض حينما يصدر من هؤلاء السفهاء ليكون على استعداد له عند وقوعه، حيث قال تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾

---

(١) الكشاف ١/ ٣١٧، وقال القفال: إن الآية نزلت بعد تحويل القبلة وأن لفظ سيقول مراد فيه الماضي، وهذا كما يقول الرجل إذا عمل عملا فطعن فيه بعض أعدائه، أنا أعلم أنهم سيطعنون فيّ، كأنه يريد أنهم سيذكرون هذا القول مرة أخرى «التفسير الكبير للرازي ٤/ ١٠١».

وما ذكره من أن الآية قد نزلت بعد تحويل القبلة يؤيده ما سبق في رواية البخاري، ولا يلزم من ذلك أن تكون نزلت قبل قول الكفار المذكور فحمل الآية على ظاهرها أولى.. والمثال الذي ضربه للآية لا ينطبق عليها إذ أن قول القائل أنا أعلم أنهم سيطعنون فيّ إما إن يكون حكاية من علمه الماضي بذلك أو إخبارا من علمه بأن هذا الطعن سيتكرر في المستقبل.

أي قل لهم لله ملك المشرق والمغرب وسائر الجهات لا لغيره، فله أن يوجهنا إلى أي جهة شاء، ونحن ننفذ حكمه ونأتمر بأمره سواء فهمنا الحكمة منه أو جهلناها ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقد أرشدنا الله عز وجل إلى هذا الصراط المستقيم في أمر القبلة حيث وجهنا إلى أقدس بقعة على وجه الأرض، وفي هذا الجواب حسم لما قد يثيره اليهود من جدل في هذا الموضوع حول التفضيل بين بيت المقدس والكعبة وذلك ببيان أن الأمر كله لله يوجه عباده حيث شاء..

فإن قيل إن المؤمنين أصبحوا على الصراط المستقيم بعدما وجههم الله نحو الكعبة فهل كانوا قبل ذلك على غير الصراط المستقيم حينما كانوا يتوجهون نحو بيت المقدس؟ فالجواب أنهم كانوا على الصراط المستقيم في الحالين لأنهم حينما توجهوا نحو بيت المقدس كانوا مؤتمرين بأمر الله عز وجل وحينما توجهوا نحو الكعبة كانوا مؤتمرين به كذلك، فالصراط المستقيم هو في تنفيذ أوامر الله تعالى في جميع الأحوال.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي وكهدايتنا إياكم إلى الصراط المستقيم في شأن القبلة جعلناكم أمة هي خير الأمم وأعدلها ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعا يوم القيامة بأن الرسل قد بلغوهم كما أخرج البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعَى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم، فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه بلَّغ، ويكون الرسول عليكم شهيدا، فذلك قوله جل ذكره ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط العدل»[1].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب «وكذلك جعلناكم» فتح الباري ٨/ ١٧١. وقوله «والوسط العدل» من نص الحديث المرفوع كما نبه على ذلك الحافظ ابن حجر.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ أي يشهد لكم بالعدالة والصدق وإنما عبر بعلى بدلا من اللام لكون الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له... ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[1] [الحج: ١٧].

ومما يؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير قال: حدثنا محمد بن الحسين قال: حدثنا أحمد بن المفضل قال: حدثنا أسباط عن السدي قال: إن النبيين يأتون يوم القيامة منهم من أسلم معه من قومه الواحد والاثنان والعشرة... وذكر نحو حديث أبي سعيد المتقدم ثم قال: فيُدعَى محمد ﷺ فيشهد أن أمته قد بلّغوا فذلك قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾[2].

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾.

اختلف المفسرون في المراد بالقبلة في الآية على قولين:

أولا: أن المراد بها بيت المقدس وبهذا قال السدي كما أخرج ذلك عنه ابن جرير من طريق أسباط بن نصر[3] وبه قال عطاء كما أخرجه ابن جرير من طريق ابن جريج[4] واختاره الطبري وغيره[5].

---

(١) الكشاف ١/ ٣١٧، إرشاد العقل السليم ١/ ٢٧٧ روح المعاني ٢/ ٥.

(٢) جامع البيان ٥/ ٩٢.

(٣) جامع البيان ٢/ ١١.

(٤) المرجع السابق ٢/ ١١.

(٥) المرجع السابق ٢/ ١١ وانظر مثلا: تفسير ابن كثير ١/ ١٩٧، روح المعاني ٢/ ٥.

ثانيًا: أن المراد بها الكعبة على اعتبار أن قوله ﷺ التي كنت عليها لله ثاني مفعولي جعل لا صفةً للقبلة فيكون المعنى: وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها وهي الكعبة، لأن النبي ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة ثم أُمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفا لليهود ثم حُوِّل إلى الكعبة. وبهذا قال الزمخشري[(١)].

والقول الأول أرجح لما سبق في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه.. ولأن الأمر الذي قُصد في هذا الامتحان هو التحول من بيت المقدس إلى الكعبة لا العكس.

وقوله «إلا لنعلم» المراد بالعلم هنا علم الظهور والتمييز أي ليظهر الثابتون على دينهم ويتميز أهل الشك والحيرة، وليس بمعنى حدوث العلم لله تعالى بعد أن لم يكن، تعالى الله عن ذلك، وقد أخرج ابن جرير في ذلك من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لنميز أهل اليقين من أهل الشك والريبة[(٢)].

والمنقلب على عقبيه: الراجع مستدبرا في الطريق الذي كان قطعه منصرفا عنه، فقيل ذلك لكل راجع عن أمر كان فيه[(٣)].

المعنى: وما شرعنا توجهك نحو القبلة التي كنت ثابتا على استقبالها وهي بيت المقدس ثم أمرناك بالتحول عنها إلى الكعبة إلا امتحانا للناس ليتميز المؤمنون الخُلَّص الصادقون في إيمانهم الذين يأتمرون بأوامر الله عز وجل ولا ينازعون في شيء منها.. ليتميزوا من ضعفاء الإيمان الذين يتزعزع إيمانهم أمام بعض التشريعات التي لا تدركها عقولهم فيرتدوا بسبب ذلك عن الإسلام.

---

(١) الكشاف ١/ ٣١٨.

(٢) جامع البيان ٢/ ١٣.

(٣) جامع البيان ٢/ ١٥.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الضمير المستتر في قوله «كانت» يعود على التولية عن بيت المقدس إلى الكعبة، وبذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما كما أخرجه عنه ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة[1] وأخرجه أيضا عن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح، وعن قتادة من طريق معمر[2].

المعنى: ولقد كان تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام أمرا عظيما شاقا، على المتشككين الحائرين وأصحاب الإيمان المزعزع؛ لأنه يفتح لهم أبوابا واسعة من الشك والحيرة، ويتيح للشياطين أن تلعب بهم بأنواع الوساوس والأوهام، فيقفون من أمر النسخ في التشريع موقف الحائر الذي امتلأ قلبه بالشبهات، ولا يتصورون ما وراء ذلك من الحكمة الإلهية.. أما الذين عمر الله قلوبهم بالإيمان الراسخ، واليقين الصادق فإنهم يؤمنون بجميع ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله جل وعلا وينفذون جميع ما كلفهم الله به سواء فهموا الحكمة منه أو جهلوها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي وما صح ولا استقام في شرع الله أن يضيع ثواب صلاتكم التي كنتم تتوجهون فيها نحو بيت المقدس، لأنكم إنما فعلتم ذلك طاعة لأمر الله عز وجل ومن أطاعه نال ثوابه.

والدليل على أن المراد بالإيمان هنا الصلاة ما أخرجه الطيالسي والنسائي من طريق شريك وغيره، عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه في حديثه السابق: «فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ صلاتكم إلى بيت المقدس».

---

(١) جامع البيان ٢/ ١٥.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ حيث حمى أولياءه المؤمنين من الوقوع في الضرر وجنبهم المكاره ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم حيث لم يحرمهم من ثواب أعمالهم بل كافأهم عليها بالثواب الجزيل.

وعَبَّرَ سبحانه عن الصلاة بالإيمان لأن ضياع الصلاة ضياع للإيمان.

* * *

٤- مسارعتهم في الكفر بخدمة الكفار

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: ٤١].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج مسلم بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: مُرّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً[١] مجلودا فدعاهم النبي ﷺ فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قالوا نعم. فدعا رجلا من علمائهم فقال: «أنشدك -بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ «اللهم إني أول من أحيى أمرك إذ أماتوه» فأمر به فرجم. فأنزل الله عز وجل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى

(١) مسود الوجه كما ذكر في القاموس المحيط.

ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ يقول: ائتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[المائدة: ٤٥] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٧] في الكفار كلها"[1].

وأخرجه ابن جرير أيضا من طريق سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه حدثهم أن أحبار يهود اجتمعوا في بيت المدراس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة[2] وقد زنا رجل منهم بعد إحصانه بامرأة من يهود قد أحصنت فقالوا: انطلقوا بهذا الرجل وبهذه المرأة إلى محمد ﷺ فاسألوه كيف الحكم فيهما؟! وولوه الحكم عليهما فإن عمل فيهما بعملكم من التجبيه -وهو الجلد بحبل من ليف مطلي بقار، ثم تسوَّد وجوههما ثم يحملان على حمارين وتحوَّل وجوههما من قِبَل دبر الحمار- فاتبعوه فإنما هو ملك، وإن هو حكم فيهما بالرجم فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه، فأتوه فقالوا: يا محمد هذا الرجل قد زنا بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت فاحكم فيهما فقد وليناك الحكم فيهما فمشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم إلى بيت المدراس فقال: يا معشر اليهود أخرجوا إلي أعلمكم، فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا الأعور -وقد روى بعض بني قريظة أنهم أخرجوا إليه يومئذ مع ابن صوريا أبا ياسر بن أخطب ووهب بن يهوذا فقالوا: هؤلاء علماؤنا، فسألهم رسول الله ﷺ حتى حصل أمرهم إلى أن قالوا لابن صوريا: هذا أعلم من بقي بالتوراة[3] - فخلا به رسول الله ﷺ وكان غلاما شابا من أحدثهم سنا، فألظَّ به رسول

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود (ص ١٣٢٧).

(٢) «بيت المدراس» هو البيت الذي كان اليهود يدرسون فيه كتبهم كما ذكر ابن منظور في «لسان العرب».

(٣) قوله وقد روى إلى قوله فخلا به من قول ابن إسحاق وليس من حديث أبي هريرة كما نبه على ذلك ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٢٦.

الله ﷺ المسألة[1] يقول يابن صوريا أنشدك الله وأذكرك أياديه عند بني إسرائيل هل تعلم أن الله حكم فيمن زنا بعد إحصانه بالرجم في التوراة؟ فقال: اللهم نعم أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعلمون أنك نبي مرسل ولكنهم يحسدونك! فخرج رسول الله ﷺ فأمر بهما فرجما عند باب مسجده في بني غنم ابن مالك بن النجار، ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا فأنزل الله جل وعز ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[2].

وقد ذكر ابن هشام هذا الحديث في السيرة عن ابن إسحاق بهذا الإسناد مع فارق بسيط في الألفاظ[3].

والذي يؤخذ من هاتين الروايتين أن هذه الآيات قد نزلت في شأن اليهود حينما جاءوا إلى النبي ﷺ يستفسرون منه عن حد الزاني المحصن ليتخففوا بفتواه مما هو موجود في كتابهم، ويستفاد من رواية مسلم أنهم مروا على النبي ﷺ وهم يقيمون الحد على يهودي قد زنى بعد إحصانه على الوضع الذي اتفقوا عليه فأنكر النبي ﷺ ذلك عليهم وسألهم عن حد الزنى عندهم، أما رواية الطبري ففيها أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ لاستفتائه في حد الزنا قبل أن يقيموه على الزانيين في هذه القصة ففي ظاهر الروايتين تعارض، وقد ذكر ابن حجر احتمال تعدد القصة، واحتمال أنهم بادروا فجلدوا الزاني ثم بدا لهم فسألوه فاتفق المرور بالمجلود في حال سؤالهم عن ذلك فأمرهم بإحضارهما، قال: ويؤيد الجمع ما وقع عند الطبراني من حديث ابن عباس «أن رهطا من اليهود أتوا النبي ﷺ ومعهم

---

(١) ألظَّ به أي ألح عليه كما في القاموس المحيط.

(٢) جامع البيان ٦/ ٢٣٢.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٥.

امرأة فقالوا: يا محمد ما أنزل الله عليك في الزنا قال: فيتجه أنهم جلدوا الرجل ثم بدا لهم أن يسألوا عن الحكم فأحضروا المرأة وذكروا القصة والسؤال[(١)] .

أقول وهذا هو الظاهر لأنه جاء في آخر رواية مسلم ما يؤيد أنهم جاءوا إلى النبي ﷺ لاستفتائه وذلك في قوله في تفسير قوله تعالى ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا.

٢- أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الله عز وجل أنزل ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ - فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ - فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[المائدة ٤٤-٤٥، ٤٧] قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا -أو اصطلحوا- على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ ويومئذ لم يظهر[(٢)] ولم يوطئها عليه[(٣)] وهم في الصلح[(٤)] فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد وبلدهما واحد، دية

---

(١) فتح الباري ١٢/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) الضمير يعود إلى النبي ﷺ كما في الرواية التي ذكرها الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٥) «ورسول الله ﷺ لم يظهر» أي لم ينتصر على أعدائه بعد ولم تكن له دولة قوية.

(٣) قال في القاموس المحيط: «أوطئوهم جعلوهم يوطئون قهرا وغلبة» فالمعنى على هذا: ولم يغلبهما على الحكم ولم يخضعهما.

(٤) في الأصل «وهو في الصلح» وفي مجمع الزوائد «وهم في الصلح» وهو أظهر أي وهم لا يزالون في هذا الصلح المذكور في الحديث.

بعضهم نصف دية بعض؟ إنا إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا وفَرَقًا منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيما منا وقهرا لهم، فدُسُّوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناسا من المنافقين ليَخبُروا لهم رأي رسول الله ﷺ فلما جاءوا رسول الله ﷺ[1] أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادوا، فأنزل الله عز وجل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ إلى قوله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ ثم قال: فيهما والله نزلت وإياهما عنى الله عز وجل[2].

ورواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريقين[3]:

وزاد في الروايتين أن الطائفتين هما بنو النضير وبنو قريظة، وأن الطائفة العزيزة هم بنو النضير، والذليلة هم بنو قريظة، وذكر في الرواية الثانية أن القاتل إذا كان من بني قريظة قتل، وإذا كان من بني النضير أدّى مائة وسق من تمر.

وهاتان الروايتان تعضدان الرواية الأولى، فتبين أن هذا الحديث ليس مما وَهِمَ فيه ابن أبي الزناد ولا سماك بن حرب فيكون صحيحا لغيره، وقد أخرجه الحاكم من طريق سماك ابن حرب وصححه وأقره الذهبي[4].

---

(١) في الأصل « فلما جاء » والتصحيح من تفسير ابن كثير ٢/ ٦٥.

(٢) مسند أحمد ١/ ٢٤٦.

(٣) جامع البيان ٦/ ٢٤٣.

(٤) المستدرك ٤/ ٣٦٦.

ومن هذه الروايات تبين لنا احتمال نزول هذه الآيات في قضية الرجم واحتمال نزولها في قضية القصاص، ويحتمل أن القضيتين جرتا في وقت متقارب فنزلت هذه الآيات فيهما معا، والروايتان صحيحتان من حيث الإسناد لكن قضية القصاص أنسب لهذه الآيات من وجوه:

١- أنه قد ذُكر القصاص في آخر هذه الآيات في قوله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ الآية فهذا يقوي كون سبب النزول قضية القصاص كما ذكر ابن كثير[1].

٢- أن الله سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآيات أن المسارعة إلى الكفر صادرة من المنافقين واليهود، وقضية الرجم لم يُذكر فيها دور للمنافقين بينما ذُكر في قضية القصاص أن الطائفة العزيزة من اليهود دسوا أناسا من المنافقين إلى رسول الله ﷺ ليعلموا رأيه في القضية قبل أن يحكموه.

٣- ولأن الله سبحانه ذكر في هذه الآيات تحاكمهم إلى النبي ﷺ وأمره تعالى أن يحكم بينهم بالقسط حيث قال تعالى ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُولَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٤٢-٤٣] ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [المائدة: ٤٩] وهذا يتناسب مع قضية القصاص لأن فيها خصومة بين طائفتين من

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٥.

اليهود، أما قضية الرجم فليس فيها خصومة حتى يقع بسببها التحاكم إلى رسول الله ﷺ وإنما هي مجرد استفتاء صدر من بعض اليهود للنبي ﷺ في حد الزنا.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآية من سورة المائدة وهي بمجموعها العام من آخر ما نزل من القرآن ولكن آيات منها قد تقدم نزولها في أوائل العهد المدني كالآيات التي تبين علاقة المنافقين باليهود ومنها هذه الآية، وأسباب النزول السابقة ليس فيها تحديد لوقت نزولها غير أن في رواية قضية القصاص ذكر بني النضير وقد أجلاهم النبي ﷺ من المدينة في أوائل السنة الرابعة كما سيأتي، فتكون هذه الآيات مما نزل قبل ذلك كما أن فيها بيان أن ذلك كان بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة، وقبل ظهور أمره وقد كان ظهور أمره بعد معركة بدر، حيث ظهرت قوته بانتصاره على أكبر أعدائه، فأصبحت له دولة مرهوبة الجانب، هذا مما يرجح كون هذه الآية مما نزل قبل معركة بدر، كما يرجح ذلك أيضا ما جاء في رواية الرجم من أن أحبار اليهود اجتمعوا في بيت المدراس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة فهذا يدل على أن نزول هذه الآيات كان في السنة الأولى من الهجرة تقريبًا.

تصوير الموقف:

عندما ضعف إيمان اليهود بدينهم رأوا أنه ليس بإمكانهم تطبيق حدود الله على جميع من يرتكبون الجرائم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، أقوياء أو ضعفاء فاصطلحوا فيما بينهم على حدود يمكن أن تقام على الأغنياء والأقوياء كما تقام على الفقراء والضعفاء، وذلك كحد الزنى حيث استبدلوا الرجم بالجلد مع تسويد الوجوه كما سبق في الروايات.

ولما تشعبوا إلى قبائل وكان بعضهم أقوى من بعض رفض الأقوياء منهم حكم الله في القصاص إذا كان القاتل منهم والمقتول من الضعفاء، وأبوا أن يتساووا مع الضعفاء في

دفع دية واحدة، حيث رأوا أن القتيل منهم أعز من القتيل من الضعفاء، كما جرى بين بني النضير وبني قريظة وكان بنو النضير أقوى من بني قريظة.

فلما قدم النبي ﷺ إلى المدينة حدث أن وقع الزنى بين رجل وامرأة من اليهود، وأراد اليهود أن يعرفوا حكم الإسلام في حد الزاني المحصن، ليتخففوا به مما في كتابهم فأرسلوا طائفة منهم يستفسرون من النبي ﷺ عن ذلك؛ فألزمهم بحكم التوراة الذي أهملوه.

كما حدث أن اعتدى رجل من بني قريظة على رجل من بني النضير بعد مقدم النبي ﷺ، فأراد بنو النضير أن يطبقوا حكمهم الجائر على إخوانهم من بني قريظة، ولكن بني قريظة قد استعزوا بالإسلام وإن كانوا لم يؤمنوا به، لعلمهم بأن النبي ﷺ لا يحكم إلا بالعدل، ولا بد أن ينصف المظلوم من الظالم.

أما المنافقون فقد كانوا يقومون بأعمال التجسس لصالح اليهود، حيث كان اليهود يستخدمونهم لاستطلاع رأي النبي ﷺ قبل أن يُحكِّموه في شأن الخلاف الذي جرى بينهم، نحو تطبيق حد القتل الذي اصطلحوا عليه.

وهذا التصرف من المنافقين هو نوع من سلوكهم المنحرف في معاملتهم مع المؤمنين، لأنهم حينما جاءوا إلى النبي ﷺ يستكشفون رأيه بإيعاز من اليهود كانوا يخفون عنه مقصدهم.

ومن هذا ندرك مدى العلاقة القوية التي تربط بين المنافقين والكفار، فالمنافقون صنائع الكفار، يستخدمونهم في الوصول إلى أغراضهم التي يريدون النيل فيها من المسلمين.

بيان النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يا من أرسلته برسالتي إلى الناس جميعا لا تغتم من أجل الكفار الذين يسارعون في الوقوع في الكفر، ويتقلبون في فنون من عداوة الإسلام وأهله، رغبة منك في هدايتهم، فإنما أنت رسول وليس على الرسول إلا البلاغ، أو خوفا على مستقبل دعوتك منهم فإن الله معك وسيحبط أعمالهم.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين الذين أظهروا لكم الإيمان بألسنتهم وأبطنوا الكفر في قلوبهم، فلا تحزن على إسراعهم في خدمة الكفار من اليهود، وتنفيذهم مخططاتهم التي يملونها عليهم، فإنهم لم يؤمنوا بالإسلام حقا، حيث لم يتجاوز إيمانهم ألسنتهم، ومن كان إيمانه بهذه الصورة لم يستنكر منه هذا السلوك المنحرف.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من اليهود، الذين تركوا حكم كتابهم وأرادوا منك أن تحكم بينهم بالباطل.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي هم سماعون للكذب مبالغون في سماعه، فهم قوم لا يريدون الصدق ولا الوصول إلى الحق، ومن كانت هذه صفته فلا ينبغي أن يُعتنى بأمره لأنه صاحب هوى.

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي هؤلاء الذين حضروا إليك أيها الرسول من اليهود أو المنافقين سماعون لأجل قوم آخرين من اليهود لم يحضروا إليك، وإنما أرسلوا هؤلاء الذين أتوك ليكتشفوا رأيك في قضيتهم.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ الضمير يعود على القوم الآخرين، والكلم هو كلام الله تعالى في التوراة، أي يميلونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها إما بتغيير ألفاظه، وإما بتأويل معناه على غير ما أراد الله منه.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ﴾ أي يقول القوم الآخرون الذين لم يأتوا إلى النبي ﷺ للذين أتوا إليه، أو يقول بعضهم لبعض: إن أفتاكم محمد بما اصطلحتم عليه من العقوبات فاقبلوا حكمه، وإلا فاحذروا منه أن ينفذ حكم الله فيكم.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ أي ومن يشأ الله وقوعه في الضلالة بعد معرفته الهدى فلن تستطيع دفعها عنه، لأن الهداية والتثبيت عليها بيد الله وحده. وقد وقع المنافقون في حبائل اليهود حيث اتخذوهم لهم صنائع، ووقع عامة اليهود في حبائل أحبارهم الذين زينوا لهم مخالفة شريعة الله والميل مع الهوى.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ أي أولئك المذكورون من اليهود والمنافقين هم الذين ارتكست قلوبهم في الغواية، وانقادت لنوازع الهوى والشهوات، فلم يبق فيها متسع لنوازع الخير فلا أمل في هدايتهم.

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ﴾ أي عار وفضيحة، وقد افتضح اليهود بظهور كذبهم واحتيالهم على الله وعلى الناس، وعاشوا حياة التشرد والمهانة حيث أُجلوا عن أوطانهم، وانكشف المنافقون وظهرت حقيقتهم للمؤمنين، فعاشوا بعد ذلك في خوف وذل حتى انقضت حياتهم.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم مع ذلك الخزي في الدنيا عذاب هائل في الآخرة، وهو الخلود في نار جهنم.

* * *

٥- المنافقون في بدر وجهلهم بعوامل النصر

النص القرآني في ذلك:

قال الله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٩].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج ابن جرير من حديث عامر الشعبي في هذه الآية ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ قال: كان ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام وخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[١].

٢- أخرج ابن جرير من طريق حجاج عن ابن جريج قال في هذه الآية: ناس كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر، وهم يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا[٢]: يعني عدد المسلمين في بدر.

٣- أخرج ابن جرير من حديث مجاهد بن جبر في قوله ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ قال: فئة من قريش، أبو قيس بن الوليد ابن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة

---

(١) جامع البيان ١٠/ ٢١.

(٢) جامع البيان ١٠/ ٢١.

وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم فَشُرِّد بهم من خلفهم[1].

٤ - أخرج ابن هشام عن ابن إسحاق أنه قال في هؤلاء النفر: وكان الفتية الذين قتلوا ببدر فنزل فيهم القرآن فيما ذكر لنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء: ٩٧] فتية مُسَمَّين.. ثم ذكر أسماءهم كما ذكرهم مجاهد في الرواية السابقة، وذكر أنسابهم، ثم قال: وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة وفتنوهم فافتتنوا، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا به جميعا[2].

وأخرج هذا الأثر أيضاً ابن جرير بسند صحيح إلى ابن عباس لكن ليس فيه ذكر أسماء هؤلاء المذكورين.

والذي يؤخذ من هذه الروايات أن هذه الآية نزلت في فئة من أهل مكة، كانوا مسلمين حينما كان النبي ﷺ في مكة، فلما هاجر فتنهم أهلوهم فافتتنوا عن الإسلام ولم يهاجروا، ثم خرجوا مع قومهم يوم بدر فازدادوا فتنة عن الإسلام لما رأوا قلة المؤمنين، ونطقوا بهذا الكلام الذي حكاه الله عنهم، وهذا يَردُ عليه أنهم حينما افتتنوا يعدُّون مرتدين ولا يعدُّون منافقين إلا إذا أظهروا الإيمان للمؤمنين، وهؤلاء لا تتوافر فيهم بواعث

---

(١) جامع البيان ١٠/ ٢١ وإسناده مردود لأنه فيه عبد العزيز بن أبان الأموي وهو متروك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣٠.

النفاق لوجودهم بين المشركين، ولكن يحتمل أنهم لازالوا يظهرون الإيمان للمسلمين مداراة منهم لهم، أو خوفا من انتصارهم على أعدائهم في الجولة الأخيرة.

وقت نزول هذا النص:

تبين لنا من عرض ما قيل في سبب النزول أن هذه الآية من جملة ما نزل من الآيات عقب معركة بدر، وقد كانت هذه المعركة في شهر رمضان من السنة الثانية كما ذكر ابن إسحاق[1].

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

هذه الآية في غزوة بدر كما تبين من الروايات السابقة، وقد أخرج ابن هشام خبر هذه الغزوة عن ابن إسحاق قال: فحدثني محمد بن مسلم الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله ابن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن ابن عباس، كلٌّ قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر... ثم ذكر خبر هذه الغزوة وكان مما ذكر أن النبي ﷺ لما سمع بأبي سفيان مقبلا من الشام بحملته التجارية ندب المسلمين إليهم، وقال: وهذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا، وخرج رسول الله ﷺ في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا من أصحابه،ولكن أبا سفيان جاءه خبر خروج النبي ﷺ فأرسل إلى قريش يستنفرهم إلى أموالهم، وسار بالقافلة من طريق الساحل فنجا بقافلته، أما قريش فقد خرجت لحماية عيرها بجيش يبلغ حوالي ألف مقاتل، فلما نجا أبو سفيان أرسل إلى قريش لترجع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٢٩٢ لابن هشام.

نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزر ونطعم الطعام، ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها فامضوا فمضوا إلى بدر، أما رسول الله ﷺ فقد استشار أصحابه في الحرب لما نجا أبو سفيان وأخبر الصحابة بأن الله قد وعده إحدى الطائفتين فتردد بعض أصحابه أول الأمر بحجة أنهم لم يستعدوا للقتال وإنما خرجوا للعير، ولكنهم ثبتوا بعد ذلك وقويت نفوسهم تأثرا بالموقف الحازم الذي وقفه بعض كبار الصحابة كأبي بكر وعمر والمقداد وسعد بن معاذ، فمضوا والتقوا بعدوهم على غير ميعاد[(١)] .

وكان جيش الكفار يضم عددا من المنافقين وضعفاء الإيمان ممن دخل في الإسلام من أهل مكة، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم.

وعند التقاء الصفين أبصروا جيش المؤمنين فإذا هو قليل العَدد ضعيف العُدد، حيث لم يكونوا يزيدون عن ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا[(٢)] ونظروا إلى جيش الكفار فرأوه يبلغ حوالي ثلاثة أضعاف جيش المسلمين[(٣)] ويتفوق كثيرا عليه في العُدد فزادت فتنتهم عن الإسلام، وقويت فيهم دوافع الكفر، وظنوا أن «بدرًا» ستكون مقبرة للمؤمنين من أول جولة يقومون بها مع الكفار، ونطقوا بكلمات السخرية من المؤمنين والتحقير لهم، واطمأنت نفوسهم إلى الكفر الذي كانوا قد جعلوه محل موازنة مع الإيمان قبل ذلك، ولم يبق هناك مجال لترجيح الإيمان بعدما شاهدوا ضخامة جيش الكفار وقوته، أمام ضآلة جيش المؤمنين وضعفه، وتوقعوا السحق الكامل، والإبادة التامة للمسلمين على يد كفار

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٤ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي باب عدة أصحاب بدر (فتح الباري ٧/ ٢٩٠).

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٨.

قريش، فأعلنوا كفرهم حينما وصفوا هذا الدين بأنه مجرد خيالات وأوهام علق بها أصحابه فأسلمهم إلى هذا المصير المشئوم الذي ينتظرهم.

بيان النص:

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ أي اذكروا إذ يقول، فالظرف متعلق بفعل مقدر كما ذكر أبو البقاء[1].

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المنافقون هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر كما سبق، والذين في قلوبهم مرض هم الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فلم يكن له أثر في السيطرة على تصرفاتهم، وقد جاء في القرآن إطلاق هذا التعبير على المنافقين في عدة آيات على سبيل الإخبار عنهم كقوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة: ١٠] وقد يسميهم بذلك كقوله تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾[المائدة: ٥٢].

وإنما أطلق هذا التعبير على المنافقين لأن النفاق من أمراض القلب، بل هو أعظمها أثرًا في إفساد سلوك الإنسان، ولكن حينما يُذكر المنافقون ثم يعطف عليهم الذين في قلوبهم مرض؛ يكون المراد بالذين في قلوبهم مرض من قد دخل الإيمان قلوبهم ولكن بصورة ضعيفة بحيث لا يتحكم في تصرفاتهم، ولا يحميهم من الوقوع في الشبهات التي تزلزل إيمانهم الضعيف.

المعنى: اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ هزم أعداءكم حينما التقيتم بهم، بعدما استضعفوكم وقال المنافقون منهم والذين في قلوبهم مرض بعدما رأوا قلة عددكم

---

(١) إملاء ما مَنَّ به الرحمن ٣/ ١٢١.

وضعف عدتكم أمام كثرة الكفار وقوة عدتهم: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ والغرور هو الخداع والإطماع بالباطل[1] وذلك بتصوير الأمور المتخيلة بصورة الأمور الواقعية، حتى يخدع الإنسان بها فيطمع فيها لا حقيقة له. أي لقد خدع هؤلاء المؤمنين دينهم حينما غامروا بأنفسهم وأسلموها للموت المحقق من أجل نصرته وحمايته طلبا للثواب في الحياة الأخرى.

فهؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض قد استنكروا ذلك الإقدام العجيب من المؤمنين؛ على الدخول في معركة غير متكافئة، وعدُّوه تهورا واتهموا الدين بأنه خداع وتضليل حيث دفع المؤمنين به إلى ذلك التهور الذي سيكون سببا في القضاء عليهم.

أما الباعث لهم على هذا الاستنكار الذي حملهم على القدح في الإسلام فهو الجهل بأسباب النصر الحقيقية، في معركة تقوم بين الكفر والإيمان بالله تعالى، لأنهم لايعرفون من عوامل النصر إلا العوامل التي ألفوها في حروبهم في الجاهلية، من قوة السلاح ووفرة الخيل والرجال والشجاعة والخبرة الحربية، فلما رأوا هذه العوامل تتوافر في جيش الكفار من قريش، بينما ينقص جيش المسلمين وفرة الرجال والخيل والسلاح؛ حكموا بأن النصر سيكون لقريش، وسخروا من الإسلام الذي حمل المؤمنين به على الوقوع في المهالك.

وقد بين سبحانه وتعالى في آخر الآية أن عوامل النصر الرئيسية في معارك الكفر والإيمان تتركز في الاعتماد على الله وحده، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ومن يعتمد على الله وحده في طلب النصر فهو جدير بأن ينصره على عدوه، لأن الله قوي غالب على أمره، يحمي أولياءه المؤمنين ويخذل أعداءه الكافرين، حكيم يضع الأشياء في مواضعها، فلا ينصر إلا من يستحق النصر.

---

(١) القاموس المحيط.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء النص:

قبل أن أتكلم عن واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص أحب أن أبين عوامل النصر الرئيسية بشيء من الإيضاح، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عوامل النصر هذه قبل هذه الآية بآية واحدة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[الأنفال: ٤٥ - ٤٧].

فعوامل النصر -كما ترشد إليها هذه الآيات- هي:

١- الثبات عند لقاء العدو مهما كان عدده ومهما كانت عُدَده، ولا يجوز الفرار يوم الزحف إلا فيما استثناه الله سبحانه بقوله ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾[الأنفال: ١٦].

٢- الإكثار من ذكر الله عند ابتداء المعركة وفي أثنائها، فدخول المعركة يجب أن يكون باسم الله وحده لا باسم الشعارات الجاهلية، وأن يستمر المجاهدون في ذكر الله إلى نهاية المعركة بالقلب واللسان، فلا جدوى من الذكر باللسان مع غفلة القلب عن تذكر عظمة الله عز وجل، وأنه هو الذي بيده مقاليد الأمر من النصر أو الهزيمة، وقد كان النبي ﷺ يشتغل بذكر الله ودعائه عند لقاء العدو، فقد ناشد ربه يوم بدر وكان من قوله: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد» أخرجه البخاري[1].

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي باب قوله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ (فتح الباري ٧/ ٢٨٧).

وأخرج الشيخان عن عبد الله بن أبي أوفى أن النبي ﷺ قام في بعض أيامه التي لقي فيها العدو وقال: «اللهم منزل الكتاب ومجريَ السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»[(١)].

وقد كان النبي ﷺ يأمر الغزاة بأن يدخلوا المعركة مع الكفار باسم الله وفي سبيله وحده، كما روى مسلم عن بريدة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله...» الحديث[(٢)].

٣ - الالتزام بطاعة الله عز وجل، وذلك بأن يتصرف المجاهد فيما يرضي الله ويجتنب ما يسخطه كالغدر والخيانة، وإيثار النفس وتشويه نية الجهاد لإعلاء كلمة الله بمقاصد أخرى، فإذا التزم المجاهدون بذلك كان من دواعي نصر الله إياهم، أما إذا خالفوا أمره فإنه يخذلهم وقد يسلط الكفار عليهم عقوبة لهم.

٤- الالتزام بطاعة القائد في تنفيذ الخطط التي يأمر بها فإن معصية القائد سبب في وقوع الفشل والهزيمة، وقد أمر الله سبحانه بطاعة الرسول ﷺ في حال ملاقاة الأعداء لأنه هو القائد الأعلى، وأمر بطاعته باعتبار كونه رسولا لأن طاعته بهذا الاعتبار أوجب وألزم.

٥- المحافظة على اتحاد الكلمة واتفاق الرأي، فإن التنازع والاختلاف بين أفراد الجيش يعدُّ انهزامًا منه قبل الدخول في المعركة، فكيف يلقى عدوه وهو متشتت الفكر

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب «كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار (فتح الباري ٦/ ١٢٠) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب كراهة تمني لقاء العدو (ص١٣٦٢).

(٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء (ص١٣٥٧).

مختلف الرأي؟ وهل يبقى له بعد ذلك قوة؟ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ أي قوتكم.

٦- الصبر على حر القتال واشتداد البأس وإن طال أمد الحرب، فإن ما يشعر به المسلم من ألم القتل والجراح يشعر به الكافر كذلك، والمسلم يرجو من ثواب الله الذي يحمله على الإقدام والصبر ما لا يرجوه الكافر كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٠٤] فمن العار على المسلم وهو يسعى إلى تحقيق هذا الهدف السامي أن يجزع مما يُقْدم عليه الكافر الذي يسعى إلى تحقيق أهداف قريبة وضيعة.

وقد كان النبي ﷺ يوصي المؤمنين بالصبر عند اللقاء كما في قوله ﷺ: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». أخرجه الشيخان[1] وفي هذه الآيات أثبت الله سبحانه معيّته للمؤمنين إذا صبروا ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٧- الاحتراز عن معوقات النصر وذلك بالبعد عن الفخر والخيلاء والإعجاب بالنفس فإن هذه الأمور وأشباهها تقطع عن المجاهد نصر الله ومدده وتكله إلى نفسه كما تجعله غير متأهب للقاء الأعداء التأهب اللازم لأنه قد استهان بهم، وقد نهانا الله سبحانه في هذه الآيات عن أن نكون مثل الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطرا[2] ورياء حيث

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل إلخ.. (الفتح ٦/ ١٢٠) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب كراهية تمني لقاء العدو (ص١٣٦٢).

(٢) البطر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها كما قال الراغب في «المفردات».

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

فهذه هي أسباب النصر المعنوية التي لها قيمتها الكبرى في حصول النصر على الأعداء، وهناك الأسباب المادية التي ذكرها الله سبحانه بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فهذه أيضا لا يجوز التهاون بها، بل يجب على المؤمنين أن يستعدوا استعدادا تاما من هذه الناحية حسب الاستطاعة، وهذه الناحية مشتركة بيننا وبين أعدائنا وإنما الشيء الذي نملكه ويفقدونه هو القوة المعنوية، التي تنشأ من الاعتماد على الله عز وجل وشعور المؤمن بأنه في صف الله وأن الله معه ولن يخذله، ما دام قد دخل المعركة باسمه وفي سبيله وحده.

والباعث على الجهل بأسباب النصر المعنوية أو الغفلة عنها هو عدم هيمنة الإيمان بالله تعالى على مشاعر النفس، فتنصرف إلى الإيمان بالأشياء الحسية التي تشاهدها، وتعتمد عليها في الوصول إلى النصر، وهذا ما وقع من المنافقين يوم بدر لأنهم لا يؤمنون بالله حقا، فلم يبق إلا أن يؤمنوا بعوامل النصر المادية من كثرة العَدد وقوة العُدد.

ولقد كان لهذه الآيات البينات أثر بالغ على حياة المسلمين بعد ذلك، فقد كشفت لهم عوامل النصر الحقيقية التي يجب عليهم أن يلتزموا بها في قتالهم مع الكفار، كما بينت لهم أن الغفلة عن هذه العوامل والاعتماد على الأسباب المادية إنما هو من صفات المنافقين ومرضى القلوب، الذين هم بعيدون عن ذكر الله والاستعانة به.

ومع ذلك فقد غفل بعض المسلمين في حياة النبي ﷺ عن تطبيق بعض هذه العوامل فأصيبوا مرتين: المرة الأولى في غزوة أحد بسبب عصيان بعض الرماة أمر النبي

ﷺ في نزولهم عن مركزهم الذي حدده لهم كما سيأتي، والمرة الثانية في غزوة حنين حينما قال بعض المسلمين: «لن نغلب اليوم من قلة» فأُعجبوا بكثرتهم، كما روى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن الربيع بن أنس قال: «قال رجل يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة»[1].

ولقد نزلت الآيات القرآنية تبين خطأ المؤمنين في عدم التزامهم بهذه العوامل، وأن ذلك كان سبب فشلهم، فقال تعالى في غزوة أحد ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾[آل عمران: ١٥٢] وقال في غزوة حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥].

ولقد كان لهذا التوجيه أثره الكبير على الصحابة رضي الله عنهم بعد ذلك فانطلقت جيوشهم تفتح المشرق والمغرب، والشمال والجنوب بسرعة عجيبة، وتفوق مدهش، فلم تنتكس لهم راية في الفتح الإسلامي، إلا في وقائع نادرة نتيجة غفلة طارئة عن تطبيق بعض هذه العوامل، كما حصل من عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه حينما أقدم على قتال مسيلمة الكذاب قبل أن يصل إليه المدد الذي أرسله أبو بكر رضي الله عنه، فكانت النتيجة انهزام عكرمة لمخالفته أمر أبي بكر رضي الله عنه[2].

ولقد تقاصرت أنظار المسلمين بعد ذلك شيئا فشيئا عن ملاحظة تلك العوامل المذكورة في هذه الآيات، واتجهوا إلى العوامل المادية فقط، إضافة إلى انحرافهم في

---

(١) فتح الباري ٨/ ٢٧.

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣/ ٢٨١.

الأهداف حيث تركوا القتال لإعلاء كلمة الله، واتجه الولاة إلى القتال من أجل الملك. وقد نشأ عن ذلك أمور أفسدت مفهوم الجهاد في سبيل الله، فبعد أن كان المقاتل يطلب بقتاله نصر المسلمين، وإعلاء كلمة الله، انصرف لطلب رضا الولاة والتقرب إليهم.

وبعد أن كان حريصا على نيل الشهادة التي تُعجل به إلى اقتطاف ثمرة جهاده، أصبح حريصا على حياته حتى ينال ثمرة جهاده ممن جاهد من أجلهم.

وبعد أن كان يحمى المقاتل معه ليسبقه إلى الشهادة أصبح يحتمى به ليُبقي به حياته.

فبهذا ضعف المسلمون عن الجهاد، فتوالت عليهم الهزائم وتفرقت دولتهم وتسلط عليهم الأعداء من المشرق والمغرب، فدهمهم التتار من المشرق حتى فرقوا شلمهم وأهانوا كرامتهم، واستولوا على قسم كبير من بلاد الإسلام، كما أتى الصليبيون قبل ذلك من المغرب وقاموا بحملات عنيفة على المسلمين حتى استولوا على بيت المقدس وأقاموا فيه شعائرهم، ولم يقهر الصليبيين ولا التتار إلا الإسلام، لما وجد من يحمله ويمثله على وجه الأرض حيث قام الإمام العادل نور الدين، ومن بعده صلاح الدين برفع لواء الجهاد الإسلامي، بعد ما نكس فترة طويلة من الزمن، وجاهدا الصليبيين بقوة وحزم، حتى كانت معركة حطين، التي كانت المعركة الفاصلة بين المسلمين والصليبيين، وكانت بقيادة صلاح الدين، وتلاها بعد ذلك انتصارات للمسلمين حتى فتحوا بيت المقدس[(١)].

ولما جاء التتار وقاموا بالأعمال الوحشية التي تقشعر لها الأبدان، أصاب المسلمين منهم رعب عظيم، حتى اعتقدوا أنه لا يمكن أن يقاومهم أحد، ولكن بفعل الصيحات المخلصة التي قام بها بعض علماء الإسلام، من أمثال عز الدين بن عبد السلام ومن بعده ابن تيمية رجع المسلمون إلى فهم الجهاد الإسلامي، والاعتقاد بنصر الله فقويت نفوسهم، وصحت عزائمهم واستطاعوا أن يدحروا التتار، حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٢٠، الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٣٤ - ٥٤٦.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٥ - ٢٣، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٢.

هذان مثلان من تاريخ المسلمين.. وما أكثر الأمثال في تاريخنا التي تتعاقب فيها حوادث الانتصار، وحوادث الانكسار المبنية على أسبابها المؤدية إليها، ولكن المسلمين ينسون سريعا ويغفلون كثيرًا.

وإننا لنرى في واقعنا اليوم أن الاعتماد على الأسباب المادية بلغ حدا لا مثيل له فيما مضى، وإنما يرجع ذلك إلى عاملين:

أولاً: ضعف الإيمان في قلوب كثير من المسلمين، إلى حدٍّ جعلهم لا يتذكرون معية الله لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، ولا يفكرون في طلب النصر منه إلا قليلا.

ثانيًا: مقدار ما توصل إليه المخترعون في هذا العصر من الرقي المادي، والتفنن في إعداد الأسلحة الفتاكة، فذهل المسلمون لما رأوه من رقي في هذه الناحية، وقصروا تفكيرهم على هذا العامل وحده، وغفلوا عن عوامل النصر الأخرى التي سبق ذكرها والتي هي أهم من هذا.

ولقد بلغ بهم الإفراط في اعتبار هذا العامل، والتفريط في اعتبار العوامل المعنوية السابقة، إلى حدٍّ جعل بعضهم يركنون إلى الكفار، ويعتزون بصداقتهم، ويستنجدون بهم وقت الشدائد، وقد غفلوا عن أن الكفار مهما اختلفوا فيما بينهم لا يمكن أن يتفقوا على شيء كاتفاقهم على حرب الإسلام والمسلمين، وإنهم ليفزعون من تصور الجهاد الإسلامي، ويحاولون بكل وسيلة أن يشوهوا تعاليمه السامية، وأن يصوروه بشكل يثير الاشمئزاز، محاولين بذلك تضليل المسلمين والقضاء على روح الجهاد في نفوسهم، لما يعرفونه من تاريخ المسلمين الأوائل الذين فتحوا المشرق والمغرب في سنوات معدودة، حينما رفعوا لواء الجهاد في سبيل الله، لنشر هذا الدين الحنيف، ولما يعرفونه من نتائج الحروب الصليبية التي لا تزال قائمة في أذهانهم.

وإن الذين يدركون عوامل النصر الحقيقية قليلون، وهم أيضا بعيدون عن مراكز القيادة، ولذلك أثرت القيادة السيئة التي توالت على المسلمين في هذا العصر على أفكار الكثير منهم، فأصبحوا لا يفكرون إلا في الارتماء في أحضان الدول الكافرة، التي تملك من القوة المادية ما أعشى أبصار هؤلاء المخدوعين، وأعمى بصائرهم عن إدراك الحقيقة، وإن الله سبحانه الذي أنزل ملائكته لنصر المسلمين في بدر وحنين، وأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ونصرهم بما يشبه خوارق العادات.. هو لا يزال مع أوليائه المؤمنين إذا هم صدقوا في الالتجاء إليه، وباعوا أرواحهم رخيصة في سبيل إعلاء كلمته، ولقد حفظ لنا التاريخ أمثلة عديدة لنصر الله المسلمين إذا اعتمدوا عليه، وأخلصوا نيتهم للجهاد في سبيله، كما حفظ لنا أمثلة أخرى لخذلانه إياهم مهما بلغت قوتهم؛ إذا انصرفوا عنه واعتمدوا على قوتهم، فضلا عن رفض الإسلام ورفع شعارات الجاهلية.

ويشبه أولئك المنافقين الذين سخروا من المؤمنين يوم بدر كثير من المسلمين اليوم، فإذا رأوا طائفة من المؤمنين تؤدي واجبها في الدعوة إلى الله، وإزالة المنكر الذي تحميه القوة، سخروا من أفراد هذه الطائفة، ورموهم بالتعصب والتهور وضعف الرأي، ولقد جهل هؤلاء المدّعون أو غفلوا عن أن هذه الطائفة ليست إلا منفذة لأمر الله عز وجل في مثل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

* * *

القسم الثاني

المنافقون بعد «بدر»

وفيه مباحث:

١- استهانة المنافقين بالأعراض من أجل المال.

٢- انتصارهم للكفار ضد المؤمنين.

٣- اعتصام بعض اليهود بالنفاق.

٤- أثر المحن في تمحيص المجتمع الإسلامي.

٥- التحاكم إلى غير ما أنزل الله من صفات المنافقين.

٦- المنافقون في «أحد».

مما لا شك فيه أن معركة بدر كان لها أثر كبير على أعداء الإسلام في المدينة من اليهود والمنافقين، فإن انتصار فئة قليلة من المؤمنين لم تخرج للقتال على جيش كبير قد خرج للقتال وهو بكامل استعداده ليس بالأمر الهين.

ولقد كان هذا الانتصار كافيا لإقناع المترددين في أمر الدخول في الإسلام بأنه دين عزيز، وأنه يملك قوة أعلى من قوة البشر التي ألفوها.. هذه القوة هي التي تنصره على أعدائه وتدافع عنه وقت الشدائد.

ولقد أوقع الله الرعب في قلوب الذين شَرِقوا بالإسلام من أهل المدينة، والمترددين منهم -حينما رأوا تلك الفئة القليلة من المؤمنين تطيح بعزة أعلى قبيلة في العرب، قد خرجت بفخرها وخيلائها- فخضعوا للإسلام وأعلنوا الدخول فيه.

ومن أولئك الذين تظاهروا بالإسلام بعد بدر، عبد الله بن أبيّ ابن سلول كما روى البخاري عن أسامة بن زيد ﷺ أنه قال:... فلما غزا رسول الله ﷺ بدرا فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبيّ ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا [1].

ولقد كشفت الأحداث بعد ذلك عن كذب كثير منهم في دعوى الإسلام، كما كشفهم الله سبحانه وتعالى بصفاتهم، وبيّن نواياهم السيئة بالإسلام والمسلمين.

وقد كانت غزوة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية، وغزوة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة، ومن أهم حوادث هذه الفترة بالنسبة للمنافقين؛ موقف عبدالله بن أبيّ من إجلاء يهود بني قينقاع، وبهذا الموقف ظهرت العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين في المدينة.

---

(١) صحيح البخاري وكتاب التفسير باب «ولا يحسبن الذين يبخلون» الآية «فتح الباري ٨/ ٢٣١».

وقد اتخذ النفاق في هذه الفترة شكلا من التخفي والحذر أكثر من الفترات التي تلت هذه الفترة، ولم يُؤْثر عن المنافقين آنذاك شيء من كلمات السخرية والنقد، ولا شيء من أعمال الكيد الظاهر، بل كانوا يتظاهرون بتأييد دعوة الإسلام والثناء على النبي ﷺ إمعانا منهم في النفاق، ومن ذلك أن عبد الله بن أبيّ كان يقوم في كل جمعة فيثني على رسول الله ﷺ ويأمر الناس بتأييده.

وكان الدافع لهم إلى هذا السلوك خوفهم من المؤمنين بعد انتصارهم الباهر في بدر، وعدم مرورهم بالتجارب التي مروا بها بعد ذلك، من عفو النبي ﷺ عنهم وإغضائه عن هفواتهم، إلى أن سنحت لهم الفرصة في غزوة أحد حينما قابل المؤمنون جيش قريش الذي يبلغ ثلاثة أضعافهم، فحاولوا تثبيط المؤمنين وتخذيلهم عن نصرة رسول الله ﷺ إلى أن نجحوا في استمالة بعضهم، فرجعوا بثلث الجيش الإسلامي، وخانوا المؤمنين في ذلك الموقف الحرج، وكان لمن بقي منهم مع المؤمنين بعض الأثر في إصابتهم، ثم لما ظهرت نتيجة المعركة على ما يتمناه هؤلاء المنافقون، أظهروا الشماتة بالمؤمنين كما سيأتي.

١ - استهانة المنافقين بالأعراض من أجل المال

النص القرآن في ذلك:

قال تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النور: ٣٣].

بيان من نزل فيه النص:

١ - أخرج الإمام مسلم بسنده عن جابر ﷺ قال كان عبد الله بن أبيّ ابن سلول يقول لجارية له: اذهبي فابتغينا شيئا، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ -لهن- غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وقوله «لهن» قال الإمام النووي: هكذا وقع في النسخ كلها «لهن غفور رحيم» وهذا تفسير ولم يُرَد به أن لفظة «لهن» منزلة، فإنه لم يقرأ بها أحد، وإنما هي تفسير وبيان يردّان المغفرة والرحمة لهن، لكونهن مكرهات لا لمن أكرههن[2].

وقد ورد ذلك في قراءة ابن مسعود ﷺ كما أخرج ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن جبير قال: في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ- لهن- وإثمهن على من أكرههن﴾[3].

والظاهر أن هذه القراءة من باب التفسير والبيان كما قال النووي، وفي رواية لمسلم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾ الآية حديث رقم ٢٦.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ١٦٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٣.

عن جابر أيضا: أن جارية لعبد الله بن أبيّ بن سلول يقال لها مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

٢ - أخرج ابن جرير من طريق معمر عن الزهري أن رجلا من قريش أسر يوم بدر، وكان عند عبد الله بن أبيّ أسيرا[2] وكان لعبد الله جارية يقال لها معاذة، فكان القرشي الأسير يريدها على نفسها، وكانت مسلمة فكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان ابن أبيّ يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده فقال الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ قال الزهري: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهن ما أكرهن عليه[3].

والذي يتلخص من هذا أن عبد الله بن أبيّ المنافق كان قد اتخذ له جواري يكتسب منهن عرض الحياة الدنيا، فكان يكرههن على الزنا لهذا الغرض، فأنزل الله سبحانه هذه الآية للنهي عن هذا السلوك المنحرف.

وقت نزول هذا النص:

من رواية الزهري السابقة يتبين لنا أن هذه الآية قد نزلت عقب معركة بدر، لأن فيها أن ابن أبيّ كان يُكره جاريته على البغاء مع الرجل الذي كان في حوزته من أسرى بدر، وقد كانت معركة بدر في السنة الثانية كما سبق.

---

(١) صحيح مسلم كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾ حديث رقم (٢٧).

(٢) في تفسير ابن جرير: وكان عبد الله بن أبي أسره وهو خطأ لأن عبد الله بن أبي لم يشهد بدرًا والتصحيح من تفسير ابن كثير لأنه ذكر هذه الرواية ٣/ ٣٠٢.

(٣) جامع البيان ١٨/ ١٣٣.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

تبين لنا من عرض سبب النزول أن بعض أهل الجاهلية كانوا يُكرهون مَن تحت أيديهم من الإماء على الزنا من أجل تحصيل المال، ومن هؤلاء عبد الله بن أبيّ المنافق الذي كان يستخدم جواريه لهذا الغرض.

وإن في هذا العمل القبيح انتهاكا للأعراض، واستهانة بالكرامة الإنسانية، وهبوطا بها إلى مرتبة الحيوان، كما أن في تيسير انتشار الزنا بهذه الصورة فسادا للمجتمع الصالح، إذ إن ضعفاء الإيمان قد لا يقْدمون على ارتكاب الفواحش إذا كان في إقدامهم عليها شيء من الخطورة، أما إذا تيسرت لهم أسبابها فإنهم ينجرفون في تيارها فيخسرون بذلك كرامتهم الإنسانية، وهذا ما يريده المنافقون للمجتمع الإسلامي.

وإن الدافع الأول للإقدام على هذه الجريمة هو الحصول على المال، وفي سبيل هذا المطلب الحقير يستهين بعض الناس بالفضائل والقيم الإنسانية النبيلة، فيضطرب بذلك المجتمع وينتشر فيه الفساد والدمار.

بيان مفردات النص:

البغاء: من البغي وهو مجاوزة الحد، والمراد بالبغاء الزنا يقال بغت المرأة تبغي بغاء إذا زنت فهي بغيٌّ، جعلوا البغاء على زنة العيوب كالحران والشّراد لأن الزنا عيب[(١)].

تحصُّنا: أصل الإحصان المنع، ومنه سُمِّي الحصن بذلك لأنه يمنع ساكنيه، والمرأة تكون محصنة بالإسلام وبالعفاف والحرية والزواج[(٢)]، والمراد به هنا التحرز من الزنا والتعفف منه.

---

(١) النهاية لابن الأثير، المفردات للراغب.

(٢) نفس المرجعين السابقين.

عرض: العرض بفتح الراء متاع الدنيا وحطامها، وأصله مالا ثبات له[١].

بيان معنى النص:

بعد أن أمر الله الأولياء بتزويج من تحت أيديهم من الأحرار والعبيد بقوله تعالى ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وأمر من لم يتيسر لهم الزواج بأن يجتهدوا في إعفاف أنفسهم حتى يغنيهم الله من فضله، بقوله ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وبعد أن أمر السادة بمساعدة من تحت أيديهم من العبيد على تحرير أنفسهم بقوله ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ حذرهم سبحانه من أن يستغلوا ضعف إمائهم، فيتخذوا من أعراضهن وسيلة للكسب الدنيوي، حيث قال تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ﴾ أي ولا تجبروا أيها المالكون من تحت أيديكم من الإماء على الزنا وهن يردن العفاف، لتطلبوا بذلك متاع الحياة الدنيا.

وقوله ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي بصورة إرادة التعفف من الزنا لكن للتشنيع على من أكرههن وهن يردن التحصن، فإنه أشد من بعثها عليه وهي تريده، وإنما عبر سبحانه وتعالى بهذا التعبير لأن الإكراه على الزنا لا يتأتى إلا مع إرادة التعفف[٢]، وليقبّح عند المخاطب الوقوع في هذه الرذيلة، إذا تصور أن أمَته خير منه

---

(١) نفس المرجعين السابقين.

(٢) الكشاف ٣/ ٦٦.

لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها عليها[1].

وقوله ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بيان للغالب في مقصد الأولياء من إكراه فتياتهم، وإلا فالأمر بالزنا محرم ولو لغير هذا الهدف.

وفيه تشنيع على من فعل ذلك حيث أهدر كرامة العفائف من أجل متاع الدنيا الزائل.

ثم بين سبحانه وتعالى أن الإثم في ذلك يرجع على من أكرههن، أما الإماء المكرهات فإن الله يغفر لهن ما وقعن فيه من الذنب؛ لأنه لا اختيار لهن في ذلك، حيث قال تعالى ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لهن كما سبق في رواية مسلم، وكما سبق في قراءة ابن مسعود «غفور رحيم لهن وإثمهن على من أكرههن» وقد أخرج ابن جرير هذا التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق ابن أبي طلحة[2].

(١) الانتصاف ٣/ ٦٦.

(٢) جامع البيان ١٨/ ١٣٣.

٢- انتصارهم للكفار ضد المؤمنين

النص القرآني:

قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ۝ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾[المائدة: ٥١ - ٥٣].

بيان من نزل فيه النص:

هذه الآيات وآيات بعدها نزلت في زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، حينما شفع لمواليه يهود بني قينقاع عند النبي ﷺ، وألح عليه في أن يعفو عنهم. وقد أخرج ابن هشام عن ابن إسحاق قال: وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول وقام دونهم، قال: ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبيّ فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، قال ففيه وفي عبد الله بن أبيّ نزلت هذه القصة من المائدة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وذكر الآيات إلى قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ

ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[المائدة: ٥١-٥٦] رواه ابن هشام عن ابن إسحاق[١] ورواه الطبري أيضا من طريق يونس بن بكير قال حدثنا ابن إسحاق به[٢].

وذكر ابن جرير القول عن مجاهد وقتادة بأن قوله تعالى ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قد عُني بها قوم من المنافقين كانوا يناصحون اليهود ويغشون المؤمنين[٣]، ولا منافاة بين هذا وبين ما ذكر من أنها نازلة في عبد الله بن أبيّ، لأنه كان زعيم المنافقين وهم مطيعون له فيما يأمرهم به.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات نزلت بمناسبة إجلاء يهود بني قينقاع، وقد تم إجلاؤهم بعد غزوة بدر، وقد مضى أن غزوة بدر كانت في شهر رمضان من السنة الثانية[٤].

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

تبين لنا مما مضى أن النبي ﷺ وادع اليهود بعد هجرته إلى المدينة، وعقد بينه وبينهم عهدا على المناصرة فيما إذا دهم المدينة عدو من خارجها، وقد استمر اليهود على هذه المعاهدة فترة ثم نقضوا العهد، وكان أول من نقض العهد منهم يهود بني قينقاع، كما ذكر ابن إسحاق[٥].

وأخرج ابن هشام عن ابن إسحاق قال: وكان من حديث بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بني قينقاع ثم قال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٩.

(٢) جامع البيان ١٠/ ٣٩٦.

(٣) جامع البيان ١٠/ ٤٠٣.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٦.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٧.

من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم، قالوا: يا محمد إنك ترى أنّا قومك[١] لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس[٢].

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول حين أمكنه الله منهم فقال: يا محمد أحسن في مواليّ وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله فقال: يا محمد أحسن في مواليّ، قال: فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول ﷺ: «أرسلني»، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُللا[٣] ثم قال: «ويحك أرسلني» قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر[٤] وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، قال فقال رسول الله ﷺ: هم لك[٥].

ثم أجلاهم النبي ﷺ من المدينة، وتولى إجلاءهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه[٦] وكان له من حلفهم مثل ما لعبد الله بن أبيّ ولكنه تبرأ منهم كما سبق في سبب النزول.

ومن هذا الخبر تتبين لنا العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين، حيث وقف عبد الله بن أبيّ مع أولئك اليهود وتمسك بحلفهم، ولا غرابة في ذلك فهم جميعا مشتركون في الكفر بالإسلام وعداوة النبي ﷺ.

---

(١) أي مثل قومك الذين حاربتهم في بدر.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٦.

(٣) جمع ظلة وهي ما يحجب ضوء الشمس وصحو السماء والمعنى تغير وجهه وتلون من الغضب «الروض الأنف ٥/ ٤٠٧».

(٤) أي غير لابس الدرع.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٨.

(٦) مغازي الواقدي ٢/ ١٧٩.

كما يتبين لنا صفة أخرى من صفات المنافقين وهي أنهم ما كانوا يتوقعون انتصار الإسلام في النهاية، بل كانوا يرجون زواله وانكسار شوكة المسلمين، ولذلك قال عبد الله ابن أبيّ: إني امرؤ أخشى الدوائر كما سبق، فقد كان يخشى زوال الإسلام ورجوع العصبية بين الأوس والخزرج كما هي عليه قبل الإسلام، فهو لذلك يريد أن يستبقى حلفاءه من اليهود، وهذا هو ديدن المنافقين جميعا، لأنهم لا يفهمون معنى الجهاد في سبيل الله، ولا يدركون ما لمعيَّة الله تعالى لأوليائه المؤمنين من الأثر في انتصارهم على أعدائهم، وإن كانوا أقوى منهم عدة وأكثر منهم عددا، ولم يسبق لأولئك المنافقين أن شهدوا من انتصارات المسلمين غير انتصارهم في بدر، وهذا الانتصار قد يفسرونه بأنه نتيجة خلل حربي وقع فيه جيش مكة.

وهذه الآيات تشير إلى واقع المجتمع الإسلامي في أول العهد المدني، فقد كان بين الأوس والخزرج واليهود في الجاهلية أحلاف وعهود على المناصرة، وكان بينهم إلى جانب ذلك صداقات ومودة بحكم الجوار الذي استمروا عليه دهرا طويلا، فلما جاء الإسلام وانتشر في المدينة بدأت تلك العلاقات بين الأنصار واليهود تنفصم شيئا فشيئا، حتى إذا أظهر اليهود العداوة للإسلام ونبذوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ تبرأ المسلمون منهم، وهذه البراءة تظهر جليا في موقف عبادة بن الصامت رضي الله عنه من يهود بني قينقاع، أما المنافقون فإنهم استمروا على ولائهم لليهود بل زادوا تمسكا به، لاتفاقهم مع اليهود على عداء الإسلام كما يظهر في موقف عبد الله بن أبيّ من بني قينقاع.

بيان مفردات النص:

أولياء: الولاية من والى يوالي ومعناه أن يلي كل واحد من الأمرين الآخر، قال الراغب: الولاية في الأصل أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما

ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين والصداقة والنصرة[1].

دائرة: الدائرة الأصل فيها الإحاطة بالشيء، وهي من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها، وتطلق على الأمر المكروه الذي لا منفذ منه كما يقال دولة في المحبوب[2].

جهد: الجهد بضم الجيم وفتحها الطاقة والمشقة، وقال القتبي: هو بضم الجيم الطاقة وبفتحها المشقة[3].

حبطت: الحبوط البطلان وأصله من الحبط، وهو مرض يلم بالدواب إذا أكثرت من الأكل من بعض الشجر حتى ينتفخ بطنها[4].

بيان معنى النص:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾. والمراد بالولاية في الآية ولاية المودة والنصرة كما هو واضح من سبب نزول هذه الآيات.

المعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا من اليهود والنصارى أصفياء لكم، تحبونهم وتثقون بهم، وتنصرونهم وتستنصرون بهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي هم مرتبطون فيما بينهم بروابط مشتركة، من أبرزها اجتماعهم على حرب الإسلام، فمهما توسعت شقة الخلاف بينهم فإنهم يد واحدة في حرب المسلمين، لأن القضاء على الإسلام والمسلمين هو الهدف الكبير الذي يسعى إليه الكفار جميعا.

---

(١) المفردات في غريب القرآن.

(٢) المفردات في غريب القرآن، إرشاد العقل السليم ٢/ ٧٤.

(٣) مجاز القرآن ٢٦٤، المفردات، القاموس.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٧٦.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي مادامت النتائج الطبيعية لوجود الكفر والإيمان أن يتحالف الكفار ضد المؤمنين، فإن من يتولى الكفار من المؤمنين يكون معهم ضد المؤمنين، ولا يمكن أن يصدر هذا التصرف من مؤمن له من إيمانه الحافز إلى الخير والزاجر عن الشر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فمن تولى أعداء الإيمان فقد وضع الولاية في غير موضعها، ولهذا نتائجه الخطيرة على صاحبه وعلى المسلمين، فكيف يهديه الله إلى رشده في ولاية؟ إن الله لا يهدي الناس قسرا إلى الاستقامة، لكن يخلق المسببات إثر وجود أسبابها، فمن سلك طريق الهدى اهتدى، ومن سلك طريق الضلال ضلّ، ولا يهدي الله ضالا إلى رشده قسرا.

وبعدما نهى الله سبحانه المؤمنين عن تولي اليهود والنصارى، وأخبر بأن من تولاهم كان منهم، وكان ظالما بتوليه محروما من هداية الله، ذكر ما حدث من المنافقين في عهد النبي ﷺ، من تولي اليهود كشاهد على أن من تولاهم كان منهم في الحقيقة، وإن أظهر الإيمان للمؤمنين، حيث قال تعالى ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في توليهم ونصرتهم والحال أنهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار على المسلمين، فتعود الأوضاع على ما كانت عليه قبل الإسلام، ونحتاج إلى نصرة هؤلاء اليهود على أعدائنا، وهذا القول الذي حكاه الله عنهم هو ما سبق من قول عبد الله بن أبيّ حينما شفع في مواليه بني قينقاع، وأمسك بالنبي ﷺ وهو يقول: «والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة إني والله امرؤ أخشى الدوائر».

وإنما كانوا يخشون من تبدل الأحوال وعودة الجاهلية لعدم إيمانهم بالله عز وجل وعدم ثقتهم بوعده أولياءه بالنصر على الأعداء، وهم مخطئون في خشيتهم هذه ولن تتم الأمور على ما يريدون، ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ لرسول الله ﷺ والمؤمنين فينصرهم على أعدائهم وتكون الدولة لهم، وفي هذه الحال لا يكون لتعلق المنافقين باليهود قيمة، فيضيع مفعول هذا الحبل الواهي الذي تعلقوا به ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ المراد بالأمر انكشاف المنافقين، كما قال الحسن البصري[1]: أي أمر من عند الله عز وجل ينكشف به المنافقون ويظهرون على حقيقتهم، فيتبين غشهم الإسلام وخداعهم المؤمنين[2]، وقد تفضل الله على المؤمنين بإتمام وعده لهم، فأجلي بنو النضير، وقُضي على بني قريظة من اليهود بعد ذلك، كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أتى الله بالفتح فقُتلت مقاتلة بني قريظة وسبيت ذراريهم وأجلي بنو النضير»[3].

ثم بعد ذلك تم القضاء على أكبر أعداء المسلمين وهم كفار مكة، كما قيض الله للمؤمنين أمرا كشف به المنافقين وذلك في غزوة أحد، حينما رجع عبد الله بن أُبيّ بثلاثمائة من المنافقين ولم يشهدوا القتال مع النبي ﷺ، فعرفهم المؤمنون وأخذوا حذرهم منهم.

ومما يدل على أن المراد بالأمر في الآية ما يتم به كشف المنافقين قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾ فإن هذا القول لا يكون من المؤمنين إلا بعد انكشاف المنافقين. ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢١٨.

(٢) «عسى» من أدوات الترجي، وأدوات الترجي إذا صدرت من الله عز وجل لا تكون على بابها بل هي للتحقيق، وإنما عبَّر الله سبحانه بالترجي لتبقى قلوب المؤمنين متعلقة بالأمل والنصر.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢١٨.

﴿أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من الكفر بالله وتَوَلِّي أعدائه. كما أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة قال: من موادتهم اليهود وغشهم للإسلام وأهله[1]، ﴿نَٰدِمِينَ﴾ متأسفين على ما مضى منهم من ذلك، لانكشافهم أمام من يكرهونه وهو يملك أمرهم، وانقطاع الأمل فيمن يحبونه وهو لا يملك لهم شيئا من أمرهم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في شأن هؤلاء المنافقين متسائلين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين ظهر اليوم كفرهم وخداعهم هم ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾ أيها المؤمنين فيما مضى فما بالهم اليوم انخزلوا عنكم في أحرج المواقف؟

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي كانوا يقومون بها لإرضاء المؤمنين ونيل نفعهم، وبطلت أعمالهم التي كانوا يقومون بها لإرضاء اليهود وكسب نصرتهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ خسروا المؤمنين لأنهم قد انكشفوا أمامهم وظهرت لهم حقيقة إيمانهم، وخسروا اليهود لأن دولتهم التي كانوا يستعزون بها قد انهارت.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

عندما ينحرف الناس عن الطريق المستقيم ويرتكسون في الجاهلية يتخذون لأنفسهم روابط اجتماعية مختلفة، ويكيفون معاملاتهم على ضوء تلك الروابط.

فأحيانا تكون المصالح المادية هي محور علاقاتهم يحبون من أجلها ويصادقون، ويبغضون من أجلها ويعادون.

وأحيانا يجعلون اللغة الواحدة وسيلة للربط بين من ينطق بها فيحبونه وينصرونه، ويكرهون من لا يتكلم بها ويعادونه.

وأحيانا يتخذون من النسب قاعدة للولاء والبراء، فيحبون أبناء قبيلتهم ويناصرونهم، ويكرهون أبناء القبائل الأخرى ويعادونهم.

---

(١) جامع البيان ٦/ ٢٨٠.

وأحيانا يعتبرون الوطن الواحد وسيلة للترابط والاتفاق، فيتعصبون لأبناء بلدهم ضد أبناء البلاد الأخرى.

وهذه الروابط الجاهلية جميعا تفرق ولا تجمع، وتورث العداوة والبغضاء بين البشر، ويسببها تقوم الحروب الطاحنة التي تهلك الأمم وتفسد العمران، مع أنها لا تورث المحبة بين معتنقيها ولا تؤلف بين قلوبهم، لأنها لا تشدهم إلى هدف أعلى يُؤْثِر بعضهم بعضا من أجله، وإنما تفصلهم عن أبناء جنسهم وتجعلهم هدفا لعداوتهم فقط.

ولقد كان مما يهدف إليه الإسلام أن يسخِّر هذه الروابط كلها لرابطة العقيدة الصحيحة، وأن يجمع البشر جميعا تحت هذه الرابطة حتى يصبحوا جميعا إخوانا متحابين، ويسود السلام في الأرض، فشرع الله سبحانه لهم رابطة الأخوة الإيمانية في الله، فالمؤمن أخو المؤمن مهما كان نسبه ولسانه ولونه ووطنه ومنزلته المادية، وهذه الرابطة السامية باستطاعة أي فرد أن ينالها، وأن يظفر بنتائجها السعيدة، لأنها أمر معنوي رفيع لا يحول دون الظفر به حائل ولا تمتهنه النفوس الرفيعة، فبمجرد دخول الإنسان بهذا الدين والتزامه بأحكامه يكون أخا للمؤمنين به جميعا، ويكون أهلا لمحبتهم ونصرتهم، بخلاف الروابط الجاهلية فإن منها ما يقتصر على طائفة من البشر، فلا يستطيع الآخرون بلوغه لأنه لا يرتبط بالكفاءة الذاتية والإنتاج العقلي وذلك كشرف النسب، ومنها ما قد يستطيع الآخرون بلوغه، ولكنهم لا يريدون ذلك غالبا لامتهانهم إياه، وتفضيلهم ما هم فيه من الروابط عليه، كرابطة اللغة والوطن، أما الحب والبغض من أجل المادة فإنه داء قاتل يسري ضرره بين الأفراد والأمم، ويفسد الأخلاق الفاضلة.. فمن أجل المال يذل الفقراء للأغنياء، وإن كانوا من سفهاء الناس، ويتكبر الأغنياء على الفقراء، ومن أجل المصالح المادية المشتركة تلتهم الدول القوية الدول الضعيفة، وتمتص مصادر حياتها وتقضي على فضائلها.

وبهذه الروابط الجاهلية لا يمكن أن يتفق البشر جميعا تحت لواء واحد، لأن طبيعة هذه الروابط لا تساعد على اتحاد الهدف واجتماع الكلمة، بخلاف الأخوة الإيمانية التي جاء بها الإسلام، فإن هدفها الأعلى يستلزم جمع البشر جميعًا تحت لواء واحد.

وقد بين الله سبحانه هذه الروابط السامية بآيات منها قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠] وبيَّنها النبي ﷺ بمثل قوله (وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) أخرجه الشيخان[١].

وهذه الرابطة السامية لا يمكن أن يجتمع معها شيء من الروابط الجاهلية، فلا يمكن أن يجتمع في قلب رجل واحد محبة الله جل وعلا ومحبة الكفار، كما لا يمكن أن يجتمع في قلب واحد محبة المؤمنين ومحبة الكفار، ولا محبة الإسلام ومحبة مناهج الكفر، لأن ذلك كله من الجمع بين الضدين، ولذلك قال تعالى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦] ونفى سبحانه الإيمان عمن يوادّ من حادَّ الله ورسوله، حيث قال تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

واعتبر النبي ﷺ الحب في الله من الخصال الثلاث التي يجد بهن العبد حلاوة الإيمان، حيث قال ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم (الفتح ٥/ ٩٧) صحيح مسلم، كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم، حديث رقم (٣٢).

أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) أخرجه البخاري[1].

ولهذا فالإسلام يحرّم الاستعانة بالكفار والاستنصار بهم، وقد نهى الله سبحانه عن ذلك في عدة آيات منها قوله تعالى ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٢٨] وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة: ٥١] واعتبر سبحانه هذا السلوك من أخلاق المنافقين، حيث قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء: ١٣٨-١٣٩].

وفرض الإسلام على معتنقيه أن يعتمدوا على الله وحده في طلب النصر على الأعداء، كما في قوله تعالى ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٠].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون هذه الرابطة فهما جيدا، وقد طبقوها في حياتهم تطبيقا كاملا فكانوا يحبون المؤمنين ويناصرونهم، وإن كانوا بعيدين عنهم في النسب أو اللغة أو الوطن أو يخالفونهم في اللون، ولقد ضم مجتمع المؤمنين في المدينة العرب بمختلف قبائلهم، مع أبناء فارس والحبشة والروم وغيرهم، وكانوا يعادون الكفار وإن كانوا من أقرب الناس إليهم، بل إنهم قابلوا في المعارك أبناءهم وآباءهم وإخوانهم الكفار كما في معركة بدر فلم تمنعهم قرابتهم لهم من قتالهم؛ لأنهم قد ألغوا جميع الروابط البشرية ماعدا رابطة الأخوة في الله، ومن أروع الأمثلة لذلك موقف مصعب بن عمير من أخيه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر (فتح الباري ١/ ٧٢).

يوم بدر، وقد ذكره ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق قال: وحدثني نبيه بن وهب أحد بني عبد الدار أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بالأسارى خيرا. قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، قال: فقال أبو عزيز: مرَّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليسر -وهو الذي أسره- ما قال.. قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي، فقال مصعب: إنه أخي دونك"[1].

وحينما عاد المسلمون بعد ذلك إلى التمسك بالعصبية الجاهلية، كان للتعصب القبلي أثره البالغ في تفرق المسلمين وتناحرهم فيما بينهم، كما هو واضح من تاريخ المسلمين على مدى العصور الإسلامية.

وفي هذا العصر بلغ التمسك بروابط الجاهلية حدا لم يبلغه في سائر عصور الإسلام، حيث فُرض على المسلمين فرضا أن تنقسم دولتهم إلى دويلات صغيرة، وكان من أثر ذلك أن يتعصب شعوب هذه الدويلات لأوطانهم وأبناء بلادهم، وإذا شعروا برابطة أكبر من وطنهم المحدود فإنما يشعرون غالبا بوجود الرابطة بينهم وبين من يشتركون معهم في اللغة، وهذا ما يريده أعداء الإسلام حينما سعوا جاهدين إلى إلغاء الخلافة الإسلامية، وتقسيم بلاد الإسلام إلى دويلات صغيرة.

ولو فكر المسلمون وعقلوا لعرفوا أن أكبر سلاح بأيديهم يحاربون به أعداءهم هو تمسكهم برابطة الإسلام وإلغاء الروابط الجاهلية جميعها، فمتى يتنبهون؟

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٦.

٣- اعتصام بعض اليهود بالنفاق

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾[المائدة: ٦١].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج ابن جرير الطبري من حديث قتادة السدوسي في قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآية: أناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به، وهم متمسكون بضلالتهم والكفر، وكانوا يدخلون بذلك ويخرجون به من عند نبي الله ﷺ[١].

٢- أخرج ابن جرير عن طريق أسباط عن السدي أنه قال في هذه الآية: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهودا، يقول: دخلوا كفارا وخرجوا كفارا[٢].

٣- أخرج ابن جرير من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: قال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآية: فإذا رجعوا إلى كفارهم من أهل الكتاب وشياطينهم رجعوا بكفرهم، وهؤلاء هم أهل الكتاب من يهود[٣].

ومن هذه الروايات يتبين لنا أن هذه الآية قد نزلت في المنافقين من اليهود.

---

(١) جامع البيان ٦/ ٢٩٦.

(٢) جامع البيان ٦/ ٢٩٦.

(٣) جامع البيان ٦/ ٢٩٧.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآية من سورة المائدة وهي في الجملة من آخر ما نزل من القرآن، ولكن آيات منها قد تقدم نزولها في أوائل العهد المدني، وهي الآيات التي نزلت بشأن اليهود من أهل المدينة، لأن هؤلاء اليهود قد تم تطهير المدينة منهم في خلال النصف الأول من العهد المدني، وقد سبق هذه الآية آيات أشارت إلى خبر إجلاء يهود بني قينقاع، وهي قوله تعالى ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ إلى قوله ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[المائدة: ٥٢-٥٦] وقد كان إجلاء بني قينقاع عقب غزوة بدر كما سبق.

تصوير الموقف:

عندما نصر الله نبيه ﷺ في بدر على أكبر قوة في بلاد العرب، بدأ اليهود يُظهرون عداءهم للإسلام والمسلمين، وبدت من قلوبهم كوامن الغيظ والحسد، وكان أول من جهر منهم بعداء الإسلام وأظهر التحدي لرسول الله ﷺ بنو قينقاع فأجلاهم النبي ﷺ كما سبق.

وكان لهذا الحادث أثر كبير في نفوس اليهود، فاعتصم عدد منهم بالإسلام نفاقا، وكان منهم نفر من بني قينقاع بقوا في المدينة بعدما أُجلي قومهم منها، وقد ذكر ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق أسماء بعضهم، وهم سعد بن حنيف، وزيد بن اللُّصَيت، ونعمان بن أوفى بن عمرو، وعثمان بن أوفى، ورافع بن حريملة، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وسلسلة بن برهام، وكنانة بن صورياء[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٦٦.

بيان النص:

نهى الله سبحانه المؤمنين قبل هذه الآية عن اتخاذ الكفار وأهل الكتاب أولياء في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم بين سبحانه سخريتهم من المؤمنين في دينهم بقوله ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، ثم أمر نبيه ﷺ أن يبين لليهود أن الشيء الذي يعيبونه على المسلمين ما هو إلا الإيمان بالله وبما أنزل على رسله، وهذا هو عين ما يأمرهم به دينهم ولكنهم قوم خرجوا عن طاعة الله عز وجل ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وأن يذكرهم بأن ما جرى عليهم في ماضي عهدهم، من لعن الله لهم وغضبه عليهم؛ ومسخهم قردة وخنازير، وعبادتهم الطاغوت أولى بأن يعاب وينتقد، ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٥٧-٦٠].

بعد ذلك نبه الله سبحانه المؤمنين إلى أن من اليهود المقيمين في المدينة من يُظهر الإسلام نفاقا، ليستطيع بذلك أن يظفر بولاية المؤمنين، فيكيد لهم وهو في مأمن من عداوتهم، حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي وإذا دخل عليكم هؤلاء اليهود أظهروا لكم الإيمان بدينكم ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾ أي والحال أنهم قد دخلوا عليكم متلبسين بالكفر، فليس إيمانهم الذي أظهروه لكم إيمانا حقا وإنما هم منافقون، ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي والحال أنهم قد خرجوا من عندكم متلبسين بالكفر، فلم ينتفعوا من المواعظ التي سمعوها، فلا تنخدعوا بهم فتتخذوا منهم أولياء.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ أي والله عالم بما يضمرونه في نفوسهم من الكفر بالإسلام، ومحاولة الكيد لأهله وسيكشف أعمالهم التي يقومون بها ضد المسلمين، حتى لا يستطيعوا إيقاع الضرر بهم، ولهم عند الله يوم القيامة ما يستحقون من العذاب، لكفرهم بالله وصدهم عن سبيله.

* * *

٤- أثر المحن في تمحيص المجتمع الإسلامي

النص القرآني:

١- قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢- ٣].

٢ - وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾[العنكبوت: ١٠-١١].

بيان من نزل فيه النص:

أخرج ابن جرير من حديث عكرمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بإسلامهم، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم قبل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ﴾ إلى آخر الآية، قال فكتبوا إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية: أن لا عذر لهم فخرجوا، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة[1] فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية،

---

(١) أي وافقوهم على الشرك.

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكتبوا إليهم بذلك: أن الله قد جعل لكم مخرجا، فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل"[١].

وظاهر من هذه الرواية أن هذه الآيات قد نزلت في طائفة من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا مع قدرتهم على الهجرة، بل بقوا في مكة مستخفين بإسلامهم فاعتبرهم الله سبحانه مؤاخذين على إقامتهم في بلد يتعرضون فيه للفتنة على يد الكفار، ولا يستطيعون إقامة شعائر الإسلام فيه، وحكم على الذين استجابوا للفتنة واعتبروا عذاب الناس كعذاب الله بالنفاق، حينما كانوا في وقت الرخاء يظهرون الإيمان.

وقت نزول هذا النص:

ذُكر في الرواية السابقة أن هؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآيات قد أخرجهم المشركون معهم يوم بدر ثم نزلت فيهم هذه الآيات، ولم يذكر فيها أنهم أخرجوهم يوم أحد، كما لم يذكر ذلك في كتب السيرة، فلعل هذه الآيات كانت مما نزل بين بدر وأحد.

تصوير الموقف:

المشهور عند المفسرين وغيرهم من العلماء أن النفاق لم ينشأ إلا في المدينة، وحجتهم في ذلك أن النفاق عادة لا ينشأ إلا في جو تكون فيه الغلبة للإسلام وأهله، حيث يضطر من رغب عن الإسلام إلى أن يكتم معتقده الحقيقي، ويتظاهر بالإسلام"[٢].

وبناء على هذا يكون المنافقون في عصر النبي ﷺ من أهل المدينة فقط، وليس هناك منافقون من أهل مكة.

---

(١) جامع البيان ٢٠/ ١٣٥.

(٢) انظر مثلا تفسير ابن كثير ١/ ٤٧، فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٠١.

وإننا حينما نستعرض الرواية السابقة نجدها تتحدث عن ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا إلى المدينة، بل أقاموا بمكة مستخفين بإسلامهم، وحينما نقارن ذلك بما نزل فيهم من الآيات التي صرحت باتهامهم بالنفاق، يتبين لنا أنه قد كان في زمن النبي ﷺ منافقون من أهل مكة أيضا، وقد يكون هذا مستغربا في النظرة الأولى لأن الإنسان عادة لا يضطر إلى النفاق إلا إذا كان يعتقد عقيدة جاهلية وهو يعيش بين المؤمنين، أما أن يكون مقيما بين الكفار متمتعا بحمايتهم ثم يظهر الإيمان للمؤمنين نفاقا فأمر مخالف للعادة، ولكنه مع ذلك ممكن الوقوع.. وذلك أن بعض الناس يكون هدفه الأسمى في هذه الحياة هو تأمين سبيل العيش لنفسه براحة واطمئنان، فإذا وجد في مجتمعه دعوة بارزة تناقض تعاليمها التعاليم التي توارثها ذلك المجتمع بدأ بالتفكير في الأمر الذي يحقق له مصالحه الخاصة، لأن النتيجة الطبيعية لذلك الاختلاف هي حدوث الصراع بين الأفكار المتوارثة وبين الفكرة الجديدة التي تناقضها، إذا وجد من يمثل تلك الدعوات ويدافع عنها، ولابد في النهاية من غلبة إحدى الطائفتين على الأخرى، فهو يريد أن يكسب ود الجميع فيظفر بعد ذلك بالحظوة لدى الطائفة المنتصرة منهما، والسلامة من عواقب معاداتها.

وقد تمثلت هذه الفكرة في عالم الواقع في هؤلاء الذين تحدثت عنهم هذه الآيات، وقد يكون بعض هؤلاء ممن أظهر الإيمان بالإسلام للمؤمنين حينما استعزوا بانتصارهم على المشركين في معركة بدر، والغالب أنهم ممن دخل في الإسلام قديما ولكن إيمانهم قد تزعزع بسبب فتنة المشركين، فلما انتصر المسلمون ببدر أظهروا لهم أنهم لا يزالون متمسكين بالإسلام، وهذا ما يرشد إليه قوله تعالى في هذه الآيات ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾.

وقد سبق عند تفسير قوله تعالى ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ ذكر عدد منهم خرجوا مع المشركين في بدر فقتلوا جميعًا وسيأتي ذكر روايات عنهم توضح أمرهم عند تفسير قوله تعالى ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ الآية.

وقد أخرج ابن هشام عن ابن إسحاق خبر بعض هؤلاء الذين فتنهم كفار مكة حيث قال: فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتَّعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التناضبَ من أضاة بني غفار فوق سَرف[1] وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب وحُبس عنا هشام وفُتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبوجهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك فرقَّ لها، فقلت له: يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فو الله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت قال فقال: أبر قسم أمي ولي هناك مال فآخذه، قال فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قال قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

---

(١) قال السهيلي: التناضب بكسر الضاد كأنه جمع تنضب (واحدته تنضبه) وهو ضرب من الشجر تألفه الحرباء

قال الشاعر: أنّي أتيح لـه حرباء تنضبة ... لا يرسل الساق إلا ممسكا ساقا

قال: وأضاة بني غفار على عشرة أميال من مكة، والأضاة الغدير كأنها مقلوب من وضأة على وزن فعلة، واشتقاقه من الوضاءة بالمد وهي النظافة لأن الماء ينظف - الروض الأنف ٤/ ١٩٠.

وسرف مكان معروف قرب مكة من جهة المدينة.

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا ابن أخي والله لقد استغلظتُ بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطا، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا ثم قالا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع عن عبد الله بن عمر عن عمر في حديثه قال: فكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا[1] ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[الزمر: ٥٣ - ٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاصي، قال: فقال هشام بن العاصي: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى[2] أصعّد بها فيه وأصوّب،

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: قد تكررت هاتان اللفظتان في الحديث، فالصرف: التوبة، وقيل النافلة، والعدل: الفدية، وقيل الفريضة. وذكر الزبيدي في تاج العروس أن ذلك مثل يضرب فيمن لم يؤخذ منه الشيء الذي يجب عليه وألزم أكثر منه، وذكر أن أصله أن العرب إذا قتلوا بالقتيل رجلا واحدا فهو العدل عندهم لأنهم كانوا يقتلون بالقتيل الرجلين والثلاثة، وإذا عدلوا عن ذلك إلى الدية فهو الصرف عندهم، وهذا هو الظاهر، أما تفسير الصرف بالتوبة فغير ظاهر لأنها قد ذكرت في الحديث.

(٢) ذو طوى موضع بأسفل مكة كما ذكر السهيلي في «الروض الأنف ٤/ ١٩١».

ولا أفهمها حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنها أنزلت فينا وفيها كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، قال فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله، وهو بالمدينة[1].

بيان النص:

١ - قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

الفتنة: في الأصل إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته، وتطلق على معاني أخرى منها: الابتلاء والاختبار[2].

المعنى: أظنَّ الذين استسلموا للإسلام ونطقوا بالشهادتين وفيهم المؤمن الصادق والمنافق وضعيف الإيمان أن يتركوا على هذا الوضع المختلط من غير أن يمتحنوا ؟ ! بل لابد من امتحانهم بالشدائد ومختلف أنواع المحن حتى يتميز المؤمنون الصادقون من غيرهم فقد جرت سنة الله بذلك في جميع الأمم، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ولقد امتحنا الذين من قبل هذه الأمة من الأمم بأنواع المحن فصبر من صبر وافتتن من افتتن.

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل لأصحابه بمن صبر من الأمم السابقة حتى يتأسوا بهم، فقد أخرج الإمام البخاري بسنده عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٥ - ٩٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن، النهاية في غريب الحديث، القاموس المحيط.

دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1].

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي إنما قدر الله سبحانه إصابة المنتسبين إلى الإيمان بالمحن، ليظهر المؤمنون الصادقون من الذين يدّعون الإيمان كذبا، وهؤلاء هم المنافقون.

٢ - قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ﴾ أي ومن الناس من ينطق بكلمة الإيمان مادام في الرخاء والأمن من غير أن يحسب لها حسابا أو يقدر لها مسؤولية، فإذا ما تعرض للفتنة والأذى من الكفار مَثَّلَ أمام عينيه هذا العذاب الدنيوي ونسيَ عذاب الآخرة الذي كان قبل ذلك يفكر به ويتذكره، ففضّل النجاة من العذاب العاجل الذي شاهده بعينه على النجاة من العذاب الآجل الذي لم يؤمن به الإيمان الحقيقي، إذ لو كان مؤمنا به حقا لما جعل عذاب الدنيا البسيط المنقطع كعذاب الآخرة الهائل المديد.

فهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان الضعيف أو الكاذب لا يهتمون بالآخرة، بل ينظرون إلى الحياة الدنيا ومستقبلها من خير أو شر، ولذلك أصبحوا يرقبون المعركة بين المؤمنين والكفار، فإذا كتب الله النصر للمؤمنين أعلنوا انضمامهم إليهم وتأييدهم لدينهم، ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي وإذا نصر الله المؤمنين على أعدائهم قالوا لهم: إنا لا نزال معكم في صفكم وعلى دينكم والتعذيب الذي واجهناه من الكفار لم يؤثر على إيماننا بديننا.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب.. الخ (فتح الباري ١٢/ ٣١٥).

وقد أرادوا بهذا الكلام التقرب إلى المؤمنين والتودد لهم، ليكسبوا عندهم يدا ويحوزوا على ثقتهم بهم فيأمنوا على مستقبلهم معهم فيما إذا كانت الجولة الأخيرة والنصر المبين للإسلام والمسلمين، وغفلوا عن علم الله تعالى بما في قلوبهم، ولم يشعروا برقابته عليهم لأن آفاق تفكيرهم محصورة في الحياة الدنيا وما فيها من منافع ومضار.

وقد وبخهم الله سبحانه على هذه الغفلة وذكَّرهم بعلمه الشامل للظواهر والبواطن حيث قال تعالى ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أفعلوا ذلك وحسبوا أن الله غير مطلع عليهم، وأنه ليس بعالم بما في صدور عباده من الأفكار والمعتقدات، فتجرءوا على ما أقدموا عليه من مراعاة المخلوقين والغفلة عن الله؟ ! بل الله سبحانه عالم بهم لا تخفى عليه حقيقة إيمانهم وما يضمرونه في قلوبهم.

ولما كان من مصلحة المؤمنين أن يتميزوا عن المنافقين حتى يحذروهم، كان لا بد من وجود الوسائل التي تميز بينهم فتكشف حقيقة إيمانهم، وتظهر المغيَّب بصورة المشاهد، فقيض الله المحن على المؤمنين التي لا يستطيع المنافقون احتمالها، حتى ينكشف أمرهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بأن يظهر إيمانهم لكم حينما يثبتون ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بأن يظهر نفاقهم لكم حينما يستجيبون للفتن، فتكونوا منهم على حذر.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

الناس معادن مختلفة، فمعدن زكي يسمو نحو المعاني النبيلة والقيم العالية، ويستهين بالمادة ومتاع الدنيا ومجدها الزائل في سبيل تحقيق هذه المعاني والقيم، ومعدن خبيث لا يقيم وزنا لتلك الفضائل والقيم، بل أكبر همه السعي وراء المادة والاستمتاع بمتاع الحياة الدنيا ومجدها ولو أضر بأفراد مجتمعه، ومعدن بين ذلك.. يرفعه عقله أحيانا نحو القيم العليا والمعاني السامية، ثم يهبط به أحيانا أخرى نحو تلبية مطالب جسده وعواطفه المنحرفة.

ولما كان الإسلام يدعو إلى تحقيق المعاني السامية والقيم العالية سارع إلى اتباعه أصحاب النفوس الزكية عن رغبة واقتناع، واندس معهم في الانتساب إليه بعض أصحاب النفوس الخبيثة، إما رهبة من المؤمنين به حقا، وإما رغبة في المصالح المادية التي تحصل لهم عن طريقه.

فكان من أثر رعاية الله لهذه الدعوة المباركة أن لا يُترك المجتمع الإسلامي مختلطا، لا يمتاز فيه المؤمنون الصادقون عن المنافقين، لأن في هذا ضياعا للقدوة الحسنة والتمثيل الصادق للإسلام، فالأفراد المنتسبون لهذا الدين فيهم النفعيون الذين لا هَمَّ لهم إلا الحصول على المال بأي طريق، فهؤلاء لا مبدأ لهم بل هم يتقلبون وراء المكاسب الدنيوية، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم، وإذا أصيبوا كانوا عليهم، وفيهم أصحاب الأهداف الهدامة والأغراض السيئة الذين امتلأت قلوبهم بالغل والحسد، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم ثم يخونونهم في أحرج المواقف.

وفيهم أصحاب المبدأ المخلصون له الذين يفتدونه بأرواحهم وأموالهم، فكان من مقتضى حكمة الله جل وعلا أن يميز بين هذه الأصناف الثلاثة، فيظهر كل صنف على حقيقته، حتى يخلص الجوهر من الغش ويصفو الماء من الزبد والكدر.

ولما كان أصحاب المنافع الشخصية وأصحاب الأغراض السيئة قد خلت قلوبهم من المبدأ الصحيح الذي يمنع صاحبه من الكذب والنفاق، أصبحوا من أقدر الناس على تمثيل أدوار النفاق، وأصبح من العسير على أصحاب المبدأ المخلصين أن يعرفوا جميع هؤلاء المنافقين فيتقوا بذلك شرهم، فكان لابد من محن قاهرة تضطر أولئك المنافقين إلى التخلي عن استكمال أدوار النفاق والانكشاف الواضح أمام ضغط الظروف القاهرة.

ولقد مرت الدعوة الإسلامية بعملية تصفية لمعتنقيها منذ نشوئها في مكة، وذلك عن طريق الفتن التي قدرها الله على المؤمنين ابتلاء لهم وتمحيصا لقلوبهم، والفتن التي يتعرض لها المؤمنون على أنواع:

أولا: ما يتعرض له المؤمنون من الابتلاء على يد الكفار، عن طريق الإهانة والإذلال كالتعذيب الجسماني والسجن، والتشريد والحرمان من الحقوق المالية.

ثانيا: ما يتعرضون له على أيدي الكفار عن طريق الإغراء كإغداق الأموال، ورفع المناصب الوظيفية، والاعتناء بمظاهر الاحترام والتبجيل.. وهذا النوع أخطر بكثير من النوع الذي قبله، لأن النوع الأول يشعر صاحبه بعداوة من أوقع به تلك الفتنة والبغض الشديد له، فيثير ذلك في نفسه الشعور بدخول المعركة معه، مما يجعله يتصدى له بالثبات ويتحداه بالعزيمة والصبر، لأنه يشعر إذ ذاك بوقوعه بين نارين نار الدنيا ونار الآخرة فيُكسبه ذلك قوة في الإيمان، ورسوخا في العقيدة وإقداما على الجهاد بصبر وثبات.

أما النوع الثاني فإن صاحبه يشعر بأن من أوقعه في تلك الفتنة قد تفضل عليه ورفع من شأنه فيزداد تقربا منه لأنه قلما يدرك أنه قد وقع في فتنة، وينسيه مايرى لنفسه من النعمة والاحترام مواضع الزلل والانحراف فيمن أنعم عليه، ويزداد مع مرور الزمن لهفه على الدنيا وتمسكه بما هو فيه من شرف الرتبة ومظاهر الترف والنعيم، فلا يرضى لنفسه أن تنزل عن المستوى الذي بلَغَتْه، ثم تكون النتيجة أن يسكت على المنكر فلا يغيره، ويترك المعروف فلا يأمر به، لأن ذلك ربما ينزله عن ذلك المستوى الدنيوي الذي بلغه، وهذا هو هدف من حاول إيقاعه في هذه الفتنة الخطيرة، ولهذا رفض بعض الصالحين الدخول في وظائف الدنيا خوفا من أن يعجزوا عن أداء واجبات الآخرة.

ولقد تعرض المؤمنون في صدر الإسلام لهذين النوعين من الفتنة على يد كفار مكة،ولكن تعرضهم للنوع الأول أظهر؛ كما سبق في حديث خباب بن الأرت ﷺ نظرا لعدم انفتاح الدنيا عليهم في ذلك الوقت كما انفتحت على المسلمين بعد ذلك، ولقد حاول أعداء الإسلام في هذا العصر فتنة المؤمنين بكلا النوعين، فنجحوا كثيرا في فتنة الإغراء، ولم ينجحوا إلا قليلا في فتنة الإذلال.

ثالثاً: فتنة الشبهات وذلك فيما يعرض لعقل الإنسان من استشكال بعض ما يخبر به الإسلام أو يأمر به فيضل بسبب ذلك، ومن أبرز ما عرض للمسلمين في صدر الإسلام من هذا النوع حادث الإسراء بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، وحادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، أما حادث الإسراء فقد كان بمكة قبل الهجرة وقد افتتن به عدد من المسلمين فارتدوا عن الإسلام، كما أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم[١] فقال أناس: نحن لا نصدق بما يقول فارتدوا كفارا فضرب الله رقابهم مع أبي جهل... ذكره ابن كثير وصحح إسناده[٢]، وقد أنزل الله في ذلك قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ» أخرجه الإمام البخاري[٣].

أما حادث تحويل القبلة فقد كان في المدينة بعد الهجرة وقد افتتن به بعض ضعفاء الإيمان كما سبق بيان ذلك.

ومما يدل على أثر ذلك في ضعفاء الإيمان، ما أخرجه ابن جرير من طريق حجاج عن ابن جريج قال: بلغني أن ناسا ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا[٤].

أما في هذا العصر فقد سُخرت وسائل الإعلام لإثارة الشبهات حول الإسلام من قبَل أعدائه من الكفار والمنافقين، وقد نجحوا في زعزعة إيمان عدد كبير من ضعفاء الإيمان وتشكيكهم بدينهم لضعف إيمانهم بهذا الدين وجهلهم بتعاليمه.

---

(١) أي العير التي رآها في طريقه فأخبرهم أنها مقبلة عليهم كما هو موضح في الروايات الأخرى انظر مثلا سيرة ابن هشام ٢/ ١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وما جعلنا الرؤيا﴾ الآية (فتح الباري ٨/ ٣٩٨).

(٤) جامع البيان ٢/ ١٢ – ١٣.

رابعا: فتنة الشهوات، وذلك بتهيئة الجو الملائم لانتشار الرذائل عن طريق السماح للمخربين بفتح بيوت الدعارة، وحانات الخمر، وأنواع اللهو المحرم.

ولقد شهد هذا العصر الذي نعيش فيه من التفنن في هذا المجال ما لم يشهده أي عصر من عصور الإسلام السابقة، حيث بُذلت فيه الأموال الطائلة وأنشئت من أجله الشركات الكبيرة، والجمعيات العاملة التي بذلت من وقتها وأفكارها الشيء الكبير.

ولقد لعب الشيطان لعبته حينما سخر أدمغة هؤلاء المخربين للتفنن في وسائل تدمير الأخلاق الفاضلة، والقضاء على آخر رمق من الشعور برقابة الله عز وجل وخشيته وتذكر الآخرة، فلا تكاد تبزغ شمس الشباب المسلم إلا وهو في بحار من المستنقعات القذرة التي يخوض فيها أبناء جيله، ممن وقعوا في حبائل هؤلاء المخربين، ولا ينجو من الوقوع في هذا الوحل إلا من عصمه الله بالإيمان القوي، وقليل ما هم.

ثم لا يكاد هذا الشباب ينجو من أحبولة نصبها له هؤلاء المخربون، إلا ويقع في أحبولة أخرى قد لا يشعر بها.

ولقد كان للمحن التي مرت على المؤمنين في صدر الإسلام أثر كبير في حماية المجتمع الإسلامي آنذاك من الانهيار، فإن اختلاط المنافقين بالمؤمنين من أعظم الأمور التي تحطم كيان الدعوة الإسلامية، وتحول دون نجاحها،وسيأتي في الخاتمة بيان أثر المنافقين السيئ على المجتمع الإسلامي.

* * *

٥- التحاكم إلى غير ما أنزل الله من صفات المنافقين

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٨].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج الطبراني بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أبو بردة الأسلمي يقضي

بين اليهود فيا يتنافرون إليه[1] فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية إلى قوله ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ ذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح[2].

٢- أخرج الثعلبي وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا من المنافقين يقال له بشر خاصم يهوديا فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ فقضى لليهودي فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب، فقال اليهودي: قضى لنا رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم.. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى برد ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ فنزلت[3].

ونسبه ابن حجر إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية وهب عن ابن لهيعة عن أبي الأسود[4].

٣ - أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآيات: ذُكر

---

(١) المنافرة: المفاخرة والمحاكمة كما في النهاية.

(٢) مجمع الزوائد ٧/ ٦ – والذي في مجمع الزوائد أن اسم الكاهن أبو برزه الأسلمي وهو خطأ صوابه أبو بردة الأسلمي كما ذكر ابن حجر في ترجمته في الإصابة حيث قال: وعند الطبراني بسند جيد عن ابن عباس قال: كان أبو بردة كاهنا يقضي بين اليهود.. وذكر الخبر، ثم ذكر عن الثعلبي أن النبي ﷺ دعاه إلى الإسلام فأبى ثم كلمه ابناه في ذلك فأجاب إليه وأسلم.

(٣) روح المعاني ٥/ ٦٧.

(٤) الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١/ ٥٢٥.

لنا أن هذه الآيات نزلت في رجلين، رجل من الأنصار يقال له بشر، وفي رجل من اليهود في مدارأة[1] كانت بينهما في حق، فتدارءا بينهما فيه فتنافرا إلى كاهن بالمدينة يحكم بينهما وتركا نبي الله ﷺ، فعاب الله عز وجل ذلك، وذُكر لنا أن اليهودي كان يدعوه إلى النبي ﷺ ليحكم بينهما، وقد علم أن نبي الله ﷺ لن يجور عليه، فجعل الأنصاري يأبى عليه، وهو يزعم أنه مسلم ويدعوه إلى الكاهن، فأنزل الله تبارك وتعالى ما تسمعون فعاب ذلك على الذي يزعم أنه مسلم وعلى اليهودي الذي هو من أهل الكتاب فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآيات[2]، وأخرج ابن جرير عن الشعبي من عدة طرق نحوه[3].

والذي يتلخص لنا من هذه الروايات أن هذه الآيات قد نزلت في أناس من المنافقين تحاكموا إلى الطاغوت ولم يرضوا بحكم رسول الله ﷺ.

وسواء كان المراد بالطاغوت الكاهن الأسلمي، أو كعب بن الأشرف فالمقصود واحد لأن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت.

٤- أخرج الشيخان من طريق الزهري عن عروة قال «خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شَريج من الحرة فقال النبي ﷺ: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال الأنصاري: يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجهه ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك، واستوفى النبي ﷺ الزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما

---

(١) أي خلاف ومدافعة كما في النهاية.

(٢) جامع البيان ٥/ ١٥٣.

(٣) المرجع السابق ٥/ ١٥٢ - ١٥٣.

أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[(١)] وقد ذكر ابن جرير هذا الحديث ثم ذكر القول بأن هذه الآية تابعة للآيات التي قبلها وأنها جميعها نزلت في شأن الخصومة التي جرت بين اليهودي والمنافق، وقد أخرج القول بذلك عن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح[(٢)].

وقد رجح ابن جرير ذلك حتى لا يكون في الآيات انقطاع، واعتبر قصة احتكام الزبير وصاحبه الأنصاري مما بينته الآية[(٣)].

وسواء قلنا إن هذه الآية تابعة للآيات السابقة أو أنها نازلة في حادثة مستقلة، فهي لا تخرج عن كونها نازلة في المنافقين، لأن الذي يتهم النبي ﷺ في حكمه لا يمكن أن يكون مؤمنا حقا.

وقت نزول هذا النص:

من الروايات السابقة في سبب النزول تبين لنا من بعضها أن الرجل الذي اختاره المنافق للتحاكم إليه هو كعب بن الأشرف، وكعب بن الأشرف قد قُتل بأمر النبي ﷺ بين بدر وأحد كما ذكر ابن إسحاق[(٤)]، لهذا فالظاهر أن هذه الروايات قد نزلت قبل أحد.

تصوير الموقف:

من مجموع الروايات السابقة تبين لنا أن هذه الآيات قد نزلت في بعض المنافقين الذين امتنعوا من التحاكم إلى رسول الله ﷺ وذهبوا يتحاكمون إلى الطاغوت.

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ الآية فتح الباري ٨/ ٢٥٤.

(٢) جامع البيان ٥/ ١٥٩.

(٣) جامع البيان ٥/ ١٥٩ – ١٦٠.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠٢.

وكان الناس في الجاهلية يتحاكمون إلى الكهان عند التنازع كما هو ظاهر من الأخبار السابقة، لأنهم يحترمون الكهان ويقدسونهم، نظرا لما يصدر عنهم أحيانًا من الأخبار الغيبية التي يتلقونها عن طريق الجن.

وكانوا أحيانا يتحاكمون إلى أشرافهم كما في بعض الروايات السابقة أن أحد المتخاصمين طلب من خصمه أن يتحاكما إلى كعب بن الأشرف.

وكان هؤلاء المحكَّمون يعتمدون في حكمهم على القرائن والأمارات وما هو غالب في عوائدهم، وهذه الأمور لا تعصم من الوقوع في الزلل، فكانت أحكامهم غير مبرأة عن الخطأ، هذا بالنسبة لمن تجرد منهم عن الهوى واعتبار المصالح الشخصية، أما من كان متصفا بذلك فإنه مع احتمال وقوعه في الخطأ غير مؤتمن على حكم يصدر منه.

فلما جاء الإسلام وضع القواعد للحكم في العدل بين المتخاصمين فيما إذا أصر صاحب الحق على استيفاء حقه كاملا، وفي الفضل فيما إذا عفا عن حقه أو بعضه، وبهذا أنقذ الله الإنسان من الظلم الذي يقع عليه من بني جنسه، فالإسلام لا يحكم إلا بالحق ويوجب على معتنقيه أن يقولوا الحق، ولو على أنفسهم كما قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: ١٣٥] وأن يحكموا بما أنزل الله ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩] وحكم على من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وجعل من شرط الإيمان التحاكم إلى ما أنزل الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء: ٦٥].

وقد خضع المؤمنون لأمر الله فكانوا لا يتحاكمون إلا إلى النبي ﷺ باعتباره المنفذ لشرع الله، أما المنافقون فإنهم يرفضون التحاكم إليه فيما إذا كان الحق عليهم، لأنه لا يحقق لهم رغباتهم في ظلم الآخرين، أما إذا كان الحق لهم فإنهم يرضون بالتحاكم إليه لعلمهم بأنه سيوصل إليهم حقوقهم، وهذا من التناقض الواضح إذ كيف يؤمنون بدين لا يتحاكمون إليه عند التنازع إلا إذا كان لهم مصلحة في ذلك، فهذا دليل على عدم إيمانهم بهذا الدين إيمانا حقا، فالتحاكم إلى غير ما أنزل الله من علامات الكفر والنفاق، وإن ادَّعى صاحبه أنه مؤمن بالإسلام.

بيان مفردات النص:

ألم تر: الهمزة للاستفهام، والاستفهام للإنكار، و«لم» تفيد النفي، والإنكار نفي ونفي النفي إثبات، فيكون الاستفهام للتقرير، والرؤية هنا علمية، أي قد علمت.

يزعمون: الزعم هو حكاية قول يكون مظنة الكذب غالبا، وقد يطلق على ما هو مظنة الصدق[١] ومن ذلك ما جاء في حديث ضمام بن ثعلبة في قوله: «يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك»[٢].

الطاغوت: أصله من الطغيان وهو مجاوزة الحد، والمراد به هنا من يحكم بغير ما أنزل الله، وقد ذكر أهل اللغة معاني لهذه الكلمة. وهي تدور حول هذا المعنى[٣].

---

(١) القاموس المحيط، المفردات في غريب القرآن.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإيمان، حديث رقم (١٠).

(٣) القاموس المحيط، تاج العروس، لسان العرب.

شجر: التشاجر المنازعة[١].

حرج: الحرج هو الضيق، وأصله مجتمع الشيء، وتصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج، وللإثم حرج[٢].

بيان معنى النص:

بعد أن أمر الله المؤمنين قبل هذه الآيات بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منهم الذين يحكمونهم بالإسلام، بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ وأمرهم بالتحاكم عند التنازع إلى الله ورسوله، وبين لهم أن ذلك من شروط الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنه خير لهم في الدنيا والآخرة وأحسن عاقبة لهم بقوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ بين سبحانه حال فريق ممن أظهر الإيمان بالإسلام ولم يلتزم بتعاليمه السامية في التحاكم عند التنازع، حيث قال تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي قد علمت أيها الرسول هؤلاء الذين يدَّعون أنهم آمنوا بما أنزل إليك من هذا القرآن وما أنزل من قبلك من الكتب السابقة، في حال أنهم يريدون التحاكم إلى من يحكم بغير ما أنزل الله، فاعجب لأمرهم كيف يجمعون بين هذا الادعاء وهذا العمل؟!

فالتعجب في الآية مستفاد من كونهم يدَّعون الإيمان بالله ولا يتحاكمون إلى ما أنزل على رسوله، وهذا من أوضح الأدلة على أنهم ما آمنوا بما أنزل من عند الله حقا، لأن من

---

(١) المفردات: القاموس.

(٢) نفس المصدرين السابقين.

آمن بمبدأ إيمانا حقا لا بد أن يعظمه ويعتبره هو الحق وما يخالفه هو الباطل، فيرجع إليه ليحكِّمه فيما تنازع فيه مع غيره، فأما حينما يحكِّم مبدأ آخر يتناقض مع مبدئه فإنه بهذا يعلن نفاقه وعدم إخلاصه لمبدئه الذي آمن به.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي يتركون التحاكم إلى النبي ﷺ ويتحاكمون إلى من تجاوزوا الحد في الطغيان تجاوزا واضحا، وبالغوا في ذلك حتى رفضوا حكم الله الذي أنزله على رسله، وحكموا بين الناس بأهوائهم، ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ أي والحال أن هؤلاء المتحاكمين إليهم قد أمرهم الله أن يكفروا بهم لطغيانهم، لأن من كفر بهم فقد آمن بالله، ومن آمن بهم فقد كفر بالله، كما قال تعالى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٥٦]، فهؤلاء المنافقون الذين رفضوا التحاكم إلى رسول الله ﷺ وتحاكموا إلى الطاغوت لم يفعلوا ذلك جهلا منهم، فقد أمرهم الله أن يكفروا بالطاغوت، بل فعلوه رفضا للحق الذي لا يحقق مآربهم في ظلم الناس، ومما يدل على ذلك ما ورد في سبب النزول من أن اليهودي طلب التحاكم إلى رسول الله ﷺ لعلمه أنه لا يأخذ الرشوة، أما المنافق فلما لم يكن مع الحق طمع في محاولة استمالة المتحاكَم إليه غير الرسول ﷺ بأي شيء يفعله، فرفض أن يذهب إلى الرسول ﷺ لاستحالة استمالته بوجه من الوجوه.

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي ويريد الشيطان أن ينحرف بهم عن طريق الحق، ويلقيهم في متاهات بعيدة حتى لا يبصروا هذا الطريق، ولا يهتدوا إليه، فيزين لهم اتباع الهوى ويعظم في نفوسهم الأثرة، حتى يلجأوا في سبيل تحقيق ذلك إلى

التحاكم إلى الطاغوت الذي يحقق لهم مآربهم في ذلك، فيحكم للمبطل على المحق لرشوة يأخذها أو لغير ذلك من المقاصد الدنيئة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي وإذا طُلب منهم التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله المنفذ لكتابه أعرضوا إعراضا شديدا عن رسول الله ﷺ، وذلك لأنه لا يحقق لهم أغراضهم في ظلم الآخرين، فلا يحكم للمبطل على المحق، لأنه لا هدف له إلا الوصول إلى الحق.

ثم بين سبحانه سوء العاقبة التي سيصيرون إليها إذا انكشف أمرهم، وذلك بما سيصيبهم من نكبات على يد المؤمنين وباضطرارهم إلى انتحال الأعذار الكاذبة للتخلص من المأزق، حيث قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي كيف حالهم إذا حلت بهم نكبة على يد المؤمنين كسيف عمر الذي سبق ذكره في سبب النزول ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما عملوا من الأعمال السيئة، التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت والإعراض عن رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ﴾ لما انكشفوا ولم يجدوا ما يبرر عملهم ﴿جَآءُوكَ﴾ معتذرين إليك مما بدر منهم من التحاكم إلى غيرك ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ تأكيدا لاعتذارهم الكاذب قائلين والله ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ إلى الخصوم ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بينهم لا رفضاً لحكمك والإعراض عنك، وعذرهم الكاذب هذا أسوأ من فعلهم، لأن فيه اتهاما لحكم رسول الله ﷺ بأن فيه إساءة إلى الخصوم، وتقوية للخلاف بينهم.

ولقد بين الله سبحانه كذبهم في هذا الاعتذار بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا

﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الكذب والنفاق، فليس ما اعتذروا به حقا وإن أكدوه بالحلف بالله، وإنما أرادوا بذلك وقاية أنفسهم وأموالهم.

ثم أرشد الله سبحانه نبيه ﷺ إلى كيفية معاملتهم بقوله ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن قبول اعتذارهم لانكشاف حالهم وإعلام الله إياك بأنهم يُظهرون ما لا يضمرون ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي اذكر لهم ما يعتبرون به، لعلهم يرجعون ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي قل لهم قولا بالغا الحقيقة التي انطوت عليها نفوسهم مما أعلمك الله به، ليكون في هذا بينة واضحة على أنك رسول من عند الله، وأن ما تدعو الناس إلى الإيمان به وحي من الله تعالى لأن معرفة ما تضمره قلوبهم هو من علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

ثم بين سبحانه وتعالى أن من لوازم الإيمان بالرسل طاعتهم لأن الله أمر الناس بطاعتهم، فمن أطاعهم فقد أطاع الله تعالى، ومن عصاهم فقد عصى الله، فقال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمره جل وعلا، ومحمد ﷺ رسول من الله فطاعته واجبة على أمته.

وفي الآية تعريض بالمنافقين الذين عصوا رسول الله ﷺ ولم يرضوا بحكمه بل ذهبوا يتحاكمون إلى الطاغوت.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي هؤلاء المنافقين ﴿إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ بمعصيتهم ربهم حيث أعرضوا عن رسول الله ﷺ حينما دُعوا إلى التحاكم إليه وتحاكموا إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين إلى الله عز وجل منيبين إليه ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ﴾ من هذا الذنب الذي ارتكبوه ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي سأل الله لهم المغفرة.. لو أنهم فعلوا ذلك ولم

يضيفوا إلى معصيتهم هذه معصية أخرى، حيث اعتذروا بالباطل وأكدوا ذلك بالأيمان الفاجرة ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا﴾ قابلا توبتهم ساترا عليهم ذنوبهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث يكافئهم على حسناتهم التي يكتسبونها بالأعمال الصالحة.

﴿فَلَا﴾ ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وهم يتحاكمون إلى الطاغوت[1] ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيمانا حقا ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ يجعلوك حكما ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي فيما وقع بينهم من خلاف ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ أي ضيقا وامتعاضا ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي حكمت به عليهم، لكونه لم يوافق هواهم ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ يذعنوا لحكمك وينقادوا له ﴿تَسْلِيمًا﴾ إذعانا تاما وانقيادا كاملا.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي ولو أنا أوجبنا على هذه الأمة للخروج من الذنب والبراءة منه أن يقتلوا أنفسهم، أو يخرجوا من ديارهم كما أوجبنا ذلك على بني إسرائيل، ما فعله إلا القليل منهم، وقد فسر الآية بذلك مجاهد كما أخرجه عنه ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح[2] والمراد بالقليل في الآية الذين يتوبون من النفاق وسائر المعاصي توبة صادقة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي ولو أنهم أدوا ما يؤمرون به من التزام طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ.. الأمر الذي يترتب عليه حصول ما يوعظون به من الثواب أو العقاب ﴿لَكَانَ﴾ فعلهم ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عاجلا وآجلا من معصية الله

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٥٨، وقيل أن «لا» زائدة لتأكيد القسم وبهذا قال الزمخشري (الكشاف ١/ ٥٣٨) وكونها نافية أولى لأنها والحالة هذه تفيد معنى جديدا.

(٢) جامع البيان ٥/ ١٦٠.

ورسوله ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم على الحق والهدى، وأبلغ في حمايتهم من الاستجابة لنداء الشهوات أو خداع الشبهات.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ولو فعلوا ما يوعظون به وثبتوا عليه لأعطيناهم من عندنا ثوابا جزيلا ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ولزدناهم هداية إلى الطريق المعتدل الموصل إلى الجنة وتثبيتا عليه كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد: ١٧].

٦- المنافقون في غزوة أحد

النص القرآني:

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥٢ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: ١٥٢ - ١٥٣].

٢- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران: ١٥٤].

٣- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ

أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[آل عمران: ١٦٦ – ١٦٨].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[آل عمران : ١٧٦ – ١٧٨].

٥ - قال تعالى ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٧٩].

بيان من نزل فيه هذا النص:

١- قوله تعالى ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أخرج ابن جرير من طريق أسباط بن نصر عن السدي أنه قال في هذه الآية: فالذين انطلقوا يريدون الغنيمة هم أصحاب الدنيا، والذين بقوا وقالوا لا نخالف قول رسول الله ﷺ أرادوا الآخرة[١].

وأخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب ﷺ قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشا من الرماة، وأمّر عليهم عبدالله[٢] وقال: لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا

(١) جامع البيان ٤/ ١٢٩.

(٢) هو عبد الله بن جبير ﷺ كما في رواية زهير عند البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٥٠).

عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون[١] الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: «عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا فلما أبوا صرفت وجوههم فأصيب سبعون قتيلا»[٢].

٢ - قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ الآية هذه الآية نزلت في المسلمين الذين حضروا معركة أحد، وهم طائفتان كما ذُكر في الآية: طائفة غشاهم النعاس بعد المعركة أمنة من الله لهم، وهم المؤمنون الصادقون باتفاق المفسرين، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم فلم يغشهم النعاس، وقد اختلف فيهم المفسرون فذهب الجمهور إلى أنهم المنافقون[٣]. وذهب رشيد رضا: إلى أنهم ضعفاء الإيمان واستدل على ذلك بأن الآية ختمت بخطاب المؤمنين، والآية التي قبلها والتي بعدها خوطب بها المؤمنون أيضا، كما أن المنافقين سيأتي الكلام عليهم بعد ذلك[٤] وبهذا قال محمد عزت دروزة[٥] وسيد قطب[٦] وما ذهب إليه الجمهور أرجح.

ومما يدل على ذلك ما أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه

---

(١) في رواية زهير عند البخاري فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون (فتح الباري ٧/ ٣٥٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة أحد (الفتح ٧/ ٣٤٩).

(٣) جامع البيان ٤/ ١٣٩، الكشاف ١/ ٤٧٢، تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٤٢، روح المعاني ٤/ ٩٤ وغيرها.

(٤) تفسير المنار ٤/ ١٨٦ - ١٨٨.

(٥) التفسير الحديث ٨/ ١٦٩.

(٦) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠.

قال: «غشيَنا النعاسُ ونحن في مصافنا يوم أحد -حيث إنه كان فيمن غشيه النعاس يومئذ قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط من يدي وآخذه، والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هَمٌّ إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق»[١] .

وقد روى البخاري أول هذا الأثر إلى قوله (والطائفة الأخرى)[٢] وذكر ابن كثير رواية البيهقي لهذا الأثر كرواية الترمذي، ثم قال: هكذا رواه بهذه الزيادة وكأنها من كلام قتادة رحمه الله[٣] يعني بذلك قوله «والطائفة الأخرى».. الخ ويؤيد ذلك أن ابن جرير أخرج هذه الزيادة عن طريق ابن أبي عروبة عن قتادة على أنها من قوله[٤] .

ومما يؤيد كون المراد بالطائفة الأخرى المنافقين، ما أخرجه ابن جرير من طريق أسباط ابن نصر عن السدي: أن المشركين انصرفوا يوم أحد بعد الذي كان من أمرهم وأمر المسلمين، فواعدوا النبي ﷺ بدرا من قابل فقال لهم: نعم، فتخوف المسلمون أن ينزلوا المدينة فبعث رسول الله ﷺ رجلا[٥] فقال: انظر فإن رأيتهم قعدوا على أثقالهم وجنبوا خيولهم[٦] فإن القوم ذاهبون وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم وجنبوا أثقالهم[٧] فإن القوم

---

(١) سنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة آل عمران حديث رقم (٤٠٩٥) (تحفة الأحوذي ٨/ ٣٥٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي باب (ليس لك من الأمر شيء) الآية (فتح الباري ٧/ ٣٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٨.

(٤) جامع البيان ٤/ ١٤١.

(٥) جاء تعيين هذا الرجل في رواية ابن إسحاق، وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه (السيرة النبوية ٣/ ٤٩).

(٦) الأثقال هي الإبل كما جاء في رواية ابن إسحاق «فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة» السيرة النبوية ٣/ ٤٩.

(٧) في الأصل المطبوع (وجنبوا أثقالهم) وكذا في المخطوطة كما أشار إلى ذلك محمود شاكر محقق هذا التفسير (٧/ ٣١٧) والدر المنثور (٢/ ٨٧) ولكن السياق يقتضي حذف على ويدل على ذلك قوله (وجنبوا خيولهم).

ينزلون المدينة فاتقوا الله واصبروا ووطّنهم على القتال، فلما أبصرهم الرسول قعدوا على الأثقال سراعا عجالا نادى بأعلى صوته بذهابهم، فلما رأى المؤمنون ذلك صدقوا نبي الله ﷺ فناموا وبقي أناس من المنافقين يظنون أن القوم يأتونهم، فقال الله عز وجل يذكر حين أخبرهم النبي ﷺ: إن كانوا ركبوا الأثقال فإنهم منطلقون فناموا ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ الآية[1]، ومما يدل على ذلك أيضا قوله تعالى في هذه الآية ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ وهذه صفة خاصة بالمنافقين لا يمكن أن يتصف بها المؤمنون ولو كان إيمانهم ضعيفا.

أما ما استدل به رشيد رضا على أن الآية في ضعفاء الإيمان، من أن الآية التي قبلها والتي بعدها قد خوطب بها المؤمنون فلا يستلزم حمل الآية على ما ذهب إليه، لأن هذا لا يمنع من الإشارة إلى المنافقين في أثناء ذلك، إذ أنهم داخلون ضمن المؤمنين في الظاهر، أما كون المنافقين قد ذُكروا بعد ذلك، فالذين ذكروا بعد هذه الآية هم المنافقون الذين لم يدخلوا المعركة، وهم عبد الله بن أبيّ ومن رجع معه، أما المنافقون الذين تحدثت عنهم هذه الآية فهم من دخل المعركة مع المؤمنين.

٣ - قوله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟﴾ الآية. أخرج ابن جرير من طريق سلمة عن ابن إسحاق قال في هذه الآية:يعني عبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ حين سار إلى عدوه من المشركين بأحد[2]، وسيأتي في تصوير الموقف بيان المحاورة التي جرت بين عبد الله بن أُبيّ وعبد الله بن عمرو ابن حرام رضي الله عنه.

---

(١) جامع البيان ٤/ ١٤٠.

(٢) جامع البيان ٤/ ١٦٨.

٤ - قوله ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ الآيتان. أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: هم المنافقون[(١)].

وقيل المراد بهم عموم الكفار. ذكره السيوطي، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن[(٢)].

ولكن سياق الآيات يقتضي كونها في المنافقين كما أن الواقع يقتضي ذلك لأنهم هم الذين سارعوا في الكفر في ذلك الوقت المعين، وخانوا المؤمنين فكان ذلك مدعاة لحزن النبي ﷺ من تصرفهم هذا، أما الكفار فإن عداوتهم للإسلام قديمة، وإذا قلنا بشمولها للكفار جميعا، فإن المنافقين يدخلون فيها دخولا أوليا.

٥- قوله ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ الآية، المراد بالطيب المؤمنون باتفاق المفسرين، أما الخبيث فقيل إن المراد به المنافقون، وبهذا قال مجاهد كما أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عنه أنه قال: ميز بينهم يوم أحد، المنافق من المؤمن[(٣)]، وبه قال ابن إسحاق كما أخرج ذلك عنه ابن جرير من طريق ابن حميد[(٤)].

وقيل إنها في الكفار، والمعنى على هذا: حتى يميز بينهم وبين المؤمنين، وبهذا قال قتادة، أخرجه عنه ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة[(٥)].

وأخرج ابن جرير من طريق أسباط بن نصر عن السدي أنه قال: قالوا إن كان محمد

---

(١) جامع البيان ٤/ ١٨٥.

(٢) الدر المنثور ٢/ ١٠٤ والحسن هو البصري.

(٣) جامع البيان ٤/ ١٨٧.

(٤) المرجع السابق ٤/ ١٨٧.

(٥) جامع البيان ٤/ ١٨٨.

صادقا فليخبرنا بمن يؤمن بالله ومن يكفر، فأنزل الله ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ حتى يخرج المؤمن من الكافر[1].

والأولى اعتبار هذه الآية في المؤمنين والمنافقين لدلالة السياق على ذلك كما قال ابن جرير[2].

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات من جملة آيات نزلت في شأن غزوة أحد من سورة آل عمران، ابتدأت بقول الله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ١٢١] وانتهت بقوله تعالى ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية [١٧٩]، وقد نزلت عقب انتهاء المعركة كما يدل على ذلك مضمون هذه الآيات، حيث ذكرت مجمل أحداث المعركة، من خروج النبي ﷺ للقتال إلى انتهاء المعركة، وقد كانت غزوة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة. وحدد ابن إسحاق يوم أحد بأنه يوم السبت للنصف من شوال من تلك السنة[3].

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

أخرج ابن هشام عن ابن إسحاق أنه قال: وكان من حديث أُحُدٍ كما حدثني محمد بن مسلم الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا كلهم قد حدث بعض الحديث عن يوم أحد وقد اجتمع حديثهم كله فيما سقت من هذا الحديث عن يوم أحد.. ثم ذكر

(١) جامع البيان ٤/ ١٨٨.

(٢) المرجع السابق ٤/ ١٨٨.

(٣) السيرة النبوية ٣/ ٥٩، وانظر طبقات ابن سعد ٢/ ٢٦.

حديث أحد وكان مما ذكر: أن كفار قريش لما أصيبوا يوم بدر وقُتل عدد من زعمائهم اتفق رأيهم على المسير إلى المدينة لقتال المسلمين حتى يدركوا ثأرهم، وكلموا أبا سفيان في العير التي نجت من قبضة المسلمين، كي يصرفوا أموالها في حرب النبي ﷺ وصحبه، فوافق أبو سفيان وأصحاب الأموال في تلك العير، وخرجت قريش ومن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة في ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم مائتا فرس حتى نزلوا قرب المدينة، فلما سمع بهم النبي ﷺ قال للمسلمين «إني قد رأيت والله خيرا، رأيت بقرًا تذبح ورأيت في ذباب سيفي ثلما ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدَعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها» وكان رأي عبد الله بن أبيّ مع رأي رسول الله ﷺ في عدم الخروج من المدينة، فقال رجال من المسلمين ممن فاتته غزوة بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا، فقال عبد الله بن أبيّ: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا، فلم يزل الناس برسول الله ﷺ -الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم- حتى دخل رسول الله ﷺ بيته فلبس لأمته[(١)] وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك فقال رسول الله ﷺ «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»[(٢)].

---

(١) اللأمة هي الدرع كما في القاموس المحيط.

(٢) وفي رواية «حتى يحكم الله بينه وبين عدوه» (البداية والنهاية ٤/ ١١).

فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه وفي أثناء الطريق انخذل عنه عبد الله بن أبيّ ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين ورجعوا إلى المدينة، فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه يقول لهم: يا قوم أذكّركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال،فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه[1].

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل شعب أحد في جانب الوادي، وجعل ظهره وعسكره جهة جبل أحد، وكان ذلك الموقع يحتوي على ثغرة تشكل خطرا على جيش المسلمين من خلفهم فيما إذا توغلوا في جيش الكفار، فجعل النبي ﷺ خمسين رجلا من الرماة على جبل صغير مشرف على تلك الثغرة، ليصدوا المشركين فيما إذا حاولوا الهجوم على المسلمين من خلفهم، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه وقال له: «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك».

ثم وقعت المعركة بينهم وبين قريش، وكان النصر في أول النهار حليف المسلمين حتى سقط لواء الكفار، وقتل منهم اثنان وعشرون رجلا وتفرق جيشهم، ولكن الرماة الذين جعلهم الرسول ﷺ على الجبل لحراسة جيش المؤمنين قد اخطأوا فنزل أكثرهم لما رأوا غنائم المشركين في متناول الأيدي، ولم يبق إلا أميرهم في عدد قليل، فلما رأى خالد بن الوليد - قائد خيل قريش آنذاك - قلة الرماة أغار بخيله فهزم من بقي منهم ودهم جيش المسلمين من الخلف، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل، فأصيب المؤمنون بالدهشة

---

(١) وذكر الواقدي في مغازيه أن النبي ﷺ خرج من المدينة بعد صلاة الجمعة وبات بالشيخين –وذكر أن الشيخين اسم حصنين كان فيهما في الجاهلية شيخ أعمى وعجوز عمياء فسمّي الحصنان بهذا الاسم لذلك– ثم ذكر أن النبي ﷺ مضى إلى أحد وصلى الصبح هناك – المغازي ١/ ٢١٤ – ٢١٩ –.

والارتباك حتى صار بعضهم يقتل بعضا، كما أخرج الإمام البخاري بسنده عن عروة عن عائشة ﵂ قالت: «ولما كان يوم أحد هُزم المشركون فصرخ إبليس لعنة الله عليه: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله أبي أبي، قال.. قالت: فو الله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، قال عروة: فو الله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله»[1].

وذهبوا في وادي أحد فرارا، وفر بعضهم ناحية المدينة، فانكفأ عليهم الكفار يقتلونهم حتى استشهد من المؤمنين سبعون رجلا.

ولم يثبت مع النبي ﷺ إلا عدد قليل أبلوا في الدفاع عنه بلاء حسنا، حتى قُتل أكثرهم الواحد تلو الآخر، ودنا منه المشركون فرموه حتى كسروا رباعيته وشجوا وجهه وجرحوا شفته وهو ثابت في مركز القيادة لم يتراجع عنه إلى الوراء، حتى فاء إليه المسلمون بعد ذلك لما عرفوه فنهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب وحوله كبار الصحابة ﵃.

فلما رأى المشركون تجمع المسلمين حول الرسول ﷺ أرادوا استئصالهم فعَلَتْ فرقة منهم الجبل بقيادة خالد بن الوليد، فقال النبي ﷺ: «اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا» فقاتلهم عمر بن الخطاب في رهط من المهاجرين حتى اهبطوهم من الجبل[2].

ولما يئسوا من القضاء على المؤمنين توقفوا عن القتال، وأشرف أبو سفيان على المسلمين ليفاخرهم بما توصل إليه جيشه من النصر، وليشمت بهم بما أصابهم من القتل والجراح.

وقد أخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب ﵁ قال: وأشرف أبو سفيان فقال:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب (إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا) الآية (فتح الباري ٧/ ٣٦١).

(٢) السيرة النبوية ٣/ ٣ - ٥٩ بتصرف.

أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن الخطاب، فقال:[١] إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل.. فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال قولوا: الله أعلى وأجلّ، قال أبو سفيان:لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: أجيبوه قالوا: ما نقول؟ قال قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان:يوم بيوم بدر والحرب سجال وتجدون مثلة[٢] لم آمر بها ولم تسؤني»[٣].

وقد ظن المسلمون حينما رأوا أبا سفيان مقبلا بجيشه أنه سيميل عليهم، فاغتموا لذلك ونسوا ما فاتهم من النصر وما أصابهم من القتل، وقد أخرج ابن جرير في هذا من طريق أسباط عن السدي أنه قال: انطلق رسول الله ﷺ يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه وضع رجل سهما في قوسه فأراد أن يرميه، فقال أنا رسول الله ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله ﷺ حيا، وفرح رسول الله حين رأى أن في أصحابه من يمتنع، فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ حين ذهب عنهم الحزن، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا، فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم، فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذي كانوا عليه وهمهم أبو سفيان...»[٤].

---

(١) أي أبو سفيان: قال ابن حجر: وفي رواية زهير «ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا» (فتح الباري ٧/ ٣٥٢).

(٢) المثلة هي تقطيع أطراف القتيل، قال ابن فارس في «مقاييس اللغة» مَثّل بالقتيل إذا جدعه.

(٣) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة أحد «فتح الباري ٧/ ٣٤٩».

(٤) جامع البيان ٤/ ١٣٦.

وبعد أن فاخر أبو سفيان المسلمين بنتيجة المعركة على الصورة التي مر ذكرها ارتحل بجيشه، وخاف المسلمون منهم أن يذهبوا إلى المدينة، فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب لينظر هل يرتحلون إلى مكة أم إلى المدينة، وجعل علامة ارتحالهم إلى مكة أن يمتطوا الإبل وعلامة ذهابهم إلى المدينة أن يمتطوا الخيل كما سبق في رواية السدي وابن إسحاق، فلما عرف ﷺ أنهم قد امتطوا الإبل تيقن من أنهم ذاهبون إلى مكة، فبشر أصحابه وطمأنهم، فأما المؤمنون الصادقون فصدقوا كلام النبي ﷺ، وأمنوا وأنزل الله عليهم السكينة حتى أخذهم النعاس، فأزال عنهم آثار التعب والإعياء، وقاموا بعد ذلك بدفن شهدائهم وحمل جرحاهم، أما المنافقون فإنهم بقوا في همٍّ قاتل ورعب شديد لتوقعهم رجوع المشركين إليهم لاستئصالهم، أو أخذ أموالهم في المدينة وسبي ذراريهم.

والآن بعد أن انتهينا من تلخيص أحداث المعركة المهمة تردُ علينا بعض التساؤلات حول تصرفات المنافقين الغريبة في هذه المعركة، فقد خرجوا مع المؤمنين أوَّلا ثم لما كانوا في أثناء الطريق رجعوا إلى المدينة بصورة تثير الشبهة عليهم وتبعث على الشك فيهم، فلماذا خرجوا مع المؤمنين ما داموا لا يريدون نصرة الإسلام والمسلمين؟ ولماذا رجعوا من أثناء الطريق؟ والجواب أن يقال: يحتمل أنهم خرجوا من أجل الغنائم فيما إذا كان النصر للمسلمين، فلما رأوا ضخامة جيش الكفار أصيبوا بالرعب وامتلأت قلوبهم ذعرا فرجعوا ولم يدخلوا المعركة.

ويحتمل أنهم خرجوا مبالغة منهم في ستر نفاقهم، ثم أصيبوا بالرعب فلم يستطيعوا الاستمرار في تمثيل هذا النفاق الذي سيكلفهم تضحيات كبيرة، فرجعوا إلى المدينة مفضلين مواجهة نقمة المؤمنين المحتملة فيما إذا بقي لهم كيان بعد المعركة على مواجهة الموت المحقق في نظرهم على يد الكفار.

ويحتمل أنهم كانوا يسيرون على خطة مرسومة، وذلك في أن يخرجوا مع المؤمنين فإذا ما شارفوا على الوصول إلى الأعداء رجعوا محاولين بذلك التخذيل عن النبي ﷺ بإثارة الفزع والخوف بين المؤمنين.

كل ذلك محتمل، ولكن الذي يظهر أنهم لم يتفقوا على خطة مرسومة وهم في المدينة، لأن النبي ﷺ حينما استشار الناس في الخروج أو البقاء وسمع رأي الفريقين دخل بيته ولبس لأمته وأمر الناس بالخروج، فليس هناك وقت كاف لاجتماع المنافقين واتفاقهم على مثل هذه الخطة، فالظاهر أنهم خرجوا نفاقا، وربما كان لهم أو لبعضهم هدف في الغنيمة فلما رأوا جيش الكفار أصيبوا بالرعب، فانسحب زعماؤهم وتبعهم من هو على شاكلتهم في النفاق ومن لم يتمكن الإسلام من قلبه فافتتن في ذلك اليوم ونافق، وربما كانوا يدبرون خطة الانسحاب في تلك الليلة التي بات فيها جيش المؤمنين قريبا من جيش الكفار، على نحو يثير الفزع والاضطراب في جيش المؤمنين، حتى يرجع معهم أكبر قدر ممكن منهم ليحصل الفشل في جيش المؤمنين فينهزموا أمام أعدائهم، وليتفادوا نقمة المؤمنين بهم فيما إذا انتصروا إذا كان عددهم كبيرا.

ولقد حصل لهم بعض ما أرادوا حيث رجع ثلث الجيش الإسلامي في ذلك اليوم، وليس من المقطوع به أن جميع أولئك الذين رجعوا كانوا منافقين قبل ذلك، بل يحتمل أن بعضهم كفروا في ذلك اليوم ثم أخفوا كفرهم عن المؤمنين.

ولقد همت طائفتان من المؤمنين أن ترجعا مع المنافقين ولكن الله عصمهما بالإيمان فثبتتا مع المؤمنين، وهما بنو سلمة وبنو حارثة، وقد أخرج الإمام البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: «نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[آل عمران: ١٢٢] بني سلمة وبني حارثة، وما أحب أنها لم تنزل والله يقول ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾»[1].

---

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الآية (فتح الباري ٧/ ٣٥٧).

وعلى أي حال فرجوع عبد الله بن أبيّ ومن معه من المنافقين في ذلك اليوم يعتبر خيانة مكشوفة ودليلا واضحا على نفاقهم، وهذا من أوضح الأدلة على ما يبيته المنافقون للمؤمنين من الشر والنوايا السيئة.

بقي أن يقال هل رجع المنافقون كلهم مع عبد الله بن أبيّ أم بقي منهم طائفة اشتركت مع المؤمنين في خوض المعركة؟

أما النصوص التاريخية فلم تصرح بشيء من ذلك، غير أن الروايات التي رويت عن الذين عصوا أمر النبي ﷺ من الرماة ونزلوا عن مركزهم تشير إلى احتمال كون بعضهم من المنافقين، ففي رواية البخاري السابقة أنهم قالوا: الغنيمة الغنيمة وفي رواية أخرى «فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟! قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة»[1].

وأخرج ابن جرير من طريق سلمة عن ابن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده قال: قال الزبير: «والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم[2] هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوازم مادون إحداهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل فانكفأنا وانكفأ علينا القوم، بعد أن هزمنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم»[3].

ومما يشير إلى احتمال وجود المنافقين في جيش المؤمنين ما أخرجه ابن جرير عن طريق

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٥٠.

(٢) الخدم جمع خدمة وهي الخلخال كما قال في «النهاية».

(٣) جامع البيان ٤/ ١٢٦.

أسباط عن السدي قال:... وفشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبيّ فنأخذ لنا أمنة من أبي سفيان، يا قوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم»[1].

أما الآيات القرآنية فهي أكثر وضوحا في الدلالة على وجود بعض المنافقين في جيش المؤمنين وذلك في قوله تعالى ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فالذين أرادوا الدنيا يحتمل أن يكونوا من المنافقين، ويحتمل أن يكونوا من ضعفاء الإيمان، ويحتمل أن يكونوا من الفريقين. وأصرح من ذلك قوله تعالى ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ فالمراد بهذه الطائفة المنافقون كما سبق ترجيح ذلك.

ومما يدل على أن المراد بهم المنافقون الذين حضروا المعركة ماأخرجه ابن جرير من طريق سلمة عن ابن إسحاق قال: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن الزبير قال: والله إني لأسمع قول مُعتِّب بن قُشير أخي بني عمرو بن عوف، والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا[2].

وأخرجه ابن جرير أيضا عن سعيد بن يحيى الأموي قال حدثني أبي عن ابن إسحاق به[3].

---

(١) جامع البيان ٤/ ١١١ – ١١٢.

(٢) جامع البيان ٤/ ١٤٣.

(٣) جامع البيان ٤/ ١٤٣.

وهذا يدل على أن معتب بن قشير من المنافقين، وقد ذكره ابن إسحاق ممن شهد بدرا[١]، وهذا يتعارض مع موقفه يوم أحد إذ أن أهل بدر كانوا من الصفوة وقد أثنى عليهم النبي ﷺ ثناء بالغا ومن ذلك قوله «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو فقد غفرت لكم» أخرجه البخاري[٢].

ولعل في ذكره مع البدريين وهمًا من ابن إسحاق إذ أنه قد ذكره بعد ذلك مع من بنوا مسجد الضرار[٣] والذين بنوه هم من المنافقين قطعا.

وإذا فرضنا أنه كان ممن شهد بدرا فلعله قد عرض له الشك بعد ذلك ثم تاب وختم له بالخير.

وممن شهد المعركة من المنافقين «قزمان حليف بني ظفر» فإنه قد صرح بأنه لم يدخل المعركة إلا حمية لقومه، وقد أخرج ابن هشام عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة أنه قال: «كان فينا رجل أتيٌّ[٤] لا يُدرَى ممن هو يقال له قزمان، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر له» إنه لمن أهل النار «قال: فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديدا فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة فاحتُمل إلى دار بني ظفر، قال فجعل رجال من المسلمين يقولون: والله لقد أبليت يا قزمان فأبشر قال: بماذا أبشر؟ فو الله إنْ قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت، قال: فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهما من كنانته فقتل نفسه»[٥].

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٤٠٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي باب فضل من شهد بدرًا (الفتح ٧/ ٣٠٥).

(٣) السيرة النبوية ٢/ ١٥٨.

(٤) الأتي هو الغريب كما قال صاحب القاموس.

(٥) السيرة النبوية ٣/ ٤١.

وقد روى الإمام البخاري في غزوة خيبر قصة مشابهة لهذه القصة، وفيها أن النبي ﷺ قال بعدما نحر الرجل نفسه «قم يا فلان فأذِّن: أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر»[(١)].

ولكن لم يذكر في هذه الرواية اسم الرجل الذي نحر نفسه، فالظاهر أنها قصة أخرى وأن الذي نحر نفسه في خيبر غير قزمان الذي في غزوة أحد.

وممن اتهم بالنفاق الحارث بن سويد وقد دخل المعركة في جيش المسلمين فرأى غِرَّةً من «المجذَّر بن ذياد البلوي» فقتله لأنه قتل أباه في الجاهلية، وفي ذلك يقول ابن إسحاق فيما أخرجه عن ابن هشام: وكان الحارث بن سويد بن صامت منافقا فخرج يوم أحد مع المسلمين، فلما التقى الناس عدا على «المجذر بن ذياد البلوي» وقيس بن زيد «أحد بني ضبيعة فقتلهما ثم لحق بمكة بقريش وكان رسول الله ﷺ -فيما يذكرون- قد أمر عمر ابن الخطاب بقتله إن هو ظفر به ففاته فكان بمكة ثم بعث إلى أخيه الجلاس بن سويد يطلب التوبة ليرجع إلى قومه فأنزل الله تعالى فيه - فيما بلغني - عن ابن عباس: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[آل عمران: ٨٦][(٢)].

وذكر ابن هشام أنه رجع إلى المدينة وأن النبي ﷺ أمر أحد أصحابه بقتله فقتله[(٣)].

وقال ابن هشام: حدثني من أثق به من أهل العلم أن الحارث بن سويد قتل المجذر بن

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي باب غزوة خيبر (الفتح ٧/ ٤٧١).

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٢.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٤٣.

زياد ولم يقتل قيس بن زيد والدليل على ذلك أن ابن إسحاق لم يذكره في قتلى أحد وإنما قتل المجذر لأن المجذر بن ذياد كان قتل أباه سويدا في بعض الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج[1] .

وقد ترجم له ابن حجر وذكر الخلاف في قتله للمجذر ورجح أنه هو الذي قتله، وذكر أنه كان مسلما فارتد ولحق بالكفار فنزلت فيه هذه الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ فحملها رجل فقرأها عليه فقال الحارث: والله إنك لصدوق، وإن الله أصدق الصادقين فأسلم، وقد ذكر أن هذا الخبر رواه عبد الرزاق في تفسيره ومسدد في مسنده كلاهما عن جعفر بن سليمان، والباوردي وابن منده وغيرهما من طريق جعفر عن حميد الأعرج عن مجاهد وذكر ابن عبد البر في ترجمته نحوا من هذا[2] .

وقال ابن حزم في الحارث بن سويد: وقد قيل أنه تبرأ عند القتل من النفاق، وقال: يا رسول الله والله ما قتلت المجذر شكا في ديني ولا نفاقا ولكني لما رأيت قاتل أبي لم أتمالك أن قتلته[3] .

وذكر ابن حزم أنه لم يعرف بقتله للمجذر أحد حتى نزل جبريل بذلك على رسول الله ﷺ فنهض رسول الله ﷺ إلى قباء فاجتمع إليه بنو عمرو بن عوف فأتى الحارث في جلتهم وعليه حلة له فأمر رسول الله ﷺ بعض الأنصار بضرب عنقه فقال الحارث: وفيم يا رسول الله فقال: «لقتلك المجذر بن ذياد» فما زاد على أن قام ومد عنقه وحينئذ قال ما ذكرنا واعترف، يعني بقوله السابق «والله ما قتلت المجذر شكا في ديني ولا نفاقا».

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٣.

(٢) الإصابة ١/ ٢٧٩ – والاستيعاب ١/ ٣٠٧ –.

(٣) جهرة أنساب العرب / ٣٣٧.

قال ابن حزم: وهذا لا يجوز غيره لأنه شهد يوم أحد ولم يشهد أحدًا منافق[1].

وهكذا ذكر ابن حزم هذا الخبر ولم ينسبه إلى أحد من رواة السيرة وهو يفيد أن الصحابة لم يعلموا بقتله المجذر حتى أمر النبي ﷺ أحد الأنصار بقتل الحارث وهو يختلف مع ما رواه ابن إسحاق من أن النبي ﷺ أمر عمر بقتله إن هو ظفر به ففاته ولحق بمكة فإن كان ما ذكره ابن حزم صحيحا فإن ما ذكره ابن إسحاق من أمر النبي ﷺ بقتله عندما هرب إلى مكة محمول على أنه أمر بقتله لردته ولحاقه بالكفار، ويكون ما ذكره ابن حزم من أمر النبي ﷺ أحد الأنصار بقتله قصاصا لقتله المجذر، وذلك بعدما تاب ورجع إلى المدينة وهو يتفق مع ما ذكره ابن هشام من أنه رجع إلى المدينة وأمر النبي ﷺ أحد الأنصار بقتله فقتله.

أما قول ابن حزم بأن معركة أحد لم يشهدها منافق فلا دليل عليه، بل ثبت ما يدل على خلافه لأن قزمان المنافق قد شهد المعركة، وقد قال عنه النبي ﷺ «إنه لمن أهل النار» كما سبق، وقد سبق الكلام على معتب بن قشير وقد قيل إنه من المنافقين وهو ممن شهد أحدا.

ولقد كانت معركة أحد مقام امتحان للمؤمنين، حيث ظهروا بعدها على حقيقتهم فتميز المؤمنون الصادقون، من المنافقين الذين انكشفوا في تلك المعركة.

وكان الامتحان فيها على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: قبل دخول المعركة وذلك عندما أقبل المسلمون على جيش الكفار فوقع الرعب في قلوب المنافقين ورجع أكثرهم مع عبد الله بن أبيّ وكانوا ثلاثمائة كما سبق.

---

(١) جهرة أنساب العرب / ٣٣٨ وجوامع السيرة / ١٦٤ – ١٦٥. وذكر اسم الأنصاري الذي أمره الرسول ﷺ بقتله وهو عويم بن ساعدة (جوامع السيرة / ١٦٥).

المرحلة الثانية: في أثناء المعركة وذلك حينما انقلبت المعركة لصالح الكفار وأصيب المؤمنون فأظهر المنافقون كلمات من التضجر والاعتراض، حكاها الله عنهم بقوله ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وقوله ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وقد ميز الله المؤمنين عنهم بالأمان الذي أنزله عليهم حتى غشيهم النعاس، بينما بقي المنافقون في خوف شديد وهمٍّ بالغ كما سبق.

المرحلة الثالثة: وهي بعد انتهاء المعركة، وذلك حينما ظهرت نتيجة المعركة على وضع ليس في صالح المسلمين بالنسبة للوضع المعهود لدى البشر، فاستغل ذلك المنافقون واليهود ونشطوا في أعمالهم المنكرة من الشماتة بالمسلمين والكيد لهم، ومحاولة تفريقهم عن رسول الله ﷺ.

وفي بيان هذا يقول موسى بن عقبة: «وأخذ المنافقون عند بكاء المسلمين في المكر والتفريق عن رسول الله ﷺ وتحزين المسلمين، وظهر غش اليهود وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل، وقالت اليهود: لو كان نبيا ما ظهروا عليه ولا أصيب منه ما أصيب، ولكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه، وقال المنافقون مثل قولهم، وقالوا للمسلمين: لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذين أصابوا منكم»[1].

وهكذا حاول اليهود والمنافقون أن يُفقدوا المؤمنين ثقتهم بدينهم ونبيهم، وأن يشوهوا عقيدتهم الصافية نحو قضاء الله وقدره وحكمته.

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٤٨، وموسى بن عقبة هو ابن أبي عياش الأسدي مولى آل الزبير وهو ثقة فقيه إمام في المغازي.

ولما كان هذا المخطط الخبيث الذي قاموا به ربما يؤثر على بعض المؤمنين أنزل الله سبحانه وتعالى الآيات القرآنية تجلي الحقائق، وتكشف الشبهات وتزيل عن نفوس المؤمنين ما قد يعلق بها من الشكوك والوساوس التي يثيرها أعداؤهم.

بيان مفردات النص:

تَحُسُّونهم: الحس الاستئصال بالقتل، أي تقتلونهم قتلا ذريعا، يقال حسَّ البرد الكلأ إذا أهلكه، وفي الحديث «حَسُّوهم بالسيف حسا» أي استأصلوهم قتلا[1].

فشلتم: الفشل الضعف والجبن[2].

ليبتليكم: الابتلاء الاختبار والامتحان[3].

تُصعدون: الإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض، وفرق بعضهم بين الإصعاد والصعود: بأن الإصعاد في مستوى الأرض والصعود في ارتفاع، ويؤيد هذا قراءة أبيّ (إذ تُصعدون في الوادي) كما يؤيده ورود الأخبار بأن الصحابة لما أُصيبوا ذهبوا فرارا في وادي أحد[4].

تلوون: تعطفون وتلتفتون، يقال فلان لا يلوي على أحد إذا أمعن في الهزيمة[5].

أثابكم: الثواب هو ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، ويطلق على الخير والشر لكن إطلاقه على الخير أكثر، وإذا أطلق على المكروه كما هو في هذه الآية فهو على سبيل الاستعارة، وأصله من الثوب وهو الرجوع[6].

---

(١) الصحاح، القاموس، النهاية.

(٢) المفردات، القاموس.

(٣) نفس المرجعين السابقين.

(٤) جامع البيان ٤/ ١٣٢، المفردات، روح المعاني ٤/ ٩١.

(٥) جامع البيان ٤/ ١٣٣، المفردات.

(٦) المفردات: القاموس.

غما: الغم هو الكرب والحزن[١].

خبير: الخبرة العلم ببواطن الأمور[٢].

يمحص: التمحيص تخليص الشيء من العيوب[٣].

بيان معنى النص:

بين الله سبحانه في هذه الآيات أثر المنافقين وضعفاء الإيمان في انتكاس الجيش الإسلامي، حيث قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي ما وعدكم به سابقا من النصر على الأعداء في مثل قوله تعالى ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[آل عمران: ١٢٥].

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي تقتلونهم قتلا ذريعا، وقد أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:تقتلونهم[٤].

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بحكمه وتدبيره حيث سلطكم عليهم وكف أيديهم عنكم[٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ ضعفتم عن الصبر على لقاء العدو حينما وقع الخلل في صفوفكم فمالوا عليكم.

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي اختلفتم في الرأي وتفرق جمعكم، ويدخل في هذا الخطاب

---

(١) نفس المرجعين السابقين.

(٢) نفس المرجعين السابقين.

(٣) نفس المرجعين السابقين.

(٤) جامع البيان ٤/ ١٢٧.

(٥) جامع البيان ٤/ ١٢٧.

دخولاً أوليًّا الرماة حيث اختلفوا في البقاء في المركز أو النزول فرأى أكثرهم النزول ونزلوا كما سبق.

﴿وَعَصَيْتُم﴾ أوامر نبيكم ﷺ، والذين خالفوا أوامره هم الرماة حيث تركوا مكانهم، والذين سمعوا نداءه حينما ناداهم بالرجوع وهم فارون فلم يرجعوا ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النصر على عدوكم والظفر بالغنيمة.

حتى إذا حدثت تلك المخالفات منكم وقع ما وقع لكم من الإصابة على أيدي أعدائكم، وما وقع من ذلك أمر تقتضيه حكمة الله تعالى لأمور مهمة، من أبرزها تربية المؤمنين وإظهار أهمية طاعة الرسول ﷺ، إذ لو لم تحصل الإصابة مع ما وقع من مخالفة أمر النبي ﷺ لربما رأى بعض الناس أن لهم أن يجتهدوا في السلوك الجهادي وإن خالفوا أمر القائد فيحدث الخلل في الترتيبات الإدارية للجهاد، مما يسبب التعرض للهزيمة على أيدي الأعداء.

ولكن لماذا عصوا الرسول ﷺ وتنازعوا في الأمر؟ هذا ما يبينه الله سبحانه بقوله ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يقصد من الاشتراك في القتال متاع الدنيا ولا يريد الآخرة أصلا كالمنافقين، أو يريدهما معا ولكن إرادته للدنيا أغلب كضعفاء الإيمان، وهؤلاء هم الذين نادى بعضهم بعضا من الرماة قائلين: الغنيمة الغنيمة.

وجواب إذا محذوف والتقدير: حتى إذا فشلتم منعكم نصره، ويجوز أن تكون حتى حرف جر بمعنى إلى والتقدير: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم[1].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ وهم الذين خرجوا لإعلاء كلمة الله، وهؤلاء هم

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧١.

أكثر الصحابة الذين حضروا المعركة ﷺ، ولا يجوز تخصيص ذلك بالذين ثبتوا من الرماة مع أميرهم، أو الذين ثبتوا مع النبي ﷺ، لأن الذين فروا من المعركة فيهم عدد من المؤمنين الصادقين وقد عفا الله عنهم، بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[آل عمران: ١٥٥].

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾ معطوف على «صَدَقَكُم» أي ثم بعدما صدقكم الله وعده بالنصر فقتلتموهم قتلا ذريعا حتى حزتم غنائمهم، صرفكم عنهم فأصبتم بالذهول والارتباك حتى صار بعضكم يقتل بعضا من غير أن تشعروا بذلك، وفرَّ الكثير منكم، وذلك بسبب تنازع بعضكم ومعصيتهم أوامر النبي ﷺ، ووجود طائفة منكم لا يريدون بقتالهم وجه الله والدار الآخرة.. صرفكم عنهم امتحانا لكم ليتميز المؤمنون من المنافقين، وليظهر المؤمنون على طبقاتهم في الإيمان كما سيأتي.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾ أي ولقد تجاوز الله سبحانه عن أخطائكم التي صدرت منكم في هذه المعركة لما علم إخلاصكم وصدق إنابتكم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي صاحب منة كبيرة على المؤمنين حيث عفا عنهم وتجاوز عن سيئاتهم.

ثم بين سبحانه وقت صرفه المؤمنين عن الكفار بقوله ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾والظرف «إذ» متعلق بقوله ﴿صَرَفَكُمْ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تذهبون في وادي أحد فرارا من أعدائكم.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي ولا تعطفون على أحد ولا يلتفت بعضكم إلى بعض

هربا من عدوكم ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي يناديكم من خلفكم لتجتمعوا إليه قائلا: «إليَّ عباد الله» كما أخرج ذلك ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة[1] ومن طريق أسباط ابن نصر عن السدي[2] ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ جازاكم على معصيتكم نبيكم وفشلكم عن قتال عدوكم ﴿غَمَّۢا﴾ حزنا وكربا وقع لكم لما أشيع في معسكركم أن نبيكم قد قُتل، فأصبتم بالدهشة ووقع الخلل في صفوفكم ﴿بِغَمّٖ﴾ على غم آخر كان نالكم لما أصيب منكم من أصيب بالقتل والجراح، وفاتكم ما احرزتموه من الظفر بعدوكم.

فالغمُّ الأول المذكور في الآية ما سمعوه من قتل النبي ﷺ، والغمُّ الثاني ما أُصيبوا به من القتل والجراح قبل ذلك، وبهذا قال قتادة والربيع بن أنس واختاره الطبري[3] وقيل إن المراد بالغم الأول إصابتهم، والثاني سماعهم قتل النبي ﷺ، ذكره ابن جرير عن مجاهد وقتادة أيضا[4].

وقيل الغم الأول الإصابة والغم الثاني ما نتج عن إشراف أبي سفيان على المؤمنين بجيشه بعد انتهاء المعركة، وبهذا قال السدي[5].

والآية محتملة لكل هذه الاحتمالات، ولكن مما يؤيد القول الأول أن الله سبحانه علل إصابتهم بالغم الثاني بقوله ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من النصر والغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ من القتل والجراح أي إن الغم الثاني أنساهم الغم الأول لكونه

---

(١) جامع البيان ٤/ ١٣٤.

(٢) المرجع السابق ٤/ ١٣٤.

(٣) المرجع السابق ٤/ ١٣٥ – ١٣٨.

(٤) المرجع السابق ٤/ ١٣٥.

(٥) المرجع السابق ٤/ ١٣٦.

أعظم منه، ولاشك أن غمهم بقتل النبي ﷺ لما أشيع ذلك أعظم من غمهم بالإصابة أو بإشراف أبي سفيان عليهم.

ثم بين الله سبحانه عقيدة المنافقين الجاهلية في زعمهم أن المقتول قد مات قبل أجله، فقال تعالى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ أي الغمّ الذي توالى عليكم في أثناء المعركة ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أي طمأنينة بالغة مداها حتى زال كل اضطراب في نفوسكم وغلب عليكم النعاس لما نالكم من التعب ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ لشدة أمنهم وهدوء بالهم وهم المؤمنون الصادقون ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي قد أهمهم التفكير بحماية أنفسهم لشدة خوفهم من عودة المشركين واستئنافهم القتال.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي يظنون بالله ظنا باطلا: والمراد بهذا الظن الباطل ظنهم أن ما أصاب المؤمنين في معركة أحد هو بسبب خروجهم للقتال، وأنهم لو قعدوا في بيوتهم لنجوا مـــن القتل، كما أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية: يعني التكذيب بالقدر[1].

﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الجاهلية اسم لما يخالف الإسلام من العقائد والمناهج التي تعارف عليها البشر، وقد غلب استعمالها كاسم للفترة التي كانت قبل الإسلام لأن أغلب ما كان عليه أهلها من العقائد والعادات كان مبنيا على الجهل بالتعاليم السماوية ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ هذه الجملة تفسير للظن في الجملة السابقة، والاستفهام للنفي، والمراد بالأمر: الرأي والتدبير، وبهذا قال الطبري[2] أي يقولون: ليس لنا من الرأي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٤٢.

(٢) جامع البيان ٤/ ١٤٢.

والتدبير في هذه المعركة شيء، إذ كان رأينا عدم الخروج لقتال الأعداء، فلو أننا بقينا في المدينة ما أُصبنا بما أصبنا به لما خرجنا، وهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام يرددون رأي زعيمهم عبد الله بن أبيّ الذي رجع ولم يدخل المعركة.

وقيل إن المراد بالأمر في الآية النصر الذي وعد الله نبيه ﷺ، فيكون المراد بالظن الباطل في الجملة السابقة ظن أن الله لا ينصر رسوله ودينه[1] والقول الأول أرجح لما مضى من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما حيث فسر الظن في الآية بأنه التكذيب بالقدر، ولقوله تعالى في آخر الآية ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ حيث بين سبحانه أن ما قدره من القتل على من قُتل في المعركة لا بد أن يقع ولو لم يخرجوا للقتال، ولأن هذا التفسير أقرب إلى ظاهر الآية وإلى واقع المعركة حيث قد انقسم المسلمون في الرأي إلى قسمين: قسم يرى عدم الخروج لقتال الأعداء خارج المدينة، وقسم يرى الخروج، وكان عبد الله بن أبيّ ممن يرى عدم الخروج كما سبق وتبعه في ذلك المنافقون، فكانت النتيجة الطبيعية أن يشمتوا بنتيجة المعركة عندما أصيب المؤمنون.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾ أي قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الذين اعترضوا عليك في أمر الخروج: إن أمرنا كله بيد الله جل وعلا: خروجنا لقتال الأعداء أو بقاؤنا في المدينة أو غير ذلك من أمرنا، ولو شاء الله عدم خروجنا لكان ذلك.

﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يخفون في أنفسهم من الكفر والمعصية والاعتراض على قدر الله ما لا يظهرون لك من الإيمان والطاعة والرضا والتسليم.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي يقول هؤلاء المنافقون: لو

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٢.

كان لنا من أمر تدبير المعركة شيء ما قتل من قتل منا في هذا المكان، إذ كان رأينا عدم الخروج لقتال الأعداء، وممن قال ذلك معتب بن قشير كما سبق.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين الذين اعتبروا خروجهم معك سببا في قتل من قتل منهم: لو قعدتم في بيوتكم ولم تخرجوا معنا لظهر الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى المواضع التي كُتب عليهم أن يصرعوا فيها، لأن الله جل وعلا قد قدر عليهم أن يموتوا قتلا في تلك المواضع قبل أن يوجدهم من العدم ولا رادَّ لقضائه وقدره.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ الجملة معطوفة على مقدر لم يظهر إيذانا بكثرته، أي قدرَّ الله إصابتكم لمصالح جمة وليبتليَ ما في صدوركم، أو متعلقة بفعل يقدر بعدها أي للابتلاء المذكور قدر إصابتكم لا لعدم العناية بأمر المؤمنين[1] والمعنى: قدر الله سبحانه إصابتكم في هذه المعركة لحكَم جليلة ومنافع عظيمة لكم، منها كشف درجات إيمانكم فيظهر لكم المؤمن الكامل القوي، من ضعيف الإيمان وليكتشف كل مؤمن درجة إيمانه لأن المؤمن قد تخدعه نفسه فيرضى عن إيمانه وقت الرخاء، فإذا ما تعرض للشدائد والمحن تبين له ضعفه وقصوره ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وليخلص ما في قلوبكم من الإيمان مما خالطه من شوائب المعتقدات الجاهلية.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: عليم بصاحبة الصدور وهي القلوب، فلا يخفى عليه سبحانه شيء مما تنطوي عليه من المعتقدات والإرادات.

ثم بين الله سبحانه أثر الجهاد في سبيل الله في تمحيص المؤمنين، وتنقيح المجتمع

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٣، إرشاد العقل السليم ١/ ٥٨٣.

الإسلامي حيث قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما أصابكم أيها المؤمنون من القتل والجراح يوم أحد حينما التقى جمع المؤمنين وجمع الكفار فهو بإرادة الله تعالى وقضائه وإن كان قد حصل بسبب أخطاء بعضكم.. حدث ما حدث من ذلك لحكم جليلة يعلمها الله عز وجل ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يميزهم عن المنافقين ويظهرهم على درجاتهم في الإيمان بقدر بلائهم في الثبات والصبر واحتمال الصدمات ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ أي يظهرهم على حقيقتهم ويكشفهم للمؤمنين حتى يحذروا منهم، والمراد بهؤلاء المنافقين الذين لم يظهر نفاقهم قبل دخول المعركة، أما الذين انكشفوا قبل ذلك فقد بين الله سبحانه أمرهم بقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال فريق من المنافقين، أو معطوفة على مجموع ما قبلها عطف قصة على قصة[1].

ويحتمل أن تكون معطوفة على قوله: ﴿نَافَقُواْ﴾ ولكن هذا يوقع في إشكال وهو أن المنافقين الذين تحدثت عنهم هذه الآية لم ينكشفوا بسبب إصابة المؤمنين في المعركة وإنما انكشفوا لما انخذلوا عن جيش المؤمنين قبل ابتداء المعركة، فإذا عطفنا انكشاف هؤلاء المنافقين على انكشاف المؤمنين المترتب على إصابتهم في المعركة اقتضى ذلك أن تكون الإصابة للمؤمنين سببا في انكشاف هؤلاء المنافقين وليس الأمر كذلك.

وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ كما سبق، وهو قول جمهور المفسرين[2]، وقد يكون قال هذا غيره ولم ينقل إلينا.وقال الأصم:إن القائل هو رسول الله

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٧، روح المعاني ٤/ ١١٨.

(٢) جامع البيان ٤/ ١٦٨، الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٩٦، إرشاد العقل السليم ١/ ٤٩٥.

ﷺ، ذكره الرازي[١] .

وهذا بعيد لأنه لم يثبت أن النبي ﷺ رجع إلى المنافقين يوم أحد وقال لهم هذا الكلام، ولم يعهد من النبي ﷺ أنه طلب من الذين اشتهروا بالنفاق وغيرهم من أعداء الإسلام أن يشتركوا معه في القتال، لأنه يعلم أن الذي يصبر على حر القتال ويلتزم بطاعة الله ورسوله هو المؤمن الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله، وكان يعتبر تخلف المنافقين راحة للمؤمنين كما كان يقول في غزوة تبوك إذا قالوا: له تخلف فلان: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» أخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق[٢] .

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ فقيل معناها: كثّروا سواد المسلمين وإن لم تقاتلوا فإن العدو يندفع إذا رأى كثرة المسلمين، وبهذا قال ابن جريج والسدي[٣] وقيل: المعنى رابطوا إن لم تقاتلوا، وبهذا قال أبو عون الأنصاري[٤] وقيل: المعنى ادفعوا عن أنفسكم وأهليكم إن لم تقاتلوا دفاعا عن الدين[٥] .

والآية محتملة لهذه المعاني لأن اندفاع العدو يحصل بها كلها، وإن كان القول الثالث هو أقربها لأن المؤمنين قد طلبوا منهم أحد أمرين إما القتال في سبيل الله أو الدفاع، فدل ذلك على أن المراد بالدفاع: الدفاع عن الوطن والأهل من غير قصد إعلاء كلمة الله.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٨٥.

(٢) السيرة النبوية ٤/ ٢١٠.

(٣) جامع البيان ٤/ ١٦٨.

(٤) المرجع السابق ٤/ ١٦٩.

(٥) الكشاف ١/ ٤٧٨.

وقد ذكر الله سبحانه جوابهم بقوله: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾ أي لو نعلم أن القتال سيقع بينكم وبينهم لاتبعناكم فقاتلنا معكم.

وقد كذبوا في ذلك إذ أن المشركين لم يأتوا إلا لقتال المسلمين، والرسول ﷺ لم يخرج إلا لقتالهم، والمنافقون يعلمون ذلك يقينا ولكنهم كذبوا في الاعتذار كعادتهم ليتخلصوا من تبعة المخالفة.

وقيل إن المعنى: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم أما ما أنتم ذاهبون إليه فلا يقال لمثله قتال وإنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة[1].

وقيل إن المعنى لو نحسن القتال ونقدر عليه لاتبعناكم[2].

وهذان القولان مخالفان لظاهر الآية، كما أنهما مخالفان لمدلول الكلام الذي حكاه الله عن المنافقين في قولهم «لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال» كما سبق.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ أي أنهم كانوا قبل ذلك اليوم يتظاهرون بالإيمان ولم تظهر منهم أمارة تدل على كفرهم فلما انخذلوا عن جيش المؤمنين في هذا اليوم ظهرت عليهم أمارة الكفر، حيث خذلوا المؤمنين ونصروا أعداءهم فتباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر[3].

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي يتكلمون معكم بألسنتهم معبرين

---

(۱) الكشاف ١/ ٤٧٨.

(۲) إرشاد العقل السليم ١/ ٥٩٥.

(۳) الكشاف ١/ ٤٧٨.

بذلك عما تكنه قلوبهم وهم كاذبون فيما نطقوا به أمامكم مما يخالف ما يضمرونه في قلوبهم، ومن ذلك اعتذارهم لكم بأنهم لا يتوقعون حدوث القتال بينكم وبين أعدائكم مع أنهم موقنون بوقوع القتال ولم يرجعوا إلا فرارا منه.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي عالم بما يسرونه في قلوبهم فلا يظنوا أن أمرهم قد خفي وأن خداعهم المؤمنين قد نجح، لأن الله سبحانه مع المؤمنين وسيحبط كيد المنافقين في الدنيا ويعاقبهم على كفرهم ونفاقهم في الآخرة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ الموصول يعود على المنافقين المذكورين في الآية السابقة، واللام في قوله: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لام التعليل أي لأجل إخوانهم[1]. ويحتمل أن يكون المراد بإخوانهم من قتل من المنافقين فتكون الأخوة أخوة العقيدة، ويحتمل أن يكون المراد من قتل من عشائرهم بغض النظر عن اعتقاده فتكون أخوة الصحبة والنسب والمعاشرة، وهذا هو الظاهر لأنهم إنما قالوا هذا الكلام على سبيل الشماتة بالمؤمنين لما أصيبوا في المعركة.

المعنى: هؤلاء المنافقون الذين انخذلوا عنكم أيها المؤمنين قبل المعركة، هم الذين شمتوا بمصابكم بعد انتهائها وقالوا عمن أصيب منكم والحال أنهم قعدوا عن القتال: لو أطاعونا في الرجوع حينما أشرنا عليهم بذلك لسلموا من القتل، وكان ممن قتل في المعركة عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ الذي حاول صرف المنافقين عن الرجوع، فكان مما قالوا له: ولئن أطعتنا لترجعن معنا، كما أخرج ذلك ابن جرير من طريق أسباط عن السدي[2].

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٨.

(٢) جامع البيان ٤/ ١٦٨.

فكان في قولهم ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ تحسير لأولياء هؤلاء المقتولين، وشماتة برسول الله «حيث اعتبروا ما أصاب المؤمنين بسبب طاعتهم إياه في الخروج، وعدم طاعتهم هؤلاء المنافقين في الرجوع.

وقد أبطل الله سبحانه عقيدتهم الجاهلية هذه ببيان عدم التلازم بين الخروج والقتل ولا بين البقاء في البيوت والسلامة من الموت، حيث قال تعالى ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في زعمكم أن الخروج للقتال يفضي إلى القتل، وأن القعود عن ذلك منجاة من الموت فادفعوا عن أنفسكم الموت إذا حان أجله، وهذه حجة دامغة لهم لأنهم لا يستطيعون دفع الموت إذا حل بهم، وإذا كان لابد من وقوعه فليكن بأشرف وسيلة في سبيل أسمى غاية يسعى لتحقيقها البشر وذلك في الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

ثم ذكر الله سبحانه فشلهم في حرب الإسلام وأهله تقوية لقلب النبي ﷺ وتجلية لما قد يعتريه من الغم والكآبة من سلوكهم المنحرف، الذي واجهوا به دعوة الإسلام في أحرج المواقف التي مر بها المؤمنون مع أعدائهم فقال تعالى ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي لا تغتم أيها الرسول من هؤلاء المنافقين الذين أظهروا ترك دينك وانخذلوا عن معسكرك عندما واجهت عدوك بصورة مثيرة لشكوك الأعداء فيك وفي دعوتك، ولا تتحسر على إسراعهم في الوقوع في الكفر والشماتة بك وبأصحابك حينما ظهرت نتيجة المعركة على ما يتمنونه لكم ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ وهم لم يحاولوا الإضرار بالله تعالى وإنما كانت حربهم مع دين الله وأوليائه فالمعنى: لن يضروا دين الله وأولياءه شيئا من الضرر ولن يستطيعوا التأثير على مستقبل دعوتك، وإنما عبر سبحانه بذلك للدلالة على أن من حارب دين الله وأولياء الله فقد حارب الله.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ فهم إنما يضرون بعملهم هذا أنفسهم فقد اقتضت إرادة الله جل وعلا أن يحرمهم نصيبهم من نعيم الآخرة ﴿وَلَهُمْ﴾ مع هذا الحرمان ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في نار جهنم جزاء كفرهم بالله ومحاربتهم دينه وأولياءه.

ثم بين سبحانه أنهم إنما استحقوا هذه العقوبة الشديدة لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان، بعدما عرفوا أن الإيمان بالله هو الطريق المستقيم فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي إن كل من اختار الكفر على الإيمان فهذه عاقبته ولن يضر إلا نفسه، أما الإسلام فإنه سيعلو وينتصر ولن يقف أعداؤه حجر عثرة في سبيل ظهوره وانتشاره، وهؤلاء المنافقون ممن اختار الكفر على الإيمان فباءوا بهذه النتيجة الخاسرة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي وإذا كان هؤلاء المنافقون وغيرهم من الكفار قد اتخذوا من إمهال الله وعدم أخذه إياهم بالعقوبة العاجلة حافزا على التوغل في الكفر والقيام بأعمال الإفساد والتخريب، فلا يظنوا أن ذلك خير لهم، إنما يمهلهم الله تعالى لتراكم عليهم ذنوبهم فيطول يوم القيامة حسابهم، ويتضاعف بسبب ذلك عذابهم.. ذلك العذاب الذي سينالهم به الهوان والخزي والمذلة.

ثم ذكر الله سبحانه الحكمة في ابتلاء المؤمنين بالمحن والشدائد حيث قال تعالى ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي ما صح وما استقام في حكمة الله جل وعلا أن يترككم أيها المؤمنون على الحال التي أنتم عليها من التباس المؤمن منكم بالمنافق حتى يظهر المنافق الذي خبثت نفسه فنزعت إلى الشر، ولم

تقبل الخير من المؤمن الصادق الذي زكت نفسه فنزعت إلى الخير ورفضت الشر، لأن بقاء المنافقين داخل المجتمع الإسلامي له أثر بالغ في إيقاع الفتنة بين المؤمنين، وأحداث الخلل في صفوفهم، وصرف الناس عن الدخول في الإسلام. فلهذا قدر الله سبحانه وقوع المحن ليظهر الصادق منهم في إيمانه من المنافق.

وما كان هناك من وسيلة لكشف المنافقين وتمييزهم عن المؤمنين غير المحن التي يبتلي الله بها المسلمين، إلا أن يطلع المؤمنين على غيبه فيعين لهم المنافقين بأشخاصهم، وهذا ما لا سبيل إليه إلا لمن يصطفيه الله من رسله، ولذلك قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي ما صح وما استقام في حكمة الله جل وعلا أن يطلعكم على الغيب لأنكم في دار تكليف وابتلاء وليس ذلك لأحد من البشر إلا لمن اختاره الله من رسله فيطلعه من غيبه على ما يشاء، وقد أطلع الله نبيه ﷺ على كثير من أخبار المنافقين وأقوالهم التي صدرت من بعض أفرادهم، ولكن حكمته جل وعلا اقتضت أن يكشفهم بشكل جماعي عن طريق المحن وذلك بتكليفهم بالجهاد في سبيل الله كما في غزوة أحد وتبوك.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك وعرفتم أن المغيبات لا تعرف إلا عن طريق الرسل فآمنوا بالله ورسله إيمانا حقا ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾ إيمانا خالصا من الشوائب ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي ثواب جزيل من الله تعالى لا يُدرك كنهه وذلك في الجنة.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

١ – في هذا النص يبين الله سبحانه وتعالى خصلة من خصال المنافقين التي استغلوها في حرب المؤمنين، وهي اعتقادهم أن المقتول يموت قبل أجله المحدد له، وهذه عقيدة

جاهلية يشاركهم فيها غيرهم من الكفار، ولذلك حذر الله المؤمنين من أن يتشبهوا بهم في هذه العقيدة، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وقد استغل المنافقون هذه العقيدة الجاهلية يوم أحد لتشويه عقيدة المسلمين الصافية نحو قضاء الله وقدره، حتى يصابوا بالحسرة والألم على ما أصابهم، فتخبو من نفوسهم جذوة الإيمان التي تدفعهم إلى المغامرة بأرواحهم وأموالهم في سبيل ما يؤمنون به، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل نظرا لفهم المؤمنين الكامل لعقيدتهم وقوة إيمانهم بها.

وقد بين الله سبحانه العقيدة الإسلامية في ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[المنافقون: ١١] وقوله بمناسبة مصاب المؤمنين في أحد ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾[آل عمران: ١٤٥]، واعتبر النبي ﷺ التأسف على ما فات من مداخل الشيطان التي يزلزل بها إيمان المسلم حيث يقول: «وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1]، فالمؤمن القوي في إيمانه هو الذي يرضى بقضاء الله وقدره، ولا يأسف على ما فاته من خير الدنيا أو ما أصابه من شرها لأنه على يقين من أنه لو عمل غير ما عمل من الأسباب لما وصل إلا إلى النتيجة التي وصل إليها حيث قضاها الله عليه ولا رادّ لقضائه.

---

(١) صحيح مسلم كتاب القدر باب الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم (٣٤).

وبهذه العقيدة السليمة يحصل المؤمن على سعادة الدنيا والآخرة، أما سعادة الآخرة فأمرها ظاهر لأن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان، ولن يسعد مؤمن أخلَّ بركن من أركان الإيمان، وأما سعادة الدنيا فلأن المؤمن بالقدر لا يندم على الشيء بعد وقوعه أو فواته، وبهذا يعيش مرتاح النفس مطمئن البال، لأنه يؤمن بأن ما وقع عليه من مصائب الدنيا أو فاته من منافعها قد قضاه الله عليه وقدره، فلو عمل جميع الاحتياطات اللازمة لتفادي المصاب الذي قدره الله عليه، أو جلب المنفعة التي قدر حرمانه منها لم يستطع الوصول إلى شيء من ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فلا فائدة إذًا من التأسف على ما فات، لأن الفائت لا يرجع، وإنما يورث ذلك حسرة في القلب، وألما في النفس يجعل صاحبه فريسة للأوهام والشكوك.

هذا بالنسبة لما يقع في الماضي أما بالنسبة للمستقبل فإن الإيمان بالقدر يدفع المؤمن إلى الإقدام والمغامرة، لأنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما قد كتبه الله عليه، وقد كتب الله أجله قبل ولادته فلن يطيل من عمره بُعده عن المخاطر، ولن ينقص منه إقدامه عليها، وبهذه العقيدة القوية اندفع الصحابة ﷺ في قتال الأعداء، ومنْ بعدهم المسلمون الذين تم على أيديهم الفتح الإسلامي، لأن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان بهذه العقيدة الصافية، فكان ذلك من أسباب انتصارهم المدهش على أعدائهم في أغلب المعارك التي خاضوها.

ولقد تقاصرت بعد ذلك همم المسلمين، وضعفت نفوسهم حتى أصبحوا يهابون الإقدام على المخاطر، ويفضلون الخلود إلى الراحة، وإذا برز منهم من يبذل نفسه وماله في سبيل الله أصبح يتلقى ممن حوله عبارات الاستنكار والتأنيب، ويشعر بأنه قد أتى بشيء غريب عن مجتمعه الذي يعيش فيه، وهو في الحقيقة إنما قام بالواجب الذي يفرضه عليه دينه، وكأنهم يرون بذلك أنه قد ضيع شيئا عزيزا كان يملكه، ولو أخلد إلى الراحة كما

أخلد غيره لسلم من الضرر في نفسه والنقص في ماله، وهذه النظرة الجاهلية هي نظرة المنافقين والكفار إلى المؤمنين الصادقين وهم يفدون دينهم بأرواحهم.. وتلك النغمات المثبطة التي يسمعها المؤمن الصادق في هذا الزمن من ضعفاء الإيمان، هي نفسها التي كان ا الصحابة ﷺ يسمعونها من الكفار والمنافقين.

وربما بلغ الجهل ببعض المسلمين اليوم إلى أن يحملوا إقدام المؤمنين الصادقين على الجهاد في سبيل الله على طلب الوصول إلى أهداف هي في نظر المؤمن الصادق قريبة دنيئة وفي نظر هؤلاء الجاهلين عالية شريفة، والذي حدا بهم إلى هذه الانتكاسة في الفهم والتفكير خلو قلوبهم من حرارة الإيمان، الذي يقوّم موازين العقل ويصحح مقاييس الفكر، فيدفع بصاحبه إلى التفكير في معالي الأمور ويبعده عن الاشتغال بسفسافها.

فالمسلمون اليوم بحاجة إلى تصحيح إيمانهم بقضاء الله وقدره، حتى يواجهوا مصائب الحياة بقوة وصبر، ويجنبوا أنفسهم الوقوع في الوساوس والأوهام التي يفتحها عليهم التأسف على الماضي، والنظر إلى النتائج على أنها وليدة الأسباب المادية وحدها بغض النظر عن ربطها بقضاء الله عز وجل وقدره، وحتى يجاهدوا في سبيل الله بعزم وإقدام، وهم يعتقدون أن العبد لا يقربه من الموت مواجهة المشاق ولا تحمُّل الصعاب، ولا يبعده منه القعود في المساكن والخلود إلى الراحة.

٢- وفي هذا النص يبين الله سبحانه لنا عجز المنافقين عن إلحاق أي ضرر بدعوة الإسلام، وأن ضرر أعمالهم يعود عليهم، ولكن هذه الحقيقة الواضحة مقيدة بوجود المؤمنين الصادقين، الذين يطبقون تعاليم الإسلام على أنفسهم، لأن الإسلام لا يمكن أن يكون له كيان بارز إلا بوجود من يمثله على وجه الأرض، فإذا وجد المؤمنون الصادقون الذين يمثلون هذا الدين تمام التمثيل فإن وعد الله إياهم بالنصر والتمكين في الأرض

سيتم لا محالة، ولن يؤثر عليهم عداء الكفار من الخارج ولا كيد المنافقين من الداخل، أما حينما يكون من يمثل هذا الدين من ضعفاء الإيمان والجاهلين، فإنهم بضعف إيمانهم بدينهم وجهلهم بتعاليمه يفتحون على أنفسهم ثغرات واسعة يدخل منها أعداؤهم، وخصوصا من المنافقين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، ويعرفون كل دقيقة وجليلة من أخبارهم وأوضاعهم.

وقد رأينا فيما تقدم وسنرى فيما سيأتي كيف أن المنافقين في عهد النبي ﷺ حاولوا القضاء على دولة الإسلام الفتية، وتفريق المؤمنين عن رسول الله ﷺ بكل ما أوتوا من الوسائل والحيل ولكنهم رجعوا خاسئين خائبين، وتحطمت محاولاتهم المتكررة مع محاولات اليهود - الذين اشتهروا في التاريخ بأعمال الدس والتخريب - أمام إيمان المؤمنين الراسخ ويقينهم الصادق، ولقد كانت صفعة أليمة أن يتلقى المنافقون من أبنائهم المؤمنين كلمات التحدي التي تدل على كمال الفهم وعمق الإيمان، فهذا عبد الله بن أبي زعيم المنافقين يتلقى ذلك من ولده عبد الله رضي الله عنه حينما وبخه أبوه على خروجه مع النبي ﷺ وكان قد أثبتته الجراحة فقال لأبيه: «الذي صنع الله لرسوله والمسلمين خير»[1] فقد أجاب أباه بتقرير عقيدة الإيمان بقضاء الله وقدره، وبين له أن ما كتبه الله على المؤمنين هو الخير وإن كان ظاهره الشر.

ولما ضعف إيمان المؤمنين بدينهم وجهلوا كثيرا من تعاليمه السامية، استطاع المنافقون أن يقوموا بأعمالهم المنكرة في التفريق بين المؤمنين، والتمهيد لأعدائهم كي يستولوا على بلادهم، حتى بلغ جهل المؤمنين وضعفهم حدا مكّن المنافقين من الوصول إلى كراسي الحكم، والتحكم برقاب المؤمنين وأموالهم، وحرب الإسلام بكل ما أوتوا من قوة، وسيأتي بيان شيء من ذلك في الخاتمة.

---

(١) إنسان العيون ٢/ ٢٧٠.

فالطريق الصحيح لجهاد المنافقين وسائر الكفار هو تمسك المؤمنين بدينهم، وتطبيقهم تعاليمه السامية فإذا هم فعلوا ذلك سدوا المنافذ التي يمكن أن يصل منها الأعداء، وأصبحوا يتصرفون معهم بهدي الإسلام، لا بوحي من عقولهم القاصرة وأفكارهم الضعيفة.

* * *

القسم الثالث

المنافقون بعد أحد

وفيه مباحث:

١- مثل من خداع المنافقين.

٢- تحذير المؤمنين من موالاة المنافقين.

٣- تحديد العلاقات بين المؤمنين والمنافقين.

٤ - مشهد من مشاهد النفاق.

٥- سلوك المنافقين المنحرف مع الله ومع الناس.

٦- تحجر قلوبهم وعدم تأثرهم بكلام الله ورسوله.

٧- خيانتهم الأمانة الكبرى.

٨- مشهد من مشاهد عقوبتهم في الآخرة.

٩- موقفهم من إجلاء بني النضير.

١٠- تثاقلهم عن الجهاد وتسرعهم في إشاعة الأخبار.

١١- ارتكابهم الجرائم واتهامهم الأبرياء بها.

١٢- استغلالهم الفرص للطعن في دعاة الإسلام.

١٣- تعرضهم بالأذى لنساء المؤمنين.

١٤- إعراضهم عن تحكيم الإسلام رغبة في ظلم الناس.

١٥- إثارتهم الفتنة بين المؤمنين وتذمرهم من هجرتهم إلى بلادهم.

١٦- خوضهم في أعراض المؤمنين وتشويه سمعتهم.

١٧- إظهارهم مودة المؤمنين وإبطانهم مودة الكفار.

١٨- موقف المنافقين في غزوة الأحزاب.

هناك اختلاف واضح بين مواقف المنافقين من المؤمنين بعد بدر وموقفهم منهم بعد أحد، فقد كان موقفهم بعد بدر موقف الخائف الذليل أمام قوة أعلى منه تحكمه وتهيمن عليه، نظرا لانتصار المؤمنين في بدر على أعدائهم.. ذلك الانتصار المدهش، أما بعد أن أصيب المؤمنون في أحد فقد أصبح موقف المنافقين منهم موقف الشامت الذي وجد الفرصة للتشفي، والانتقام المغلف بالخداع والمكر، خصوصا لما كان رأي عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين عدم الخروج، مع ظهور نتيجة المعركة لغير صالح المسلمين في النظرة الأولى فاستعز برأيه، وصار ينسب هو وأتباعه من المنافقين ما حصل على المؤمنين من الإصابة إلى خروجهم للقتال على أنه هو السبب في إصابتهم، وقد تجاهلوا بذلك السبب الحقيقي لإصابة المؤمنين بعد ما كان النصر لهم على أعدائهم أوّلا، وهو مخالفة الرماة أمر النبي ﷺ حيث فقد المؤمنون بذلك عاملا مهما من عوامل النصر على الأعداء.

وقد نشط المنافقون في بث الأراجيف حول نبوة محمد ﷺ لتشكيك المؤمنين به وتفريقهم عنه، ووافقهم على ذلك اليهود الذين استغلوا الفرصة أيضا فاتهموا النبي ﷺ بأنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه، وأنه لو كان نبيا ما ظهر عليه أعداؤه.

وقد كان وقع هذه الأراجيف على النبي ﷺ كبيرا، وإن كان لم يؤثر في تصرفاته الحكيمة لا قبل المعركة ولا بعدها، وإنما كان يحزنه أن يرى طائفة كبيرة ممن كانوا يظهرون اتّباعه ونصرته ينقلبون ضده، ويشكلون خطرا عليه وعلى أتباعه من الداخل، إضافة إلى ما يحدث عن ذلك من تشويه سمعة الدعوة الإسلامية بين العرب، إذ أن ظهور طائفة كبيرة من أتباع محمد ﷺ بمظهر التأبي عن طاعته مما يشكك الناس في دعوته، وقد كان قبل ظهور المنافقين بذلك العدد الكبير قد وجه جهوده للأعداء المحيطين بالمدينة، كاليهود، والأعراب، والأعداء البعيدين منها كقريش، فإذا به يرى عدوا كامنا بين

أحضان المؤمنين كالسوس ينخر في جسم الأمة من داخلها.. عدوا يسمع أخبار المؤمنين ويطلع على أسرارهم ويوصلها إلى أعدائهم، وإنه لمن الصعوبة على المؤمنين أن يحذروا من هذا العدو الكامن بينهم، لعدم معرفتهم جميع أفراده على التحديد، كما أنه من الصعب على النبي ﷺ أن يعاملهم كأعداء محاربين لأنهم يظهرون الإسلام ويقومون بفرائضه الظاهرة، فكان النبي ﷺ يهتم بأمرهم ويخشى من خطرهم على أمته الناشئة فيما إذا التحم مع أعدائه لأنهم قد ينتهزون الفرصة للقضاء على المؤمنين.

وإن أي فكر بشري عندما يتصور فئة قليلة من المؤمنين يحيط بها الأعداء من كل جانب، لا بد أن يشعر بالموقف الحرج الذي تعيش فيه تلك الفئة.. أعداء من اليهود الذين يملكون السلاح والمال، إلى جانب ما اشتهروا به من المهارة في الدس والمكر، وأعداء من الأعراب الذين يتربصون الدوائر بتلك الفئة المؤمنة، سواء ممن حول المدينة أو من القبائل البعيدة التي سمعت بمصاب المؤمنين في أحد، هذا إضافة إلى قبيلة قريش القوية الغنية وهي قد دخلت الحرب مع هذه الفئة المؤمنة مرتين، ولربما أغراها ما حظيت به من انتصار وهمي في الجولة الأخيرة على إعادة الكرة مرة أخرى، وقد ضرب قائدها أبو سفيان الموعد مع المؤمنين لاستئناف القتال بعد عام واحد من معركة أحد.

ومع ذلك كله فليس كل أفراد هذه الطائفة المحارَبة من جميع تلك الجبهات مخلصين لقائدهم ودينهم، بل قد كشفت معركة أحد عن عدد كبير منهم قد أظهروا الإيمان نفاقا، ومنهم من له مركزه ومكانته بين أفراد قومه المؤمنين كعبد الله بن أبيّ، وقد يؤثر مثل هذا على عدد آخر من المؤمنين في المستقبل.

إن أي فكر بشري يتصور موقف تلك الفئة المؤمنة يحيط بها ذلك البحر الزاخر من الأعداء، من داخلها وخارجها سيصيبه الهلع والرعب والخوف على مستقبل تلك الفئة

المؤمنة.. ولن يستطيع أي فرد مهما كان في قوته ودهائه أن يتحمل مسؤولية تلك الفئة المحاربة من كل جانب، أما الرسول ﷺ فإنه لم يهن في مواجهة تلك الظروف القاهرة، ولم تلن له قناة أمامها لأنه مؤيد بنصر الله، وقد وعده الله إتمام هذا الأمر مهما تكالب عليه الأعداء، ولن يخلف الله وعده رسوله، والرسول ﷺ على ثقة من أن الله سينجز له وعده، فلم يضعف أمام تلك الظروف القاسية؛ بل واجهها جميعا بقوة وحزم، حيث قام على الفور بإرهاب أعدائه جميعا من أهل المدينة، ومن حولها والبعيدين منها، حينما مضى يتعقب أبا سفيان وجيشه حتى بلغ «حمراء الأسد»[1] ومعه جمع من الصحابة الذين شهدوا أحدًا رضي الله عنهم رغم ما بهم من الجراح، وقد أثنى عليهم الله سبحانه بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٧٢][2] وأقام النبي ﷺ في حمراء الأسد يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة وكان ذلك بعد معركة أحد بيوم واحد حيث إن المعركة في يوم السبت كما سبق.

وقد قامت هذه الحملة بدورها المؤثر في إرهاب أعداء الإسلام من أهل المدينة ومن حولها والبعيدين منها، إذ عرفوا جميعا أن تلك الإصابة في أحد لم تؤثر على عزيمة المؤمنين، حيث ساروا بعد يوم واحد يتعقبون ذلك العدو الكبير القوي حينما ندبهم النبي ﷺ إلى ذلك، فعرف بذلك اليهود والمنافقون وغيرهم من أعداء الإسلام، أنه ليس من السهل القضاء على المؤمنين ولا تفريقهم عن رسول الله ﷺ.

أما أثر هذه الحملة على قريش فقد ظهر في تصرفات أبي سفيان قائد قريش، حيث

---

(١) موضع بينه وبين المدينة ثمانية أميال (سيرة ابن هشام ٣/ ٦٠).

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٩.

استأجر جماعة ليخذلوا رسول الله عنه لما علم بخروجه، قال ابن إسحاق فيما أخرجه عنه ابن هشام: ومرَّ به (يعني أبا سفيان) وفد من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولِمَ؟ قالوا نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها إليه وأحمِّل لكم هذه (يعني الإبل) غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبره بالذي قال أبو سفيان وأصحابه فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل"[1].

هذا وقد تنفس المنافقون في هذه الفترة من كرب النفاق وتضاعفت أعمالهم في الكيد للمؤمنين، ومحاولة إضعاف حماستهم نحو الجهاد في سبيل الله، وإثارة العصبية الجاهلية بينهم، وقد كان لتسامح النبي ﷺ معهم يوم أحد وعدم مؤاخذته إياهم على المخالفة الشنيعة التي ارتكبوها أكبر مشجع لهم على التفوه بكلمات الكفر والعداء لرسول الله ﷺ والمؤمنين.

ونظرا لضخامة الدور الذي لعبه المنافقون في هذه الفترة نزلت فيهم آيات كثيرة كشفت عن صفاتهم العامة، وأعمالهم الهدامة وبينت علاقتهم بالكفار، وحددت معاملة المؤمنين لهم، ومما نزل في هذه الفترة آيات من سورة النساء وقد نزل بعضها بسبب حوادث معينة جرت في هذه الفترة ونزل البغض الآخر من غير أن يكون بسبب واقعة معينة.

وفي هذه الفترة كان حادث يوم الرجيع الذي استشهد فيه نفر من المؤمنين كان أرسلهم النبي ﷺ فسخر منهم المنافقون، وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٦٢.

﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيات من سورة البقرة [٢٠٤ - ٢٠٦].

وفيها كان موقف المنافقين من إجلاء بني النضير، وقد نزلت فيه آيات من سورة الحشر.

وفيها كانت غزوة المريسيع التي اشتملت على حادثين مهمين من حوادث المنافقين، أولهما حادث الفتنة التي أثارها ابن أبيّ بسبب الخصومة التي جرت بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين ونزلت بسبب هذه الفتنة سورة «المنافقون».

وثانيهما: حادث الإفك على عائشة ﵂ الذي تزعمه عبد الله بن أبيّ ونزلت بسببه آيات من سورة النور.

ومن هذين الحادثين يتبين لنا الشكل العام لموقف المنافقين من المؤمنين والدعوة الإسلامية في هذه الفترة، وذلك في الكلمات الساخرة التي تحمل في طياتها الوعيد والتهديد للنبي ﷺ كقول ابن أبيّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وفي الأعمال المنكرة التي يقومون بها كما حصل منهم في حادثة الإفك، ومثل هذه الأقوال والأعمال المنكرة لم تصدر منهم قبل هذه الفترة ولا بعدها كما سيأتي.

أما معاملة المؤمنين للمنافقين فقد تغيرت بعد «أحد» حيث أصبح يشوبها كثير من الحذر والتحفظ، والرفض لبعض صور النفاق التي لم تكن قبل ذلك تقابل بالاعتراض والرد، وإن هذا ليبدو جليا في موقف الصحابة ﵃ من عبدالله بن أبي وقد كان له مقام يقوم فيه كل يوم جمعة يثنى فيه على النبي ﷺ ويأمر الناس بنصره وكان قبل «أحد» لا يُنكر عليه ذلك، فلما فعل ذلك بعد أحد وقف منه المسلمون موقفا يتناسب مع ما ظهر من نفاقه.

وفي ذلك يقول ابن إسحاق فيما أخرجه عنه ابن هشام: وكان عبد الله بن أبيّ ابن

سلول -كما حدثني ابن شهاب الزهري- له مقام يقومه كل جمعه لا يُنكر شرفا له في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفا، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا له، ثم يجلس، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع بالناس قام ففعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أيْ عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعتَ ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجْرا[١] أن قمت أشدد أمره، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال: مالك ويلك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب عليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بُجرًا أن قمت أشدد أمره، قال: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ قال: ما ابتغي أن يستغفر لي[٢].

وأخيرا كان موقفهم يوم الأحزاب حينما تسللوا عن معسكر المؤمنين واعتذروا بمختلف الأعذار الواهية وحاولوا بكل وسيلة أن يخذِّلوا عن رسول الله ﷺ فأقاموا ضده معركة من الداخل إسهامًا منهم في نصر الأحزاب الذين تحزبوا لحربه.

* * *

---

(١) أي قولا عظيما كما جاء في القاموس.

(٢) السيرة النبوية ٣/ ٦٤.

١ - مثل من خداع المنافقين وصدِّهم الناس عن الإسلام

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[آل عمران: ٧٢ - ٧٤].

بيان من نزل فيه النص:

١ - أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال: عبد الله ابن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعوا عن دينهم! فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقد أخرجه ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق إلا أنه قال: قال: عبد الله بن ضيف بدل عبد الله بن الصيف[2] ورواية ابن هشام أصح كما تقدم.

٢- وأخرج ابن جرير من طريق معمر عن قتادة أنه قال في قوله تعالى ﴿وَقَالَت

---

(١) جامع البيان ٣/ ٣١٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٨.

طَآيِفَةٌ﴾ الآية قال: بعضهم لبعض: أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار واكفروا آخره فإنه أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما تكرهون، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم[1].

٣- وأخرج ابن جرير من طريق أسباط عن السدي أنه قال في قوله تعالى ﴿وَقَالَت طَآيِفَةٌ﴾ الآية: كان أحبار قرى «عربيةَ»[2] اثني عشر حبرا فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار وقولوا: نشهد أن محمدًا حق صادق، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم فحدثونا أن محمدًا كاذب وأنكم لستم على شيء وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم لعلهم يشكُّون يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بذلك[3].

٤- وأخرج ابن جرير أيضاً عن طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: يهود تقوله، صلت مع محمد صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرا منهم ليُرُوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه[4].

ومن هذه الروايات يتبين لنا أن هذه الآيات قد نزلت في طائفة من اليهود أمر بعضهم بعضا أن يؤمنوا بالإسلام أول النهار، ثم يكفروا به آخره لعلهم بذلك يفتنون المسلمين عن دينهم.

---

(١) جامع البيان ٣/ ٣١١.

(٢) قال البكري: قرى عربية على الإضافة لا تنصرف، وعربية منسوبة إلى العرب وهي قرى بالحجاز معروفة (معجم ما استعجم / ٩٢٩).

(٣) جامع البيان ٣/ ٣١١.

(٤) جامع البيان ٣/ ٣١٢.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات من سورة آل عمران وهي ثالث سورة نزلت في المدينة حيث نزلت بعد الأنفال كما في رواية ابن الضريس التي سبقت في المقدمة، والأنفال نزلت بعد بدر، وآل عمران نزلت بعد أحد، فتكون هذه الآيات مما نزل بعد أحد على وجه التقريب، وليس هناك ما يبين وقت نزولها بالتحديد، إذ أن الروايات السابقة ليس فيها ما يشير إلى ذلك.

تصوير الموقف:

من الروايات السابقة تبين لنا أن اليهود قد حاولوا القيام بمكيدة خبيثة للمؤمنين كي يردوهم عن دينهم، وذلك أنهم أمروا طائفة منهم بأن يؤمنوا بالإسلام أول النهار ويكفروا به آخره، وأن يتظاهروا بأنهم حينما درسوا الإسلام مع علمائهم وعرفوا حقيقته وجدوه غير الدين الذي بشر به كتابهم التوراة، ليقول المؤمنون هؤلاء قد دخلوا في ديننا فما بالهم خرجوا منه، وهم أهل العلم فيقع الشك في نفوسهم من صحة هذا الدين!

وكان النبي ﷺ قد كتب بعد قدومه إلى المدينة كتابا وادع فيه اليهود وعاهدهم كما سبق.

ولكن هؤلاء اليهود قد أكل قلوبهم الحسد والحقد لما رأوا انتصار المؤمنين في بدر على أكبر قوة في بلاد العرب فخانوا هذه المعاهدة، وكان أول من أظهر الخيانة منهم بنو قينقاع فأجلاهم النبي ﷺ من المدينة كما سبق.

وقد عرف اليهود بعد ذلك أنه ليس باستطاعتهم مقاومة الإسلام بالقوة فلجؤوا إلى القيام بأعمال المكر والكيد التي اشتهروا بها، ومن جملة ما قاموا به من ذلك ما تحدثت عنه هذه الآيات من محاولتهم تشكيك المؤمنين بدينهم، بإظهار الإيمان به ثم الكفر به بعد ذلك.

بيان مفردات النص:

طائفة: الطائفة هي القطعة من الشيء وبالنسبة للناس الجماعة منهم وقد تطلق على الواحد[1].

أهل الكتاب: أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمراد بهم في الآية اليهود كما سبق في بيان سبب النزول.

وجه النهار: الوجه في الأصل ما يستقبلك من كل شيء[2]، وقيل إنَّ أصله الجارحة، ولما كان الوجه أول ما يستقبل من الإنسان وأشرفه استعمل في مستقبل كل شيء ومبدئه فقيل وجه كذا ووجه النهار[3].

بيان معنى النص:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي جماعة من اليهود المعاصرين للنبي ﷺ لبعض أفراد قومهم ﴿ءَامِنُوا۟﴾ أي أظهروا الإيمان ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بالقرآن الذي أنزل على المؤمنين بمحمد ﷺ، وعبَّروا عن القرآن بهذا التعبير لأن المؤمنين هم المقصودون بهذه المخادعة، فلم يقولوا بالذي أنزل على محمد لأنهم لم يريدوا خداعه ولا يستطيعون ذلك.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي أوله ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي أظهروا كفركم به آخر النهار ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجع الذين آمنوا بالإسلام عن دينهم إذا رأوكم وقد كفرتم به بعد دخولكم فيه، والترجي قائم على أنهم أهل كتاب ويعلمون من المنزل مالا يعلمه غيرهم، فإذا رجعوا عن الإسلام بعد الدخول فيه وهم أعلم الناس به كان ذلك

---

(١) القاموس المحيط، المفردات في غريب القرآن.

(٢) مقاييس اللغة.

(٣) مقاييس اللغة، معجم متن اللغة، المفردات في غريب القرآن.

داعيا قويا لتنفير الناس منه.

وبعد أن أمروا قومهم بمحاربة الإسلام بهذا الأسلوب من الخداع والمكر، نهوهم عن الإيمان الحقيقي بغير دينهم فقالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي ولا تصدقوا مطمئنين لأحد في أمر الدين ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ فإن الهدى هو ما أنتم عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ﴾ الموصل إلى السعادة ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ لا ما أنتم عليه من الدين.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾. أي أتؤمنون لغير من تبع دينكم خشية أن يؤتى أحد من الهدى مثل ما أوتيتم، أو خشية أن يحاجوكم عند ربكم؟! لا تفعلوا ذلك فإنه لم يؤت أحد مثل ما أوتيتم من التوراة التي فيها الهدى، ولا حجة عند أحد يحاجوكم عند ربكم يوم القيامة.

فالآية على معنى الاستفهام الإنكاري، ويؤيد ذلك قراءة ابن كثير ﴿أأن يؤتى﴾على الاستفهام[1].

وقد لقن الله تعالى نبيه ﷺ الرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ والفضل هو الزيادة التي يتفضل بها المتفضل على من يخصه بها، والفضل على التوراة ليس بأيديهم وإنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء، وقد شاء أن يؤتيه محمدا ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ذو سعة بفضله على من يشاء أن يتفضل عليه، إذ بيده خير الدنيا والآخرة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهل لذلك الفضل.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يخص بالنبوة من يشاء من عباده، وقد خص العرب أن جعل منهم خاتم النبيين فحسدهم اليهود على ذلك، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ

(١) النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٤٠.

ٱلْعَظِيمِ﴾ أي صاحب العطاء الجزيل فيتفضل به على من يعلم أنه أهل له، وقد علم الله سبحانه بأن العرب هم أجدر الناس بحمل الرسالة في ذلك الزمن، لكونهم أعظم الناس تحليا بمكارم الأخلاق، كالصدق والوفاء والكرم والشجاعة، نظرا لبعدهم عن الحضارة المفسدة للأخلاق، وتحررهم من الحكومات المذلة للنفوس، فاختار خاتم النبيين منهم لأنهم هم الذين يستطيعون حمل الرسالة وتبليغها إلى العالم.

٢- تحذير المؤمنين من موالاة المنافقين

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

بيان من نزل فيه النص:

١ - أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزل الله عز وجل فيهم ينهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم منهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾[1].

٢ - أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ في المنافقين من أهل المدينة نهى الله

---

(١) جامع البيان ٤/ ٦١.

عز وجل المؤمنين أن يتولوهم[١].

٣- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال في هذه الآية: نهى الله عز وجل المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين أو يؤاخوهم، أي يتولوهم من دون المؤمنين[٢].

٤- أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية: هم المنافقون[٣].

٥- أخرج ابن جرير من طريق أسباط عن السدي أنه قال: أما البطانة فهم المنافقون[٤].

٦- أخرج ابن جرير من طريق ابن وهب عن ابن زيد أنه قال في هذه الآية: هؤلاء هم المنافقون[٥].

ومن استعراض هذه الروايات يتبين لنا أن في الآية قولين: أحدهما أن هذه الآيات قد نزلت في اليهود والثاني أنها قد نزلت في المنافقين، ومما يؤيد كونها في اليهود أن الله سبحانه قد حذرنا في هذه الآيات من استبطان هؤلاء الكفار والاختلاط بهم، واليهود المراد بهم يهود المدينة المتميزون عن المؤمنين، فيستطيع المؤمنون أن يحذروا منهم بخلاف المنافقين فإنهم مختلطون بالمؤمنين، فلا يستطيعون معرفتهم بأعيانهم حتى يحذروا منهم، وإلى هذا أشار ابن جرير[٦].

---

(١) المرجع السابق ٤/ ٦١.

(٢) المرجع السابق ٤/ ٦١.

(٣) جامع البيان ٤/ ٦١.

(٤) المرجع السابق ٤/ ٦٢.

(٥) المرجع السابق ٤/ ٦٢.

(٦) المرجع السابق ٤/ ٦٣.

ومما يؤيد ذلك أيضا قوله تعالى في هذه الآيات ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ﴾ إذ أن المعنى وتؤمنون بجميع الكتب المنزلة من السماء، ومن بينها كتاب هؤلاء الذين اتخذتموهم بطانة بينما هم لا يؤمنون إلا بكتابهم فقط.

ولكن مما يؤيد كونها في المنافقين قوله تعالى في هذه الآيات ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ إذ أن هذه الآية صريحة في بيان نفاقهم.

هذا وبمراعاة الأوجه التي تؤيد كونها في اليهود أو في المنافقين يترجح لي أنها قد نزلت في اليهود عموما، ويكون قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ الآية قد نزل بخصوص المنافقين منهم.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات من سورة آل عمران وهي ثالث سورة نزلت في المدينة، حيث نزلت بعد الأنفال كما سبق في رواية ابن الضريس المذكورة في المقدمة، وسورة الأنفال نزلت بعد بدر، وآل عمران نزلت بعد أحد، فتكون هذه الآيات مما نزل بعد أحد على وجه التقريب وليس هناك ما يبين وقت نزولها بالتحديد، إذ أن الروايات السابقة ليس فيها ما يشير إلى ذلك.

تصوير الموقف:

من الروايات السابقة تبين لنا أن بعض المؤمنين لا يزالون متمسكين بصداقتهم لليهود لما كان بينهم في الجاهلية من الصحبة والجوار، ولم يكن هؤلاء المؤمنون يدركون ما يضمره لهم اليهود من العداء بعد أن دخلوا في الإسلام، فكانوا يجلسون معهم ويثقون بهم.

ولقد استغل اليهود هذه الغفلة من بعض المؤمنين فحاولوا فتنتهم عن دينهم، وتفريق جماعتهم. ومن أسلحتهم التي استعملوها في هذا المجال إثارة العصبية القبلية بينهم،

كالذي جرى من شأس بن قيس اليهودي حينما غاظه ما رأى من ألفة المؤمنين واجتماع كلمتهم.

وقد أخرج ابن هشام خبره عن ابن إسحاق قال: ومر شأس بن قيس وكان شيخا قد عسا[1] عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية فقال: قد اجتمع بنو قيلة[2] بهذه البلاد، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا من الأشعار - وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج - ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب: أوس بن قيظى أحد بني حارثة من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعا وقالوا: قد فعلنا،موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحرة - السلاحَ، السلاح، فخرجوا إليها. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين

---

(١) عسا أي كبر وأسنّ كما ذكره ابن الأثير في «النهاية».

(٢) أي الأوس والخزرج، وقيلة هي بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة وهي أم الأوس والخزرج اللذين تنسب إليهما هاتان القبيلتان. ذكره ابن حزم «في جمهرة أنساب العرب» ص ٣٣٢.

قلوبكم﴾ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين[1].

ومما تشير إليه هذه الروايات أن من أولئك اليهود الذين أضمروا العداوة للمؤمنين من يتظاهر بالإيمان أمام المؤمنين، ليتوصلوا بذلك إلى المكر بهم، والاطلاع على أسرارهم، فإذا انصرفوا عنهم أظهروا عداوتهم، وقد نبه الله المؤمنين في هذه الآيات لهذا السلوك المنحرف حتى لا ينخدعوا بهم.

بيان مفردات النص:

البطانة: هي السريرة، ومعنى اتخاذ الإنسان غيره بطانة اختصاصه به واطلاعه على باطن أمره، سُمي خليل الرجل بطانة تشبيها له في اطلاعه على أسراره بما ولي جسده من ثيابه[2].

من دونكم: أي من غير أهل دينكم، ويحتمل أن يكون المعنى ممن هم أقل منكم منزلة في الدين، كما قال الراغب في المفردات.

لا يألونكم خبالا: أي لا يقصرون في جلب الخبال لكم يقال: ألوت في الشيء إذا قصرت فيه[3].

والخبال: الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالجنون ويطلق على الهلاك[4].

عَنِتُّم: العنت: المشقة الشديدة ويطلق على الفساد والهلاك والإثم والغلط[5].

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٢١١.

(٢) القاموس المحيط، المفردات في غريب القرآن، جامع البيان ٤/ ٦٠.

(٣) مقاييس اللغة، المفردات في غريب القرآن.

(٤) المحكم، تاج العروس، المفردات في غريب القرآن.

(٥) تاج العروس، لسان العرب.

الغيظ: الغيظ هو الغضب أو أشده أو سورته وأوله(١).

كيدهم: الكيد هو ضرب من الاحتيال قد يكون مذموما ومحمودا، وإن كان في المذموم أكثر وأصل الكيد المشقة(٢).

بيان معنى النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ أي أصدقاء وأصفياء تطلعونهم على بواطن أموركم ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ أي من غير أهل دينكم، وإنما نُهي المؤمنون عن ذلك لأن اتخاذ الكافرين أولياء وأصفياء مما يجر المسلم إلى أن يُفْضِي لهم بأسراره ولو تعمد الحذر من ذلك، وقد يكون من تلك الأسرار ما يشكِّل خطرا على كيان الدولة الإسلامية.

ثم علل سبحانه وتعالى لهذا النهي بقوله: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ أي لا يقصِّرون في إهلاككم وإيقاع الفساد بينكم، بل يبذلون في ذلك وسعهم.

ثم ذكر سبحانه الدليل على كونهم يضمرون العداوة للمؤمنين ويبذلون جهدهم في الإفساد بينهم بقوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي تمنوا وقوعكم في المشقة ولحوق الضرر بكم.

﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي ومن الأدلة على عداوتهم لكم أن قلوبهم قد امتلأت من بغضكم فلم يستطيعوا أن يمنعوا ألسنتهم من التفوه بالكلام القبيح نحوكم، بل فاض هذا البغض الشديد من قلوبهم حتى بدا على ألسنتهم.

﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾ أي وما تخفي صدورهم نحوكم من البغضاء والعداوة أعظم بكثير مما ظهر على ألسنتهم من الكلام القبيح؛ لأن ما ظهر على ألسنتهم إنما هو من فلتات اللسان.

---

(١) القاموس المحيط، المفردات في غريب القرآن.

(٢) المفردات في غريب القرآن، معجم متن اللغة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي قد أوضحنا لكم الدلائل على أن هؤلاء اليهود لا يقصرون في إيقاع الفساد بينكم، إن كنتم تدركون مدى تأثير هذه الدلائل على ذلك، فبينًا لكم أنهم يتمنون وقوعكم في المشقة، وأن قلوبهم ملأى ببغضكم حتى ظهر هذا البغض على فلتات ألسنتهم.

ثم ذكر سبحانه مزيدا من هذه الدلائل بقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ (ها) للتنبيه[1]، أي: تنبهوا أيها المؤمنون وتيقظوا لأمركم فقد أخطأتم في موالاة هؤلاء المنافقين من اليهود فإنهم لا يحبونكم كما تحبونهم، بل يضمرون لكم العداوة والبغضاء.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ الجملة حال من قوله: ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾،[2] والمراد بالكتاب القرآن والتوراة وسائر الكتب السماوية، كما أخرج ذلك ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما[3] أي لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بسائر الكتب السماوية التي من بينها كتابهم، فهذا يقتضي منهم أن يحبوكم لولا ما جبلوا عليه من الحسد والضغينة.

ثم بين سبحانه وتعالى أن هؤلاء اليهود يكفرون بكتاب المسلمين وإن كانوا يتظاهرون بالإيمان به نفاقا وهذا يقتضي من المسلمين أن يبغضوهم لا أن يحبوهم حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي وإذا لقيكم هؤلاء المنافقون من اليهود أظهروا لكم الإيمان بدينكم، وإذا خلا بعضهم إلى بعض بحيث لا ترونهم عضوا لأجلكم أطراف أصابعهم من شدة الغضب عليكم، فأظهروا بذلك مكنونات ضمائرهم نحوكم من التأسف والتحسر على ما أنتم عليه من

---

(١) الكشاف ١/ ٤٥٩.

(٢) الكشاف ١/ ٤٥٩.

(٣) جامع البيان ٤/ ٦٥.

اجتماع الشمل واتحاد الكلمة.

﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ أي فليشتد غيظكم ولتتضاعف حسرتكم فإن ما سبب لكم الغيظ من اجتماع شمل المسلمين وانتصارهم على أعدائهم سيقوى ويشتد، وسينتقل المؤمنون من انتصار إلى انتصار أكبر منه، وسيكونون أقوى أمة على وجه الأرض، فهذا تحسير لهؤلاء المنافقين ببيان أن ما سبب لهم الغيظ سيستمر ويقوى وسيرون من عز المسلمين ما يموتون منه كمدا وحسرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تظنوا أيها المنافقون أن أمركم سيخفى على النبي ﷺ والمؤمنين فإن الله معهم، ولئن لبَّستم على المؤمنين وأخفيتم حقيقتكم عنهم فإنكم لن تستطيعوا أن تستخفُوا من الله لأنه عالم بمكنونات ضمائركم، فهو يعلم سعيكم في إيقاع الضرر بين المؤمنين، وبغضكم لهم ولن تستطيعوا أن تنالوا من المؤمنين شيئا، لأن الله سبحانه يكشف أمركم لهم.

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين يفرحون بمصاب المؤمنين، ويسوؤهم عزهم وانتصارهم، حيث قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ وذلك كانتصاركم على الأعداء وازدياد قوتكم وأنصاركم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ وذلك كإصابتكم في المعارك ووقوع الخلاف بينكم.

وإن بغضهم الشديد هذا للإسلام وأهله سيكون له أثره السيئ على المسلمين إذ أن هؤلاء سيسعون في إيجاد الخلاف بينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وسيؤلبون أعداءهم عليهم، ولقد بشر الله نبيه والمؤمنين بأن كيد هؤلاء لن يؤثر عليهم ما التزموا بأمرين مهمين، هما الصبر والتقوى حيث قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي وإن تصبروا على مفارقة هؤلاء اليهود مع ما يربطكم بهم من المصالح

المادية المشتركة والصداقات القديمة وتتقوا الله عز وجل في جميع تصرفاتكم لا يضركم كيدهم الذي يدبرونه لكم شيئا من الضرر لأنكم إذا صبرتم على مفارقتهم واعتزلتموهم تماما لا يجدون طريقا يدخلون منه عليكم، ولن يستطيعوا أن يُلحقوا بكم شيئا من الضرر مادمتم ملتزمين بطاعة الله تعالى لأنه عز وجل قد تكفل بنصر أوليائه على أعدائه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من تصرفاتهم وسيحبط أعمالهم التي يكيدون بها لكم وينصركم عليهم.

هذا وقد تبين من التاريخ الإسلامي أن مصادقة بعض المنافقين واتخاذهم من الخاصة الذين يطلعون على الأسرار من أخطر الأمور التي أودت بحياة المسلمين، سواء أكان على مستوى الأفراد أم على مستوى الدول، ولقد كان ذلك من أسباب سقوط الخلافة العباسية، والخلافة العثمانية، وما يزال كثير من المسلمين يتخذون من أعدائهم المنافقين بطانة يطَّلعون على أسرارهم، ويستشيرونهم في أمورهم، بل ويسندون إليهم أحيانًا المهامَّ الكبيرة، ولاشك أن ذلك من الأسباب المهمة في وقوع الخلل الكبير في حياة المسلمين الآن.

* * *

٣- تحديد العلاقات بين المؤمنين والمنافقين وبيان معاملتهم

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾[النساء: ٨٨ – ٩١].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج الشيخان من حديث زيد بن ثابت ﷺ قال: «لما خرج النبي ﷺ إلى غزوة أحد رجع ناس ممن خرج معه، وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين: فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة لا نقاتلهم، فنزلت ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا

كَسَبُوٓاْۚ﴾ وقال: أنها طَيِّبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة»[1].

٢ - أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: «قوم خرجوا من مكة حتى أتوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ثم ارتدوا بعد ذلك، فاستأذنوا النبي ﷺ إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فاختلف فيهم المؤمنون فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون، فبين الله نفاقهم فأمر بقتالهم فجاءوا ببضائعهم يريدون المدينة، فلقيهم علي بن عويمر، أو هلال بن عويمر الأسلمي -وبينه وبين النبي ﷺ حلف وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين أو يقاتل قومه- فدفع عنهم بأنهم يَؤُمُّون هلالا وبينه وبين النبي ﷺ عهد»[2].

٣ - أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾: وذلك أن قوما كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد «عليه الصلاة والسلام» فليس علينا منهم بأس: وإن المؤمنين لما أُخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (فتح الباري ٧/ ٣٥٦) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، حديث رقم (٦).

وقوله «تنفي الذنوب» في رواية للبخاري «تنفي الرجال» وفي أخرى «تخرج الخبث» وفي رواية ثالثة « تنفي الناس» وقال ابن حجر في شرح قوله «تنفي الذنوب» ويحتمل أن يكون فيه حذف تقديره: أهل الذنوب ليلتئم مع باقي الروايات (فتح الباري ٤/ ٩٧).

(٢) جامع البيان ٥/ ١٩٣، وقوله «يؤمون هلالا» أي يقصدون هلال بن عويمر كما في الرواية الأخرى عن مجاهد يريدون هلال بن عويمر الأسلمي – جامع البيان ٥/ ١٩٣.

عدوكم! وقالت طائفة أخرى من المؤمنين: سبحان الله -أو كما قالوا- أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمِنْ أجل أنهم لم يهاجروا ويتركوا ديارهم تُستحل دماؤهم وأموالهم لذلك ؟! فكانوا كذلك فئتين والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء فنزلت ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ الآية[1] .

٤- أخرج الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن قوما من العرب أتوا رسول الله ﷺ بالمدينة فأسلموا وأصابهم وباء المدينة -حمَّاها- فأُركسوا فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحابه - يعني أصحاب النبي ﷺ- فقالوا لهم: مالكم رجعتم قالوا: أصابنا وباء المدينة فاجتوينا المدينة[2] فقال: مالكم في رسول الله أسوة حسنة؟ فقال بعضهم: نافقوا وقال بعضهم: لم ينافقوا، هم مسلمون، فأنزل الله عز وجل ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾الآية. قال الهيثمي: رواه أحمد وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وأبو سلمة لم يسمع من أبيه[3] ورواه ابن جرير من طريق أسباط عن السدي[4] .

٥- أخرج ابن جرير من طريق ابن وهب عن ابن زيد أنه قال في هذه الآيات: هذا في شأن ابن أبيّ حين تكلم في عائشة بما تكلم فقال سعد بن معاذ: فإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله منه، يريد عبد الله بن أبيّ ابن سلول[5] .

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٩٣.

(٢) أي كرهنا المقام بها كما في القاموس.

(٣) مجمع الزوائد ٧/ ٧- مسند أحمد ١/ ١٩٢.

(٤) جامع البيان ٥/ ١٩٤.

(٥) المرجع السابق ٥/ ١٩٤.

وهذه الروايات المختلفة ترجع مبدئيا إلى قولين:

القول الأول: إنَّ المراد بالمنافقين في هذه الآيات المنافقون من أهل المدينة، وفي ذلك قولان:

أولها: أن المراد بهم المنافقون الذين انخذلوا عن المؤمنين يوم أحد، وهذا هو قول زيد ابن ثابت كما تقدم في رواية الشيخين، فهذا هو أصح ما رُوي في هذه الآيات، ولكن يرد عليه أن ظاهر قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا ينطبق عليهم لأن مفهوم الهجرة في الغالب أنها الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام، ودار الإسلام آنذاك هي المدينة، والمنافقون فيها فكيف يهاجرون إليها؟ ويمكن الجواب عن هذا بحمل الهجرة في الآية على أنها الانتقال من حالهم الأولى التي أظهروا فيها عداءهم للإسلام وكفرهم به إلى الاستسلام للإسلام والالتزام بجميع أحكامه. ومما يدل على جواز إطلاق الهجرة على هذا المعنى قوله ﷺ «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» أخرجه البخاري[1] كما يحتمل أن يكون المراد بالهجرة في سبيل الله الخروج للقتال في سبيل الله.

ثانيهما: إن المراد بالمنافقين في هذه الآيات المنافقون من أهل المدينة حينما تكلموا في قضية الإفك. وهذا الخبر ضعيف، لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قائل هذا القول.

القول الثاني:

إنَّ المراد بالمنافقين في هذه الآيات: المنافقون من غير أهل المدينة وفي هذا ثلاثة أقوال:

أولاً: أن المراد بهم قوم من أهل مكة قدموا المدينة فأظهروا الإسلام فلما رجعوا إلى مكة أظهروا الشرك.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان باب «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (فتح الباري ١/ ٥٣).

ثانياً: أن المراد بهم قوم من أهل مكة كانوا أظهروا الإسلام ثم أصبحوا يعينون المشركين على المسلمين. وهذان القولان في الحقيقة قول واحد، لأنهما يعيّنان أن المراد بالمنافقين من أظهروا الإسلام من أهل مكة نفاقا، سواء منهم من قدم المدينة لغرض من الأغراض، أو من بقي في مكة.

ثالثاً: أن المراد بهم قوم هاجروا إلى المدينة فأصابهم وباؤها فخرجوا لأنهم منافقون.

فهذا ملخص هذه الروايات: وقد تبين لنا أن الرواية الأولى هي أصح ما روي في سبب نزول هذه الآيات.

أما القول بأن المراد المنافقون من أهل مكة فهو مبني على روايتين: الأولى عن ابن عباس رضي الله عنهما وسندها ضعيف لأنها من طريق العوفي، أما الثانية فهي عن مجاهد وسندها جيد.

أما القول بأن المراد قوم قدموا المدينة ثم خرجوا منها نفاقا، فهو مبني على رواية فيها تدليس وانقطاع كما سبق.

وإذا صحت هذه الروايات الأخيرة فلعل هذه الوقائع الثلاث كانت متقاربة في الزمن فنزلت هذه الآيات بعدها، فكل من روى واقعة منها نزّل هذه الآيات عليها.

وبالنسبة لقوله تعالى ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ ورد في سبب نزولها ثلاث روايات هي:

أولاً: أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا[1].

---

(١) جامع البيان ٥/ ٢٠١.

وأخرج ذلك ابن جرير أيضا من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما[١].

ثانيا: أخرج ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أنه قال في هذه الآية: حيّ كانوا بتهامة قالوا: يا نبي الله لا نقاتلك ولا نقاتل قومنا، وأرادوا أن يأمنوا نبي الله ويأمنوا قومهم، فأبى الله ذلك عليهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾ يقول كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه[٢].

ثالثاً: أخرج ابن جرير من طريق أسباط بن نصر عن السدي قال: ثم ذكر -أي الله سبحانه وتعالى- نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه وكان يأمن في المسلمين والمشركين ينقل الحديث بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين فقال ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ يقول: إلى الشرك[٣].

والذي يتلخص لنا من هذه الروايات أن في الآية قولين:

الأول: أنها نزلت في قوم من المنافقين أرادوا أن يأمنوا المؤمنين ويأمنوا الكفار، وهذا ما تدل عليه الرواية الأولى.

الثاني: أنها في قوم من المشركين أرادوا أن يأمنوا قومهم ويأمنوا المؤمنين، وهذا ما تدل عليه الرواية الثانية والثالثة.

والقول الأول أرجح لقوله تعالى ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾ والفتنة هي الشرك، فهذا دليل على أنهم كانوا مظهرين الإيمان قبل ذلك، ولو كانوا مشركين ما كانوا بحاجة إلى أن يتظاهروا بالشرك ليأمنوا قومهم، فكونهم رغبوا في أن يأمنوا المؤمنين

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق ٥/ ٢٠٢.

والمشركين كما هو ظاهر الآية يقتضى أنهم كانوا يظهرون الإيمان أمام المؤمنين ويظهرون الشرك أمام المشركين.

وقت نزول هذا النص:

معرفة وقت نزول هذا النص يترتب على معرفة الوقت الذي حدثت فيه الوقائع التي كانت سببا في نزول هذه الآيات، وقد تبين لنا من التحقيق في بيان من نزل فيه النص احتمال نزول هذه الآيات في ثلاث وقائع:

الأولى: انخذال المنافقين في معركة أحد، وهذه تاريخها معروف، حيث كانت معركة أحد في شوال من السنة الثالثة كما تقدم.

الثانية: خروج بعض المنافقين من مكة إلى المدينة ثم رجوعهم إليها بدعوى التجارة.

والثالثة: حادثة الذين أصابهم وباء المدينة فخرجوا منها وقد تبين لنا في بيان من نزل فيه النص احتمال كون هذه الوقائع الثلاث قد حدثت في وقت متقارب، وأن هذه الآيات قد نزلت بعدها جميعها، وترجيح كون هذه الآيات نازلة بسبب الذين انخذلوا يوم أحد لصحة سند الرواية في هذا فتكون هذه الآيات مما نزل عقب غزوة أحد.

تصوير الموقف الذين نزل فيه النص:

تبين لنا من الروايات السابقة أن بعض المنافقين قد جاهروا بمعصية النبي ﷺ ولم يسيروا مع المؤمنين في جهادهم لإعلاء كلمة الله.

فبعضهم خانوا المؤمنين وهم في أحرج المواقف، فانخذلوا عنهم بعد ما واجهوا عدوهم، محاولين بذلك إيقاع الخلل في صفوفهم حتى يكونوا لقمة سائغة لعدوهم.

وبعضهم كانوا يتلاعبون بالدين ويستغلونه لمصالحهم الخاصة فيتظاهرون به أمام المؤمنين ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فإذا رجعوا إلى الكفار أظهروا كفرهم لذلك

الغرض نفسه، فهم يريدون بهذا السلوك المنحرف أن يتصرفوا في تجارتهم على أوسع نطاق حيث يكونون آمنين في أي مجتمع يحلون فيه، فهؤلاء إما أن يكونوا ممن اتخذ حطام الدنيا مبدأ يسعى إلى تحقيقه بمختلف الوسائل الشريفة والوضيعة، وإما من ضعفاء النفوس الذين لا يستطيعون مواجهة من يخالفهم في المبدأ والرأي، فيحاولون أن يظهروا أمام كل إنسان بما يوافقه.

وقد انقسم المؤمنون في الحكم على هؤلاء المنافقين إلى فريقين: فريق يرى أنهم كفار يجب قتالهم لأنهم قعدوا عن الجهاد في سبيل الله، وظاهروا المشركين على المؤمنين، وفريق يرى أنهم مؤمنون لأنهم تكلموا بالإسلام الذي تكلم به المؤمنون، فلا يحكم عليهم بالكفر لمجرد أنهم قعدوا عن الجهاد في سبيل الله وظاهروا المشركين.

وقد نزل القرآن مصرحا بكفرهم ونفاقهم، ومعاتبا المؤمنين الذين حكموا لهم بالإيمان ومبينا للمؤمنين خطرهم عليهم وكراهيتهم الشديدة للإسلام وأهله، الأمر الذي يستنكر معه تردد المترددين في الحكم عليهم بالكفر.

بيان مفردات النص:

أركسهم: أي ردهم، من الركس وهو قلب الشيء على رأسه ورد أوله إلى آخره[١].

حَصرت: أي ضاقت من الحصر وهو الضيق[٢].

ثقفتموهم: الثقف الحذق في إدراك الشيء، ثم أصبح يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة كما في هذه الآية، وأصل التثقيف إقامة المعوج يقال ثَقَفْت القناة إذا أقمت عوجها[٣].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مقاييس اللغة جامع البيان ٥/ ١٩٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن، القاموس، مقاييس اللغة.

(٣) المراجع السابقة.

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي فما بالكم أيها المؤمنون المتكلمون في شأن المنافقين قد اختلفتم في الحكم عليهم، فافترقتم فرقتين فرقة تقول إخواننا في الدين فكيف نقاتلهم، وفرقة تقول قد ارتدوا عن دينهم وظاهروا أهل الشرك علينا؟ ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أي ردهم إلى أحكام أهل الشرك في إباحة دمائهم وسبي ذراريهم[1] ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ أي بسبب ما جنوه على أنفسهم حيث ارتدوا عن الإسلام الذي أظهروه، فأصبحوا غير معصومي الدماء والأموال، فإذا كان أمرهم بهذه الصورة من الوضوح فكيف اختلفتم في شأنهم؟ والعتاب منصرف إلى إحدى الطائفتين، وهي التي تقول إخواننا فكيف نقاتلهم.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي أتريدون أيها المؤمنون المدافعون عن أولئك المنافقين أن تحكموا بالهداية لمن قد كتب الله عليهم الانحراف عن الطريق المستقيم؟

وفي هذا تأنيب لهؤلاء المؤمنين على وقوفهم مع أولئك المنافقين، واغترارهم بما أظهروه من الإيمان مع وضوح أمرهم وانكشاف سترهم، حيث انحازوا إلى معسكر المشركين وظاهروهم على المؤمنين، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي ومن يقدر الله عليه الانحراف عن الطريق المستقيم بسبب اختياره للطريق المنحرف فإنه يبقى طول عمره تائها حائرا، لأن طريق الحق واحد لا يتعدد فمن انفلت منه أصبح يتخبط في الظلمات والمتاهات، فكيف تنسبون إلى الهداية من انحرف عن الطريق المستقيم، والحال أنه ليس هناك طريق موصل إلى الحق غيره؟

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٩٢.

ثم بين سبحانه إغراقهم في الضلال وتماديهم فيه حيث قال تعالى ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ﴾ أي أنهم ليسوا ضالين عن الطريق المستقيم فقط بل إنهم دعاة إلى هذا الضلال، حيث إنهم يودون أن تكفروا بهذا الدين كما كفروا به، فتكونون سواء في الكفر بالله، فكيف تدافعون عنهم وتنسبونهم إلى الهداية؟

وفي هذا من التنفير من هؤلاء المنافقين ما لا يخفى، لأن المؤمن يود أن يُقتل ولا أن ينتزع منه إيمانه ويرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه.

وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي لا تعتبروهم مؤمنين ولا تعقدوا بينكم وبينهم روابط المحبة والأخوة والنصرة حتى يهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام التي هي «المدينة» في وقت نزول هذه الآيات، وهذه العلامة الفارقة بين المؤمن الصادق والمنافق تعتبر سارية المفعول بالنسبة لغير أهل المدينة قبل فتح مكة، أما بالنسبة للمنافقين من أهل المدينة فلا هجرة عليهم لأنهم في دار الهجرة فليس للهجرة إذًا مفعول في تميزهم عن المؤمنين، وإنما يُحكم لهم بالإيمان إذا استقاموا على الدين وبادروا إلى تنفيذ تكاليفه وخصوصا الجهاد في سبيل الله، وأما بالنسبة لكون ذلك قبل فتح مكة فلأنه لا هجرة بعد الفتح فكل بلاد أسلم أهلها وحكمَها الإسلام فهي «دار إسلام».

أما بالنسبة لغير هؤلاء فتبقى علامات النفاق العامة التي بُينت في القرآن والسنة.

وقد قُيدت الهجرة في الآية بكونها «في سبيل الله فهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام، والتي يعتبر صاحبها مؤمنا، فأما من هاجر لتجارة أو زواج أو غير ذلك من المصالح الدنيوية، فلا تكتب له هجرة في الإسلام، ولا تعتبر له أحكام الهجرة الإسلامية التي من

بينها الحكم له بالإيمان الصادق، بل هجرته إلى ما هاجر إليه كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه[1]..».

ثم بين سبحانه أن حكمهم إذا لم يهاجروا حكم المشركين فقال تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ أي إن أعرضوا عن الهجرة إلى دار الإسلام وبقوا مع المشركين، أو أعرضوا عن الاستقامة واستمروا على المجاهرة بالكفر فيما إذا كانوا بينكم فحكمهم كحكم الكفار، فخذوهم أسرى واقتلوهم في أي مكان ظفرتم بهم فيه.

ثم كرر سبحانه النهي عن اتخاذهم أولياء، زيادة في تحذير المؤمنين منهم فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا﴾ أي صديقا وخليلا في السلم تستشيرونه في أموركم، وتطلعونه على أسراركم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ في الحرب تستنصرون به على عدوكم، فإنهم عدو لكم فلن ينصحوا لكم إذا استشرتموهم، ولن يحفظوا أسراركم إذا ائتمنتموهم، ولن يخلصوا لكم إذا استنصرتم بهم على عدوكم.

ثم لما أمر الله تعالى المؤمنين بأسرهم وقتلهم عند الظفر بهم استثنى منهم فريقين:

الأول: من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين وقد بينه تعالى بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي الذين يلجأون إلى قوم بينهم وبين المؤمنين عهد على ترك القتال، فحكم من لحق بهم كحكمهم.

الثاني: من رغب في السلم تحرجا من قتال المؤمنين أو قتال قومه من الكفار، وقد بين

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الباب الأول (فتح الباري ١/ ٩).

الله تعالى أمر هؤلاء بقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ﴾ أي ضاقت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم فلا تقاتلوهم فإنها نعمة من الله عليكم أن كف أيديهم عنكم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بنزع الرعب الذي نصرتم به على عدوكم من قلوبهم ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ﴾ ولكن الله خفف عنكم ورحمكم فصرفهم عنكم، بما ألقاه في قلوبهم من الخوف منكم ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي تركوا قتالكم واستسلموا لكم ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على قتالهم وأسرهم ﴿سَبِيلًا﴾ أي طريقا مشروعا لأنهم استسلموا لكم وكفوا عن قتالكم.

وهذا التشريع كان لفترة معينة فلما تقوّى المسلمون وفُتحت مكة، أُمر المسلمون بقتال الكفار جميعا، فنُسخت هذه الآية والتي بعدها بقوله تعالى في سورة براءة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٥] وبذلك قال قتادة وعكرمة والحسن وابن زيد كما روى ذلك ابن جرير عنهم[(١)] ونسبه ابن كثير لابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من المنافقين: وهم الذين يُظهرون الإيمان بالإسلام إذا قدموا المدينة فإذا رجعوا إلى مكة أظهروا الكفر، ليأمنوا المؤمنين والكفار على دمائهم

---

(١) جامع البيان ٥/ ٢٠٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٧.

وأموالهم فقال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أي كلما حاول قومهم أن يرجعوهم إلى الشرك بعد ما أظهروا الإيمان استجابوا لهم في ذلك فارتدوا عن الإسلام ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ أي يتركوا أذاكم بأي وجه من الوجوه ﴿وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي يستسلموا لكم، وينقادوا لأمركم، ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ﴾ أي خذوهم أسرى واقتلوهم في أي مكان ظفرتم بهم فيه ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي في قتلهم وأسرهم ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي حجة واضحة لظهور عدوانهم لكم ورغبتهم في قتالكم.

والذي يظهر أن حكم الفريقين واحد، وهو الكف عنهم إذا اعتزلوا المؤمنين واستسلموا وكفُّوا أيديهم، وقتالهم إذا لم يفعلوا ذلك وإنما عبر سبحانه عن الفريق الأول بالكف عنهم إذا كفوا، وعبر عن الفريق الثاني بقتالهم إذا لم يكفوا، لأن الفريق الأول قد أخبر الله عنهم بأنهم قد لجئوا إلى قوم بينهم وبين المؤمنين عهد، أو جاءوا مستسلمين للمؤمنين، ومَنْ هذه حاله يبعد أن يقع منه عدوان على المؤمنين، بخلاف الفريق الثاني فإنهم يريدون أن يأمنوا المؤمنين حتى تنقضي حوائجهم فقط، فهؤلاء لا يبعد أن يحدث منهم العدوان على المؤمنين إذا كانت مصالحهم تقتضي ذلك.

* * *

٤- مشهد من مشاهد النفاق

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[البقرة: ٢٠٤-٢٠٧].

بيان من نزل فيه هذا النص:

١ - أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أصيبت هذه السرية أصحاب خبيب بالرجيع بين مكة والمدينة، قال رجال من المنافقين يا ويح هؤلاء المقتولين[١] الذين هلكوا هكذا لا هم قعدوا في بيوتهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم ! فأنزل الله عز وجل في ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك النفر من الشهادة والخير من الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾. وذكر تفسير هذه الآيات إلى أن قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ الذين شروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله والقيام بحقه حتى هلكوا على ذلك،يعني هذه السرية[٢] .

وأخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق أيضا[٣] .

٢- وأخرج ابن جرير من طريق أسباط بن نصر عن السدي قال: نزلت في الأخنس

---

(١) في سيرة ابن هشام: المفتونين، وهو الظاهر (٣/ ١٦٣).

(٢) جامع البيان ٢/ ٣١٣.

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٣.

ابن شريق الثقفي -وهو حليف لبني زهرة- وأقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة فأظهر له الإسلام فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم أني صادق، - وذلك قوله: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ - ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر فأحرق الزرع وعقر الحمر، فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾[1].

والرواية الأولى أرجح فيما يظهر لأمرين:

أولاً: اتصال سندها إلى ابن عباس رضي الله عنهما بينما رواية السدي موقوفة عليه كما أن فيها ضعفا حكاه الطبري بقوله إنَّه مرتاب في سند هذه الرواية كما سبق في تخريجها.

ثانياً: ذكر ابن حجر في الإصابة عند ترجمة الأخنس بن شريق أنه كان من المؤلفة قلوبهم وأنه شهد «حنينا» وكذلك ذكره ابن الأثير في أُسد الغابة، ولم يُذكر في السيرة مع الذين أهدر النبي ﷺ دماءهم يوم الفتح، وكان بعضهم قد ارتد عن الإسلام كعبد الله ابن سعد بن أبي سرح[2] بل لم يُذكر أن النبي ﷺ كلمه بشيء مع أن القصة التي رواها السدي فيها أنه خدع النبي ﷺ وارتد بعد إسلامه، وأفسد مالا من أموال المسلمين، كما يبعد أن يكون ممن يتألفهم النبي ﷺ للإسلام وقد ارتد عنه قبل ذلك.

فهذا وإن كان أمرا محتملا مما يؤيد ضعف هذه الرواية.

وقت نزول هذا النص:

سبق في بيان من نزل فيه النص ترجيح كون هذه الآيات نازلة في المنافقين الذين شمتوا بشهداء يوم الرجيع، وقد كان ذلك في أواخر سنة ثلاث من الهجرة بعد معركة

---

(١) جامع البيان ٢/ ٣١٢.

(٢) السيرة النبوية ٤/ ٣٦.

أحد كما ذكر ابن إسحاق[1] .

تصوير الموقف:

تقدم لنا في بيان من نزل فيه النص ترجيح كون هذه الآيات نزلت في المنافقين لما شمتوا بشهداء سرية الرجيع، وقد أخرج الإمام البخاري في بيان خبرهم عن أبي هريرة ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية عينا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت -وهو جد عاصم ابن عمر بن الخطاب- فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذُكروا لحيٍّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر[2] فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرا حتى إذا أجمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فغفلتُ عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى،

---

(١) المرجع السابق ٣/ ١٥٦.

(٢) هم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، والرجل الآخر هو عبد الله بن طارق كما في رواية ابن إسحاق (السيرة النبوية ٣/ ١٥٩).

فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، وكانت تقول ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال:لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو،ثم قال:

وما إن أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شقٍّ كان لله مصرعى[1]

وذلك في ذات الإله وإنْ يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله.. وبعثَت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر[2] فبعث الله عليه مثل الظلة من الدَّبْر[3] فحمتْه من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء[4] .

وقد روى هذا الخبر ابن إسحاق فيما أخرجه عنه ابن هشام بأبسط من هذا وفي روايته تفصيل لما أُجمل في رواية البخاري إلا أنه ذكر في سبب بعثهم ما يختلف عما في رواية البخاري حيث قال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاما فابعث نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ

---

(١) قوله (ما إن أبالي) قال ابن حجر: هكذا للأكثر وللكشميهني «فلست أبالي» وهو أوزن والأول جائز لكنه مخروم ويكمل بزيادة الفاء (فتح الباري ٧/ ٣٨٤).

(٢) قال ابن حجر: لعل العظيم المذكور عقبة بن أبي معيط فإن عاصما قتله صبرا بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر (فتح الباري ٧/ ٣٨٤).

(٣) الدبر هي الزنابير وقيل ذكور النحل ولا واحد له من لفظه (فتح الباري ٧/ ٣٨٤).

(٤) صحيح البخاري كتاب المغازي، باب رقم (١٨) (فتح الباري ٧/ ٣٧٨).

نفرا ستة من أصحابه وهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب، وخالد بن البكير الليثي حليف بني عدي ابن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وخُبيب بن عدي أخو بني جحجبى بن كلفة بن عمرو بن عوف، وزيد بن الدَّثِنة بن معاوية أخو بني بياضة بن عمرو بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن عضب بن جشم بن الخزرج، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس، وأمّر رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، فخرج مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهدأة[1] غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا، فلم يَرُع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.. ثم ساق خبرهم[2].

وفي هذا اختلاف واضح مع ما سبق في رواية البخاري، ولاشك أن رواية البخاري أصح سندا لكن ابن إسحاق إمام في المغازي كما قال ابن كثير عندما ذكر اختلاف الروايتين: «على أن ابن إسحاق إمام في هذا الشأن غير مدافع كما قال الشافعي رحمه الله: من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق»[3] ولعل النبي ﷺ قد بعثهم للمهمتين معا فيكون قد بعثهم للدعوة تلبية لطلب أولئك القوم، ثم أناط بهم مهمة

(١) الظاهر أنها الهدَة بفتح الدال بلا همزة، قال ياقوت في معجم البلدان: الهدة بأعلى مر الظهران، مَدَرة أهل مكة، والمدرطين أبيض يحمل منها إلى مكة.

(٢) السيرة النبوية ٣/ ١٥٦.

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٦٣.

أخرى هي التجسس على قريش.

والذي يهمنا في هذا البحث هو بيان ما صدر من المنافقين نحو أصحاب هذه السرية من الشماتة بهم والسخرية منهم، وقد تقدم بيان الرواية في ذلك عند بيان من نزل فيه النص، وما رُوي من كلام المنافقين في هؤلاء الشهداء لا يؤثر عليه كون النبي ﷺ قد أرسلهم للدعوة وللتعليم، أو أرسلهم للتجسس على قريش، لأنهم إنما سخروا منهم حينما قُتلوا ولم يؤدوا الرسالة التي أرسلوا من أجلها.

وهؤلاء المنافقون لا يعرفون معنى الشهادة في سبيل الله، ولا يقَدِّرون قيمتها العالية لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وإنما يؤمنون بالحياة الدنيا ومتاعها، فالمقتول عندهم خاسر لأنه خسر التمتع بهذه الحياة، ولو فكروا بعقولهم وآمنوا بالله واليوم الآخر لأدركوا أن هؤلاء الشهداء قد فازوا فوزا عظيما، ولغبطوهم على ما نالوه من الاستشهاد في سبيل الله.

بيان مفردات النص:

يعجبك: أي يروقك ويعظم في قلبك والعجب ينشأ من الشيء إذا عظم موقعه وخفي سببه[1].

ألد: أصل الألد الشديد اللدد وهو صفحة العنق، ويطلق على الذي لا يمكن صرفه عما يريده[2].

سعى: السعي المشي السريع وهو دون العَدْو، ويستعمل للجد في الأمر خيرًا كان أو شرا[3].

الحرث: أي نبات الأرض، وأصل الحرث إلقاء البذور في الأرض ويسمى المحروث

---

(١) الكشاف ١/ ٣٥٢، المفردات، النهاية.

(٢) لسان العرب، المفردات، مقاييس اللغة.

(٣) المفردات، القاموس.

حرثا[١].

النسل: المراد به الولد، وأصل النسل الانفصال عن الشيء وسمي الولد بذلك لكونه ناسلا عن أبيه[٢].

اتق الله: التقوى مشتقة من الوقاية وهي الحفظ والصيانة والستر[٣] فالتقوى في اللغة حفظ النفس وصيانتها عما يضر بها.

وهي في عرف الشرع حفظ النفس من الوقوع في الإثم المترتب على ارتكاب شيء مما نهى الله عنه أو ترك شيء مما أمر به.

أخذتْه: الأخذ بالشيء يطلق على الحمل عليه ومنه التعبير بالأخذ في هذه الآية[٤].

العزة: العزة في اللغة هي القوة والغلبة ومنه قولهم مَنْ عَزَّ بَزَّ أي من غلب سلب، وقولهم أرض عزاز أي صلبة[٥].

والمراد بالعزة في الآية الأنفة والترفع ولعل التعبير عن ذلك بالعزة لما في الأنفة من معنى الاستعلاء الذي هو من آثار العزة.

حسبه: أي كافيه فالحسب بمعنى الكفاية[٦].

المهاد: الفراش، والمكان الممهد الموطأ المسهل[٧].

---

(١) المفردات، جامع البيان ٢/ ٢١٨.

(٢) مقاييس اللغة.

(٣) الصحاح، لسان العرب، القاموس.

(٤) الكشاف ١/ ٣٥٢.

(٥) الصحاح، لسان العرب، القاموس.

(٦) المفردات، القاموس.

(٧) نفس المرجعين السابقين.

بيان معنى النص:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وبعض الناس يروق في نظرك مظهره أيها الناظر إليه، لما يتحلى به من التقوى والورع والزهد في هذه الحياة الدنيا، سواء في الأفعال، أو في الأقوال مما يبعث على الثقة به، والاطمئنان إلى سلوكه ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ فهو لا يكتفي بتزويق القول وتنميقه وتحسين العمل للوصول إلى أغراضه، بل يستشهد بالله على صدقه وإخلاصه تأكيدا لزعمه الباطل، إما بصريح القسم أو بقوله والله يعلم أني صادق وما أشبه ذلك، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي شديد الخصومة بالباطل عنيف غليظ الطباع ليس في قلبه مكان للمعاني الإنسانية، بل همه الأكبر هو ما يحققه لنفسه من مصالح مادية، ولو عن طريق الوسائل الملتوية التي تضيع معها كرامة الإنسان، أو يشفي غيظه ويُذهب كمده بإلحاق الضرر بخصمه البريء بدافع من الجهل أو الحسد، فمخبره في الحقيقة غير مظهره، حيث إنه يتظاهر بالورع والزهد والمنطق الجميل ولكنه شديد الخصومة بالباطل ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ وإذا انصرف عمن يريد خداعه وأصبحت له مقدرة على إبراز ما يتأجج في صدره من الغل والحقد، وتنفيذ ما يدور في فكره من صنوف الكيد والمكر شمَّر عن ساعد الجد، ليقوم بتنفيذ مخططه الآثم في الإفساد والتدمير، فحاول فتنة المؤمنين عن دينهم وصد الناس عن الإسلام بكل ما أوتي من قوة وحيلة، ولو على حساب إهلاك الأنفس والأموال وخراب البلاد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ بل يكرهه ويمقته، وإن من أعظم الفساد ما يقوم به المنافق من ارتداء سربال التقوى والورع ليغطي به حقيقته، التي تنطوي على النوايا السيئة بأهل الخير والصلاح الذين أمنوا جانبه وأعجبهم ما رأوا من ظاهر أمره.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي وإذا ذكَّره أحد الناصحين له بالله

وحذره من عقابه تمادى في غيه وضلاله، وحملَته الأنفة على التمسك بما هو واقع به من معصية الله وعدم الانتفاع بالذكرى، وربما حمله الكبر والترفع على السخرية بمن ذكَّره بالله ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أي فيكفيه عقوبة له على كفره بالله وتكبره عن قبول الحق دخول نار جهنم يوم القيامة والخلود فيها ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي وساء ذلك المكان مستقرًا ومقامًا.

ولما كانت هذه الصفات صفات من لا يراعي غير مصالحه الذاتية، ويستجيب لغرائزه البهيمية بيَّن سبحانه أن من الناس من يتناقض مع هؤلاء في المبدأ حيث يبيع نفسه لله عز وجل طلبا لمرضاته وذلك بقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن الناس من يكون هدفه الأعلى هو طلب مرضاة الله فيلتزم بطاعته ويجتنب معصيته ويؤثر ذلك على تلبية شهواته الجسدية والنفسية.

وهذا المبدأ السامي يعصم معتنقيه من اللَّدد في الخصومة والكبر، والاعتزاز بالنفس عندما يُذكَّرون بالله ويؤمرون بتقواه،لأن هدفهم الأعلى هو الوصول إلى الحق، فمتى بان لهم أخضعوا أنفسهم له وقبلوه، فهم لا يعبدون أهواءهم المنحرفة وإنما يعبدون الله جل وعلا فإذا ذكروا به تزلزل كيانهم واهتزت مشاعرهم، ودفعهم الإحساس القوي بهيمنة الله عليهم إلى طاعته واجتناب معصيته ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي والله سبحانه رءوف بعباده المؤمنين الذين باعوا أنفسهم ابتغاء مرضاته..يدفع عنهم الأضرار ويجنبهم المكاره جزاء خضوعهم له والتزامهم بدينه.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

في هذه الآيات يبين الله سبحانه صفة من صفات المنافقين الغالبة فيهم وهي تظاهرهم بحب المؤمنين والإخلاص لهم، والبشاشة في وجوههم والثناء عليهم مع إضمار عداوتهم والكيد لهم.

وإنا لنرى هذه الصفة هي الغالبة على كثير من أفراد المجتمع الإسلامي في كثير من

العلاقات الاجتماعية، فالموظف المسؤول عندما يأتيه من يراجعه ليستعين به على قضاء حاجته يُظهر له من البشاشة في وجهه واللطف به وإظهار الرغبة في خدمته ما يسر قلبه، ويطمعه في نيل مقصوده منه، ويجعله يكف عن المحاولات مع غيره، بينما هو يضمر في قلبه الإضرار به إما بإهمال أمره وتعطيله، وإما بمحاولة الإيقاع به والكيد له.

والتاجر يظهر لمن يعامله من دماثة الخلق وحسن القصد ما يجعل معامله يثق به ويستمر في معاملته، بينما هو يضمر في قلبه غشه وخداعه.

والعامل يظهر لمؤجره الإخلاص في العمل والإجادة في الصنعة ليكسب ثقته به، بينما هو لا يجيد الصنعة ويضمر في قلبه الخيانة والغش.

ويعض الناس يظهر لصاحبه المودة والنصيحة ويستدرجه بسبب ذلك حتى يستظهر منه أسراره، وهو لا يريد نصيحته حقا وإنما يريد أن ينقل أسراره لأعدائه وحساده.

فهذه الخصلة الذميمة التي فشت في المجتمع الإسلامي هي من خصال المنافقين، الذين يُظهرون ما لا يبطنون ويقولون مالا يفعلون، وبسبب التخلق بهذا الخلق السيئ تخلف المجتمع الإسلامي في بعض أزمانه وأوطانه، وسادت فيه الفوضى لأن عمرانه أصبح قائما على الغش والخيانة.

ويعض الناس يرى في الاتصاف بالعنف في الخصومة عزة وشجاعة فيجادل الآخرين وهو يعلم أنه على الباطل، ويسمح لنفسه أن تستجيب لدواعي الغضب ولو لأتفه الأسباب، وفي هذه الحالة ينطق بالكلام القبيح، ويقوم بالتصرفات التي تجانب العقل والحكمة، ويرى في الخضوع للحق والتفاهم مع الناس بلطف وروية نوعا من الضعف الذي لا يليق أن يتصف به، وقد أخطأ التقدير في ذلك فالعزة والشجاعة والقوة ليست في إطلاق النفس لغرائزها البهيمية، والاستجابة لنداء العواطف الجامحة وإنما هي في كبح

جماح النفس والسير على مقتضى العقل والحكمة، فالقوي هو الذي يقهر نفسه ليستطيع بعد ذلك أن يتصرف في أناة وروية، لا من تغلبه نفسه فيتسرع في تصرفات لا ينظر في عواقبها، وفي تقرير هذا المعنى يقول النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» رواه الشيخان[١].

وهؤلاء الذين يستجيبون لنداء العواطف والغرائز لا يرجعون عن رأيهم غالبا وإن بان لهم وجه الخطأ فيه، ولذلك تجد أحدهم لا يرعوي عن غيه إذا ذُكِّر بالله وأُمر بالتقوى، بل يعتز بنفسه ويتكبر ويرى في ذلك إهانة لعزته وكرامته، وأغلب من يتصف بهذه الصفة كبراء الناس -في عرف المجتمع المتخلف- الذين يشغلون مناصب كبيرة أو يتمتعون بثروات وفيرة، فهؤلاء لا يطيقون النصيحة ولا يحتملون التذكير لأنهم يرون في ذلك انتقاصا لهم وإهانة لكرامتهم واستعراضا لمعايبهم، ولهذا تجدهم يسيئون الظن بمن يبدي لهم النصيحة، وربما فهموا الموضوع على حقيقته ولكنهم يستمرون في التمسك بما معهم من الباطل، لأنهم يرون في الرجوع عن آرائهم ضعفا ونقصا في شخصياتهم أمام الناس، والحقيقة أن هؤلاء صغار العقول فضلا عن كونهم ضعفاء الإيمان، لأن صاحب العقل الكبير لا يرى لنفسه كمالا بل يحاول أن يستفيد من آراء الآخرين، ولا يستنكف عن الرجوع عن رأيه إذا تبين له وجه الخطأ فيه.

* * *

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (فتح الباري ١٠/ ٥١٨) صحيح مسلم، كتاب البر، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب حديث رقم (١٠٧).

٥- سلوكهم المنحرف مع الله ومع الناس

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ

تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[النساء: ١٣٦ - ١٤٧].

بيان ما نزل فيه النص:

١ - أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾: وهم اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت، وكفرهم به تركهم إياه، ثم ازدادوا كفرا بالفرقان وبمحمد ﷺ فقال الله ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ يقول لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريق هدى وقد كفروا بكتاب الله وبرسوله محمد ﷺ[1].

وأخرجه ابن جرير أيضاً من طريق معمر عن قتادة[2].

ومعنى كلام قتادة الذي أراده أن الآية قد نزلت في اليهود الذين آمنوا بموسى عليه السلام ثم كفروا به ثم آمنوا بعيسى عليه السلام لما بعث إليهم، ثم كفروا به ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد ﷺ لما بعث كما فهم ابن جرير من هذا الكلام[3] لا أن المراد أن قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ قد عنى به اليهود وحدهم وقوله ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ قد عنى به النصارى وحدهم كما يظهر من كلام قتادة لأن هذا ينافي الترتيب المذكور في الآية حيث

---

(١) جامع البيان ٥/ ٣٢٧.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٢٧.

(٣) جامع البيان ٥/ ٣٢٨.

إن هذا الترتيب يفهم منه أن الآية قد نزلت في أناس كفروا مرتين بعد الإيمان – لا مرة واحدة – ثم ازدادوا كفرا.

٢- أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: كنا نحسبهم المنافقين ويدخل في ذلك من كان مثلهم[1] .

٣- أخرج ابن جرير من طريق ابن وهب عن ابن زيد أنه قال في هذه الآية: هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين وكفروا مرتين ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك[2] .

والذي يؤخذ من الرواية الأولى أن هذه الآية قد نزلت في أهل الكتاب لما آمنوا بالتوراة والإنجيل ثم كفروا بهما ثم ازدادوا كفرا بالقرآن، والذي يؤخذ من الرواية الثانية والثالثة أن الآية قد نزلت في المنافقين وهذا أرجح لما يأتي:

١ – لقوله تعالى بعد هذه الآية ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢ – أن الذين آمنوا بموسى عليه السلام ثم كفروا به ليسوا هم الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ثم كفروا به بأعيانهم وهؤلاء ليسوا هم الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم فازدادوا بالكفر به كفرا كما ذكر بعض المفسرين وقد أجيب عن ذلك بأن هذا يَرِد لو أريد قوم بأعيانهم كالموجودين وقت البعثة أما لو أريد جنس ونوع باعتبار عَدِّ ما صدر من بعضهم كأنه صدر منهم كلهم فلا إيراد[3] وهذا الجواب غير مسلَّم لأن المقصود من الآية تحذير المؤمنين من أن يكونوا كأهل النفاق الذين يترددون بين الإيمان والكفر بعد أمرهم بالثبات على الإيمان في الآية السابقة، ولا يتم هذا المقصود إلا إذا اعتبرنا ذلك التردد صادرا من قوم معينين صدر

---

(١) جامع البيان ٥/ ٣٢٧.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٢٧.

(٣) محاسن التأويل ٥/ ١٦٠٨ روح المعاني ٥/ ١٧١.

منهم ذلك التردد في حياتهم هم لا من آبائهم وأجدادهم، هذا إضافة إلى أن العقوبة الشديدة التي في قوله تعالى في آخر الآية ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إنما هي لترددهم بين الإيمان والكفر ثم تمسكهم بالكفر أخيرا، فهذا ينطبق على صدور هذا الذنب من أشخاص بأعيانهم في جميع مراحل هذا التردد، أما إذا صدر هذا الذنب من نوع من البشر موزعًا بينهم على تعاقب الأجيال فليس على أفراد الجيل الأخير أن يتحملوا ذنوب أسلافهم، كما قال تعالى ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[النجم: ٣٦-٣٨].

أما بالنسبة لآخر هذه الآيات من قوله تعالى ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إلى آخر الآيات فالأمر فيها واضح لأنها صريحة في المنافقين ولم يرد فيها حوادث خاصة فهي في المنافقين عمومًا باتفاق المفسرين.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات لم تنزل بسبب معين يحدد وقت نزولها وهي من سورة النساء، وهذه السورة هي سادس سورة نزلت في المدينة كما سبق في المقدمة، ومما نزل بعدها سورة الحشر وقد نزلت في أوائل السنة الرابعة كما سيأتي، ومما نزل قبلها سورة آل عمران وقد نزلت بعد أحد كما سبق فهذا مما يرجح أن هذه الآيات مما نزل في أواخر السنة الثالثة أو أوائل السنة الرابعة.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

كان المنافقون في عهد النبي ﷺ يتقلبون بين الإيمان والكفر ويتلاعبون بالعقيدة، فيؤمنون بهذا الدين في حال عزته وانتصاره، كما آمن الكثير منهم بعد النصر العظيم الذي أحرزه المؤمنون في معركة بدر، فإذا ما ابتلي المؤمنون وأحدقت بهم الشدائد والمخاطر

ارتدوا عن دينهم ورجعوا إلى الكفر كما فعل الكثير منهم في معركة أحد حينما واجه المؤمنون جيشا يبلغ ثلاثة أضعافهم، وبعض المنافقين لا يؤمنون بالإسلام في أي حال من الأحوال إيمانا حقا، وإنما يتظاهرون بالإيمان أمام المؤمنين في حال عزتهم وانتصارهم خوفا على أنفسهم، فإذا ادلهمَّ الخطب وأحاط بهم الأعداء أظهروا الكفر والتخلي عن المؤمنين وحاولوا تخذيل الناس عن الجهاد في سبيل الله.

وكانوا في ذلك العهد يتولون اليهود ويعتمدون عليهم وقت الشدائد فخذلهم الله هم ومن اعتمدوا عليهم، وقد كانت بين اليهود والأوس والخزرج أحلاف وصداقات في الجاهلية، فلما جاء الإسلام انقطعت تلك الأحلاف والصداقات بينهم وبين المؤمنين، واستمرت على ما كانت عليه بينهم وبين المنافقين، بل إنها زادت متانة وقوة لاعتبارهم الإسلام هو العدو المشترك بالنسبة لهم جميعا، وقد ظهرت هذه الولاية بوضوح حينما تمسك عبد الله بن أبيّ بحلفه لبني قينقاع فدافع عنهم حينما أراد رسول الله ﷺ قتلهم، كما ظهرت في وعده لبني النضير بالمؤازرة والنصرة مع أنهم حلفاء الأوس وليسوا حلفاء قومه الخزرج.

وقد كان المنافقون واليهود يعمرون مجالسهم بالكفر بالقرآن والسخرية منه ومن المؤمنين به، وكان ربما جلس معهم بعض المؤمنين ممن تربطهم بهم روابط الصداقة والصحبة، فنزل القرآن مذكّرًا المؤمنين بنهي الله لهم عن القعود مع الكفار الذين يخوضون في آيات الله بالنقد والاستهزاء حتى يخوضوا في حديث غيره.

وكان هؤلاء المنافقون يرقبون المعركة بين المؤمنين والكفار ثم يظهرون امتنانهم على الفريق المنتصر بما لم يفعلوا، وهذه حال من يريد الفخر في الحياة الدنيا وإحراز مكاسبها الرخيصة وليس للآخرة نصيب من اهتمامه وسعيه، وهذا هو السر في كونهم مذبذبين لا مع المؤمنين ولا مع الكفار لأن الأهداف الرخيصة التي يريدونها تميل بها كفة المؤمنين

أحيانا، وأحيانا تميل بها كفة الكافرين وقد شاهدوا المثل لذلك في معركة بدر وأحد، ولم يكن المنافقون يقدّرون أن المستقبل للإسلام لأنهم لا يدركون حقيقته، وإنما قصارى همهم ومبلغ علمهم أن يحصلوا على الأمن في هذه الحياة والتمتع بمتاعها ومجدها الزائل.

بيان مفردات النص:

بَشِّر: التبشير الإخبار بالأمر السار الذي تنبسط له بشرة الوجه، والمراد بالتبشير هنا الإنذار والتعبير عنه بذلك من باب التهكم[1].

يتربصون: التربص الانتظار بالشيء لمعرفة ما يؤول إليه[2].

نستحوذ: الاستحواذ الغلبة والقهر وأصله من الحوذ وهو السوق السريع، وهو مأخوذ من حاذيي البعير أي أدبار فخذيه لأن السائق يتبعهما حين يسوقه[3].

مذبذبين: الذبذبة هي الحركة والاضطراب، وأصلها صوت الحركة للشيء المعلق ثم استعير لكل اضطراب وحركة[4].

سلطانا: السلطان الحجة، وأصله من السلاطة وهي التمكن من القهر[5]، وسميت الحجة سلطانا لتمكنها من القلوب[6].

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ

(١) المفردات، الكشاف ١/ ٥٧٢.

(٢) المفردات، القاموس.

(٣) نفس المرجعين السابقين.

(٤) نفس المرجعين السابقين.

(٥) نفس المرجعين السابقين.

(٦) جامع البيان ٥/ ٢٣٧، المفردات.

رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ في هذه الآية يأمر الله عباده المؤمنين بأن يثبتوا على الدين الذي آمنوا به، وأن لا يتأثروا بالحركات المخيفة والعواصف العنيفة التي تهزهم من الداخل والخارج، ثم يذكّرهم الله سبحانه بأصول هذا المبدأ الذي آمنوا به وهي الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر، حتى يصححوا تصورهم عنها بحيث يتقيدون بتطبيق مقتضياتها، ومما يلاحظ أن الله سبحانه حينما أمر المؤمنين بالإيمان بهذه الأصول في هذه الآية لم يذكر الإيمان بالملائكة واليوم الآخر بينما ذكرهما في آخر الآية لما ذكر الحكم على من كفر بهذه الأصول حيث قال تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ والظاهر أن عدم ذكرهما في أول الآية لدخولهما ضمن الإيمان بالكتب باعتبار أن الأمر بالإيمان بهما مما تتضمنه الكتب السماوية فمن آمن بكتب الله فهو مؤمن بالملائكة واليوم الآخر ضمنا. أما التصريح بهما في آخر الآية فلأنه لما كان الذي يكفر بالكتب السماوية قد لايطلع عليها الاطلاع الذي يفهم منه بقية الأصول التي يجب الإيمان بها كما هو الغالب ذكر كل واحد منهما حتى يترتب الحكم المذكور في الآية على الكفر بهما كبقية الأصول.

وقد حكم سبحانه على من كفر بهذه الأصول بالضلال البعيد، لأن من كفر بأصل من هذه الأصول فقد انحرف عن الطريق المستقيم الذي سنه الله لعباده وأمرهم بسلوكه فكيف بمن كفر بهذه الأصول جميعا، فإن انحرافه عن الطريق المستقيم يكون بعيدا بعدا شاسعا.

ثم لما أمر الله المؤمنين بالثبات على أصول الإيمان والالتزام بتطبيق مقتضياتها بين لهم العاقبة الوخيمة التي يؤدي إليها التزعزع في العقيدة حتى يزدادوا ثباتا على إيمانهم حيث قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ

ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ فظاهر الآية أن الذين ترددوا بين الإيمان والكفر أكثر من مرة فدخلوا في الإسلام أولا ثم ارتدوا عنه إلى الكفر ثم دخلوا فيه ثانيا ثم ارتدوا عنه وتمسكوا بالكفر لن يغفر الله لهم هذا الذنب العظيم، ولن يوفقهم إلى الطريق المستقيم لأنهم حادوا عنه أكثر من مرة بعدما عرفوه، فترددهم بين الإيمان والكفر دليل على أنهم حينما آمنوا بالإسلام لم يؤمنوا به حقا وإنما آمنوا بما يوافق أهواءهم المنحرفة ويحقق مصالحهم الشخصية سواء في حال إيمانهم بالإسلام أو في حال كفرهم به، فهم حينما يرون من الإسلام عزة وانتصارا يؤمنون به لأنه يحقق لهم ما يريدون من العزة والجاه والغنى، فإذا ما أصيب المسلمون بنكبة ووقعوا في شدة ارتد هؤلاء عن الإسلام، لأنه لم يعد قادرا في نظرهم على أن يحقق لهم ما يريدونه لأنفسهم بل يخشون بإيمانهم به على ذهاب أعز ما يملكونه بزهاق أرواحهم أو ذهاب أموالهم، فعبادتهم أهواءهم طمست بصائرهم حتى أصبحوا لا يستطيعون إدراك الحق إلا في ضوء منافعهم الدنيوية، فهؤلاء لا يهديهم الله إلى الطريق المستقيم لأنهم ليسوا على استعداد لتفهمه وتقبله، بخلاف الذين لم يرتدوا إلا مرة واحدة فإن هؤلاء قد يكون ارتدادهم بسبب شبهة عرضت لهم أو ضعف عن مواجهة الباطل، فهؤلاء يرجى لهم الهداية لأن الشبهات تزول بنور الحق لمن أراد الوصول إليه، والضعف يزول بالإيمان الحق حينما يخالط شغاف القلب.

ولما كان التلاعب بالعقيدة والتقلب بين الإيمان والكفر من صفات المنافقين، أتبع ذلك ببيان ما أعده لهم في الآخرة من المصير المشؤوم جزاء كفرهم بالله ونفاقهم حيث قال تعالى ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي أنذرهم بأن الله قد أعد لهم يوم القيامة عذابا شديد الألم في نار جهنم فهم أشد الكفار عذابا يوم القيامة كما سيأتي في آخر هذه الآيات.

ثم بين سبحانه ما يترتب على نفاقهم من السلوك المنحرف الذي أوصلهم إلى ذلك المصير المشؤوم فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين يتخذون الكافرين أخلاء وأنصارا تاركين ولاية المؤمنين، والمراد بالكافرين في الآية اليهود لأنهم هم المجاورون للمدينة آنذاك، وقد كانت بينهم وبين المنافقين علاقات وثيقة.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أي أيطلبون عندهم القوة؟ ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي فإن العزة كلها بأنواعها لله وحده وهو سبحانه يمنحها لمن يشاء من عباده، وقد قضى سبحانه أن لا يمنحها إلا المطيعين له من عباده، وهم الرسول ﷺ والمؤمنون كما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، ومادام الأمر كذلك فإن الاعتزاز بغير الله تعالى جهل وحماقة لأنه اعتزاز بمن لا يملك العزة.

ثم قال تعالى مذكرا المؤمنين بما سبق أن بينه لهم نحو مجالسة الكفار ومحادثتهم ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ وما سبق أن نزّله سبحانه في هذا الموضوع هو قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام: ٦٨] فهذه الآية مكية والآية التي معنا مدنية[1]. وفي هاتين الآيتين يأمر الله المؤمنين بمقاطعة مجالس الكفار التي يسخرون فيها من آيات الله، ويُظهرون كفرهم بها حتى يتركوا التحدث بذلك وينتقلوا إلى حديث غيره لا يمس الإسلام بسوء،

---

(١) الكشاف ١/ ٥٧٢.

وكذلك الذين يسخرون من النبي ﷺ ومن سنته، أو من المؤمنين من أجل إيمانهم بهذا الدين، فإنه يجب على المسلمين أن يقاطعوا هذه المجالس تماما حتى يترك أصحابها القدح في الإسلام وأهله، فإن لم يفعل المؤمنون ذلك واستمروا في مجالسة أولئك الكفار من غير إنكار عليهم فهم مثلهم في الإثم، ولذلك قال تعالى ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي إنكم إذا قعدتم معهم في تلك المجالس وسكتّم على منكراتهم مثلهم في تحمل إثم هذه المنكرات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فالاختلاط بالكفار والسكوت على منكراتهم مع القدرة على الإنكار عليهم أو اجتنابهم يعتبر من النفاق، لأن المؤمن حقا لا يمكن أن يسمع القدح في دينه ويسكت على ذلك ويستمر في الجلوس مع الكفار الذين يقدحون في دينه.

وقيل إن الخطاب في الآية للمنافقين[1] ولكن مضمون الآية يمنع من ذلك، إذ لا يتصور صدور الأمر للمنافقين بمقاطعة مجالس الكفار الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها، لأن المنافقين من الكفار الذين يفعلون ذلك، وأيضا فإن ترتيب المثلية في قوله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ على السكوت عن منكرات الكفار دليل على أن المخاطبين بهذا الخطاب لم يكونوا قبل ذلك مثلهم، وهذا إنما ينطبق على المؤمنين أما المنافقون فإنهم كفار قبل ذلك.

وقد نسب الألوسي القول بكون الخطاب في الآية للمؤمنين الصادقين إلى بعض المحققين ثم قال: ويؤيد ذلك ما نُقل عن الواحدي أنه قال: كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم[2].

هذا والمنافقون داخلون في الخطاب وفي غيره من خطابات التكليف باعتبار أنهم

---

(١) إرشاد العقل السليم ١/ ٧٩٩ – روح المعاني ٥/ ١٧٢.

(٢) روح المعاني ٥/ ١٧٣.

مظهرون للإسلام، وإن كان لا يتصور صدور الامتثال والتطبيق منهم في باطن أمرهم لأنهم كفار في الباطن.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر بقية الأوصاف التي استحق بها المنافقون العذاب الأليم فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي الذين ينتظرون بكم وقت انقضاء المعركة بينكم وبين أعدائكم ليكيفوا موقفهم معكم ومعهم على ما يرون أنه يحقق مصالحهم الدنيوية ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فإن كان النصر لكم على أعدائكم ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي ألم نكن معكم في المعركة فحصل لكم النصر بسبب اشتراكنا معكم؟ ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي من النصر والغلبة على المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم وحميناكم من المؤمنين بتخذيلنا إياهم عن القتال حتى يضعفوا واستطعتم أن تنالوا منهم بسبب ذلك؟

وفي هذا بيان لما يتصف به المنافقون من التلون بأكثر من وجه والتمدح بما لم يفعلوا طلبا للتقرب من الفريق المنتصر حتى يأمنوا على أنفسهم من انتقامه وينالوا الحظوة لديه.

ثم بين سبحانه الوقت الذي تنكشف فيه الأعمال على حقيقتها فيظهر صالحها من فاسدها حيث قال تعالى ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يقضي بينكم فيعطي الحق مستحقه، ففي ذلك اليوم تتبين حقيقة الأعمال التي يقوم بها المنافقون في الدنيا ويظهر كذبهم في ادعائهم بذل الجهد في القتال، أما في الدنيا فإنهم حينما تلتبس المعركة ويختلط الحابل بالنابل يستطيعون أن يُزَوِّروا على المؤمنين بعد ذلك فيقولوا عملنا كذا وعملنا كذا وهم كاذبون. وحينما تتبين حقيقة الأعمال في الآخرة يكون الحكم على

أصحابها حيث يجنون ثمرات أعمالهم إنْ خيرا فخير وإن شرًا فشر، فيسعد المؤمنون ويشقى الكفار والمنافقون.

ولما كان المنافقون يرجون دائما زوال شوكة المؤمنين واستئصالهم على يد الكفار ويبنون على ذلك الرجاء آمالهم، ويخططون له بالكيد للمسلمين، ومظاهرة عدوهم عليهم بالخفاء، ذكر الله سبحانه لهم ما يخيب رجاءهم ويقطع آمالهم فقال تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي ولن يكتب الله على المؤمنين الاستئصال بالكلية على يد الكفار كما يتمنى ذلك المنافقون، لأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسوله ﷺ هاديا للناس جميعا إلى قيام الساعة فمقتضى هذا أن طائفة من أمته ستبقى تدعو إلى الإسلام وتنفذه حتى قيام الساعة، مهما كانت الظروف التي تمر بها كما قال ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمةَ الله هذه الأمة»[1] ولا يعارض هذا ما يقع على المسلمين أحيانا من الهزائم في حروبهم مع الكفار، لأن تسلط الكفار على المؤمنين المنفي في الآية هو تسلط الاستئصال التام والإبادة الجماعية، والهزائم التي حصلت على المسلمين لم يقع فيها استئصال تام لهم.

ويحتمل أن يكون التسلط المنفي في الآية هو تسلط الكفار على المؤمنين بالهزائم المعتادة من غير استئصال لهم، فيكون المراد بالمؤمنين في الآية المؤمنين الصادقين، الذين طبقوا عوامل النصر التي أرشدهم الله إليها في قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ الآيات [الأنفال: ٤٥] وقد تقدم بيانها، وعلى هذا الاحتمال أيضا لا يعارض

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم رقم (٢٤٧).

هذه الآية ما يقع على المسلمين أحيانًا من الهزائم في حروبهم مع الكفار، فإن تلك الهزائم إنما هي بسبب عدم تطبيقهم تلك العوامل التي أرشدهم الله إليها أو بعضها، فيسلط الله عليهم بسبب ذلك عدوهم ابتلاء منه سبحانه لعباده المؤمنين وتأديبا لهم كما مضى في غزوة أحد.

فالآية محتملة للمعنيين ولكن المعنى الأول أقرب إلى جو المعركة القائمة بين المؤمنين والمنافقين في عصر التنزيل، إذ إن المنافقين كانوا يتوقعون في كل معركة تقوم بين المؤمنين والكفار أن تحصل الإبادة التامة للمؤمنين، نظرا لقلة عددهم وضعف عُددهم إلى جانب كثرة عدوهم وقوة عُدده كما قال تعالى عنهم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[الفتح: ١٢] وكانوا يقوون علاقتهم بالكفار اعتمادا على هذا الظن الذي ظنوه بالمؤمنين، كما قال تعالى ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[المائدة: ٥٢].

ثم ذكر سبحانه صفة من صفاتهم التي استحقوا بها ذلك العذاب الأليم فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر، وإنما سمى الله سبحانه عملهم هذا مخادعة له مع أنهم لا يحاولون خداعه حيث لا يؤمنون به لأن سلوكهم هذا يعتبر مخادعة لله تعالى وإن لم يقصدوا مخادعته ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ فمنزل بهم نقمته وعذابه، ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ أي أنهم إذا قاموا لأداء الصلاة قاموا متثاقلين لأنهم لا يتحلون بالإيمان بالله حقا، فليس عندهم ما يدفعهم إلى التلذذ

بمناجاته، ويشبههم في ذلك ضعفاء الإيمان الذين يتخذون الصلاة عادة ولا يشعرون بالارتياح لها، بل يرونها ثقيلة على نفوسهم، فالشعور بالارتياح والأنس والسرور لأداء الصلاة من علامات قوة الإيمان وصدقه، أما الشعور بالضيق والمشقة عند أداء الصلاة فهو من علامات النفاق وضعف الإيمان.

ثم بين سبحانه وتعالى الدافع لهم إلى أداء الصلاة مع أنهم لا يؤمنون بالله حقا حيث قال تعالى ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي أنهم لا يصلون إلا ليراهم الناس، وهم المؤمنون وإنما فعلوا ذلك ليأمنوا على دمائهم وأموالهم ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؟ أي ولا يذكرون الله في أثناء الصلاة إلا ذكرا قليلا، كالتكبير في ابتداء الصلاة والتسليم وذلك بقدر ما يأمنون به على أنفسهم من انكشاف حقيقتهم، وإلى هذا ذهب الجبائي[1].

وقيل المعنى لا يذكرون الله إلا رياء فسماه الله سبحانه ﴿قَلِيلٗا﴾ لأنه غير مقصود به رضاه وابتغاء ما عنده من الثواب[2] وقيل المعنى لا يذكرونه إلا باللسان فإنه بالنسبة إلى ذكر القلب قليل والقول الأول أرجح، لأن كونهم لا يذكرون الله إلا رياء قد فهم من الجملة السابقة، ولقوله ﷺ «تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا»[3].

وفي هذا دليل على أن الاستخفاف بالصلاة وعدم الطمأنينة فيها من صفات المنافقين.

ثم ذكر سبحانه تزعزعهم وتأرجحهم بين المؤمنين والكفار بقوله تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي هم مضطربون في علاقتهم بالمؤمنين

---

(١) روح المعاني ٥/ ١٧٦.

(٢) جامع البيان ٥/ ٣٣٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب التبكير بالعصر رقم (١٩٥).

والكفار حيث إنهم لا يوالون أحدا من الفريقين ظاهرا وباطنا، بل يوالون المؤمنين ظاهرا ويوالون الكفار باطنا وكلما قوي المؤمنون وتوالت انتصاراتهم على الكفار مالوا إليهم شيئا قليلا، فإذا كانت الدولة للكفار على المؤمنين مالوا إلى الكفار وتشاءموا من المؤمنين، فهم دائما يتأرجحون بين الميل للكفار وبين الميل للمؤمنين، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة[1] بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» رواه مسلم[2].

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة من طريق ابن أبي عروبة أنه قال في هذه الآية: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك، قال: وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلا للمؤمن والمنافق والكافر كمثل رهط ثلاثة دُفعوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقطع ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن هلم إلي فإني أخشى عليك، وناداه المؤمن: أن هلم إلي فإن عندي وعندي، يحصي له ما عنده، فمازال المنافق يتردد بينهما حتى أتى عليه آذيٌّ فغرَّقه[3] وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك، قال: وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ «كان يقول: مثل المنافق كمثل ثاغية بين غنمين رأت غنما على نشز[4] فأتتها فلم تعرف ثم رأت غنما على نشز فأتتها وشامَّتها فلم تعرف»[5].

وفي هذا الحديث تصوير دقيق لحال المؤمن والكافر والمنافق المتردد بين الإيمان والكفر، فقد شبه النبي ﷺ الدخول في الإسلام بالإقدام على قطع نهر يُخشى من قطعه

---

(١) أي المترددة الحائرة كما في النهاية لابن الأثير.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢١٤٦ كتاب صفات المنافقين رقم (١٧).

(٣) الآذى بالمد والتشديد الموج الشديد ويجمع على أواذي ذكره في النهاية.

(٤) النشز المرتفع من الأرض كما ذكر ابن الأثير في النهاية.

(٥) جامع البيان ٥/ ٣٣٦.

الهلاك، فالمؤمن أقدم على خوض ذلك النهر فأخذ الله بيده حتى بلغ ساحل النجاة وأصبح يعيش تحت أشعة نور الإسلام الوهاجة التي تنير له طريقه في هذه الحياة، وتكشف له عن مصيره بعد أن يغادر هذه الحياة، وأما الكافر فإنه تخوف على نفسه من قطع ذلك النهر الجارف وفضل العيش في حوالك الظلمات على اجتياز ذلك النهر الموصل إلى النور الساطع،أما المنافق فإن في أمره غموضا والْتِواءً، يُقدِّم نحو النور رجلا ويؤخر أخرى، فتجتذبه أحيانا أشعة النور الوهاج التي يستطيع أن يدركها ببصره الأعشى، ثم تعصف به حوالك الظلمات التي يخيل إليه أن فيها تحقيقا لمصالحه الدنيوية فتدفعه إلى الوراء وتذهب به بعيدا عن مصدر النور الذي كادت أشعته المضيئة أن تنتشله من الظلمات.

وواضح من هذا الحديث أن المراد بالمنافق: الذي يتردد بين الإيمان والكفر فيميل إلى الإيمان في وقت الرخاء ثم يكفر في وقت الشدة ويُخفي كفره، لأن النبي ﷺ أخبر في هذا الحديث أنه قد وقع في النهر حتى كاد أن يصل إلى المؤمن، أي أنه قد مال إلى الإيمان حتى كاد أن يكون مؤمنا، أما المنافق المصر على الكفر فهو كالكافر حيث لا يخطر الإيمان على باله ولا يقال عنه إنه كاد أن يصل إلى الإيمان لأنه لم يَمِل إليه بقلبه، وقد مضى الكلام على فريقي المنافقين في آيات البقرة، ثم بين سبحانه وتعالى أنهم قد ضلوا عن الطريق المستقيم بعد أن عرفوه وعرفوا نتائجه فزادهم الله ضلالا جزاءً لهم على اختيارهم السبل المعوجة وتركهم سبيل الهدى حيث قال تعالى ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ أي ومن يُقدِّر الله عليه الانحراف عن الطريق المستقيم لرغبته في سلوك الطرق الملتوية فلن تجد له طريقا للخلاص لأن سبيل الحق واحد فمن انحرف عنه تاه في الظلمات.

وبعد أن بين سبحانه أن موالاة الكفار من أخلاق المنافقين، نهى المؤمنين عن ذلك

صراحة حتى لا يتخلقوا بأخلاق المنافقين، فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي أتريدون أن تجعلوا» عليكم بتوليكم الكفار من دون المؤمنين حجة واضحة لاستحقاقكم العذاب يوم القيامة حيث إنكم بعملكم هذا تكونون من المنافقين وقد عرفتم ما أعده الله للمنافقين يوم القيامة من العذاب الأليم؟

ثم ذكر سبحانه ما أعده للمنافقين من العذاب الأليم تأكيدا لنهي المؤمنين عن التشبه بهم فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي في الطبقة السفلى منها كما روى ذلك ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق علي بن أبي طلحة[1] فهم أشد الناس عذابا يوم القيامة وإنما كانوا كذلك لأنهم أضافوا إلى الكفر بهذا الدين محاولتهم خداع الله وخداع المؤمنين، بإظهارهم الإيمان وإسرارهم الكفر ولِمَا يقومون به من الأعمال الهدامة ضد الإسلام والمسلمين من غير أن يشعر بهم المؤمنون.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي ولن يكون لهم في ذلك اليوم أحد يتولاهم وينصرهم فيفزعون إليه كما كانوا في الدنيا يتولون الكفار ويعتزون بهم، لأن من كانوا يتولونهم في الدنيا سيرتكسون معهم في نار جهنم.

ثم استثنى سبحانه من المنافقين في استحقاقهم العذاب الأليم الذين تابوا منهم بقوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي إلا الذين رجعوا إلى الله بعدما أبعدوا عنه وأنابوا إليه وأصلحوا ما قاموا به سابقا من الأعمال الفاسدة وتمسكوا

---

(١) جامع البيان ٥/ ٣٣٨.

بمنهج الله الذي رسمه لعباده، بحيث لا يميلون عنه قيد شعرة نحو المناهج الجاهلية وأخلصوا دينهم لله من جميع الشوائب الشركية بحيث لا يقصدون غير الله معه في العبادة، فإذا فعلوا ذلك فقد برئوا من الكفر وتحلّوا بالإيمان وأصبحوا مع المؤمنين، تشملهم جميعا الأخوة الإيمانية مهما كانت سوابقهم في الكفر فإن التوبة تمحو ما سبقها من الذنوب ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وذلك بتخليدهم في الجنة في نعيم لا يمكن تصوره في الدنيا، في مقابل تخليد المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

فليتنبه المنافقون إلى بُعْد ما بين المصيرين، مصير المؤمنين ومصير المنافقين، وليطهروا أنفسهم من رذيلة النفاق، ويلتحقوا بصفوف المؤمنين الصادقين ماداموا قد عرفوا المآل الذي سيصير إليه كل من الفريقين.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا يعذب عباده رغبة منه في تعذيبهم، وإنما يعذبهم لكفرانهم نعمته عليهم، حيث جحدوا وحدانيته ولم يطيعوا أوامره، فأما حين يفردوه بالعبادة ويطبقوا أوامره ويجتنبوا نواهيه فلا داعي إلى تعذيبهم، حيث قال تعالى ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ فليس من سنن الله العادلة التي سنها لعباده أن يعذب المطيع، وإنما مقتضى سنن الله أن يثيب المطيع وأن يعذب العاصي، وهذا هو مقتضى العدالة التي رحم الله بها عباده لأنه لا قيمة لعمل المطيع إذا لم يتميز عن العاصي بحسن المآل.

ثم تفضل سبحانه على عباده الفقراء إليه بالمنّ عليهم بشكره لهم على طاعتهم إياه فقال تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ وهذا تفضل من الله عظيم إذ أن مجرد توفيق الله عباده إلى الإيمان يعتبر منّةً كبيرة، فكيف والله سبحانه يتفضل بشكر عبده على ما قام به من طاعته، وهو عليم بما يصدر من عبده من جليل الطاعة ودقيقها، فلا يتصور المؤمن أن الله

سبحانه سيغفل عن شيء من أعماله التي يقوم بها ابتغاء مرضاة الله وإنْ دقت، وإن العبد حينما يتصور علم الله الشامل للكليات والجزئيات يُقْدم على جميع الأعمال الخيرية ولا يحتقر منها شيئا.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

في هذه الآيات يبين الله سبحانه لنا أن محبة الكفار والاستنصار بهم من أخلاق المنافقين وقد سبق الكلام على هذا الموضوع .

وفي هذه الآيات يرشد الله المؤمنين إلى تجنّب مجالس الكفار والمنافقين التي يسخرون فيها من آيات الله ويظهرون كفرهم بها، ويأمرهم بمقاطعة هذه المجالس حتى يترك أصحابها ذلك الحديث السيئ وينتقلوا إلى حديث غيره، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهم شركاء لهم في الإثم ويعتبرون منافقين إذا لم يدافعوا عن دينهم، وكالاستهزاء بآيات الله الاستهزاء برسول الله ﷺ أو بسنته، أو بالمؤمنين من أجل إيمانهم بالإسلام فإن الاستهزاء بهم من أجل الدين استهزاء بالدين نفسه، وعلى قدر المعصية التي يسكت عن إنكارها المؤمن يكون إثمه إذا كان قادرا على الإنكار أو مغادرة المجلس.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم الناس تطبيقا لهذا الحكم، فما كانوا يسكتون عن إنكار المنكرات التي يسمعونها ويشاهدونها من الكفار والمنافقين، وسيمر علينا في هذه الرسالة أمثلة رائعة لذلك.

هذا وقد ضعف المسلمون كثيرا في هذا العصر عن مواجهة الكفار والمنافقين نظرا لشدة الموجات الإلحادية التي اجتاحت العالم الإسلامي، وسرعة انتشارها لقوة إمكاناتها المادية، فأصبح المسلم يسمع كثيرا من كلمات الأذى والسخرية التي تنطلق بها حناجر الكفار والمنافقين نحو الإسلام والمسلمين على سبيل الاعتزاز والكبرياء، بلا وزن

ولا تقدير ولا مراعاة للشعور، وأصبح بعض المسلمين يتقبل تلك الكلمات بالسكوت والامتعاض من غير نكير على أصحابها، وبعضهم يسمعها ولا يتأثر بها، بل إذا كانت تلك الكلمات في انتقاد سنة ظاهرة وهو ممن لا يطبقها ينشرح صدره لكونه سلم من ألسنة المجرحين ولم تتوجه إليه سهام النقد، والقليل من المؤمنين هم الذين ينكرون تلك الكلمات ويردون إن كانوا من العلماء بالدين على أصحابها بانتقاد آرائهم وتوضيح وجهة نظر الإسلام في تلك القضايا التي يتولاها أعداؤه بالنقد والعيب.

فالذين ينكرون تلك المنكرات على أصحابها ولا يضعفون أمامهم، ويحاولون- إن كانوا من العلماء بالدين - أن يدافعوا عن الإسلام وأن يوجهوا أصحاب تلك المنكرات التوجيه الصحيح هم المؤمنون حقا.

أما الذين يسمعون تلك الكلمات الساخرة ولا يتأثرون منها إطلاقا فلا شك أنهم منافقون ولهم من الإثم مثل ما لقائليها.

وأما الذين يمتعضون عند سماع تلك الكلمات ولا ينكرون على قائليها مع قدرتهم على الإنكار أو على مغادرة المجلس فهم قد دخلوا في النفاق بسبب ذلك، وإن كانوا أقرب إلى الإيمان كثيرا من أولئك الذين لا يتأثرون من سماع المنكرات إطلاقا، إذ أن هؤلاء يرجى لهم مرة بعد مرة أن يتقوى إيمانهم بسبب ما يظهر على نفوسهم من الامتعاض والتأثر لدى سماعهم المنكرات فينتقلوا من ذلك إلى مرحلة الإنكار على أصحابها التي هي صفة أهل الإيمان.

والوسيلة التي تنقذ مثل هؤلاء من النفاق وتلحقهم بالمؤمنين الصادقين هي أن يتذكروا دائما ضعف المخلوقين أمام قوة الله تعالى وعظمته، فيجعلوا نُصب أعينهم دائما الخوف من الله ومراقبته وحده، وإرضاءه ولو سخط عليهم الناس جميعا، فإذا سلكوا هذا

المسلك قويَ بذلك إيمانهم وأصبحوا يشعرون بفخر واعتزاز بتمسكهم بالإسلام، واحتقار واستصغار لما حولهم من الجاهلية، وكلما قويَ إيمانهم بالله زاد اعتزازهم بالإسلام واحتقارهم الجاهلية.

ومن هنا نستطيع أن ندرك السبب فيما يتسم به كثير من المتمسكين بالإسلام من الضعف والانزواء، ذلك أنه عندما ينتشر الإلحاد في المجتمع ويصبح الإسلام محاربا من قبل أبنائه الذين ينتسبون إليه، يكون موقف المتمسكين به موقفا حرجا لأنهم محاربون من أبناء مجتمعهم الذين تنكروا لهذا الدين، فيتلقون كلمات النقد والسخرية في كثير من المجالس التي يحضرونها سواء من كبار الناس أو من صغارهم، لأن فكرة الهدم لا يصعب فهمها على الناس جميعا على مختلف مستوياتهم، بخلاف فكرة البناء فإنها تحتاج إلى عقول كبيرة وعواطف نبيلة، فأما المؤمنون الصادقون فإنهم لا يهونون أمام تحديات الجاهلية ولا يخضعون لمفاهيمها بل يشعرون بالتعالي عليها ويتكلمون مع أصحابها من مركز القوة، بخلاف ضعفاء الإيمان فإنهم يتضعضعون أمام ضربات المجتمع المتتالية فيحدث لهم شيء من الانكماش والانزواء، ويخاطبون الناس من مركز الضعف الذي خاور نفوسهم أمام تحدي المجتمع لهم حتى إن بعضهم ليتخلى عن تطبيق بعض التكاليف الشرعية وخصوصا ما كان منها محلا لانتقاد أعداء الإسلام، وربما تُساور بعضهم الشكوك والشبهات حول هذا الدين تأثرا بما يوجَّه إليه من النقد والسخرية، وذلك لأن إيمانهم بهذا الدين لم يكن عن تفكير واقتناع، وإنما آمنوا به لأنهم عاشوا في بيئة يعمرها الإيمان، أو نتيجة لتربية منحرفة أجبروا فيها على التمسك بهذا الدين إجبارا.

وهذه الخصلة ناتجة عن مراعاة جانب المخلوقين ومراقبتهم أكثر من مراعاة جانب الله عز وجل ومراقبته وذلك حينما يشعر الإنسان بالهيبة من أصحاب المنكرات أكثر من شعوره بالهيبة من الله فيستمر في الجلوس معهم من غير أن ينكر عليهم.

وإلى جانب هؤلاء يوجد أناس يهابون أهل الإيمان أكثر مما يهابون الله عز وجل فيراءونهم بالأعمال الصالحة، والرياء من صفات المنافقين كما هو صريح في هذه الآيات لأن فيه إظهارا لخلاف ما يبطنه العبد، حيث يُظهر أن العبادة لله وحده وهو يريد بها غيره.

وقد يكون الرياء من النفاق الأكبر وذلك فيما إذا كان أصل العمل لغير الله تعالى، وهذا لا يقع إلا من المنافقين الذين يبطنون الكفر غالبا، وقد يكون من النفاق الأصغر وذلك فيما إذا كان أصل العمل لله تعالى ثم عرض في أثنائه نية مراءاة المخلوقين، وهذا هو الذي يقع من ضعفاء الإيمان، وهذا النوع من الرياء قد تكون نية صاحبه أن يكسب سمعة حسنة لدى من يرائيه فيكسب مودته، وقد يكون قصده الحصول على ثقته به للوصول إلى هدف ماديّ أو غيره من المطالب الدنيوية.

* * *

٦- تحجر قلوبهم وعدم تأثرهم بكلام الله ورسوله

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى

لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ١٦ - ٣٢].

بيان من نزل فيه النص:

هذه الآيات نزلت في المنافقين من أهل المدينة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ[١] ولم يذكر المفسرون لها سببا معينا.

وقت نزول هذا النص:

ليس في هذه الآيات ما يعيّن وقت نزولها بالتحديد، إذ إنها لم تنزل بسبب معين، وهذه الآيات من سورة «محمد» ﷺ، ومما نزل قبل هذه السورة سورة آل عمران، ومما نزل بعدها سورة الحشر كما مضى في المقدمة، وسورة آل عمران نزلت بعد أحد أي في أواخر السنة الثالثة كما سبق، وسورة الحشر نزلت في أوائل السنة الرابعة كما سيأتي، فتكون هذه الآيات مما نزل بين ذلك على وجه التقريب.

تصوير الموقف:

هذه الآيات تصور لنا حياة فئة من الناس يعيش أفرادها في وسط الظلمات الحالكة، والنور منبعث من حولهم قد بدّد الظلمات وأضاء الطريق للسالكين.

وهم يقتربون من هذا النور ويحاولون أن يستضيئوا به كما يستضيء به الناس من حولهم فلا يملكون ذلك ولا يهتدون إليه سبيلا، فهم في حيرة من أمرهم يتعجبون من

---

(١) انظر مثلا جامع البيان ٢٦/ ٥٠، الكشاف ٣/ ٥٢٤، الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٣٨، تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٠، روح المعاني ٢٦/ ٥٠.

هؤلاء الذي يعيشون من حولهم ويتمتعون بضوء ذلك النور الذي لم يبصره هؤلاء الحيارى في يوم من الأيام، على الرغم من انبعاثه من بين ظهرانيهم وحاجتهم إليه لو أبصروه.

وهم مع ذلك ينكرون على حملة ذلك النور المستفيدين منه وينقّصون تفكيرهم أن رأوا من الظلام نورا ومن الباطل حقا ومن الضلال هدى، إلى أن أفضى بهم هذا الإنكار إلى الاستفسار من أصحاب ذلك النور عن حقيقته وكيفية الاستفادة منه، ولكنهم غفلوا عن إدراك كونهم يملكون من وسائل الاستفادة منه ما يملكه أصحابه وإنما حال بينهم وبينه حوائل كثيفة وحواجز منيعة أقاموها لأنفسهم بأنفسهم.

فهؤلاء المنافقون يحضرون مجالس النبي ﷺ التي تبدد ظلمات الجهل بنور العلم، وتزيح كابوس الشك والحيرة بروح الإيمان واليقين، ولكنهم قد اتبعوا أهواءهم فحالت بينهم وبين إدراك الهدى والاستفادة من وسائله.

وإنما يدرك الهدى من فتح له بصيرته وحرر عقله من جميع الأفكار الجاهلية، التي تغشى صفاء الفكر وتقضي على اتزان العقل، كتقليد الآباء واتباع الأكابر والخضوع لتقاليد المجتمع وشهوة المال والجاه.

بيان مفردات النص:

آنفا: قال الأزهري: استأنفت الشيء إذا ابتدأته، وفعلت الشيء آنفا أي في أول وقت يقرب مني[1].

بغتة: البغتة المفاجأة يقال: بغته يبغته بغتا أي فاجأه[2].

---

(١) النهاية، مقاييس اللغة.

(٢) النهاية، المفردات.

متقلبكم: التقلب: التحول والتنقل[1].

مثواكم: الثواء. الإقامة مع الاستقرار[2].

أولى لهم: أولى من الولي وهو القرب، يأتي للتهديد والوعيد، قال الأصمعي: معناه قاربه ما يهلكه، وقيل هي كلمة تلهف يقولها الرجل إذا أفلت من عظيمة[3]، وتأتي بمعنى أحرى وتُعدَّى بالباء نحو قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦].

سوّل: التسويل تزيين ما تحرص عليه النفس، وإظهار القبيح بصورة الحسن[4].

أملى: الإملاء هو الإمداد والإمهال، ومنه قيل للمدة الطويلة ملاوة من الدهر، وملِيّ من الدهر كما في قوله تعالى ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾[5].

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿وَمِنۡهُم﴾ أي ومن الكفار الذين سبق ذكرهم في أول هذه السورة بقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الآيات ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ﴾ أي يصغي إليك في مجالس الذكر ويظهر الاهتمام بكلامك لكونه ممن يظهر الإيمان بك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ خالية أفكارهم من فهم كلامك خاوية

---

(١) المفردات، القاموس المحيط.

(٢) المرجعان السابقان.

(٣) النهاية، مفردات الراغب.

(٤) المفردات، النهاية، القاموس.

(٥) المراجع السابقة.

قلوبهم من الاهتداء بهديك ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ من أصحابك الذين فهموا كلامك واهتدوا بهديك ﴿مَاذَا قَالَ﴾ رسول الله ﷺ ﴿ءَانِفًا﴾ قبل أن نقوم من المجلس، أي ما حقيقة هذا الكلام وما مغزاه؟ أو ما نص كلامه الذي قاله؟ ويحتمل أن الدافع لهم إلى هذا السؤال استنكارهم من عدم فهم كلام النبي ﷺ فهما يؤثر على مشاعرهم مثلما يؤثر على المؤمنين.

كما يحتمل أنهم طلبوا منهم إعادة كلامه حتى يثيروا الشبهات حوله عند ضعفاء الإيمان أو لغير ذلك من المقاصد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم عليهم فحال بينها وبين فهم ما قال الرسول ﷺ فأصبحوا يحضرون مع المؤمنين ويستمعون القرآن ولكنهم لا يفقهونه ولا يتأثرون به كما يتأثر به المؤمنون، لانشغالهم بأهوائهم وانصرافهم إلى تحقيق شهواتهم، لذلك قال سبحانه عنهم بعد ذلك ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي سعوا إلى تحقيق ما تمليه عليهم أهواؤهم فمنعهم ذلك من فهم القرآن وإدراك مزايا هذا الدين.

فالذي يهوى الشرف والرئاسة مثلا يرى في الإسلام أنه سينزع منه تلك الرئاسة ويعتبره كأي فرد من أفراد المسلمين، فيمنعه ذلك من الدخول فيه.

والذي يهوى جمع المال يرى في الإسلام أنه سيمنعه من بعض الطرق التي بها يجمع المال، ويجبره على أن يدفع من ماله للآخرين فيمنعه ذلك من الدخول فيه.

والذي يريد أن يلبي حاجات جسده الحيوانية، من شهوات البطن والفرج، يرى أن الإسلام يحدد له ما يجوز له من ذلك وما يحرم عليه فيمتنع من الدخول فيه، إلى غير ذلك من الأهواء المضلة التي تعتبر حاجزا بين صاحبها وبين إدراك الحق واتِّباعه.

ثم لما ذكر سبحانه وتعالى عقوبته لمن اتبع هواه بالختم على قلبه ذكر منَّته تعالى على من برئ من اتباع الهوى واهتدى إلى الطريق المستقيم بمنحه مزيدا من الهداية والتقوى، حيث قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ أي والذين اهتدوا إلى الإيمان بالله عز وجل زادهم ا لله معرفة بحقيقة هذا الإيمان وتفصيلا لما أُجمل وبيانا لما أشكل، وإدراكا لحقيقته وثباتا عليه ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ منحهم النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل والحساسية المرهفة التي تحميهم من الوقوع في المعاصي وتدفعهم إلى فعل الطاعات.

هذا وقد كانت الأدلة قائمة على صدق محمد ﷺ فيما يخبر به عن الله تعالى.. يعرف ذلك من تدبر القرآن حق التدبر، وتأمل أحوال الأمم الماضية والمصير الذي صاروا إليه، ويعرفه من تأمل المعجزات التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ ولكن المنافقين لم يعتبروا بشيء من ذلك، فماذا ينتظرون من الآيات حتى يتذكروا؟

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ أي ما ينتظرون للاهتداء والاعتبار إلا قيام الساعة مفاجأة حتى يتذكروا ويؤمنوا، وإن لم تأت الساعة ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ أي فقد جاءت علاماتها التي تدل على قرب قيامها ومن أبرزها بعثة النبي ﷺ كما قال عليه الصلاة والسلام «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقَرَنَ بين أصبعيه السبابة والوسطى[(١)].

ولكنهم لم يعتبروا بشيء من ذلك فهل المانع لهم من الإيمان عدم اقتناعهم بصدق ما جاء به النبي ﷺ وأنهم بحاجة إلى مزيد من الآيات الدالة على صدقه؟

هم مقتنعون بصدق ما جاء به النبي ﷺ ولكن يمنعهم من الإيمان به اتِّباعهم أهواءهم كما في الآية السابقة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة، حديث رقم (٤٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ «بعثت أنا والساعة» فتح الباري ١١/ ٣٤٧.

وإنما ذكر سبحانه التساؤل عن انتظار الساعة لبيان أنهم من الناس الذين عتت قلوبهم فلا يؤمنون حتى يفاجأوا بقيام الساعة، وحينئذ لا ينفعهم إيمانهم، ولذلك قال تعالى في ختام هذه الآية ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي كيف ينفعهم تذكرهم في ذلك الوقت ؟ كقوله تعالى بالنسبة للآخرة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي إذا علمت قرب قيام الساعة وأنت تعلم ما سيعقبها من السعادة أو الشقاوة، فاعلم أن الطريق الصحيح الذي يوصل إلى رضا الله تعالى والفوز بالسعادة هو الاعتصام بتوحيد الله واعتراف العبد بقصوره أمامه جل وعلا وافتقاره إلى مغفرته ورحمته.

وليس معنى هذا أن النبي ﷺ لا يعلم هذا الطريق الصحيح قبل نزول هذه الآية فإن دعوته قائمة على التوحيد والافتقار إلى الله جل وعلا وإنما أراد سبحانه وتعالى أن يبين هذا الطريق لهذه الأمة إلى قيام الساعة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي والله سبحانه مطلع على جميع أعمالكم من حركاتكم وسكناتكم لا يخفى عليه شيء من تصرفاتكم في الحياة الدنيا، ويعلم مصيركم في الآخرة فاحذروا من التعرض لغضبه ونقمته.

ولما ذكر سبحانه عدم اهتمامهم بالقرآن وعدم تأثرهم به، ذكر شيئا من آثار ذلك حيث ذكر كراهيتهم الجهاد وفزعهم من نزول آياته، وعدم فهمهم الحكمة منه، فقال تعالى ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي ويقول المؤمنون الصادقون من شدة شوقهم إلى كتاب الله وما يحتوي عليه من أحكام ومواعظ: هلاَّ أنزل الله علينا سورة تبين لنا أمور ديننا.. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي واضحة لا تشابُهَ فيها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرضيته والأمر به ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي علة تمنعهم من

الاستقامة كالشك في دين الإسلام وهم المنافقون ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كنظر المحتضر الذي نزل به الموت فأصبح مغشيا عليه من شدة الهول ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي قاربهم ما يهلكهم.

وقوله ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: شأنهم وظاهرهم طاعة لك أيها الرسول وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي جد الأمر وقامت الحرب وجاء دور التنفيذ نكصوا على أعقابهم ولم يفوا بعهدهم ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فنفذوا ما وَعَدُوا به من الطاعة وما أظهروه من القول المعروف ﴿لَكَانَ﴾ الصدق في ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من العصيان والنكول عن أداء الواجب.

وقيل إن قوله ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: طاعة وقول معروف خير لهم أو أمثل، ذكره الألوسي ونسبه إلى مجاهد، قال وهو مذهب سيبويه والخليل[1] وقيل إن قوله ﴿طَاعَةٌ﴾ مرتبط بقوله﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي أولى لهم طاعة وقول معروف، وبهذا قال ابن كثير[2] وهذان القولان لا يتناسبان مع قوله تعالى بعد ذلك ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لأن هذه الجملة مترتبة على قوله ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ على اعتبار أن هذه الجملة وصف لحال المنافقين في وقت الأمن والرخاء، وقوله ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ وصف لحالهم في وقت الشدة، وعلى التفسيرين السابقين لا يكون قوله ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وصفا لحالهم وقت الرخاء وإنما يكون وعظًا لهم وتذكيرًا

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ٦٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٩١.

بالطاعة وقول المعروف.ومما يؤيد انقطاع الآيتين في المعنى ما أخرجه ابن جرير من طريق معمر عن قتادة قال: هذه وعيد ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ثم انقطع الكلام فقال﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾[1].

ثم لما كانوا يعتقدون بأن في فرضية الجهاد في سبيل الله إفسادًا في الأرض وقطيعة للرحم، بيّن الله سبحانه وتعالى أن إعراضهم عن الإسلام الذي يأمرهم بالجهاد في سبيل الله هو عين الإفساد وقطيعة الرحم، حيث قال تعالى ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي فهل يرجى منكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن الطاعة والجهاد في سبيل الله الذي به تقوم دولة الإسلام إلا ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأنواع الفساد التي تنتج عن حكم الجاهلية وسيادة مناهجها ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ وذلك بسفك دمائكم فيما بينكم كما كنتم في أيام الجاهلية حينما كان بأسكم بينكم شديدًا؟ هذا هو ما يرجى منكم وما يتوقعه كل ناظر لحالكم الأولى في الجاهلية، فإذا لم تجاهدوا في سبيل هذا الدين الذي أنقذكم من تلكم الحال المخزية، حيث جمع شملكم ووحد هدفكم فستعودون إلى الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام.

وقيل إن المراد بالتولي في الآية تولي أمور الناس والحكم فيها، وبهذا قال الزمخشري[2] والقول الأول قال به الطبري[3] وهو أرجح لأنه هو المناسب لسياق الآيات، لأن الآية السابقة قد تحدثت عن الجهاد في سبيل الله، فالمناسب أن يفسر التولي في هذه الآية بالإعراض عن الجهاد في سبيل الله وعن الإسلام الذي شرعه.

---

(١) جامع البيان ٢٦/ ٥٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٦.

(٣) جامع البيان ٢٦/ ٥٦.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المخاطبون في الآية السابقة من المنافقين هم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته وعنايته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن سماع الآيات ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن مشاهدتها حتى أصبحوا لا يستفيدون من آيات الهدى لا المسموعة ولا المشاهدة وذلك عقوبة لهم على إعراضهم عن سبيل الحق بعدما تبين لهم.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أيعرضون عن الإيمان فلا يتدبرون القرآن ويتأملونه حق التأمل ليدركوا أنه منزل من عند الله عز وجل، وأن ما يدعو إليه هو الحق، وما هم عليه هو الضلال؟

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي بل أعَلَى قلوبهم أقفال فهي مغلقة فلا يصل إليها الذكر ولا يتأثرون بسماع القرآن؟

ثم بين سبحانه وتعالى أن هؤلاء المنافقين لم يكفروا عن جهل وإنما ارتدوا عن الإيمان بعدما تبين لهم طريق الهدى حيث قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي رجعوا إلى الوراء حيث عادوا إلى الكفر الذي تركوه وراء ظهورهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بعد ما فهموا الإسلام وعرفوا أنه دين الحق والرشاد ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم ما يحرصون عليه وتتمناه نفوسهم، وأظهره لهم بصورة الحسن ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي مد لهم في الأماني والآمال في الحياة الدنيا حتى شغلهم بذلك عن الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي ذلك الارتداد منهم عن الإسلام بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله على رسوله من اليهود المظهرين الكفر الذين كانت تربطهم بالمنافقين روابط وثيقة ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي سننفذ بعض ما تطلبون منا تنفيذه من التخلف عن الجهاد والكيد للإسلام والمسلمين، وبهذا

تبين أن السبب في كفرهم بعد الإيمان هو ممالأتهم الكفار ضد المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ أي عالم بجميع تصرفاتهم، فلن ينفعهم مكرهم وخداعهم، ولا إخفاؤهم ممالأة اليهود عنكم.

وبعد أن كشفهم الله سبحانه وتعالى وبين كفرهم ذكر صورة من صور العقوبة العنيفة التي أعدها الله لهم، إن استمروا على تلك الحال، حيث قال تعالى ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أي إذا كانوا يستطيعون الخروج من مآزق الحياة بمختلف أنواع الحيل والمكر فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة، حال كونهم يضربونهم من أمامهم ومن خلفهم؟

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي ذلك المشهد العنيف من تعذيب الملائكة إياهم حال قبضهم أرواحهم بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله عليهم، من الكفر والمعاصي التي منها ممالأتهم الكفار ضد المؤمنين، وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التي عملوها قبل ارتدادهم عن الإسلام.

ولما كان أولئك المنافقون يكيدون للمؤمنين بالخفاء ويحاولون بكل جهدهم إخفاء تدابيرهم ومخططاتهم عنهم حتى يتم لهم ما أرادوا من القضاء عليهم، ذكر الله سبحانه ما يقطع آمالهم ويبعثهم على اليأس من نجاح مخططاتهم حيث قال تعالى ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ أي أيظن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض من المنافقين أن لن يبرز الله ما في قلوبهم من الأحقاد والعداوة للمؤمنين، ويكشفها لهم حتى يحذروا منهم؟ هذا مما لا يمكن أن يتصوره مؤمن يدرك حقيقة معية الله

للمؤمنين،أما المنافقون فإنهم لا يدركون أنهم إذا حاربوا المؤمنين فقد حاربوا الله، وأن الله مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي إننا كشفنا لك يا رسول الله ما يكنه أولئك المنافقون لك ولدعوتك من العداوة والأحقاد ولو نشاء كشفهم بأعيانهم لأعلمناك بهم بعلامتهم التي نَسِمُهم بها، ولكن اقتضت حكمتنا أن لا نكشفهم لك عيانا لعلهم يتوبون قبل أن يفتضح أمرهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي فلا حاجة إلى تعريفك بهم بأعيانهم فإنك ستعرفهم بما يصدر عنهم من القول، الذي لا يمكن أن يتفوه به مؤمن سواء في القول الذي يظهر منه الكفر مثل قولهم ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ وقولهم ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أو في القول الذي يتظاهرون به بالإيمان وتأييد النبي ﷺ إذ أن كلام النفاق يظهر على وجه صاحبه وعلى لسانه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي إن علم الله تعالى محيط بجميع تصرفاتكم فيعلم المخلص منكم في إيمانه وأعماله من المنافق، فلا تظنوا أن شيئا من أعمالكم سيخفى على الله عز وجل.

ولما كان علم الله تعالى للمخلصين من عباده والمنافقين منهم تقتصر آثاره على الجزاء الأخرويّ قدر سبحانه وتعالى المحن التي تكشف المؤمنين الصادقين من المنافقين، وفي هذا يقول سبحانه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ولنمتحننكم بتكليفكم بجهاد الأعداء، لأن الجهاد هو أشق التكاليف الشرعية حتى يظهر المؤمنون الصادقون المجاهدون في سبيل الله الصابرون على مشاق القتال، ويظهر

المنافقون وضعفاء الإيمان الذين يتضجرون من الجهاد ويتهربون من تنفيذه، والمراد بالأخبار في قوله ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبَر به ويحكى عنه من أعمال المؤمنين[1] أي ونمتحنكم بالتكاليف الشاقة كالجهاد في سبيل الله ليظهر صدق ما ينسب إليكم من الأعمال الصالحة وكذبه وزيفه، فالناس يثنون على صاحب العمل الصالح ويتحدثون به عنه ولايعلمون هل هو مخلص في عمله أو منافق ولكن حينما يكلف صاحب هذا العمل الصالح بتكليف شاق فيتضجر منه وينكل عن أدائه يتبين للناس حينئذ أن عمله الصالح السابق لم يكن خالصا لوجه الله، كما يتبين صدقه من كذبه فيما يأخذه على نفسه من العهد بالتزام التكاليف الشرعية كالجهاد في سبيل الله.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾.

وهذه الآية عامة في الكفار جميعا ويدخل فيها المنافقون، المعنى: إن الذين كفروا بالله وحاولوا تضليل الناس عن دينه الهادي إليه، وخالفوا رسوله ﷺ وعادَوه من بعدما تبين لهم أن ما يدعوهم إليه هو الهدى لن يستطيعوا القضاء على دين الله، ولا إلحاق أي ضرر بأوليائه الذين يدعون إلى دينه، وسيحبط الله مساعيهم ويبطل مكائدهم التي يحاولون بها القضاء على دين الله وأوليائه المؤمنين، لأن الله سبحانه الذي أرسل رسوله وأنزل كتابه لابد أن يعلي كلمته وأن يعز جنده ولو كره الكافرون.

* * *

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٨.

٧- خيانتهم الأمانة الكبرى

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٢-٧٣].

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات من سورة «الأحزاب» ومما نزل بعد هذه السورة سورة «الحشر» كما سبق في المقدمة، وسورة «الحشر» نزلت في أوائل السنة الرابعة كما سيأتي، فهذا مما يدل على أن هذه الآيات مما نزل قبل ذلك، ولم يذكر المفسرون سببا لنزول هذه الآيات.

بيان النص:

قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا.

بعد أن وجه الله عباده المؤمنين إلى الطريق المستقيم وبين لهم عاقبته الرضية في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا﴾[الأحزاب: ٧٠ - ٧١] بين سبحانه لعباده ثقل هذه الأمانة وعاقبة التهاون بها في هذه الآيات، والمراد بالأمانة هنا الفرائض التي افترضها الله على عباده[1] وقد اختلف في كيفية عرضها على السماوات

---

(١) جامع البيان ٢٢/ ٥٤.

والأرض والجبال فقيل إنه عرض حقيقي، وقد أخرج ابن جرير في ذلك من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾: إنْ أدّوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وهو قوله ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ غرًا بأمر الله[(١)].

وأخرجه الترمذي الحكيم بسنده عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

ومما يؤيد هذه الرواية ما أخرجه ابن جرير قال: حدثنا ابن بشار قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية ﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ قال: عُرضت على آدم فقال: خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك وإن عصيت عذبتك، قال: قد قبلت، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل حتى أصاب الخطيئة[(٣)] ورجال هذا الإسناد ثقات. وأخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين.. وأقره الذهبي[(٤)].

وقيل إن الآية على سبيل التمثيل أي لو فُرض أن تلك الأجرام العظيمة التي هي مَثَلٌ في القوة والشدة كُلِّفت مراعاة الأمانة وكانت ذات شعور وإدراك لأبين قبولها وأشفقن منها، ولكن صُرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق رومًا لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه[(٥)].

---

(١) جامع البيان ٢٢/ ٥٤، وهذا إسناد صحيح كما سبق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٥٣.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤.

(٤) المستدرك ٢/ ٤٢٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٧٦، أنوار التنزيل ٢/ ١٢١، إرشاد العقل السليم ٤/ ٤٣٧.

والمقصود من الآية بيان عظمة الأمانة وثقلها، وسواء حملنا العرض في الآية على الحقيقة، أم اعتبرناه على سبيل المثال فإن ما تهدف إليه الآية من بيان ثقل الأمانة واضح على كلا التفسيرين.

وقوله تعالى ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ متعلق بقوله ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي فحملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراده، وهم المنافقون والمنافقات الذين أظهروا استعدادهم للوفاء بهذه الأمانة وهم كاذبون في ذلك، والمشركون والمشركات الذين جهروا بعدم استعدادهم للوفاء بهذه الأمانة.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي يتجاوز عن سيئاتهم لأنهم أدوا الأمانة التي تحملوها، واللام في الآية لام العاقبة، أي أن نتيجة تحمل الإنسان للأمانة هي أن يعذب الله بعض أفراده لخيانتهم الأمانة، وأن يرحم بعض أفراده ويتجاوز عنهم لأدائهم إياها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ ساترا على عباده المؤمنين فلا يفضحهم بذنوبهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث أثابهم على الامتثال والطاعة.

* * *

٨- مشهد من مشاهد عقوبة المنافقين في الآخرة

النص القرآني في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الحديد: ١٢- ١٥].

بيان من نزل فيه النص:

من الواضح أن هذه الآيات قد نزلت في المنافقين، وهي لم تنزل بسبب قوم معينين بل نزلت في المنافقين جميعا، بيانا لمشهد من مشاهد عذابهم يوم القيامة.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات من سورة «الحديد» ومما نزل بعدها سورة «الحشر» كما في رواية ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنهما التي سبقت في المقدمة، وسورة «الحشر» نزلت في أوائل السنة الرابعة كما سيأتي، فهذا مما يدل على أن هذه الآيات مما نزل قبل ذلك، وليس فيها ما يبين وقت نزولها بالتحديد.

بيان النص:

قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في قوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وله أجر كريم في ذلك اليوم الذي ترى فيه المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وقد اختلف المفسرون في المراد بالنور في الآية، فقيل: إن المراد بالنور الذي بين أيديهم هُداهم والذي بأيمانهم كتبهم وبذلك قال الطبري، واستدل على ذلك بأنه لو كان المراد بالنور الضياء لم يُخَصَّ بكونه أمامهم وبأيمانهم دون شمائلهم، لأن ضياء المؤمنين الذي يؤتونه في الآخرة يضيء لهم جميع ما حولهم[1].

وقيل: إنه نور حقيقي يضيء للمؤمنين يوم القيامة على قدر أعمالهم وبذلك قال الجمهور، وهو الراجح لما أخرجه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نورا فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ: انظرونا نقتبس من نوركم فإنا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور»[2]، وهذا خبر ضعيف ولكن يؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم قال: حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك حدثنا صفوان بن عمرو حدثني سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات وتوشكون

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/ ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق ٢٧/ ٢٢٤.

أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا -يشير إلى القبر- بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود، وبيت الضيق إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيض وجوه وتَسْوَدُّ وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يُقسَم النور فيعطى المؤمن نورا، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئا، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور: ٤٠] فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قُسم فيه النور فلا يجدون شيئا فينصرفون إليهم وقد ضُرب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾، يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغترا حتى يُقسَم النور، ويميز الله بين المنافق والمؤمن"[1].

ومما يؤيد ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ في حديث الورود يوم القيامة وفيه «ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نورا ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ثم يُطفأ نور المنافقين»[2].

ومما يدل على ذلك أيضا قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة (ص ١٧٧ – ١٧٨).

نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التحريم:٨] والآخرة ليس فيها ضلال حتى يسأل المؤمنون ربهم أن يتم لهم هداهم، وإنما تُجنى فيها ثمرة أعمال الهدى والضلال التي عملت في الدنيا لأنها هي دار التكليف، كما أن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ظاهر في أن المراد بالنور الضوء الحقيقي، إذ أن هدى المؤمنين لا ينفع المنافقين في الآخرة.

أما ما ذكر من كون النور الإيماني دون الشمائل مع أن الضوء الذي يعطاه المؤمنون شامل لجميع الجهات، فقد أجيب عن ذلك: بأن مصدر النور بأيمانهم والذي أمامهم هو الضوء المنبسط من ذلك، ذكره أبو حيان ونسبه إلى الجمهور ثم قال: وقيل الباء بمعنى عن أي وعن أيمانهم، والمعنى في جميع جهاتهم وذكر الأيمان لشرفها(١) .

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي يقال لهم في ذلك الموطن ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الظفر بالنور في تلك الظلمات وبدخول الجنة والخلود فيها هو الفلاح والنجاح الذي لا مثيل له.

وبعد أن بين سبحانه ما أعده لعباده المؤمنين في الآخرة من النور الذي يضيء لهم طريقهم جزاء ما قدموه من الإيمان والعمل الصالح، ذكر سبحانه حرمانه المنافقين من ذلك النور عقابا لهم على كفرهم بالله تعالى بعد ما تبين لهم الهدى، حيث قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي في ذلك اليوم الذي يضيء فيه النور للمؤمنين يقول المنافقون وهم في الظلمات انتظرونا

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٠.

وأمهلونا حتى نلحق بكم فنستضيء بشيء من نوركم ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي قال لهم المؤمنون ارجعوا وراءكم حيث فقدتم النور فاطلبوا النور هناك، كما يستفاد من رواية العوفي السابقة عن ابن عباس رضي الله عنهما وذلك على سبيل التهكم بهم.

ويحتمل أن يكون القول صادرا من الملائكة، وبذلك قال مقاتل كما ذكر الألوسي[1] وما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أقرب إلى سياق الآيات لأن هذه الآية والآية التي بعدها تشتملان على الحوار بين المؤمنين والمنافقين.

قال تعالى ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي فوضع بينهم حائط يحجز بعضهم عن بعض، وذلك عندما يريد المنافقون أن يلحقوا بالمؤمنين، وأن يُظهروا تبعيتهم لهم كما كانوا يتظاهرون بذلك في الدنيا، وقد أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال: السور حائط بين الجنة والنار[2] وأخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: كالحجاب في الأعراف[3] يشير إلى ما ذكر في قوله تعالى ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾[الأعراف: ٤٦] وذلك بعد قوله تعالى ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ٤٤].

وقيل إن المراد بالسور في الآية: السور الذي ببيت المقدس عند وادي جهنم، وقد

---

(١) جامع البيان ٢٧/ ٢٢٥.

(٢) جامع البيان ٢٧/ ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق ٢٧/ ٢٢٥.

روى ذلك ابن جرير عن ابن عباس وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص ﭬ[1] وقد حمل ذلك ابن كثير ﭫ على أنه قد صدر منهم على سبيل التمثيل لتقريب المعنى لا أنهم أرادوا أن الجدار الذي في بيت المقدس هو نفس السور المذكور في الآية[2].

وهذا حمل جيد فالصواب أن المراد به: سور يضعه الله سبحانه يوم القيامة بين الجنة والنار، يحجز بين المؤمنين والكافرين، وهذا ما يدل عليه قوله ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ أي النعيم في الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي من جهته العذاب في نار جهنم.

ثم قال تعالى مصورا ما يساورهم من الكرب والغم، وما يملأ قلوبهم من الحسرة والندم على ذلك المصير الذي صاروا إليه ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾، أي ينادي المنافقون المؤمنين حينما حُجز بينهم بالسور قائلين: ألم نكن معكم في الدنيا، نؤدي فرائض الإسلام كما تؤدونها وتعاملوننا معاملة المؤمنين؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي كنتم معنا كذلك ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي صرفتموها بالنفاق عن إدراك حقيقة ما يدعو إليه الإسلام والإيمان به.

﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ أي انتظرتم هلاك المؤمنين وزوال الإسلام وغلبة الكفر، حتى تُظهروا كفركم بالله ورسوله ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي شككتم في صدق ما يدعوكم الإسلام إلى الإيمان به، من أمور الآخرة وغيرها.

﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ أي خدعتكم أمانيّ نفوسكم وأحلامها الكاذبة، التي كانت تستشرف من وراء تلك الأحداث الجسام التي مرت على المؤمنين هلاكهم وتتطلع إلى

(١) المصدر السابق ٢٧/ ٢٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٠.

زوال الإسلام وعودة الجاهلية، فصدتكم تلك الأماني وغيرها من الأمانيّ الخادعة عن التفكير فيما يدعو إليه الإسلام، وعن الاعتبار بما ترونه من معجزات النبي ﷺ.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي حتى نزل بكم الموت، وذلك لأنهم بعد الموت يدركون أن ما كانوا عليه في الدنيا هو الباطل لما يعاينونه من عذاب القبر.

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الغرور هو الشيطان، كما قال مجاهد وقتادة[1] أي خدعكم بالله الشيطان بما زينه لكم من عفوه ورحمته، وما أنساكم إياه من عذابه وشدة انتقامه.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ أي عوض تدفعونه للتخلص من عذاب الله ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فلا تقبل منهم الفدية أيضا ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾ أي مثواكم ومسكنكم يوم القيامة ﴿ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هي ناصركم إن كانت تستطيع نصركم وذلك على سبيل السخرية بهم، كما في قوله تعالى ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾[2] [الكهف: ٢٩]، وقيل المعنى: النار أولى بكم من أي منزل آخر تأوون إليه، وبهذا قال الطبري[3] فعلى هذا يكون القول على الحقيقة، ولكن القول الأول أقرب إلى معنى هذه الكلمة.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئست النار مرجعا ومآلا.

* * *

---

(١) جامع البيان ٢٧/ ٢٢٧.

(٢) روح المعاني ٢٧/ ١٧٨.

(٣) جامع البيان ٢٧/ ٢٢٨.

٩- موقف المنافقين من إجلاء بني النضير

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الحشر: ١١ - ١٧].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾: عبد الله بن أبيّ ابن سلول، ورفاعة بن التابوت، وعبد الله بن نبتل، وأوس بن قيظي[1].

٢- وأخرج ابن هشام عن ابن إسحاق قال:وكان رهط من عوف بن الخزرج- منهم

---

(١) جامع البيان ٢٨/ ٤٦.

عدو الله عبد الله بن أبيّ ابن سلول،ووديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس،قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنَّعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم"[١].

والذي يؤخذ من مجموع الروايتين أن هذه الآيات نزلت في رهط من المنافقين منهم عبد الله بن أبيّ، ورفاعة بن التابوت، وعبد الله بن نبتل، وأوس بن قيظي، ووديعة ومالك ابن أبي قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير يحرضونهم على قتال المؤمنين ويَعدونهم بالنصر.

وقت نزول هذا النص:

تبين لنا مما سبق أن هذه الآيات نزلت في إجلاء بني النضير، وقد اختلف المؤرخون في تحديد وقت إجلائهم هل كان قبل أحد أم بعدها؟

فقيل إنها كانت على رأس ستة أشهر من بدر قبل أحد، وبهذا قال عروة بن الزبير واختاره البخاري[٢] وذكر ابن إسحاق أنه كان في سنة أربع وقد حدده ابن هشام بأنه في شهر ربيع من تلك السنة[٣].

ومما يؤيد قول ابن إسحاق أن سبب إجلاء بني النضير، كان محاولتهم الغدر بالنبي ﷺ حينما جاءهم يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية ليثأر بهما من شهداء بئر معونة كما سيأتي في تصوير الموقف وقد كانت حادثة بئر معونة بعد أحد بالاتفاق[٤] فتكون هذه الآيات قد نزلت في أوائل السنة الرابعة للهجرة.

---

(١) السيرة النبوية ٣/ ٢٢١.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب (حديث بني النضير – فتح الباري ٧/ ٣٢٩).

(٣) السيرة النبوية ٣/ ٢١٩ – ٢٢١.

(٤) السيرة النبوية ٣/ ٢١٢، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع (فتح الباري ٧/ ٣٧٨).

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

تبين لنا في بيان من نزل فيه النص أن هذه الآيات نزلت في رهط من المنافقين قد أعطوا يهود بني النضير وعدًا بنصرهم إياهم إن قوتلوا، والخروج معهم إن أُخرجوا، ولكنهم لم يفوا بوعدهم إياهم، وكان من خبر بني النضير فيما أخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق وفيما أخرجه الواقدي في مغازيه أن النبي ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري[1] فقالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، وقعد النبي ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم،فتآمروا على قتله بإلقاء صخرة عليه، وانتُدِب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فأتى رسولَ الله ﷺ الخبر من السماء بما أرادوا، فرجع إلى المدينة ولحق به أصحابه لما استبطأوه.

ثم أرسل إليهم النبي ﷺ يأمرهم بالجلاء، فوافق على ذلك بعض عقلائهم ومنهم سلام بن مشكم، وأبى زعيمهم حُيَيّ بن أخطب، وبينما هم على ذلك إذ جاءهم سويد وداعس فقالا: يقول عبد الله بن أبيّ: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وتمدكم قريظة فإنهم لن يخذلوكم، ويمدكم حلفاؤكم من غطفان.

وأرسل ابن أبيّ إلى كعب بن أسد زعيم قريظة يكلمه في أن يمد أصحابه، فقال: لا ينقض من بني قريظة رجل واحد العهد. فيئس ابن أبيّ من قريظة وأراد أن يلحم الأمر فيما بين بني النضير ورسول الله ﷺ، فلم يزل يرسل إلى حيي بن أخطب حتى عزم على

---

(١) وهما من بني عامر وكان معهما عقد من رسول الله ﷺ وجوار، ولم يعلم به عمرو بن أمية، وإنما قتلهما ليثأر لقتل المسلمين في بئر معونة الذين قتلوا على يد أولئك القوم (سيرة ابن هشام ٣/ ٢١٥).

عدم الجلاء، وقد حاول سلام مشكم أن يثنيه عن عزمه فأبى إلا القتال، وانخدع بوعد ابن أبيّ، وأرسل أخاه جُدَي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ يقول له: إنا لا نبرح من دارنا فاصنع ما أنت صانع، وأمره أن يأتي ابن أبيّ فيخبره برسالته إلى محمد، ويأمره بتعجيل ما وعد من النصر، فجاء جُدَي إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه فأخبره بما قال له أخوه، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: حاربت يهود، وكبر المسلمون لتكبيره، فذهب جدي إلى عبد الله بن أبيّ فلم يجد عنده شيئا، ورأى ابنه عبد الله رضي الله عنه يلبس السلاح ليخرج مع النبي ﷺ وأبوه جالس لم يصنع شيئا فيئس من نصره.

ثم خرج إليهم النبي ﷺ بالكتائب وحاصرهم في حصونهم إلى أن نزلوا على حكمه على أن يجلوا عن ديارهم، ولا يأخذوا معهم إلا ما حملت الإبل ماعدا السلاح، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام[1].

وهكذا أوقع الله باليهود فخسروا أموالهم وديارهم بسبب غدرهم واعتمادهم على وعود المنافقين الكاذبة، وما كان المنافقون يريدون لهم هذه النتيجة وإنما كانوا يريدون إلحاق الضرر بالمؤمنين، فرد الله كيدهم في نحورهم ونصر رسوله والمؤمنين.

بيان مفردات النص:

رهبة: الرهبة المخافة مع التحرز والاضطراب[2].

بأسهم: البأس الشدة في الحرب، والنكاية بالعدو[3].

وبال: الوبال الشدة والثقل، ولمراعاة الثقل قيل للأمر الذي يخاف ضرره وبال[4].

---

(١) السيرة النبوية ٣/ ٢١٩ – ٢٢١، مغازي الواقدي ١/ ٣٦٨ – ٣٧٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن، القاموس المحيط.

(٣) نفس المصدرين السابقين.

(٤) المفردات في غريب القرآن، القاموس المحيط، مقاييس اللغة.

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للإنكار، ولم للنفي ونفي النفي إثبات، فالمعنى قد رأيت يا رسول الله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وهم عبد الله بن أبيّ ومن تبعه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ الذين اتفقوا معهم في تكذيب النبي ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النضير ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي والله لئن أخرجكم المسلمون من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ من ديارنا فنصاحبكم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي في خذلانكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ ممن يعذلنا في أمر نصرتكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ من قبل المسلمين ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ فلنقاتلن معكم، فاعجبْ يا رسول الله لأمرهم، كيف يصدرون هذه الوعود المؤكدة بالأيمان وهم لا يريدون الوفاء بها ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ يعلم باطن أمرهم حال إصدارهم هذه الوعود ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيها حيث لا يريدون الوفاء بها.

ثم أكد سبحانه كذبهم ببيان حقيقة ما يضمرونه في قلوبهم، مما يخالف ما تفوهوا به من الوعود السابقة فقال تعالى ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي لئن أُخرج اليهود من المدينة لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قوتلوا لا يقاتلون معهم، فوعْدُهم إياهم بالنصر وعدٌ كاذب لا حقيقة له ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي ولو فُرض أنهم هبُّوا لنصرتهم ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمين، لأنهم لا يستطيعون أن يثبتوا أمام المؤمنين ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ بل يهلكهم الله تعالى جميعا، ولا ينفع المنافقين حينئذ نفاقهم لظهور كفرهم.

ثم بين سبحانه السبب في عدم انتصارهم بقوله ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم﴾

أي أنّ ما يشعرون به من الخوف منكم في باطن أمرهم أكثر مما يشعرون به من خوف الله، ولذلك أصبحوا أمامكم جبناء، لا يستطيعون لقاءكم بل يتقون بأسكم، بينما لا يتقون عذاب الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي ذلك الخوف الشديد منكم الذي هو أشد من خوفهم من الله بسبب أنهم قوم لا يدركون عظمة الله عز وجل فلا يقدرونه حق قدره،أما المنافقون فلأنهم لا يؤمنون به حقا،وأما اليهود فلأن إيمانهم بالله قد ضعف جدا، حتى أصبحوا جريئين على ارتكاب المعاصي، وعلى تغيير شرع الله، فانتزعت من قلوبهم مهابة الله عز وجل والشعور برقابته عليهم،ومتى تضاءلت في قلب المؤمن مهابة الله حلت محلها مهابة الناس،وكلما عمر القلب بالخوف من الله انتزع منه الخوف من الناس.

ثم بين سبحانه النتائج المترتبة على رهبتهم الشديدة من المؤمنين بقوله ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾.

أي لا يقاتلكم اليهود والمنافقون مجتمعين إلا في قرى محصنة بأنواع التحصين التي تمنع وصول المقاتلين إليها، أو من وراء جدر تقيهم حر السلاح، وذلك لفرط رهبتهم منكم وشدة حرصهم على استيفاء الحياة، كما قال تعالى في وصف اليهود ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ٩٦].

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي حرب بعضهم لبعض شديدة فلا يغرنكم اجتماعهم على حربكم.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي تحسبهم في الظاهر مجتمعين على كلمة واحدة وقلوبهم في الحقيقة متفرقة مختلفة الاتجاه، وهذا هو شأن الكفار جميعا فلا يمكن أن

يتحدوا اتحادا كاملا لانعدام الهدف الواحد الذي يمكن أن يجمع بينهم، فكل فريق منهم يسعى لمصلحته، ولو أضر بمصلحة الفريق الآخر، بخلاف المؤمنين فإن لهم هدفا أعلى يخدمونه جميعا وهو إعلاء كلمة الله جل وعلا، وخدمة هذا الهدف لا تفضي إلى التناحر والاختلاف، بل تستلزم التآلف والوفاق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك الاختلاف الشديد بين قلوبهم بسبب أنهم قوم لا يدركون الرابطة الوحيدة التي يمكن أن تربط بين قلوب البشر وهي الإيمان بالله تعالى إيمانا حقا، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته.

ثم ضرب الله سبحانه المثل لهؤلاء اليهود الذين نقضوا العهد، بمن سبقهم إلى ذلك من يهود المدينة فلم يعتبروا بما أصابهم بسبب ذلك حيث قال تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والذين من قبلهم هم بنو قينقاع، وبهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما كما أخرجه ابن جرير عنه من طريق ابن إسحاق[1] وقيل هم كفار مكة، وبهذا قال مجاهد كما أخرج ذلك عنه ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح[2].

والآية منطبقة عليهم جميعا، لأن الكل ذاقوا وبال أمرهم إما بالجلاء أو بالهزيمة، ولكن انطباقها على يهود بني قينقاع أظهر لأن وجه الشبه بينهم وبين بني النضير يتمثل في نواحي عديدة، كالغدر ونقض العهد بخلاف كفار مكة.

المعنى: مثل هؤلاء اليهود في نقضهم العهد ومحاربتهم الله ورسوله كمثل اليهود الذين نقضوا العهد من قبلهم قريبا، وهم يهود بني قينقاع، فنالوا العقوبة الشديدة جزاء غدرهم ونقضهم العهد، حيث أجلاهم النبي ﷺ عن أوطانهم ولهم في الآخرة عذاب موجع

---

(١) جامع البيان ٢٨/ ٤٨.

(٢) المرجع السابق ٢٨/ ٤٨.

وهو عذاب النار جزاء كفرهم بدين الله ومحاربتهم رسوله والمؤمنين، وسينال هؤلاء اليهود من بني النضير من العقوبة ما نال سلفهم من بني قينقاع.

ثم ضرب الله سبحانه المثل لتغرير المنافقين باليهود، وانخداع اليهود بهم بقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المراد بالإنسان: جنس الناس، وبهذا قال مجاهد كما أخرجه عنه ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح[1].

وذكر ابن جرير القول بأن المراد بالآية: إنسان بعينه وذكر أثر علي ﷺ عن الإسرائيلي الذي خدعه الشيطان، حتى أوقعه في عدة جرائم، وذكر الآية في قصته[2] ولكن ذكره إياها من باب الاستشهاد به، لا أن هذه القصة هي المرادة بالآية كما قال ابن كثير: «وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها»[3].

وما ذكره بعض المفسرين من أن المراد استغواء الشيطان كفار مكة يوم بدر، هو مما يدخل في معنى الآية أيضاً.

المعنى: مثل هؤلاء المنافقين في تغريرهم حينما وعدوهم بالنصر ثم خذلوهم لما حان وقت الوفاء بالوعد، كمثل الشيطان في تغريره بالإنسان حيث زين له المعاصي وكرّه إليه الطاعات، حتى أوقعه في الكفر بالله فلما حُمَّ القضاء وحان وقت العقوبة تبرأ منه وأظهر خوفه مما كان يهوّن من أمره سابقا ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ

---

(١) جامع البيان ٢٨/ ٥١.

(٢) جامع البيان ٢٨/ ٤٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٢.

جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فكان عاقبة الشيطان ومن استطاع أن يوقعهم في حبائله من بني آدم الخلود في نار جهنم، وذلك هو جزاء الظالمين جميعا، الذين يظلمون الناس بصدهم عن سبيل الله والذي ظلموا أنفسهم فوقعوا في حبائل هؤلاء الشياطين.

* * *

١٠- تثاقل المنافقين عن الجهاد في سبيل الله وتسرعهم في إشاعة أخبار الحرب

النص القرآني:

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ

ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٧١ – ٨٤].

بيان من نزل فيه النص :

١- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ إلى قوله ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال: مابين ذلك في المنافقين[(١)].

٢- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة في قوله ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ قال: هذا قول مكذب[(٢)].

ويؤخذ من هاتين الروايتين أن قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الآيتين قد نزل

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٦٦.

(٢) المرجع السابق ٥/ ١٦٦.

في المنافقين، وبهذا قال جمهور المفسرين[١].

٣- قال ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال سمعت أبي قال أخبرنا الحسين بن واقد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس: «أن عبد الرحمن ابن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ! فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا، فلما حوّله الله إلى المدينة أمر بالقتال فكفوا، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية[٢] وأخرج هذه الرواية النسائي بسند ابن جرير كما أخرجها الحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وأقره الذهبي»[٣].

ويؤخذ من هذه الرواية أن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية قد نزل في جماعة من أصحاب النبي ﷺ آمنوا به قبل أن يفرض الجهاد، فطلبوا منه أن يأذن لهم به ليدافعوا عن أنفسهم فأُمروا بالكف عن القتال، فلما فُرض عليهم ضعف بعضهم وكفوا عن القتال.

وظاهر هذه الرواية أن الذين طلبوا الإذن في القتال وهم عبد الرحمن بن عوف وأصحابه هم الذين كفوا عنه بعد ما أمروا به، وهذا يتنافى مع فضيلة هؤلاء الصحابة وما اشتهر عنهم من التسابق إلى الجهاد في سبيل الله، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لم يتخلف عن غزوة غزاها النبي ﷺ، ولهذا ضعّف هذه الرواية بعضهم فقال القاسمي: إن في

(١) جامع البيان ٥/ ٦٥، الكشاف ١/ ٥٤١، الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٧٥، تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٧، إرشاد العقل السليم ١/ ٧٣٣، فتح القدير ١/ ٣٨٦، روح المعاني ٥/ ٨٠.

(٢) جامع البيان ٥/ ١٧٠.

(٣) سنن النسائي، كتاب الجهاد ٦/ ٣ المستدرك ٢/ ٣٠٧.

إسنادها من ليس على شرط الصحيح[1].

وقال محمد عبده: إنني أجزم ببطلان هذه الرواية مهما كان سندها، لأنني أبرئ السابقين الأولين كسعد وعبد الرحمن مما رموا به[2].

وقد سبق تصحيح هذه الرواية من الحاكم والذهبي، كما وثّق رجال السند ابن حجر في تراجمهم فلا داعي إلى رد هذه الرواية أو تضعيفها مادام أنها قد رويت بسند صحيح، فيمكن أن يقال في تأويلها إنه لا يلزم من كونهم كفوا عن القتال أن يكون منهم عبدالرحمن بن عوف، إذ يحتمل أن يكون الذين كفوا عن القتال بعدما أمروا به هم بعض أصحابه ممن تقاعس عن الهجرة أو رجع من المدينة بعد أن هاجر خوفا من الجهاد بعدما شرع، والآية صريحة في أن الذين كفوا عن القتال هم بعض الذين طلبوه، أما التسرع في رد الروايات من غير بحث في سندها فهو خطأ ومخالف للمنهج الصحيح، فالواجب علينا أن نبحث في سند الرواية أوّلا، فإن كان مردودا رددناها ولا حاجة إلى البحث فيها، وإن كان مقبولا قبلناها وحاولنا تفسيرها بشكل لا يتعارض مع الأصول الثابتة المشهورة، ولما كان من الأصول المقررة نزاهة فضلاء الصحابة عن مثل ما يتضمنه ظاهر هذه الرواية كان من الواجب علينا أن نفسرها تفسيرا لا يمس كرامة هؤلاء الصحابة ﭫ.

٤- أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﭫ أنه قال في هذه الآية: نهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم[3].

٥- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ

(١) محاسن التأويل ٥/ ١٤٠٠.

(٢) المنار ٥/ ٢٦٣.

(٣) جامع البيان ٥/ ١٧١.

تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما بين ذلك في اليهود[١].

ويؤخذ من هاتين الروايتين أن هذه الآية قد عنى بها اليهود في ماضي عهدهم وأن الله سبحانه وتعالى قد ضربهم مثلا لهذه الأمة حتى لا يصنعوا صنيعهم، وهذا لا يتنافى مع ما تدل عليه الرواية السابقة من كون هذه الآية قد نزلت في الذين كفوا عن القتال من هذه الأمة، إذ أن الله سبحانه قد عنى بها اليهود ولكن على سبيل ضرب المثال لمن تقاعس عن الجهاد من هذه الأمة.

٦- رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية قد نزل في المنافقين: ابن أبيّ وأصحابه الذي تخلفوا عن القتال في أحد، وقالوا للذين قتلوا: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾[٢].

٧- ورُوي عن الحسن وابن زيد أنها نزلت في اليهود وذلك أنهم كانوا قد بُسط عليهم الرزق، فلما قدم النبي ﷺ المدينة فدعاهم إلى الإيمان كفروا، فأُمسك عنهم بعض الإمساك فقالوا: مازلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل[٣].

وهاتان الروايتان بغير سند ولكن معنى الآية ينطبق على مدلولهما، ولا مانع من أن تكون الآية نازلة في اليهود والمنافقين معا، لأنهم جميعا كانوا يتشاءمون بالنبي ﷺ وينسبون حدوث المكاره لهم إلى قدومه وتدبيره للأمور.

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٧١.

(٢) روح المعاني ٥/ ٨٨.

(٣) روح المعاني ٥/ ٨٨.

٨- قوله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ الآية. رُوي عن مقاتل في هذه الآية أن النبي ﷺ كان يقول: من أحبني فقد أحب الله تعالى ومن أطاعني فقد أطاع الله تعالى فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل، لقد قارفَ الشرك وهو ينهى أن يُعبد غير الله تعالى، ما يريد إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى عليه السلام فنزلت.

ذكر هذه الرواية ابن الجوزي والرازي والألوسي بغير سند[1] ويكفي في بيان ضعفها أنها عن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي صاحب التفسير؛ وقد قال عنه ابن حجر في التقريب: كذبوه وهجروه ورُمي بالتجسيم.

٩- أخرج ابن جرير من طريق أسباط عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾: هؤلاء المنافقون الذين يقولون إذا حضروا النبي ﷺ فأمرهم بأمر قالوا: طاعة، فإذا خرجوا من عنده غيرت طائفة منهم ما يقول النبي ﷺ[2].

١٠- أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ وهم ناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ آمنا بالله ورسوله ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، فإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ خالفوا إلى غير ما قالوا عنده[3].

ويؤخذ من هاتين الروايتين أن هذه الرواية قد نزلت في المنافقين وبهذا قال جمهور

(١) زاد المسير ٢/ ١٤١، التفسير الكبير ١٠/ ١٩٤، روح المعاني ٥/ ٩١.

(٢) جامع البيان ٥/ ١٧٨.

(٣) جامع البيان ٥/ ١٧٨.

المفسرين"[1].

١١- أخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن عمر ﷺ أنه قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه.. ثم ذكر الحديث بطوله إلى أن قال: فقلت يا رسول الله أطلقتهن؟ قال: لا، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى[2] يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: نعم إن شئت، قال: فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر"[3].

ويؤخذ من هذه الرواية أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ الآية، قد نزلت حينما اعتزل النبي ﷺ نساءه فأشاع بعض المسلمين أنه قد طلقهن، وقد روي عن ابن عباس ﷺ أنها نزلت في المنافقين. ذكره الألوسي بلا سند ويؤيده دلالة السياق، حيث إن هذه الآية ضمن آيات المنافقين، ولكن الحديث الذي رواه مسلم أصح من هذا، وقد صرح فيه عمر ﷺ بأن هذه الآية قد نزلت بسبب تسرُّع بعض المسلمين في إذاعة خبر طلاق النبي ﷺ نساءه، ولعل وضع هذه الآية بعد آيات المنافقين لانطباق مدلولها عليهم، ولو قلنا إنها نزلت في شأن المنافقين ونزلت مرة ثانية في شأن المسلمين لما كان بعيدًا لوقوع مثل ذلك في آيات أخرى.

---

(١) انظر مثلا: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٨٨، الكشاف١/ ٥٤٦، تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٢، روح المعاني ٥/ ٩١.

(٢) أي يضربون به الأرض كفعل المهموم المفكر -فتح الباري ٩/ ٢٨٦-.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الطلاق باب في الإيلاء واعتزال النساء (ص ١١٠٥).

١٢- قوله تعالى ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾ الآية رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: واعد رسول الله ﷺ أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة[1] فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه رضي الله عنهم حتى أتوا موسم بدر فكفاهم الله سبحانه بأس العدو ولم يوافقهم أبو سفيان، وألقى الله تعالى الرعب في قلبه ولم يكن قتال يومئذ وانصرف رسول الله ﷺ بمن معه سالمين) ذكره الألوسي بغير سند[2].

وقت نزول هذا النص:

مما تضمنته هذه الآيات يترجح أنها نزلت بين غزوة أحد وغزوة بدر الآخرة[3] فقد ذكر فيها تحذير المؤمنين من أعدائهم، حيث أمرهم الله سبحانه أن لا ينفروا إلا مجتمعين حتى لا يتصيدهم أعداؤهم، وقد كانت المدينة في تلك الفترة مهددة من اليهود والمنافقين والأعراب بسبب إصابة المؤمنين في أحد، كما تتضمن هذه الآيات بيان تخلف المنافقين عن القتال، وأبرز معركة ظهر فيها هذا التخلف هي معركة أحد، ومما تتضمنه فرحهم بمصاب المؤمنين، وتشاؤمهم بالنبي ﷺ وهذا قد وقع منهم بسبب معركة أحد أيضا، ومما يزيد الأمر وضوحا أن الله سبحانه قد رتب على هذه الآيات جميعها قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾ وقد نزلت هذه الآية بمناسبة غزوة بدر الآخرة كما سبق في رواية ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) المشهور أن ذلك كان في شهر شعبان كما قال ابن إسحاق (السيرة النبوية ٣/ ٢٤٧).

(٢) روح المعاني ٥/ ٩٧.

(٣) سميت بذلك تمييزا لها عن بدر الكبرى وعن بدر الأولى التي هي قبل بدر الكبرى.

وقد كانت غزوة بدر الآخرة في شهر شعبان من السنة الرابعة كما قال ابن إسحاق[١] وقال الواقدي إنها كانت في شهر ذي القعدة من هذه السنة[٢] وقد ضعفه ابن كثير[٣]، وقد وافق ابن إسحاق في تحديد كونها في شعبان موسى بن عقبة إلا أنه قال في سنة ثلاث، ذكره ابن كثير وقال: وهذا وهم فإن هذه تواعدوا إليها من أحد وكانت أحد في شوال من سنة ثلاث كما تقدم والله أعلم[٤].

ولعل قول موسى بن عقبة مبني على اعتبار أن التاريخ يبدأ من محرم الذي بعد الهجرة بناء على إلغاء الأشهر التي قبل ذلك فتكون حوادث السنة الرابعة مثلا في السنة الثالثة، وهذه الطريقة سار عليها قليل من المؤرخين كما سيأتي لذلك أمثلة أخرى.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

كان العرب في الجاهلية يتصفون بعدم احتمال الأذى، فكانت تقوم بينهم الحروب الطاحنة لأتفه الأسباب، وقد تستمر مئات السنين، وتصبح عادة يألفها الكبير وينشأ عليها الصغير.

ولما جاء الإسلام وانتشر في مكة كانت القوة المادية بيد الكفار فكانوا يعذبون من تحت أيديهم من المؤمنين، حتى حصل من بعض هؤلاء المؤمنين التذمر من تلك الحال فكانوا يودون لو أذن الله لهم بالدفاع عن أنفسهم، ولكن لم يكن من مقتضى الحكمة الأذن لهم بذلك في ذلك الوقت[٥].

---

(١) السيرة النبوية ٣/ ٣٤٧.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٣٨٤.

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٨٩.

(٤) البداية والنهاية ٤/ ٨٩.

(٥) يراجع في هذا الموضوع بتوسع «في ظلال القرآن» ٢/ ٤٥١ – ٤٥٥.

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج كسائر العرب قد قامت بينهم الحروب الجاهلية، التي أصبحت عائقا كبيرا وسدا منيعا بينهم وبين التآلف واجتماع الكلمة، وقد صور الله سبحانه وتعالى بُعد الشقة بينهم بقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقد شذ عن هذا التآلف طائفة منهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، ظنا منهم أن أمرهم سيخفى، وأنَّ باستطاعتهم أن يعيشوا مع المؤمنين بأمن وسلام، فلما أُمروا بالجهاد في سبيل الله تثاقلوا عن ذلك وحاولوا أن يوقعوا الخلل في صفوف المؤمنين، وكانوا يترقبون نتائج المعركة إذا خرج المؤمنون للقاء أعدائهم، فإن أصيب المؤمنون فرحوا وحمدوا رأيهم في القعود عن القتال، وإن انتصروا وظفروا بالغنيمة تأسفوا على قعودهم وتمنوا أن يكونوا خرجوا مع المؤمنين حتى يأخذوا نصيبهم من الغنيمة.

وقد أصبح هذا النفور من الجهاد واضحا من تصرفات المنافقين المتكررة في تثاقلهم عن الجهاد في سبيل الله وتثبيطهم المؤمنين عنه، كالذي وقع منهم في معركة أحد حينما انخذلوا عن المؤمنين بعد ما واجهوا عدوهم، وقد ذكر الله سبحانه اعتراضهم على فرضية الجهاد في سبيل الله في آيات منها قوله تعالى ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[محمد: ٢٠] وذلك لأنهم لا يؤمنون بالإسلام إيمانا حقا، بل يتظاهرون بتطبيق التكاليف الشرعية التي لا مشقة فيها عليهم، ويتضجرون من الجهاد في سبيل الله لأنهم يقفون حياله بين أمرين: إما أن يُقْدموا على تنفيذه وهذا أمر يشق عليهم كثيرا لأن فيه احتمال زهوق أرواحهم، وإما أن يتقاعسوا عنه وفي هذا انكشاف أمرهم.

ولما فرض القتال قام النبي ﷺ ببعث السرايا الصغيرة ثم كانت معركة بدر الكبرى، ولم يكن ذلك ليكشف المنافقين ويظهر حقيقتهم لأن تلك السرايا لا تستوعب إلا عددا قليلا من المجاهدين، ومعركة بدر لم يخرج فيها النبي ﷺ لقتال فلم يخرج معه إلا عدد قليل، فلما خرجت قريش لغزو المسلمين في عقر دارهم كان لزاما على المسلمين جيمعاً أن يخرجوا للدفاع عن أنفسهم، فكانت معركة أحد التي انكشف فيها المنافقون حينما رجعوا إلى المدينة قبل نشوب المعركة، فطبقوا بذلك تذمرهم من فرضية الجهاد في سبيل الله عمليا.

ثم لما ظهرت نتيجة المعركة لغير صالح المؤمنين أظهر المنافقون تشاؤمهم من النبي ﷺ ونسبوا ما حدث على المؤمنين من الإصابة في أحد إلى سوء تصرفه وتدبيره للمعركة، ولو أنصفوا لنسبوا ذلك إلى من خالفوا أمره ولم ينفذوا تدبيره وهم الرماة الذين فارقوا مركزهم فأصيب المؤمنون بسببهم.

وهذا التشاؤم من النبي ﷺ دليل على عدم إيمانهم بقضاء الله وقدره، وعدم تصورهم لمنشأ ما يجري على العبد من البلايا والنعم وأسباب ذلك، وهذا من علامات نفاقهم، ويشبه هذا التشاؤم منهم ما سبق ذكره في بيان من نزل فيه النص من تشاؤمهم بالنبي ﷺ حينما أصيبوا بالقحط بعد قدومه عليهم.

وبعد أن أصيب المسلمون في معركة أحد فارت المدينة بالنفاق، ونشط اليهود في عداوتهم للنبي ﷺ، وطمع الأعراب المحيطون بالمدينة في غزوها وقد قام النبي ﷺ بملاحقة قريش إثر انتهاء المعركة حتى بلغ حمراء الأسد، ليظهر لأعدائه المحيطين به قوة المؤمنين وأن الإصابة لم تفتَّ في عضدهم، ومع ذلك فقد تجرأ أولئك الأعراب واليهود على النبي ﷺ والمؤمنين فكادوا لهم عن طريق الغدر والخيانة.

أما الأعراب فقد تقدم بيان غدر قبائل عضل والقارة وهذيل بأصحاب النبي ﷺ يوم الرجيع، وممن غدر بالمؤمنين من الأعراب في هذه الفترة قبائل بني سُليم من عُصيَّة ورِعْل وذكوان بقيادة عامر بن الطفيل، وكان من خبرهم أن أبا البراء. عامر بن مالك قدم على النبي ﷺ فطلب منه أن يبعث رجالا من أصحابه إلى نجد ليدعوهم إلى الإسلام وعقد لهم أبو براء جوارا، فغدر بهم عامر بن الطفيل، واستصرخ عليهم بني عامر فلم يجيبوه حتى لا يخفروا جوار أبي براء، فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم من عُصيَّة ورعْل وذكوان فأجابوه إلى ذلك وقتلوا أصحاب رسول الله ﷺ، أخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق[1].

وأما اليهود فقد حاول بنو النضير منهم الغدر برسول الله ﷺ كما سبق فحماه الله منهم وكان ذلك سببا في إجلائهم.

أما المنافقون فلم يظهر منهم مقاومة بالقوة لأنهم يخشون سطوة المؤمنين، ولكنهم ضاعفوا عملهم في الكيد لرسول الله ﷺ ومحاولة تفريق المؤمنين عنه، وكان بعضهم يأتون إلى النبي ﷺ خاضعين مظهرين الطاعة والإذعان وقلوبهم تغلي كالمرجَل من عداوة الإسلام وأهله، فإذا خرجوا من عنده أظهروا مكنونات ضمائرهم، وأطلقوا العنان لقرائحهم كي تجود بما تمليه عليهم قلوبهم المليئة بالأضغان، والنوايا السيئة وصاروا يجتمعون ليلا لتدبير المكائد والمخططات الأثيمة التي يحاولون بها الإساءة إلى رسول الله ﷺ والمؤمنين وتشويه سمعتهم.

كما نشطوا في بث الأراجيف في مجتمع المؤمنين بتضخيم قوة الكفار في أعينهم، وكشف الجبهات الحربية المتعددة التي على المؤمنين أن يواجهوها كلها إذا استمروا في

(١) السيرة النبوية ٣/ ٢١٢.

التزامهم بهذا الدين ليثيروا في قلوبهم الفزع، ويحدُّوا من إقدامهم على الجهاد، ولعل هذا هو السبب في تثاقل بعض المؤمنين عن الخروج مع النبي ﷺ في غزوة بدر الآخرة كما تدل عليه رواية ابن عباس السابقة.

ومما يؤيد ذلك ما أخرجه موسى بن عقبة عن الزهري وابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ استنفر الناس لموعد أبي سفيان، وانبعث المنافقون في الناس يثبطونهم فسلَّم الله أولياءه وخرج المسلمون صحبة رسول الله ﷺ إلى بدر[1].

ولا شك أن مجتمع المدينة يضم بعض الضعفاء، وهؤلاء ينخدعون بأراجيف المنافقين ويقعون في حبائلهم.

بيان مفردات النص:

انفروا: النفر الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء[2]، والمراد هنا الإسراع بالخروج إلى الجهاد.

ثُبات: جمع ثُبة وهي العصبة من الفرسان، كما ذكر في القاموس، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يقول عُصَبًا، يعني سرايا متفرقين[3].

يُبطِّئن: يحتمل أن يكون من بطَّأ المتعدي فالمعنى ليبطئن المؤمنين وبهذا قال الطبري[4].

ويحتمل أن يكون من بطَّأ اللازم فالمعنى ليتخلفنَّ ويتثاقلنَّ عن الخروج للجهاد، وبهذا

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٨٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن.

(٣) جامع البيان ٥/ ١٦٥.

(٤) جامع البيان ٥/ ١٦٥.

قال الجمهور[(١)] والمعنيان متلازمان فمن ثبط غيره عن الخروج لا بد أن يتخلف، ومن تخلف ثبط غيره بتخلفه وإن لم يقصد ذلك.

متاع: المتاع هو انتفاع ممتد الوقت يقال متعه الله بكذا وأمتعه به، وسُمي الانتفاع بالدنيا متاعا تنبيها إلى أنه في جنب الآخرة غير معتدٍّ به، وأصله من المتوع وهو الامتداد والارتفاع يقال متع النهار ومتع النبات إذا ارتفع[(٢)].

فتيلا: الفتيل هو الحبل الرقيق الذي في شق النواة، سُمي بذلك لأنه على هيئة الحبل المفتول[(٣)].

بروج: البروج هي القصور كما قال مجاهد وقتادة[(٤)].

مشيدة: أي مطولة بارتفاع كما قال الزجاج، وقيل مطلية بالشيد وهو الجص، وبهذا قال عكرمة[(٥)] والأول أنسب لسياق الآية لأن المقصود كون القصور محصنة بالارتفاع..

بيَّت: التبييت تدبير الأمر ليلا[(٦)].

يتدبرون: التدبر في الأصل التأمل والنظر في أدبار الأمر وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل[(٧)].

---

(١) الكشاف ١/ ٥٤١، تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٧، إرشاد العقل السليم ١/ ٧٣٢، روح المعاني ٥/ ٨٠.

(٢) المفردات، القاموس.

(٣) نفس المرجعين السابقين.

(٤) روح المعاني ٥/ ٨٧.

(٥) المرجع السابق ٥/ ٨٧.

(٦) المفردات، القاموس، مقاييس اللغة.

(٧) روح المعاني ٥/ ٩٢.

يستنبطون: الاستنباط هو الاستخراج يقال استنبطت الركية إذا استخرجت ماءها[1].

تنكيلا: التنكيل إنزال العقوبة بالغير بشكل يحذر منه غيره[2].

بيان معنى النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ أي احترزوا من عدوكم المتربص بكم في الداخل والخارج فخذوا الاستعداد الكافي له[3] ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ أي اخرجوا سراعاً للجهاد في سبيل الله ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي جماعات متفرقين ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ أي مجتمعين جيشا واحدا، وذلك على حسب ما تقتضيه مصلحة الحرب، ولا تقعدوا عن الجهاد كما يفعل المنافقون.

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ﴾ أي وإن ممن هو منتسب إليكم وداخل في صفوفكم ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي ليثبطن عن الخروج للجهاد في سبيل الله، إما بالتخلف عنه وإما بالتنفير منه، وهؤلاء هم المنافقون كما سبق.

﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ أي في خروجكم للقتال كالقتل والجراح ﴿قَالَ﴾ أي ذلك المتخلف عن الخروج معكم فرحا بما فعل ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ أي قد أنعم الله عليَّ إذ قعدت ولم أحضر المعركة معهم فيصيبني ما أصابهم من القتل

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٨١، المفردات: مقاييس اللغة.

(٢) المفردات، القاموس.

(٣) وعبر بالأخذ هنا لتشبيه الحذر بالآلة التي يقي بها الإنسان نفسه كما قال الزمخشري ١/ ٥٤١، وقيل المراد بالحذر هنا السلاح وبهذا قال الطبري ٥/ ١٦٤ والأولى تفسير الحذر بمعناه الظاهر لأنه غير مقصور على أخذ السلاح فقط وإنما أخذ السلاح من لوازم الحذر.

والجراح ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بأن كتب الله لكم النصر فأحرزتم الغنائم من الأعداء ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك المتخلف ندامة على قعوده وحسرة على فوات الغنيمة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ أي ليقولن قول الحاسد الذي لا تربطه بكم أية مودة، كما أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال في هذه الآية: قول حاسد[1] ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي يقول ذلك المتخلف عندما يرى عظمة ما أحرزه المؤمنون من غنائم الأعداء: يا ليتني خرجت معهم حتى أظفر بما ظفروا به من ذلك المال الكثير.

فهذه هي نظرة المنافقين إلى الجهاد في سبيل الله، فهم لا يريدون به إعلاء كلمة الله، وإنما يريدون أن يتوصلوا به إلى كسب الدنيا فقط، فإذا تخلفوا عن الجهاد وأصيب المؤمنون فرحوا واغتبطوا لسلامتهم من تلك المصيبة، وإذا انتصر المؤمنون وغنموا حزنوا لفوات الغنيمة، وحسدوا المؤمنين على ما نالوا منها.

وإذا كانت هذه هي نظرتهم للجهاد في سبيل الله فإنهم لن ينفعوا المؤمنين بشيء إذا خرجوا معهم بل يكونون عبئا عليهم ومصدرا لفشلهم، وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ فهؤلاء هم الذين ينتصرون على الأعداء وإن كانوا قلائل لأن الله معهم، فليقْدموا على القتال في سبيل الله ولا يلتفتوا إلى من تخلف عنهم، فإنما هم عبء ثقيل قد حطوه عن كواهلهم ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأن يكون قصده إعلاء كلمة الله جل وعلا لا جمع حطام الدنيا ومجدها الزائل ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ أي في حال استشهاده على يد الأعداء أو انتصاره عليهم

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٦٦.

وظفره بغنائمهم ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثوابا جزيلا في الجنة، فليس ما حصل عليه من الغنائم في الدنيا بالذي يمنع عنه ثواب الله في الآخرة لأن فضل الله كبير.

ثم ذكر سبحانه للمؤمنين ما يحثهم على قتال الكفار، حيث ذكَّرهم بإخوانهم المؤمنين الذين يعيشون تحت وطأة الكفار ولا يستطيعون الخلاص منهم فقال تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ والمراد بالقرية في الآية مكة المكرمة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والسدي، أخرجه ابن جرير من طريق العوفي[1] وأخرجه عن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح[2] وأخرجه عن السدي من طريق أسباط[3].

المعنى: وما بالكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله، وفي سبيل استنقاذ إخوانكم المؤمنين الذين استضعفهم كفار مكة فحبسوهم وحاولوا فتنتهم عن دينهم، من الرجال والنساء والولدان الذي يدعون ربهم بلهف وشوق أن يهيئ لهم من يتولى أمرهم من المؤمنين بدلا من هؤلاء الكفار، وأن يهيئ لهم من ينصرهم على هؤلاء الكفار الذين ظلموهم؟

ثم ذكَّر الله سبحانه المؤمنين بحقيقة الهدف الذي من أجله يقاتل المؤمن والكافر تصحيحا لتصورهم نحو حقيقة الجهاد في سبيل الله، واستنهاضا لعزائمهم حيث قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٦٩.

(٢) المرجع السابق ٥/ ١٦٨.

(٣) المرجع السابق ٥/ ١٦٨.

ٱلطَّٰغُوتِ﴾ ولا يستوي هؤلاء وهؤلاء، فالمؤمنون يقاتلون لحياة أخرى غير هذه الحياة، والكفار يقاتلون استبقاء لهذه الحياة، ولهذا فإن الكافر حينما يقاتل لا يقاتل وهو يريد الموت، وإنما يقاتل ليدفع عن نفسه الموت فهو مشغول بالدفاع عن نفسه أكثر مما هو مشغول بالهجوم على عدوه، بخلاف المؤمن فهو يقاتل طلبا للشهادة ولذا فهو لا يهتم بالدفاع عن نفسه، وإنما يركز اهتمامه في الهجوم على عدوه والفتك به، والمؤمنون موصولون بنصر الله وتأييده، بخلاف الكفار فإنهم معاقبون من الله بإلقاء الرعب في قلوبهم وزلزلة كيانهم، ولهذا حض الله المؤمنين في آخر هذه الآية على قتال الكفار بقوله ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك وعرفتم أنكم أيها المؤمنون موصولون بقوة جبارة تهيمن على هذا الكون وما فيه، وأن الكفار موصولون بقوى ضعيفة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، فأقدموا على قتالهم بعزم وقوة فإنهم ضعفاء جبناء، هم ومن ركنوا إليه ولن يضركم مكرهم وإن اجتمعوا عليكم مادمتم متمسكين بحبل الله المتين.

ولما كان بعض أفراد هذه الأمة مندفعين إلى القتال قبل أن يُفرض عليهم، فلما فرض عليهم تذمروا منه وتقاعسوا عنه، وكانوا في ذلك يُشبهون بني إسرائيل الذين قال الله فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٦] ذكر الله خبرهم لنبيه على سبيل التعجيب من أمرهم ليكون في خبرهم عبرة لمن تكاسل عن الجهاد أو تذمر منه من هذه الأمة، حيث قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي قد علمت أيها الرسول خبر الذين طلبوا

من نبيهم أن يأذن لهم بقتال الأعداء، فكان يأمرهم بأن يكفوا عن القتال لأنه لم يحن وقته المناسب، وأن يهتموا بتنفيذ التكاليف التي كلفهم الله بها، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرض عليهم قتال الكفار ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم المنافقون وضعفاء الإيمان الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي يخافون من مواجهة الناس بالقتال؛ كما يخافون من الله أن يُنزل بهم عذابه ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي بل إن خوفهم أحيانا من الناس يزيد على خوفهم من الله ﴿وَقَالُواْ﴾ معترضين على تشريع الله في فرضية القتال ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ في هذا الوقت ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي هلاَّ أجلت فرض القتال إلى وقت آخر حتى نتمتع بالراحة ولو وقتا قليلا، وقد سبق في بيان من نزل فيه النص الرواية عن ابن عباس ومجاهد أن هذه الآية قد نزلت في اليهود لتحذير هذه الأمة من أن يعملوا مثلهم.

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يجيب من شابه هؤلاء اليهود من هذه الأمة في هذا السلوك المنحرف، ببيان أن أمدهم في هذه الحياة الدنيا قصير، ومتعتهم فيها قليلة، فلن يخلدوا فيها حتى يكرهوا الجهاد في سبيل الله من أجلها، حيث قال تعالى ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي ما تتمتعون به من الحياة الدنيا سريع الانقضاء لأنها حياة فانية ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من الحياة الدنيا ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ عذاب الله تعالى وسخطه فآمن به، لأن نعيم الآخرة عظيم خالد، أما من لم يتق عذاب الله تعالى واستمر على كفره وعناده فإن الآخرة شرّ له، لأن مأواه جهنم وساءت مصيرا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ستأخذون جزاءكم يوم القيامة كاملا ولا تُنقصون منه شيئا حتى ما يساوي الخيط الرقيق الذي يكون في شق النواة.

وإذا كنتم تتقاعسون عن الجهاد خوفا من الموت فإن الموت سيدرككم لا محالة ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي في أيِّ مكان حللتم فيه فإن الموت سيحل بكم إذا حان

أجله ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ فلن يحول دون نزوله بكم اتقاؤكم منه بالحصون المنيعة.

ولما كان بعض أتباع النبي ﷺ ممن أظهر الإيمان به وكفر به باطنا يتشاءمون منه فيما إذا حلت بهم نكبة كشف الله أمرهم بقوله:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي نعمة كالغنيمة في الحرب والرخاء في السلم ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي أنعم الله بها علينا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلية كالهزيمة في الحرب والقحط في السلم ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أي بسبب سوء تدبيرك للمعركة بالنسبة للهزيمة، أو بسبب قدومك علينا بالنسبة للقحط تشاؤما منهم بالنبي ﷺ، والمشهور تشاؤمهم بالنبي ﷺ عندما أصيب المؤمنون في معركة أحد.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي قل لهم أيها الرسول: كلٌّ من النعم والبلايا من الله تعالى إيجادا وتقديرا، فهو الذي أوجدها وقدَّرها على العباد، على ما تقتضيه حكمته وإرادته، فليس لي أثر في وقوع شيء من ذلك.

﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي فما بال هؤلاء القوم المتشائمين بالنبي ﷺ ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ لا يفهمون الكلام الذي بُيِّنَتْ به حقائق التوحيد وهو القرآن؟

ثم أكمل سبحانه الجواب على أولئك المتشائمين وبينه بقوله ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ خلقا وتقديرا وتفضلا وكرما ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ تسببًا وإن كانت من الله خلقا وتقديرا، لكنها بسبب ذنوب العبد كما قال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[الشوررى: ٣٠] وكما قال تعالى في

نفس المصيبة التي نسبها المنافقون إلى رسول الله ﷺ التي هي مصيبة المؤمنين في أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران ١٦٥ - ١٦٦].

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ أي هذا هو مقامك الحقيقي بين الناس أنك رسول من الله إليهم لهدايتهم، لا أنك سبب في وقوعهم في المصائب والبلايا، وإنما يتهمك بذلك من لا يؤمن بك ويحسدك على هذا المقام الشريف ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ على أنك رسول منه إلى البشرية، ولن يردَّ شهادة الله إلا مكابر معاند.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ أي وإذا كان الله عز وجل قد أرسل محمدا ﷺ رسولا للناس وشهد على ذلك بنفسه جل وعلا فإن من لوازم الإقرار برسالته أن يطاع فيما يأمر به، فإن طاعة الله مترتبة على طاعته ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ومن أعرض عن طاعة الرسول ﷺ فقد عصى الله وسيحاسبه ويجازيه على معصيته، أما أنت أيها الرسول فأعرض عنه فما أرسلناك عليهم حفيظا، تحفظ أعمالهم وإنما أرسلناك رسولا مُبَلِّغا عن الله.

وبعد أن ذكر سبحانه أنَّ من لوازم الإقرار برسالة محمد ﷺ طاعته فيما يأمر به، بين أن من أتباعه الذين يقرون برسالته من يظهرون طاعته فإذا خرجوا من عنده أظهروا العصيان فقال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ أي ويقول هؤلاء المنافقون: لك منا أيها الرسول طاعة فيما تأمرنا به، فإذا خرجوا من عندك اجتمعت طائفة منهم ليلاً فتآمروا على العصيان والكيد للمؤمنين.

والضمير في قوله ﴿تَقُول﴾ يحتمل أن يكون عائدا على النبي ﷺ، أي غيروا الكلام

الذي تقوله لهم، وقد ذكر ابن جرير هذا التفسير عن بعض السلف[1]، ويحتمل أن يكون عائدا على الطائفة، أي دبرت تلك الطائفة من المنافقين في حال غيبتهم عنك خلاف ما تقوله لك من الطاعة وبهذا قال الزمخشري[2]، وابن كثير[3].

وهذان الاحتمالان متقاربان من حيث المعنى العام إذ أن مؤدّى الاحتمال الأول أنهم يظهرون الطاعة أمام النبي ﷺ فيما يأمرهم به، فإذا خرجوا من عنده غيروا ما أمرهم به، وإنما يكون تغييره بالعزم على العصيان، وهذا هو ما يفهم من الاحتمال الثاني إذ أن الكلام الذي قالته هذه الطائفة للنبي ﷺ هو إظهار الطاعة، والأمر الذي دبرته بعد ذلك هو العصيان.

﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي يحصي عليهم ما يدبرونه من العزم على العصيان، والكيد للمؤمنين فيجازيهم عليه.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي اتركهم وشأنهم فإن الله سينتقم منهم.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعتمد عليه وأسند أمورك إليه، فإنه سيكفيك شر أعدائك جميعا ومنهم هؤلاء الأعداء المتسترون بإظهار الإيمان.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ أي كفى به معتمدا لمن اعتمد عليه وأسند أموره إليه.

ولما كان الدافع لهم إلى عدم الإيمان بالإسلام شكهم في رسالة النبي ﷺ، وفي أن القرآن منزل من عند الله، بين الله سبحانه لهم ما يرفع عنهم هذا الشك في القرآن، الذي

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٧٧ – ١٧٨.

(٢) الكشاف ١/ ٥٤٦.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٢.

هو المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، حيث قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أيشكون في أن القرآن منزل من عند الله فلا يتأملونه ولا يمعنون النظر فيه ليروا هل هو مشابه لكلام البشر فيحتمل أنه من عند محمد ﷺ، أم أنه فيه خصائص ومزايا تميزه عن كلام البشر فلا يحتمل إلا أنه من عند الله؟

ثم أشار سبحانه إلى ما يميزه عن كلام البشر بقوله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي ولو كان هذا القرآن من عند غير الله كما يقول الجاحدون، لوجدوا فيه حينما يحاولون عيبه وانتقاده ﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ بأن يتخلف الصدق عن بعض أخباره، ولا يكون كله على مستوى واحد في البلاغة العالية والبيان الرفيع، ولوجدوا التناقض في بعض أحكامه إلى غير ذلك من العيوب التي تنتاب كلام البشر دائما، فهل وجد هؤلاء المنافقون شيئا من الاختلاف في لفظه أو معناه أو صدق أخباره؟

لقد رأوا أن القرآن قد أخبر النبي ﷺ عن أعمال المكر والكيد التي يتواطئون عليها سرًّا، بل إنه قد وصف أحاسيسهم وخلجات نفوسهم مما قد يخفيه بعضهم عن بعض، فلم يكن القرآن في ذلك مخالفا للواقع في جميع ما كشفه من أحوالهم، أفلا يستدلون بذلك على أن القرآن كلام الله؟! ولو كان من عند النبي ﷺ كما يزعمون لما كان مطابقا للواقع في كشف أحوالهم الخفية بكل تفاصيلها لأن البشر لا يعلمون الغيب، وإنما يدركون بعض الظواهر عن طريق الفراسة وملاحظة القرائن مما يرشدهم إلى أخذ الحيطة والحذر من أعدائهم، لا أنهم يعلمون بذلك تفاصيل ما يجرى عليهم من أعدائهم من المكائد الخفية.

ثم بين سبحانه وتعالى تسرعهم في نشر الأخبار المهمة، التي قد يكون في نشرها ضرر بالغ على الأمة، كأخبار الحرب حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ﴾ أي وإذا بلغ أولئك

المتسرعين في نقل الأخبار من المنافقين وضعفاء الإيمان ﴿أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ أي من أخبار الأمن كانتصار سرية من سرايا المسلمين، أو إحجام الكفار عن غزو المسلمين ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ كانهزام سـرية من سرايا المسلمين، أو عزم الكفار على غزوهم ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ أي أفشوه ونشروه في المجتمع.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي ولو أنهم كتموا علم تلك الأخبار عن العامة، حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ وكبار الصحابة الذين يفهمون مصلحة الأمة في نشر تلك الأخبار أو عدم نشرها ﴿لَعَلِمَهُ﴾ أي لعلم حقيقته وتدبيره ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي يستخرجون حقيقته من أولي الأمر بفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بالأمور المهمة التي يكون في إشاعتها ضرر على المؤمنين.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي بإرشاده إياكم أيها المؤمنون إلى سبيل الرشاد الذي هو الرد إلى رسول الله ﷺ وإلى أولي الأمر ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فأصبحتم تتسرعون في إذاعة الأخبار المهمة، دون الرجوع إلى استكشاف حقيقتها إلى أولي الأمر منكم، وفي ذلك من المضرة بمجتمعكم ما فيه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم وهم أهل الإيمان الراسخ، الذين نجوا من اتباع الشيطان في هذه الخصلة بفضل من الله سابق على إرشادكم إلى مضرتها في هذه الآية، وهو مَنَّةُ الله عليهم بالإيمان القوي، والعقول المفكرة التي بها يدركون مغبة هذا التصرف الخاطئ.

وبعد أن بين سبحانه ما يتصف به بعض أفراد المجتمع الإسلامي في المدينة من الكسل والتثاقل عن الجهاد في سبيل الله وجَّه الأمر لرسوله ﷺ بالإقدام على الجهاد ولو بقي في المعركة وحده، وأن يحث المؤمنين على ذلك، حيث قال تعالى ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا

تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي إذا كان من اتباعك من يتثاقل عن الجهاد بهذا الشكل فقاتل في سبيل الله ولو بقيت وحدك في المعركة، فإنك لا تُسأل إلا عن نفسك، ولست مسؤولاً عن تخلف المتخلفين، وإنما واجبك التذكير والإرشاد، ولذلك قال تعالى ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حثهم على الإقدام عليه ببيان أجر المجاهدين في سبيل الله، وإثم المتخلفين عن الجهاد ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لعل الله أن يرد قوة أعدائكم من الكفار ونكايتهم بكم ويضعفهم عن قتالكم، وهذا وعد من الله محقق بنصر المؤمنين ورد كيد الكافرين، لأن أدوات الترجي إذا صدرت من الله عز وجل فهي للتحقيق، كما قال بذلك جمهور المفسرين[1].

وقد أنجز الله للمؤمنين وعده، وذلك حينما خرجوا مع رسول الله ﷺ لقتال أبي سفيان وجيشه على الموعد الذي ضربه لهم يوم أحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكفار فلم يصلوا إلى بدر مكان الموعد، بل رجعوا إلى مكة متعللين بأن عامهم ذلك كان عام جدب، وما بهم في الحقيقة إلا الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم[2].

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي والله أعظم قوة وأبلغ نكاية وأقسى عقوبة لأهل الكفر، من قوة الذين كفروا ونكايتهم بكم وعقوبتهم لكم لو ظفروا بكم، فلا تجبنوا عن لقائهم.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

يبين الله سبحانه لنا في هذه الآيات أن ممن يضمهم مجتمع المؤمنين ويُحْسَبُون على

---

(١) انظر مثلا – جامع البيان ٨/ ٥٧٩، إرشاد العقل السليم ١/ ٧٤٨، روح المعاني ٥/ ٩٧.

(٢) انظر السيرة النبوية ٣/ ٢٤٧.

الإسلام والإسلام منهم بريء من يخذِّل المؤمنين الصادقين عن القيام بأعمال الجهاد في سبيل الله، ويحاول أن يفتَّ في أعضادهم، ويثني من عزائمهم حتى يتغلب عليهم الكفار وتكون الدولة لهم، فتزول بذلك القيود التي يرون أن الإسلام قد فرضها عليهم نحو المجتمع في هذه الحياة الدنيا.

فإذا قامت الحرب ودعا داعي الجهاد تخلفوا وحاولوا التأثير على من يتوسمون فيه التأثر بكلامهم حتى يتخلف معهم، ثم أصبحوا يرقبون أخبار المعركة فإن جاءت على ما يحبون فرحوا واعتزوا برأيهم في التخلف، وإن جاءت على ما يكرهون اغتموا وتمنوا أنهم خرجوا مع المؤمنين حتى يغنموا معهم، وحتى يكون ذلك أبلغ في إخفاء أمر نفاقهم.

وهكذا المنافقون في كل زمن يختفون وينزوون حين يجدُّ الجد، ويثّاقلون حين يدعو داعي الجهاد، ويعتذرون لانزوائهم هذا وتخلفهم عن ركب الإيمان بمختلف المعاذير التي لا تخفى حقيقتها على المؤمنين، بل إنهم يحاولون تشويه الحق الذي يدعو إليه المؤمنون والذي يجاهدون من أجله حتى يظفروا بشيء من المعذرة أمام من يلومهم على ذلك التخلف، فأما إذا أصيب المؤمنون بالنكبات فقُتلوا أو شُردوا من ديارهم، أو أُسروا وأذلهم أعداؤهم، فإن أولئك المنافقين يفرحون ويعتبرون عدم اشتراكهم مع المؤمنين في الجهاد من أكبر النعم عليهم، وكلما طالت فترة امتحان المؤمنين وابتلائهم من قبل أعدائهم زاد أولئك المنافقون بهجة واغتباطا وسرهم أن لم يكونوا مع المؤمنين فيصيبهم ذلك البلاء، وأصبحوا يتهمون المؤمنين الثابتين على مبدئهم بنقص العقل والتفكير، بسبب مغامرتهم بأرواحهم وأموالهم وأهليهم في سبيل الدفاع عن المبدأ الذي يعتنقونه.

فأما حين يُنصر المؤمنون وتصبح الدولة لهم فإن أولئك المنافقين يغتمون ويعتبرون تخلفهم عن الجهاد مصيبة عليهم، لأن أمرهم قد انكشف وأصبحوا محط أنظار المؤمنين

فسيكونون مبعدين مستذلين حيث خانوا دينهم، الذي يُظهرون الانتساب إليه وسيتحسرون على ما فاتهم من ثمرات النصر.

فهؤلاء نفعيون لا هدف لهم إلا جلب المنافع الدنيوية لأنفسهم ودفع المكاره عنها، وهم من عوامل الهدم في الدعوات إذا اشتركوا فيها، لأنهم يلفتون الأنظار بكثرة كلامهم ودعاويهم الكاذبة، فإذا جد الجد واشتد الكرب انسحبوا غير عابئين بإخوانهم الذين وقفوا في وجه الطغيان، فيزعزعون غيرهم من ضعفاء الإيمان، وربما استغلهم الطغاة في كشف المؤمنين الثابتين وتشويه سمعتهم، لأن الهدف الذي من أجله اشتركوا في دعوة الحق هو نفس الهدف الذي من أجله سيشتركون في دعوة الباطل، حيث لا هدف لهم إلا جمع حطام الدنيا.

* * *

١١- ارتكابهم الجرائم واتهامهم الأبرياء

النص القرآني في ذلك :

قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١٠٥ - ١١٦].

بيان من نزل فيه النص :

١- أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من حديث قتادة بن النعمان ﷺ قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلا منافقا، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله إلى بعض العرب، ثم يقول قال فلان كذا وقال فلان كذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث فقال:

أوَ كلما قال الرجال قصيدة أضموا[1] وقالوا ابن الأبيرق قالها

قال: وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك[2] ابتاع الرجل منهم فخص به نفسه، فأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملا من الدرمك فجعله في مشربة له[3] وفي المشربة سلاح له: درعان وسيفاهما وما يصلحهما فعُدي عليه من تحت الليل فنُقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي تعلّم أنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه، فنُقبت مشربتنا فذُهب بسلاحنا وطعامنا، قال:

---

(١) الاضم بفتح الضاد الحقد والحسد والغضب كما في القاموس، والمعنى: غضبوا وحقدوا عليه.

(٢) الضافطة الإبل الحمولة والضَّفّاط الجمّال والمكاري والجلاب كما في القاموس. والدرمك قال في القاموس: الدقيق الحواري، أي الأبيض.

(٣) المشربة هي الغرفة كما في القاموس.

فتحسسنا في الدار[1] وسألنا فقيل لنا قد رأينا بني أبيرق استوقدوا هذه الليلة ولا نرى فيما نراه إلا على بعض طعامكم، قال: وقد كان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار:والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل: رجل منا له صلاح وإسلام فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل فو الله ما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها فقال عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: أنظرُ في ذلك فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له «أسير بن عروة» فكلموه في ذلك واجتمع إليه الناس من أهل الدار فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله فكلمته فقال: عمدت إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت!! قال فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك فأتيت عمي رفاعة فقال يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال: الله المستعان! فلم نلبث أن نزل القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ يعني بني ابيرق ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ

---

(١) الدار هي المحلة التي تسكنها قبيلة واحدة وتطلق على القبيلة مجازا كقوله ﷺ «الا أخبركم بخير دور الأنصار؟ دور بني النجار ثم دور بني عبد الأشهل وفي كل دور الأنصار خير» ذكره في النهاية.

عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي بني أبيرق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إنهم إن يستغفروا الله يغفر لهم ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قولهم للبيد، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ يعني «أسيرا» وأصحابه ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إلى قوله ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة قال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخا قد عسا[1] في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولا[2] فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، قال: فعرفت أن إسلامه كان صحيحا، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على «سلافة بنت سعد بن شهيد» فأنزل الله فيه ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فلما نزل على «سلافة» رماها حسان بن ثابت بأبيات من الشعر[3] فأخذتْ رحله فوضعته على رأسها ثم

---

(١) عَسَا أي كبر وأسَنَّ كما سبق.

(٢) أي فيه دخل، قال في القاموس: «ما داخلك من فساد في العقل والجسم، ودخل أمره كفرح فسد داخله» المعنى كنت أرى إسلامه فيه نفاق.

(٣) وهي قوله:

وما سارق الدرعين إن كنت ذاكرًا ... بذي كرم من الرجال أوادعه

فقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ... ينازعها جلد استها وتنازعه

فهلا أسيد جئت جارك راغبا ... إليها ولم تعمد له فترافعه

خرجت فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديت إليّ شعر حسان ما كنت تأتيني بخير»[1].

وقد رواه الترمذي في سننه بهذا السند[2].

ورواه الحاكم وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وقد سكت عنه الذهبي[3].

ورواه الطبري عن ابن عباس من طريق العوفي[4] وعن قتادة من طريق ابن أبي عروبة[5] وعن ابن زيد من طريق ابن وهب[6] وعن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح[7].

وفي هذه الروايات أن السارق هو طعمة بن أبيرق وأن المسروق كان درعا، وأن المتهم البرئ رجل من اليهود اسمه «زيد بن السمين» وفي بعضها أنه «أبو مليل الأنصاري».

٢- أخرج ابن جرير في ذلك من طريق أسباط بن نصر عن السدي أنه قال: نزلت في طعمة بن أبيرق، استودعه رجل من اليهود درعا فانطلق بها إلى داره فحفر لها اليهودي ثم

ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم ... وفينا نبي عنده الوحي واضعه

فلولا رجال منكم أن يسوءهم ... هجائي لقد حلت عليكم طوالعه

فإن تذكروا كعبا إذا ما نسبتم ... فهل من أديم ليس فيه أكارعه

هم الرأس والأذناب في الناس أنتم ... فلم تك إلا في الرؤوس مسامعه

(ديوان حسان بشرح البرقوقي ص٣٢٧).

(١) جامع البيان ٩/ ١٧٧ - ١٨١.

(٢) سنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة النساء (تحفة الأحوذي ٨/ ٣٩٥).

(٣) المستدرك ٤/ ٣٨٥.

(٤) جامع البيان ٥/ ٢٦٧.

(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٦٧.

(٦) المصدر السابق ٥/ ٢٦٨.

(٧) المصدر السابق ٥/ ٢٦٥.

دفنها فخالف إليها طعمة فاحتفر عنها فأخذها، فلما جاء اليهودي يطلب درعه كافره عنها[1]، فانطلق إلى ناس من اليهود من عشيرته فقال: انطلقوا معي فإني أعرف موضع الدرع، فلما علم بهم طعمة أخذ الدرع فألقاها في دار أبي مليل الأنصاري، فلما جاءت اليهود تطلب الدرع فلم تقدر عليها وقع به طعمة وأناس من قومه فسبوه، وقال: أتخوفونني! فانطلقوا يطلبونها في داره، فأشرفوا على بيت أبي مليل فإذا هم بالدرع، وقال طعمة: أخذها أبو مليل، وجادلت الأنصار دون طعمة وقال لهم: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ فقولوا له: ينضح عني ويكذب حجة اليهودي فإني إن أكذَّب كذبَ على أهل المدينة اليهودي، فأتاه ناس من الأنصار فقالوا: يا رسول الله جادل عن طعمة وأكذب اليهودي، فَهَمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل، فأنزل الله عليه ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.. ثم ذكر الآيات وتفسيرها حتى قال: فلما فضح الله «طعمة» بالمدينة بالقرآن هرب حتى أتى مكة فكفر بعد إسلامه، ونزل على «الحجاج بن علاط السلمي»، فنقب بيت الحجاج فأراد أن يسرقه فسمع الحجاج خشخشة في بيته وقعقعة جلود كانت عنده فنظر فإذا هو بطعمة فقال: ضيفي وابن عمي وأردت أن تسرقني!! فأخرجه فمات بحرة بني سليم كافرا، وأنزل الله فيه ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ الآيات[2].

وكذا رواه ابن جرير عن عكرمة من طريق ابن جريج مع اختلاف في سياق الخبر[3].

والذي يتلخص لنا من الرواية الأولى: أن هذه الآيات نزلت في بني أبيرق حينما سرق رجل منهم سرقة فاتهموا بها رجلا بريئا.

---

(١) أي جحده حقه كما في القاموس.

(٢) جامع البيان ٥/ ٢٦٨.

(٣) جامع البيان ٥/ ٢٦٩.

والذي يتلخص لنا من الرواية الثانية: أن الخيانة المذكورة في هذه الآيات كانت جحود وديعة. وقد رجح ابن جرير هذا لأن جحود الوديعة هو المعروف من معنى الخيانة في كلام العرب[1].

والرواية الأولى التي ساقها الحاكم والترمذي والطبري عن قتادة بن النعمان ﵁ أرجح لسلامة سندها واتصاله، أما ما ذكره الطبري من كون المعروف من معنى الخيانة في كلام العرب جحود الوديعة فهذا هو المعنى الخاص، والمراد في الآية المعنى العام للخيانة الذي هو معصية الله بأي وجه من الوجوه، لأن الله سبحانه يقول في هذه الآيات ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ وهذا لا يختص بسارق الدرعين وإنما يشمله ويشمل من حاول تبرئته من قومه بعدما اطلعوا على جريمته، بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ فالمراد محاولتهم إخفاء جريمته والله مطلع على ذلك.

وقت نزول هذا النص:

ذكر السيوطي أن ابن سعد أخرج في الطبقات بسنده عن محمود بن لبيد قال: عدا بشير بن الحارث على علِّية رفاعة بن زيد... ثم ذكر الخبر السابق وقال في آخره: وكان ذلك في شهر ربيع سنة أربع من الهجرة[2].

ومن هذه الرواية يتبين لنا وقت حدوث تلك الواقعة التي كانت سببا في نزول هذه الآيات بعد تلك الواقعة مباشرة وذلك قبل الحكم فيها كما ترشد إليه تلك الآيات.

---

(١) جامع البيان ٥/ ٢٧٠.

(٢) لباب النقول / ٧٩.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

مما سبق في بيان من نزل فيه النص يتلخص لنا أن هذه الآيات نزلت بسبب جريمة قام بها أحد المنافقين، فقام دونه رجال من قومه يدافعون عنه، واتهموا بالجريمة رجلا بريئا، وحاولوا أن يلبسوا على رسول الله ﷺ في تلك القضية حتى يحكم بالباطل، فنزل القرآن فاضحا إياهم ومبينا الحقيقة في تلك القضية.

وهذه القصة تبين لنا أن أولئك المنافقين قد فقدوا كل فضائل الإنسانية حتى استساغوا ارتكاب الجريمة، وحاولوا التستر على المجرم وتركوه يتمتع بأموال الآخرين التي أخذها منهم ظلما وعدوانا، فظلموا بذلك صاحب الحق وحالوا بينه وبين إدراك حقه من المجرم الذي اعتدى عليه، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إنهم رموا بتلك الجريمة رجلا بريئا، وإننا لو تصورنا الموقف فيما لو نجحت خطتهم التي دبروها فأقيم الحد على البرئ وتُرك المجرم يعيث في الأرض فسادا لقدَّرنا فظاعة العمل الذي أقدموا عليه ودوره الخطير في هدم كيان الأمة، ولذلك شنع الله سبحانه في هذه الآيات على ذلك المجرم ومن دافع عنه من قومه، ونهى نبيه ﷺ عن المجادلة عنهم لخيانتهم ومحاولتهم تمويه الحقيقة وتغطية الواقع، وقد كان النبي ﷺ لا يعلم حقيقة أمرهم فصدقهم في تزكيتهم ابن أبيرق، وجابه قتادة بالنقد والتعنيف لكونه اتهم رجلا بريئا على حسب ما ظهر للنبي ﷺ من تبرئة قومه، فلما كشفهم الله وظهر المجرم الحقيقي في تلك القضية هرب إلى مكة خوفا من إقامة الحد عليه، ومات بعد ذلك كافرا كما سبق في بيان من نزل فيه النص.

بيان مفردات النص:

يختانون: أي يخونون من الخيانة وهي: مخالفة الحق بنقض العهد في السر[1].

---

(١) المفردات في غريب القرآن.

يبيتون: التبييت هو تدبير الأمر ليلا كما سبق.

خطيئة: الخطيئة من الخطأ وهو العدول عن الجهة، وأكثر ما تقال في الفعل الذي لا يقصده الإنسان بنفسه، بل يكون القصد سببا لتولد ذلك الفعل منه كمن يرمي صيدا فيصيب إنسانا، بخلاف الخِطْء بكسر الخاء وسكون الطاء فهو أن يريد الإنسان ما لا تحسن إرادته فيفعله وهو المذكور في قوله تعالى ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] وقوله ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩١] ونحو ذلك، والخطء من خطئ يخطأ أما الخطيئة فهي من أخطأ يخطئ[١] .

إثما: الإثم هو الذنب، وأصله البطء والتأخر يقال ناقة آثمة أي متأخرة، وسُمي الذنب بذلك لأنه يؤخر صاحبه عن تحصيل الثواب[٢] .

نجواهم: النجوى والتناجي التحادث سرا، وأصل النجاء الانفصال من الشيء ومنه نجا فلان من فلان، والنجوة والنجاة: المكان المرتفع المنفصل بارتفاعه عما حوله، قيل سمي بذلك لكونه ناجيا من السيل، والنجوى قيل أصلها مأخوذ من كون الإنسان يخلو بصاحبه في نجوة من الأرض، وقيل أصله من النجاة وذلك لكون أحد المتناجيين يعاون الآخر على ما فيه نجاته، أو لكونه ينجو بسره من أن يُطَّلَعَ عليه[٣] .

بيان النص:

قال تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي إنا أنزلنا إليك هذا القرآن متلبسا بالحق ومشتملا عليه ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي لتحكم بين المتخاصمين

---

(١) لسان العرب، المفردات في غريب القرآن.

(٢) مقاييس اللغة، لسان العرب، المفردات في غريب القرآن.

(٣) لسان العرب، المفردات في غريب القرآن.

من الناس بما فهمك الله إياه مما دل عليه هذا الكتاب المنزل بالحق بأي وجه من وجوه الدلالة التي ترشد إلى الحكم بالحق. وقوله ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ معطوف على النتيجة المفهومة مما سبق أي فاحكم بينهم بذلك، ولاتكن لأجل الخائنين الذين وقعوا في الجريمة ثم رموا بها غيرهم مخاصما لأصحاب الحق، وقد تقدم في سبب النزول أن النبي ﷺ قال لقتادة رضي الله عنه: «عمدت إلى أهل بيت ذُكر عنهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت» وأن ذلك شق على قتادة حتى قال: والله لوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك.

ولما كان هذا العتاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يؤدي إلى شعوره بالوقوع في الذنب أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار ليزول من نفسه هذا الشعور، حيث قال تعالى ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي اطلب مغفرته مما وقع منك من الجدال عن الخائنين ورد أصحاب الحق، ولم يكن هذا التصرف من النبي ﷺ ميلا مع الهوى، فإن هذا مما ينزه عنه مقام النبوة وإنما لتصديقه ما بلغه عن بني أبيرق من الثناء عليهم من قبَل أفراد عشيرتهم، ولم يكن قد عرف عنهم قبل ذلك ما يجرحهم فطلب من المدعي البينة على دعواه عليهم، ولم يكن هذا التصرف من النبي ﷺ مما يجرح حكمه وإنما مجابهته قتادة رضي الله عنه بالدفاع عن خصمائه مما يحمله على ترك القضية هيبة منه، ومما يدل على ذلك قوله: والله لوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك.

وقد اعتبر الله سبحانه ذلك من النبي ﷺ خطأ وأمره بالاستغفار منه، لأن مقام النبي ﷺ ليس كمقام غيره من البشر، حيث إنه قدوة للناس جميعا فأي تصرف ينقص من مرتبة الكمال البشري يعتبر إذا صدر منه خطأ، بينما لا يعتبر شيئا إذا صدر من غيره لأنه من طبيعة النقص الذي جبل عليه البشر، وأيضا فإن ما يكنه الصادقون من الصحابة

للنبي ﷺ من المودة والتقدير والهيبة والإجلال يجعلهم يتناسون حقهم إذا جابههم النبي ﷺ بشيء من النقد والعتاب، بخلاف ما إذا جابههم بذلك غير النبي ﷺ مهما كانت منزلته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ساترا ذنوب عباده المنيبين إليه ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث تكفل لهم بالثواب على أعمالهم الصالحة.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بمعصيتهم ربهم وإهدارهم الأمانة التي كلفهم الله برعايتها سواء من أصحاب هذه القضية أو غيرها، فإن دفاعك عنهم مما يشجعهم على الوقوع في الجرائم لما يرونه من إحسان الظن بهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أي لا يحب كثير الخيانة والإثم المبالغ في ارتكابها،ومن لا يحبه الله لا ينبغي لأحد أن يدافع عنه،والتعبير بصيغة المبالغة لا يقتضي تخصيص عدم محبة الله بمن أكثر من الخيانة والإثم وإنما هو لبيان إفراط بني أبيرق الذين نزل فيهم هذا النص في الخيانة والإثم[(١)] .

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي يحاولون إخفاء جريمتهم عن الناس بتبرئة المجرم من عشيرتهم والثناء عليه بالإسلام والصلاح واتهام الأبرياء، ولا يحاولون إخفاء جريمتهم عن الله حيث لا يشعرون برقابته عليهم، والحال أنه معهم يعلم جميع تصرفاتهم إذ يدبرون أمرهم ليلا على غير ما يرضي الله من قذف البريء وتبرئة المجرم، ولو أنهم شعروا برقابة الله عليهم لعلموا أنهم لن يستطيعوا إخفاء جريمتهم عنه سبحانه وتعالى، ولتغيرت تصرفاتهم

---

(١) الكشاف ١/ ٥٦٢، روح المعاني ٥/ ١٤١.

فأدانوا المجرم ولو أنه من قرابتهم وبرأوا البريء ولو أنه بعيد عنهم، وإن ما يخشونه من الناس حينما يستخفون منهم من تشويه سمعتهم وإقامة الحد على المجرم منهم لهو أقل بكثير مما يجب أن يخشوه من عذاب الله إذا برّءوا المجرم واتهموا البريء بل إنه لا ينسب إليه لو كانوا يعلمون.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ لا تخفى عليه خافية من أعمالهم فكان الواجب أن يخشوه ويراقبوه بدلا من أن يخشوا الناس ويراقبوهم، لأن الله مطلع على مكنونات ضمائرهم فلا يستطيعون أن يستخفوا منه، وهو الذي بيده مكافأة المحسن وعقوبة المسيء في الدنيا والآخرة.

ثم انتقل سبحانه من الكلام عن المجرمين والمدافعين عنهم إلى خطاب المدافعين عنهم زيادة في التشنيع عليهم، وبيانا لعدم انتفاع المجرمين من دفاعهم لأنهم إن استطاعوا أن يدافعوا عنهم في الحياة الدنيا فلن يستطيعوا أن يدافعوا عنهم في الآخرة، والحياة الدنيا لا تعتبر شيئا بالنسبة للحياة الآخرة، فهم في الحقيقة خدعوهم وضرّوهم من حيث أرادوا أن ينفعوهم فقال تعالى ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي هاأنتم هؤلاء خاصمتم عنهم في الحياة الدنيا فلنفرض أنهم انتفعوا بخصومتكم عنهم فنجوا من العقوبة في الدنيا فمن يخاصم الله عنهم يوم القيامة إذا وقفوا بين يديه للحساب؟ أم من يكون لهم حافظا وعنهم مدافعا إذا سيقوا إلى عذاب جهنم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾؟

وبعد أن عرّف سبحانه وتعالى المجرمين والمدافعين عنهم بما وقعوا فيه من الخطأ الكبير والذنب العظيم، وبين لهم أن الذي تجب مراقبته وخشيته هو الله وحده وأن الحياة

التي تجب مراعاتها بالدرجة الأولى هي الحياة الآخرة بما فيها من نعيم أو عذاب بين المخرج لهم مما وقعوا فيه من الخطأ والإثم بقوله ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي ومن يعمل عملا يسوء به غيره، أو يظلم نفسه بارتكاب معصية تختص به ثم يطلب المغفرة من الله عز وجل يجد الله ساترا عليه ذنوبه متفضلا عليه بالرحمة حيث لا يؤاخذه على ما سبق منه من المعصية ويكافئه على الطاعة.. والإساءة إلى الغير في الحقيقة تعتبر ظلما للنفس لأنها معصية لله تعالى، فلعل إفرادها بالذكر لما قد يتوهم من أن الله لا يغفر الذنب الذي فيه إساءة إلى الغير.

ثم بين تعالى أن خزي الجريمة وعارها لا يلحق إلا مرتكبها، فليس على أفراد عشيرته أيّ تبعة في ذلك حيث قال تعالى ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي من يرتكب ذنبا فهو المسئول عن خزيه وعاره في الدنيا والآخرة فلا تجادلوا عن المجرمين من قرابتكم خشية لحوق العار بكم، فكل إنسان مسئول عن ذنبه دون غيره[1] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بمن صدر منه الإثم وسيجازيه عليه ﴿حَكِيمًا﴾ حيث لم يشرع لعباده ما يشق عليهم فلم يكلف الإنسان بتحمل أوزار قرابته لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه سبحانه وتعالى عالم بمصالح عباده، فلو كان عار الجريمة يلحق قرابة المجرم لحاولوا إخفاء جريمته وإلصاق التهمة بالأبرياء من غيرهم، كما فعل هؤلاء الذين تحدثت عنهم هذه الآيات.

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى عمل ذلك المجرم الذي ارتكب الجريمة ثم ألصقها بغيره بقوله تعالى ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا

---

(١) جامع البيان ٥/ ٢٧٣.

مُبِينًا﴾ والخطيئة قيل إنها الذنب الذي يرتكب خطأ، والإثم الذنب الذي يرتكب عمدا[1] وقيل الخطيئة الذنب الصغير، والإثم الذنب الكبير[2] والأول أقرب إلى المعنى اللغوي للكلمتين، المعنى: ومن يرتكب ذنبا خطأ منه أو عمدا ثم ينسبه إلى رجل برئ منه ليبعد التهمة عن نفسه فقد اقترف كذبا عظيما وجرما واضحا كبيرا، وقد سبق في بيان سبب النزول أن الذي ارتكب الجريمة «بشير بن أبيرق» وأن الذي اتهم بها وهو برئ «لبيد بن سهل» على إحدى الروايتين أو المجرم «طعمة بن أبيرق» والمتهم البرئ «أبو مليل» على الرواية الأخرى.

ثم ذكر سبحانه تفضله على نبيه ﷺ بتنبيهه إلى مواقع الزلل التي يحاول المنافقون أن يوقعوه فيها حيث قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ أي ولولا أن الله يتفضل عليك دائما ويرحمك فيبين لك وجه الحقيقة فيما يحاول المنافقون أن يلبسوه عليك لهمت طائفة من أولئك المنافقين أن يضلوك بما يأتون به من شهادة الزور والأيمان الكاذبة، حتى تحكم بغير الحق استغلالا منهم لعدم إدراكك حقيقة بعض ما يجري في المجتمع من الوقائع، وأنك إنما تحكم بما يظهر لك من كلام الخصوم وبيناتهم، لأنك لا تعلم الغيب، وليس عندهم إيمان يردعهم عن قول الزور والأيمان الكاذبة، ولكن تَفَضُّل الله عليك بكشف حقيقتهم في هذه الواقعة وأشباهها يجعلهم يحجمون عما يهمون به من ذلك.

وقال جمهور المفسرين إنَّ الضمير في قوله (منهم) يعود على المجادلين عن المجرم في

---

(١) جامع البيان ٥/ ٢٧٤.

(٢) الكشاف ١/ ٥٦٢ - ٥٦٣.

قصة بني أبيرق السابقة[(١)] ولكن يمنع من ذلك أن أولئك المجادلين قد هموا فعلا بإضلال النبي ﷺ، والآية قد نفت إقدام تلك الطائفة منهم على الهمّ بإضلاله لوجود تفضل الله عليه فلا يظهر تفسير الآية إلا على جعل الضمير في (منهم) يعود على المنافقين جميعًا، ويكون المراد بالطائفة من تقع عليهم، أو على أقاربهم خصومات أو تكون لهم فيها مصلحة، أو الذين يريدون مجرد إضلال النبي ﷺ عن الحق.

وبعضهم أجاب عن الإشكال في الآية على جعل الضمير في (منهم) يعود على المجادلين في القضية السابقة - بأن الله نفى همهم، مع أن المنفي إنما هو تأثيره إيذانا بانتفاء تأثيره بالكلية، أو بأن المراد بالهمّ الهمُّ المؤثر[(٢)] ولكن لا حاجة إلى هذا الجواب مادام بالإمكان تفسير الآية على وجه لا يحتاج إلى تأويل.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي أنهم بمحاولتهم إضلالك حتى تحكم بغير الحق لا يضلون إلا أنفسهم لأنهم سلكوا طريقا معوجا حيث نصروا الظالم على المظلوم فبُعدهم عن الطريق المستقيم يعتبر ضلالا أوقعوا أنفسهم فيه، أما رسول الله ﷺ فلو فُرض أنه تأثر بكلامهم فحكم للمبطل على المحق، وهو يظن أنه صاحب الحق فليس في ذلك ضلال، لأنه إنما يحكم بما ظهر له، والذين يعلمون الحقيقة ثم يحاولون صرفه عنها هم الضالون لأنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم.

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾: أي ولن يستطيع هؤلاء المنافقون أن يلحقوا بك أي ضرر من الأضرار، لأن الله معك وسيعصمك من الوقوع في الزلل، وفي هذا تقوية لقلب

---

(١) جامع البيان ٥/ ٢٧٥ - الكشاف ١/ ٥٦٣ - إرشاد العقل السليم ١/ ٧٨٠ - روح المعاني ٥/ ١٤٣ - الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣٨٢ - فتح القدير ١/ ٥١٤.

(٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٧٨٠.

النبي ﷺ وتخذيل للمنافقين ببيان أن معركتهم مع النبي ﷺ فاشلة وأنهم أقل وأحقر من أن يلحقوا الضرر به.

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي البيان المحكم لأحكام الشريعة مما كان مجملا في القرآن وغيره وذلك بالسنة النبوية.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي تفضل عليك بتعليمك جميع ما كنت جاهلا به من الأمور التي عرفت بها ربك، وعرفت بها كيف تهدي الناس، وكيف تعاملهم، وألهمك معرفة الوسائل التي بها تعرف المحق من المبطل وغير ذلك.

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ حيث خصك بالرسالة إلى الجن والإنس جميعا، وأنزل عليك أعظم كتاب نزل من السماء إلى الأرض، وجعلك خاتم النبيين، ومنحك المقام المحمود يوم القيامة، وغير ذلك من الفضائل العظيمة.

وقد ذكر سبحانه امتنانه على نبيه ﷺ بهذه المنن الكبرى بعد تلك المعركة التي كان المنافقون يدبرونها ضده لبيان عظمته ورفعة مقامه، وأنه أعز شأنا وأعلى مقاما من أن يستطيع المنافقون أن يضلوه أو يضروه بشيء، لأن الذي امتن عليه بتلك المنن الكبرى هو الذي سيحفظه ويصونه من أيدي أعدائه المخادعين والمجاهرين بعدائه، حتى يُبلِّغ رسالة ربه على أكمل وجه.

ثم بين سبحانه أن الأحاديث السرية التي تدور بين الناس لا خير فيها إلا ما كان منها في مصلحة المسلمين، فقال تعالى ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي لا خير في كثير من الأحاديث السرية التي تدور بين الناس لأنها في سبيل الشر، حيث إن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، والمؤمنون منهم قلما يتناجون في خدمة إخوانهم المؤمنين، لكن ما كان من هذه الأحاديث في سبيل مصالح

المسلمين ففيه الخير وإن كان قليلا.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى من أعمال البر التي في التناجي فيها خير: الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، فالتناجي في الصدقة مثل أن يخبر أهل الخير بعضهم بعضا عن المحتاجين إلى الصدقة، أو يجتمعوا على إنشاء مشروع خيري للبر بالفقراء وما أشبه ذلك، والمعروف يشمل كل ما استحسنه الشرع وأرشد إليه فكل أعمال الخير تدخل فيه، ومن ذلك إنشاء الجمعيات التي تدعو الناس إلى التمسك بالإسلام وتحذرهم من الوقوع في حبائل الدعوات الجاهلية، فالتناجي بين أفرادها لهذا الغرض من التناجي بالخير، أما الإصلاح بين الناس فهو التوفيق بينهم فيما إذا اختلفوا بأي وجه من الوجوه التي لا تتنافى مع تعاليم الإسلام.

والصدقة والإصلاح بين الناس داخلان في المعروف، وإنما خصا بالذكر زيادة في الاعتناء بهما لقوة أثرهما في المجتمع، فالصدقة رفع لفئة من أفراد المجتمع من الفقر الذي قد يؤدي بها إلى أضرار جسيمة في دينها وأبدانها، ويعزلها عن السير مع بقية أفراد المجتمع في سبيل العمل المشترك للنهوض بالأمة الإسلامية، والإصلاح بين الناس علاج للمرض الفتاك الذي يفرق بين أفراد الأمة ويجعلهم غير صالحين للاجتماع على هدف واحد، فكلا الأمرين بناء للأمة الإسلامية بعد أن توشك على الانهيار فلا شك أن تخصيصهما بالذكر له قيمته واعتباره.

ثم ذكر سبحانه قيدا لقبول تلك الأعمال الخيرية السابقة وهو أن يبتغي بها عاملها وجه الله جل وعلا فقال تعالى ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ومن يجتمع مع إخوانه المؤمنين للقيام بأعمال البر السابقة الذكر طلبا لرضا الله وحده، فإن الله قد أعدّ له في الجنة ثوابا جزيلا لا يقدَّر قدره ولا تقاس عظمته،

أما من يفعل ذلك رياء وسمعة للناس كي يُحمد أمره ويعلو ذكره، فإن عمله ذلك ينقلب شرا عليه ووبالا، لأن كل عمل لا يراد به وجه الله يعتبر شرّا وإن كان ظاهره الخير.

ثم أشار سبحانه إلى ذلك المجرم من بني أبيرق حينما لجأ إلى المشركين في مكة بعد انكشاف جريمته بقوله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي ومن يخالف الرسول ﷺ ويعاديه فيكفر برسالته من بعد ما تبين له أن ما يدعو إليه هو الهدى والطريق المستقيم ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن يفضل الكفر على الإيمان والعيش في مجتمع الكفار على العيش في مجتمع المؤمنين ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي نتخلى عن حفظه ونكله إلى من تولاهم من الكفار ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وندخله يوم القيامة في جهنم وقَبُحَتْ مرجعًا ومآلا، فلينقذه منها أولئك الكفار الذين تولاهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي إن من مات وهو مشرك بالله تعالى فإن الله لا يغفر ذنبه بل جزاؤه أن يخلد في نار جهنم، أما من مات على التوحيد وقد ارتكب الذنوب التي هي دون الشرك بالله ولم يتب منها قبل موته فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه، ولكنه لا يخلد في النار بل يخرجه الله منها ويدخله في الجنة، أما إذا تاب من ذنوبه قبل موته فإن الله يتوب عليه.

والشرك بالله هو عبادة غيره معه بأي نوع من أنواع العبادة، وإنما لم يغفر الله لمن مات على الكفر به، لأن استمراره على الكفر بالله طيلة حياته مع توافر الأدلة الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، دليل على فساد فطرته وإصراره المتواصل على الاستسلام لميوله المنحرفة، فهو بذلك قد ارتكس في الظلمات والمتاهات البعيدة عن الطريق المستقيم

الموصل إلى الله كما قال تعالى في آخر هذه الآية ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ أي انحرف عن الطريق المستقيم انحرافا بعيدا جدا بخلاف المؤمن بالله وحده فإنه قد سلك الطريق المستقيم، فهو وإن ارتكب بعض المعاصي لا ينحرف عنه بعيدا، وإذا تاب من ذنوبه رجع إلى سلوك الطريق المستقيم.

وهذه الجملة تذييلية للتنبيه على سبب إدخالهم جهنم وأن الله لا يغفر لهم، أي أدخلهم الله جهنم ولم يغفر لهم لأنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا.

* * *

١٢ - استغلالهم الفرص للطعن في دعاة الإسلام

النص القرآني في ذلك:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[الأحزاب: ١-٦].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟

مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الأحزاب: ٣٦ - ٤٠].

٣ - قال تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب: ٤٨].

بيان من نزل فيه هذا النص:

قوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

١- قال السيوطي: أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[1].

٢- قال الألوسي: وذكر الثعلبي والواحدي بغير إسناد أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه، عليه الصلاة والسلام في زمان الموادعة التي كانت بينه ﷺ وبينهم، وقام معهم عبد الله بن أبيّ ومعتب بن قشير والجد ابن قيس فقالوا لرسول الله ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك

(١) لباب النقول/ ١٧٤. وجويبر هو ابن سعيد الأزدي، والضحاك هو ابن مزاحم الهلالي.

وريك، فشق ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت[1] .

والذي يؤخذ من هاتين الروايتين أن قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ﴾ الآية قد نزلت بسبب مساومة بعض المشركين رسول الله ﷺ في الرجوع عن دينه، ولكن الرواية الأولى فيها جويبر وهو ضعيف جدًا كما ذكر ابن حجر والرواية الثانية ليس لها سند، هذا إضافة إلى أن مساومة قريش للنبي ﷺ على ترك دعوته إنما كانت في مكة حيث كان في قلة من أنصاره، وكان كفار مكة يخشون من اعتزازه بانتشار دعوته فعملوا على إماتتها بما أمكنهم من الوسائل، أما بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فإن الإسلام قد اعتز وأصبحت له دولة مرهوبة الجانب، وقد انتصر النبي ﷺ على قريش فليس من المعقول أن يذهبوا إليه ليفاوضوه في ترك دعوته، وهم قد عرفوا صلابته في دينه يوم أن كان بين أظهرهم في قلة من أنصاره، فكيف بعد أن أصبح له دولة وسلطان؟ وفي عام الحديبية صالحهم بما فيه غبن عليه في الظاهر فَلمَ لم يفاوضوه في هذا الأمر؟

والظاهر أن هذه الآية قد نزلت توطئة لما ذُكر بعدها من إبطال عادة التبني نظرًا لتمسك أهل الجاهلية بهذه العادة فأرشد الله سبحانه نبيه ﷺ إلى الإعراض عما يثيره الكفار والمنافقون حول إبطال الإسلام هذه العادة، وخصوصا لما كان الذي سيتولى إبطالها عمليا هو الرسول ﷺ كما سيأتي في تصوير الموقف.

٣- أخرج الإمام أحمد من حديث قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه قال: قلنا لابن عباس: أرأيت قول الله عز وجل ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾؟ ما عنى بذلك؟ قال: قام نبي الله ﷺ يوما يصلي، قال: فخطر خطرة فقال المنافقون الذين

---

(١) روح المعاني ٢١/ ١٤٣.

يصلون معه: ألا ترون له قلبين، قال: قلب معكم وقلب معهم! فأنزل الله عز وجل ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾(١).

٤- أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾: كان رجل من قريش يسمى من دَهْيه ذا القلبين فأنزل الله هذا في شأنه(٢).

---

(١) مسند أحمد ١/ ٢٦٧ – ٢٦٨، وقد أخرجه ابن جرير – ٢١/ ١١٨ – والترمذي في تفسير سورة الأحزاب – ٩/ ٥٨ – والحاكم في المستدرك ٢/ ٤١٥ –.

وقوله «فخطر خطرة» قال ابن منظور: الخاطر ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر وقال ابن سيده: الخاطر الهاجس والجمع الخواطر، وقد خطر بباله وعليه يخطر ويخطُر إذا ذكره بعد نسيان.

وقال ابن الأثير: وفي حديث سجود السهو «حتى يخطر الشيطان بين المرء وقلبه» يريد الوسوسة، قال: ومنه حديث ابن عباس: «قام نبي الله ﷺ يومًا يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون: إنه له قلبين» – لسان العرب والنهاية.

ويبين هذه الجملة ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فأكثروا فقالوا إن له قلبين ألم تسمعوا إلى قوله وكلامه في الصلاة إن له قلبا معكم وقلبا مع أصحابه فنزلت ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ إلى قوله ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ – الدر المنثور ٥/ ١٨.

وقوله في رواية الإمام أحمد «وقلبا معه» يعني مع أصحابه كما تبين من رواية ابن مردويه السابقة. والكلمة التي نطق بها النبي ﷺ وهو يصلي كما جاء في هذا الحديث يحتمل أن تكون آية من الآيات التي نزلت في المنافقين تبين دخيلة نفوسهم، ولهذا قالوا إن له قلبين قلبا معكم وقلبا مع أصحابه، والله أعلم.

(٢) جامع البيان ٢١/ ١١٨.

٥- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: إن رجلا من بني فهر قال: إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد -وكذب-[(١)].

٦- أخرج ابن جرير من طريق معمر عن الزهري أنه قال في هذه الآية: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب الله مثلا، يقول: ليس ابن رجل آخر ابنك[(٢)].

٧- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾: نزلت في زيد بن حارثة.

وأخرجه ابن جرير من طريق ابن وهب عن ابن زيد[(٣)].

ومن هذه الروايات يتلخص لنا أن في سبب نزول قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ ثلاثة احتمالات:

أولاً: أنها نزلت في المنافقين حينما قالوا عن النبي ﷺ إن له قلبين، والرواية في ذلك فيها ضعف من جهة أحد رواتها وهو قابوس بن أبي ظبيان ولكنه ضعف محتمل.

ثانياً: أنها نزلت في رجل من قريش يسمى ذا القلبين من رجاحة عقله. والرواية بذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق العوفي وهذا السند ضعيف جدا كما سبق ولكنه يتقوى بما روي عن مجاهد وقتادة وعكرمة.

ثالثاً: أنها نزلت في زيد بن حارثة تمهيدًا لإبطال عادة التبني حيث ضرب الله ذلك مثلا ووجه ذلك أنه كما يستحيل وجود قلبين في جوف واحد فإنه يمتنع أن يكون الابن بالتبني

---

(١) جامع البيان ٢١/ ١١٨.

(٢) المرجع السابق ٢١/ ١١٩.

(٣) المرجع السابق ٢١/ ١١٩.

كالابن بالنسب لأنه يستحيل أن يكون للرجل الواحد أبوان. والرواية بذلك مرسلة حيث لم يسندها الزهري إلى الصحابة ولكنها أقرب إلى سياق الآيات مما تدل عليه الروايات الأخرى ولا مانع من أن تكون الآيات قد نزلت بسبب قول المنافقين وادعاء ذلك الرجل من قريش ثم ضرب الله سبحانه ذلك مثلا لإبطال التبني.

٨- أخرج ابن جرير من حديث عكرمة عن ابن عباس ﵄ قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسبا وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ «الآية كلها»[1].

وأخرج ذلك ابن جرير عن ابن عباس ﵄ من طريق العوفي[2] وعن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح وعن قتادة من طريق ابن أبي عروبة[3].

٩ - أخرج ابن جرير من طريق ابن وهب عن ابن زيد أنه قال في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت من أول من هاجر من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده، قال: فنزل القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[4].

---

(١) جامع البيان ٢٢/ ١١.

(٢) جامع البيان ٢٢/ ١١.

(٣) المرجع السابق ٢٢/ ١١.

(٤) جامع البيان ٢٢/ ١٢.

وكون هذه الآية نازلة في زينب أرجح لأنه هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ولدلالة سياق الآيات عليه إذ أن بعد هذه الآية التي نزلت في زيد وزينب، أما القول بأنها نازلة في أم كلثوم بنت عقبة فهو مروي عن عبد الرحمن بن زيد وقد سبق تضعيفه، إضافة إلى عدم دلالة السياق عليه.

١٠ - أخرج الإمام البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن هذه الآية ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة»[(١)].

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات نزلت في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش بعد طلاق زيد بن حارثة لها، وقد اختُلف في وقت ذلك، فقيل إنه في ذي القعدة من السنة الخامسة، وبهذا قال قتادة والطبري والواقدي والبيهقي كما ذكر ابن كثير[(٢)]، وقيل إنه في سنة ثلاث وبهذا قال خليفة ابن خياط وأبو عبيدة معمر بن المثنى وابن منده كما ذكر بن كثير[(٣)]، وقيل إنه سنة أربع وبهذا قال الذهبي[(٤)].

والحجاب أول ما نزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب كما أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال بعدما ذكر خدمته لرسول الله ﷺ «... وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول ما نزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش»[(٥)] وفي رواية

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وتخفى في نفسك ما الله مبديه﴾ (فتح الباري ٨/ ٥٢٣).

(٢) البداية والنهاية ٤/ ١٤٥.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) تاريخ الإسلام ٢/ ٣٤.

(٥) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوليمة حق (فتح الباري ٩/ ٢٣٠).

للبخاري عنه أنه قال: فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية[١].

وقد ذكر ابن حجر الخلاف في تحديد وقت الحجاب فقال: والحجاب كان في ذي القعدة سنة أربع عند جماعة. أما قول الواقدي إن الحجاب كان في ذي القعدة سنة خمس فمردود، وقد جزم خليفة وأبو عبيدة بأنه كان سنة ثلاث، فحصلنا في الحجاب على ثلاثة أقوال أشهرها سنة أربع والله أعلم[٢].

ومما يبين ضعف القول بأنه كان في ذي القعدة من السنة الخامسة أن النبي ﷺ كان في ذلك الوقت مشغولا بحصار بني قريظة، حيث استمر حصاره لهم إلى أول ذي الحجة كما قال ابن إسحاق «وكان فتح بني قريظة في ذلك القعدة وصدْر من ذي الحجة»[٣] وقبل ذلك كان مشغولا بقتال الأحزاب في شهر شوال إلى أول ذي القعدة، ولما هزم الله الأحزاب خرج رسول الله ﷺ إلى بني قريظة على الفور، ولم يُقم في المدينة يوما واحدا، وذلك لأنه رجع إلى المدينة في الصباح وخرج منها لحصار بني قريظة بعد الظهر كما سيأتي، وزواج النبي ﷺ بزينب قد تم في المدينة وأولم عليه النبي ﷺ كما أخرج مسلم بسنده عن أنس ﷺ قال: أصبح رسول الله ﷺ عروسا بزينب بنت جحش قال: «وكان تزوجها بالمدينة فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار»[٤] فتبين من هذا أن ذلك الزواج لم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ الآية (فتح الباري ٨/ ٥٢٧).

(٢) فتح الباري ٧/ ٤٣٠.

(٣) السيرة النبوية ٣/ ٣٥٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش(ص١٠٥٠).

يتم في ذلك الوقت، فبقي القول بأنه في السنة الرابعة، والقول بأنه في السنة الثالثة وقد سبق ترجيح ابن حجر لكونه في السنة الرابعة وهو الظاهر.

ومما يدل على أن زينب كانت في عصمة النبي ﷺ في ذلك الوقت ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة قال: فبينا رسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلتْ شقه إذ أتاه جبرائيل عليه السلام فقال: «عفا الله عنك ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة فانهض إلى بني قريظة» الحديث[(١)].

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

تبين لنا من عرض أسباب النزول أن هذه الآيات قد نزلت من أجل إبطال بعض العادات الجاهلية ومن أهمها عادة التبني، وهي أن ينسب الرجل إليه ابنًا ليس من أبنائه في النسب، فيكون له بذلك حكم الابن من النسب في الميراث وسائر الحقوق، وقد كانت هذه العادة شائعة بين العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حتى نزلت هذه الآيات لإبطالها.

ومن ذلك تبني رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وهو صغير إلى أن أصبح رجلا كما روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

وقد خطب النبي ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فامتنعت أول الأمر واستنكفت من أن تزوج من هو دونها في النسب، ثم رضيت بالزواج به بعد ذلك طاعة

---

(١) جامع البيان ٢١/ ١٥٠.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب سورة الأحزاب (فتح الباري ٨/ ٥١٧).

لله ورسوله، ولكن لم تدم العشرة بينهما طويلا بحيث كانت تترفع عليه بنسبها فاشتكاها إلى رسول الله ﷺ وأعلمه بأنه قد اشتد عليه لسانها، وأنه يريد طلاقها فنهاه النبي ﷺ عن ذلك وأمره بإمساكها، وكان الله تعالى قد أعلم نبيه ﷺ بأن زينب ستكون من أزواجه وهي في عصمة زيد قبل نزول القرآن بذلك، فلم يُظهر ذلك خوفا من أن يقول الناس إنه أمر زيدا بطلاقها ليتزوجها هو أو يقولوا تزوج مطلقة متبناه، وكان ذلك مستنكرا بين العرب لأن الابن بالتبني عندهم كالابن بالنسب.

فلما تفاقم الخلاف بين زيد وزينب رضي الله عنهما طلقها، وذلك كما أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إيّاه، ثم أعلم الله عزّ وجلّ نبيه ﷺ بعدُ أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه، ويقولوا تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيدا» ذكر هذه الرواية ابن حجر في الفتح ثم ذكر رواية أخرى مختصرة عن طريق علي بن زيد عن علي بن الحسين بن علي، ثم قال: وقد أطنب الترمذي الحكيم في تحسين هذه الرواية وقال إنها من جواهر العلم المكنون وكأنه لم يقف على تفسير السدي الذي أوردته وهو أوضح سياقا وأصح إسنادًا إليه لضعف علي بن زيد بن جدعان[1].

ولما انقضت عدتها أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة إليها يخطبها له تنفيذا لأمر الله عز وجل كما روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: لما انقضت عدة زينب

(١) فتح الباري ٨/ ٥٢٥.

قال رسول الله ﷺ لزيد: فَاذْكُرْهَا عليّ، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[1].

وإنما أمر الله نبيه بالزواج من زوجة زيد الذي كان قد تبناه لمحو آثار عادة التبني بعد إبطالها حيث أبطلها سبحانه بقوله في أول السورة ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الآيتين.

وإنما اختار الله سبحانه نبيه ﷺ للقيام بهذه المهمة بنفسه نظرًا لرسوخ آثار هذه العادة في نفوس العرب، حيث كانوا يستنكرون بشدة إقدام الرجل على الزواج من زوجة دَعيِّه إذا فارقها، فلم يكن أحد يستطيع أن يقوم بهذه المهمة غير رسول الله ﷺ، خصوصا وأن العرب كانوا يملكون حساسية مرهفة نحو الأعراض، ويحتقرون من يحاول انتهاكها وكانوا جهلا منهم يعتبرون الابن بالادعاء كالابن بالنسب.

ولم يكتف الله سبحانه في محو آثار هذه العادة بالإرشاد والتوجيه لأن زواج الرجل من مطلقة دعيه ليس أمرا واجبا، ولن يُقدم أحد على مواجهة استنكار المجتمع وانتقاده اللاذع من أجل فعل أمر مباح، فأما حين يقوم بتنفيذ ذلك رسول الله ﷺ فإن للمؤمنين جميعا فيه أسوة حسنة، ولن يواجَه أحد قام بهذا العمل باللوم والانتقاد ما دام قد تأسى برسول الله ﷺ في ذلك.

---

(١) صحيح مسلم كتاب النكاح باب زواج زينب رقم ١٤٢٨ (ص١٠٤٨).

هذا و قد أورد ابن جرير الطبري وغيره في سبب طلاق زينب وزواج النبي ﷺ بها روايات مستنكرة لا تليق بمقام النبوة، ومفادها أن النبي ﷺ زار بيت زيد يوما فوجد زينب حاسرة عن شعرها فوقع في نفسه الإعجاب بها، وأنها ذكرت ذلك لزيد فطلقها من أجل رسول الله ﷺ.

وقد علق ابن كثير على هذه الروايات بقوله: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هاهنا آثارا عن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها فلا نوردها[1].

وقال ابن حجر: ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها[2].

وابن جرير لم يرو هذا الخبر عن الصحابة وإنما رواه عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وروى عن قتادة ما يشير إلى ذلك وليس صريحا فيه[3].

وقد استغل أعداء الإسلام هذا الخبر للطعن في النبي ﷺ، وهو خبر قد ظهر عليه الاختلاق والكذب فالنبي ﷺ لو كان معجبا بزينب كما في تلك الروايات لخطبها لنفسه أولا بدلاً من أن يخطبها لمولاه زيد، وقد كانت غير راضية بالزواج من زيد وإنما استجابت لذلك طاعة لله ولرسوله كما سبق، أما ما جاء في بعض تلك الروايات من أنه ﷺ رآها في بيت زيد وهي حاسرة فأعجبته، فيكذبه أن النبي ﷺ ليس من خلقه أن يقتحم على الناس بيوتهم بلا استئذان؛ بل إن هذا لا يصدر من مؤمن ملتزم بأحكام الإسلام فضلا عن النبي ﷺ، ومما يكذب هذه الدعوى أن النبي ﷺ كان يرى زينب

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١١.

(٢) فتح الباري ٨/ ٥٢٤.

(٣) جامع البيان ٢٢/ ١٣.

منذ أن كانت صغيرة لأنها كانت ابنة عمته فما الذي أعجبه منها بعد ذلك؟! ولو كان ما ذكر من أن زواج النبي ﷺ بها كان نتيجة الإعجاب بها وأن زيدا لم يطلقها إلا من أجل ذلك لكان أول من ينكر ذلك على النبي ﷺ أعداؤه المعاصرون له الذين يحاولون تشويه سمعته بمختلف الوسائل، ولكن لم يذكر المؤرخون أن أحدًا منهم انتقده بشيء من ذلك، وإنما الذي انتقدوه به هو أن تزوج امرأة ابنه، قال ابن الأثير: وتكلم المنافقون في ذلك وقالوا إن محمدا يحرم نكاح نساء الأولاد وقد تزوج امرأة ابنه زيد، لأنه كان يقال له زيد ابن محمد[1].

هذا إضافة إلى أن هذه الروايات تناقض صريح القرآن حيث قد بين الله تعالى الحكمة من تزويج النبي ﷺ بزينب بقوله ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فهذا هو الدافع إلى تزوج النبي ﷺ بها لا ما ادعوه من أنه رآها وهي حاسرة فأعجب بها، وبناء على هذا الادعاء يكون ما يخفيه النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ هو حبه لها ورغبته في الزواج بها، وهذا يخالف ما أظهره الله بعد ذلك، إذ أن الذي أظهره الله هو أمره بالزواج بها لا أنه كان يحبها ويرغب في تزوجها.

بيان النص:

١- سبق في تصوير الموقف أن من تقاليد الجاهلية اعتبار الابن المتبنى كالابن من النسب، ولما كانت هذه العادة تخالف تعاليم الإسلام أبطلها الله سبحانه في هذه الآيات حتى لا تُبْنَى عليها أحكام الإسلام كالإرث والمحرمية، وقد افتتح الله سبحانه هذه الآيات بأمر النبي ﷺ بتقوى الله ونهيه عن طاعة الكفار والمنافقين الذين سيعيبون عليه

---

(١) أسد الغابة ٧/ ١٢٦.

مخالفة عوائدهم حيث قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ومخاطبته تعالى رسوله ﷺ بالنبوة إشارة إلى أن كونه منبأ عن الله بالوحي الإلهي يقتضي أن لا يلتفت إلى شيء سواه، لأن الوحي الإلهي لا ينزل إلا بالحق والعدل ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي اجتنب سخطه عليك بمراقبته وحده ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي لا توافقهم فيما يأمرونك به أو يشيرون به عليك فإنما يريدون فتنتك عن دينك، ولا تهتم بما يثيرونه حولك من الشبهات ليشوهوا سمعتك كالذي أثاروه حول زواجك بزوجة ابنك بالتبني، فإنما يريدون بذلك أن تترك بعض ما أنزل الله إليك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي دقيق العلم بالغ الحكمة فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك فأكمل تربيتك، ولو خالفك في ذلك الناس جميعا ولا تلتفت إلى ما تعارف عليه أهل الجاهلية من عادات وتقاليد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي عليما بجميع ما تعملونه، ما أسررتموه وما أعلنتموه.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعتمد على الله عز وجل في جميع أمورك ولا تبال بقوى أهل الأرض جميعا ممن يكفرون بدعوتك، فإن قوتهم حقيرة صغيرة أمام قوة الله عز وجل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي معتمَدا تركن إليه ومستندا تسند أمورك إليه، فيحفظك من شرور الأعداء.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ أي ليس من سنة الله التي فطر الناس عليها أن يكون لرجل واحد قلبان في جوفه كما يزعم الزاعمون.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الظهار هو أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي، المعنى: وليس من شرع الله أن تكون الزوجة بقولهم هذا أمّـًا كما يدّعي الجاهلون.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي فكذلك في شرع الله ليس الأبناء بالادعاء كالأبناء بالنسب لهم من الحق على المتبني ما للابن على أبيه، كما جرت عليه عادات الجاهلية، وفي هذه الجملة أبطل سبحانه عادة التبني التي سار عليها العرب في الجاهلية وصدر الإسلام.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي فلا تترتب عليه آثار عملية، لذلك جاء الإسلام بإلغائه وردّ الحق إلى نصابه.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يقرر الحقائق الثابتة التي تنبني عليها الأحكام الشرعية ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي يدلكم على الطريق الموصل إلى الحق والعدل والحكمة فخذوا بقوله عز وجل ودعوا ما عداه من تقاليد الجاهلية.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين فإن هذا هو العدل عند الله، لأنه هو المطابق للحقيقة والواقع ولا يتعارض مع أحكام الشريعة.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي فإن لم تعرفوا آباءهم فهم إخوانكم في الدين ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي تنسبونهم إليكم بالولاء كما قيل في سالم ﷺ: مولى أبي حذيفة[1] وقيل: المعنى أولياؤكم في الدين[2] والأول أظهر لأن هذا المعنى يفيده قوله ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي وليس عليكم إثم فيما أخطأتم به من نسبة الأدعياء إلى غير آبائهم سهوا، ولكن ما تعمدته

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١١٩ – ١٢٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥٠.

قلوبكم من ذلك بعد النهي عنه فعليكم الإثم فيه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ حيث ستر عليكم ذنوبكم فلم يؤاخذكم فيما أخطأتم به من ذلك، لأن الألسنة تسبق إلى ما ألفته من الأسماء الأولى ولا تنتقل إلى الأسماء الجديدة إلا بمران وتنبه ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم حيث تكفل لكم بالثواب على امتثال الأوامر.

ثم بين سبحانه أن علاقة النبي ﷺ بزيد بن حارثة رضي الله عنه وغيره من المؤمنين هي أشد قوة وأعظم رسوخا من علاقة الأبوة والبنوة فقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أقرب إليهم وأكثر لهم نصحا وأعظم عليهم شفقة من أنفسهم، وإنما كان كذلك لأنه لا يأمرهم إلا بالخير، ولا ينهاهم إلا عن الشر، بخلاف أنفسهم فإنها قد تأمرهم بالشر وتنهاهم عن الخير فتوردهم موارد الهلاك، ولذلك كان مما يأمر به الدين أن يكون رسول الله ﷺ أحب إلى المسلم من ولده ووالده والناس أجمعين، كما في قوله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[1].

وأن يكون أحب إليه حتى من نفسه كما أخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر»[2].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ (فتح الباري ١/ ٥٨) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ، حديث رقم (٦٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، (فتح الباري ١١/ ٥٢٣).

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي وحرمة أزواج النبي ﷺ كحرمة أمهاتهم من حيث الأحكام ومن حيث الحقوق والواجبات.. من حيث الأحكام حيث لا يجوز الزواج بهن من بعده ﷺ وإن كن يختلفن عن الأمهات من النسب في حرمة النظر إليهن، وظاهر النص يقتضي جواز ذلك لكونهن أمهات المؤمنين؛ ولكن النصوص الأخرى تبين المقصود من هذه الآية حيث أمرت نساء النبي ﷺ بالحجاب كسائر النساء، ومن حيث الحقوق والواجبات حيث يجب لهن من البر والاحترام مثل ما يجب للأمهات.

وقد بين الله سبحانه في هذه الآية أن رابطة الدين التي ربطت المؤمنين بالنبي ﷺ وربطت المؤمنين بعضهم ببعض هي أقوى وأمتن من رابطة النسب، بالنسبة للمودة والنصرة، ولكنها لا علاقة لها بأحكام الإرث، ولذلك قال تعالى في هذه الآية ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي وأصحاب الرحم الذين تربطهم رابطة القرابة أولى بأن يرث بعضهم من بعض بهذه الرابطة في حكم الله وقضائه؛ من أن يتوارثوا بالإيمان والهجرة دون الرحم، وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بعد الهجرة بالأخوة التي عقدها النبي ﷺ بينهم دون القرابة كما أخرج ابن أبي حاتم قال حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبي من ساكني بغداد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم وأورثناهم، فآخى أبو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد، وآخى عمر رضي الله عنه فلانًا، وآخى عثمان رضي الله عنه رجلا من بني زريق بن سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره، قال الزبير رضي الله عنه: وآخيت أنا كعب بن مالك، فجئت فحملته فوجدت

السلاح قد ثقَّله فيما يُرى، فو الله يا بُنيَّ لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري[1] حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى مواريثنا»[2].

ثم بين سبحانه أن تقرير هذا الحكم الشرعي بالنسبة للتوارث لا يمنع من إسداء المعروف لإخوانهم في الإيمان فقال تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾ أي إخوانكم الذين والى بينكم وبينهم النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أي فعلا معروفا من الوصية لهم، وتحمُّل الديات عنهم وما أشبه ذلك من أعمال البر والإحسان[3].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ أي كان ذلك الحكم وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في حكم الله، مقدرا مكتوبا في الكتاب الأول الذي لا يبدَّل ولا يغير، قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان تعالى قد شرع خلاف ذلك في وقتٍ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي والله أعلم[4].

٢- ولما أبطل الله سبحانه عادة التبني في الآيات السابقة أراد أن يمحو آثارها بأمر نبيه ﷺ بتطبيق ذلك عمليا، فقدر زواج زيد بن حارثة من زينب ليتزوجها بعده النبي

---

(١) قوله «يومئذ» يعني يوم «أحد» كما ثبت في رواية أخرى عن عروة «أن النبي ﷺ آخى بين الزبير وبين كعب بن مالك فارتُثَّ كعب يوم أحد، فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته..» ذكره القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٢٤)، وقوله «ارتث» أي حُمل جريحًا وبه رمق كما ذكر صاحب القاموس، وقد جاء في هذه الرواية التي ذكرها ابن كثير «فابتعلته» ولعلها فحملته كما يدل على ذلك سياق الرواية التي ذكرها القرطبي.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٨.

(٣) جامع البيان ٢١/ ١٢٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٨.

ﷺ، ولما رفضت زينب أن تتزوج من زيد أنزل الله في ذلك -كما سبق- قوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي وما صح وما استقام في شريعة الله لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله عليهم بحكم أن يختاروا لأنفسهم من شأنهم ما شاءوا، بل يجب عليهم أن ينفذوا أمر الله ورسوله ولو كانوا يشعرون في قرارة نفوسهم بكراهية ذلك الأمر، لأنهم بتفكيرهم القاصر لا يدركون المصلحة من المفسدة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي ومن يعص الله ورسوله في أي أمر من الأمور ويتبع فيه هواه فقد انحرف عن الطريق المستقيم انحرافا واضحا.

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي واذكر يا رسول الله وقت قولك ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالهداية إلى الإسلام وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بتحريره من الرق، وتقريبه من نفسك ومعاملته بالمعروف والإحسان ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي اذكر إذ تقول لزيد أبق زوجك زينب في عصمتك ولا تطلقها ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها فإن ما بدر منها لا يستدعي طلاقها ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي والحال أنك حينما قلت له هذا الكلام تخفي في نفسك أمرا سيظهره الله حينما يجيء وقت إظهاره، وهذا الأمر هو إخبار الله تعالى نبيه ﷺ بأن زينب ستكون من أزواجه كما سبق، ولما كان طلاق زينب سيفضي إلى تزوج النبي ﷺ بها لمحو عادة من عادات الجاهلية وتقرير حكم شرعي، لم يَعُدْ هذا الطلاق مكروها، ولم يكن النبي ﷺ بإخفائه ذلك الأمر قد ارتكب معصية لأنه لم يكن مما وجب عليه أن يبلغه حتى ينزل به الوحي، وإنما كان ذلك خلاف الأولى فقط.

وكان الرسول ﷺ قد أخفى ذلك الأمر قبل نزول الوحي به، لأنه كان يخشى أن يتخذه الأعداء من الكفار والمنافقين وسيلة للنَّيل من دعوته، وقد عاتبه الله على ذلك

بقوله ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي وتخاف انتقاد الناس بأن يقولوا تزوج زوجة ابنه وكان الأولى والأجدر أن تراقب الله وحده.

ولم يكن النبي ﷺ يخشى الناس جبنًا منه عن مواجهتهم، فهو الذي وقف من قريش المواقف العظيمة يوم أن كان بين أظهرهم وتحداهم وهو في قلة من أنصاره، فكيف يخاف الناس بعد أن أصبحت له دولة مرهوبة الجانب؟!

وإنما يخشى على مستقبل دعوته فيما إذا استغل أعداؤه الفرصة فشوهوا سمعته بين العرب، والعرب في ذلك الزمن كانت عندهم حساسية شديدة في مثل هذه الأمور، فأرشد الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآيات إلى أن تنفيذ شرع الله يجب أن يكون مقدما على مراعاة سمعته بين الناس من أهل الجاهلية، وأن يجعل من الأمور التي تعتبر مستنكرة عند الناس أمورا مقبولة مرغوبة لأن الله أباحها، والأمور التي تعتبر محبوبة مطلوبة عند الناس أمورًا مستنكرة مستكرهة لأن الله حرمها.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ الوطر: النهمة والحاجة المهمة [(١)] أي فلما قضى زيد من زينب حاجته وفارقها زوجناكها، فكان الذي وَلِيَ تزويجها الله عز وجل فدخل النبي ﷺ عليها بلا ولي ولا شهود ولا عقد كما سبق بيان ذلك.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي إنما قضينا بتزويجك منها ليرتفع الحرج عن المؤمنين في تزوج مطلقات أدعيائهم، وقد قضى الله أن يكون ذلك بأبلغ وسيلة حيث طبق ذلك النبي ﷺ بنفسه.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي وكان ما تم من زواج النبي ﷺ بزينب بعد فراق زيد لها أمر قد قضاه الله وقدره؛ ليحصل بسببه التشريع للمؤمنين.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، القاموس المحيط.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي ما صح ولا استقام أن يؤاخذ النبي ﷺ على تنفيذ حكم قد شرعه الله له، وما كان الله ليشرع له إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فلا إثم عليه فيما أحل الله له من نكاح مطلقة دَعيِّه، بل هو أمر واجب عليه تنفيذه لأن الله عز وجل أمر به.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ أي سنَّ الله ذلك سنةً في الأنبياء الذين مضوا من قبل، أن لا يؤاخذهم فيما أباح لهم، فكذلك النبي ﷺ لم يكن الله ليجعل عليه إثما فيما أحل له[1].

وقد سار بعض المفسرين على اعتبار الآية فيما أحله الله للرسل الماضين من كثرة النساء واستشهدوا على ذلك بداود وسليمان عليهما السلام وما كان تحتهما من المئات من النساء[2]، وهذا على مافيه من القدح بالأنبياء بإثبات تغاليهم في قضاء ملذاتهم بغير مستند صحيح فإن فيه بُعْدًا عما تقتضيه هذه الآيات إذ أنها لم تنزل في شأن إكثار النبي ﷺ من النساء وإباحة ذلك له، وإنما نزلت في إباحة زواج مخصوص وهو زواج الرجل بزوجة دعيِّه إذا طلقها.

كما اعتبر بعضهم قوله تعالى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا[3] وهذه قصة مختلقة ليس لها أصل من الصحة ويتنزه الأنبياء عليهم السلام عن مثلها.

---

(١) انظر جامع البيان ٢٢/ ١٤، تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٦٤، إرشاد العقل السليم٤/ ٤٢٠، روح المعاني ٢٢/ ٢٧.

(٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٢١٣.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي شرعه الذي شرع من إباحة زواج الرجل من مطلقة دعيّه ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي قضاء مقضيا وما قضاه الله وقدّره فلا اعتراض عليه، فهو الذي قضى مثلا بأن يتزوج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش ﵂ أولاً ثم يفارقها فيتزوجها النبي ﷺ، ليتم بذلك تقرير التشريع بعدم حرمة مطلقة الدّعي على من تبناه بصورة لا أكمل منها ولا أبلغ،حيث باشر القيام بها النبي ﷺ مع مولاه زيد ﵁.

ثم بين سبحانه الخلق الكامل الذي اتصف به الرسل عليهم الصلاة والسلام في تبليغ ما أرسلوا به فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي أولئك الرسل هم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى الناس الذين أرسلوا إليهم، على أكمل وجه ويراقبون الله وحده، ولا يخافون في الله لومة لائم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي كافيا لمن راقبه واعتمد عليه وحده.

ثم عاد سبحانه إلى إبطال عادة التبني التي سار عليها أهل الجاهلية فقال تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ فليس بينه وبين أحد منكم علاقة أبوة وبنوة فإن هذه العلاقة إنما تثبت بالنسب فقط، وليس فيكم من هو ابن للنبي ﷺ من النسب، أما التبني فقد أبطله الإسلام ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي ولكن علاقتكم به أنه مرسل من الله إليكم لهدايتكم، فأنتم أصحابه وأتباعه على دينه، وهذه العلاقة أقوى وأرسخ من علاقة النسب لأنها مبنية على الهداية والتربية العقلية، وعلاقة النسب مبنية على مجرد العاطفة، فالنبي ﷺ أقرب إلى قلب المؤمن من أبيه بل هو أقرب إليه من نفسه كما سبق في قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي آخرهم حيث أرسل ﷺ إلى الناس جميعا إلى قيام الساعة، فخُتمت به الرسالات السماوية، وقال الرازي في بيان الحكمة من ذكر ذلك في هذه الآية:

ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده، وأما من لا نبي بعده فإنه يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمًا﴾ لا يخفى عليه سبحانه شيء مما فيه صلاح البشر فشرع لهم ما يُصلح أمرهم في الدنيا والآخرة.

٣- ثم كرر الله سبحانه نهي رسول الله ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ﴾ أي فيما يأمرونك به أو يشيرون به عليك فإنما يريدون فتنتك عن دينك ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ أي دع عنك الاهتمام بما يبلغك منهم من أذى واصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم، كما أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: أعرض عنهم[2]. وكما أخرج من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال: أي اصبر على أذاهم[3].

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي اعتمد على الله وحده وفوض أمورك إليه وكفى به تعالى معتمدًا لمن اعتمد عليه وأسندَ أموره إليه.

ومن الأذى الذي أمر الله نبيه أن يصبر عليه في هذه الآية ما لحقه ﷺ من استنكار الناس وانتقادهم بسبب زواجه من مطلقة مولاه زيد رضي الله عنه، وفي تكرير نهي النبي ﷺ

---

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ٢١٤.

(٢) جامع البيان ٢٢/ ١٩.

(٣) المرجع السابق ٢٢/ ١٩.

عن طاعة الكفار والمنافقين ما يدل على مبلغ الأذى والفتنة التي كان يتعرض لها النبي ﷺ من أعدائه.

* * *

١٣- تعرضهم بالأذى لنساء المؤمنين

النص القرآني في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٥٩-٦٢].

بيان ما نزل فيه النص:

أخرج ابن سعد في طبقاته من طريق محمد بن عمر الواقدي عن أبي مالك قال: كان نساء نبي الله ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين فشكون ذلك فقيل ذلك للمنافقين فقالوا: إنما نفعله بالإماء فنزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[1].

وهذه الرواية غير صحيحة لضعف محمد بن عمر الواقدي بل هو متروك الحديث عند من يعتد بهم من علماء الجرح والتعديل كما ذكر ابن حجر في التهذيب.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ١٧٦.

وقد أخرج ابن جرير هذا الأثر عن ابن عباس ﷺ من طريق العوفي[1] وعن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح[2] وعن قتادة من طريق ابن أبي عروبة[3] ولكن سند العوفي ضعيف كما تقدم وما روي عن مجاهد وقتادة كليهما مرسل لا تقوم به الحجة في مثل هذا الأمر لأن ما يتضمنه هذا الأثر مخالف لتعاليم الشريعة، إذ أن فيه الإقرار بالإذن في أن يتعرض الفساق للإماء،وهذا غير جائز فالتعرض للنساء حرائر أو إماء ممنوع في الدين الإسلامي.

أما بالنسبة لقوله تعالى ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ فقد قيل إن هذه صفات لفئة واحدة هم المنافقون وأن العطف لتغاير الصفات لا لتغاير الذات على حد قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المـزدحم

وبهذا قال أبو رزين[4] ومحمد بن كعب القرظي وعبيد بن حنين[5].

وقيل المراد بالذين في قلوبهم مرض ضعفاء الإيمان، والمراد بالمرجفين في المدينة اليهود وبهذا قال الألوسي[6].

وهذا غير ظاهر بالنسبة لضعفاء الإيمان لأن النبي ﷺ لا يسلَّط على المؤمنين فالآية لا تنطبق عليهم.

---

(١) جامع البيان ٢٢/ ٤٦.

(٢) المرجع السابق ٢٢/ ٤٦.

(٣) المرجع السابق ٢٢/ ٤٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٤٥.

(٥) روح المعاني ٢٢/ ٩٠.

(٦) المرجع السابق ٢٢/ ٩٠.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات تتضمن أمر نساء النبي ﷺ وسائر نساء المؤمنين بإدناء الجلابيب على الجيوب، وقد سبق أن الحجاب أول ما نزل كان في زواج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش وكان ذلك في السنة الرابعة على القول الراجح، فتكون هذه الآيات مما نزل بعد ذلك، وسيأتي في حديث الإفك ما يفيد شرعية لبس الجلباب في ذلك الوقت وذلك في قول عائشة رضي الله عنها «فخمرت وجهي بجلبابي»، وحديث الإفك كان في شعبان من السنة الخامسة على القول الراجح كما سيأتي، فيستفاد من هذا على سبيل الاستئناس أن هذه الآيات مما نزل في أواخر السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

كان مجتمع المدينة في عهد النبي ﷺ مكونا من عدة فئات مختلفة الاتجاه، ففيه المؤمنون الصادقون الذين أخلصوا لله ولرسوله والتزموا بجميع أحكام الإسلام،وفيه المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ليتمكنوا بذلك من الكيد للمؤمنين وهم آمنون على أرواحهم وأموالهم، وفيه اليهود الذين لم يؤمنوا بالإسلام بل قد وقفوا منه موقف العداء.

ولقد كان وجود هذه الفئات في مجتمع واحد يجعل هذا المجتمع لا يسير على منهج واحد، فالمؤمنون الصادقون يسيرون على منهج التعاليم الإسلامية، والمنافقون إذا امتثلوا المنهج الإسلامي إنها يمتثلونه مراءاة للمؤمنين لئلا ينكشف نفاقهم، وأما اليهود فإنهم قد سكتوا على ضغن قد ملأ قلوبهم، فهم يتمنون زوال الإسلام وهلاك المؤمنين، ويستغلون أي فرصة تسنح لهم لإحداث الخلل في صفوف المسلمين وتشويه دعوة الإسلام.

وكان هؤلاء المذكورون من المنافقين واليهود لا يلتزمون بالمحافظة على أعراض الناس كالمؤمنين الصادقين، فنتج عن ذلك أنهم يتبعون شهواتهم في تعرضهم للنساء إذا

خرجن من بيوتهن، ولم يكن هناك ما يميز نساء المؤمنين عن غيرهن، فأمر الله نساء الرسول ﷺ وبناته وسائر نساء المؤمنين بارتداء لباس يميزهن عن سائر النساء في ذلك المجتمع المختلط حتى لا يتجرأ على الاعتداء عليهن أحد من هؤلاء المستهترين بتعاليم الإسلام.

بيان مفردات النص:

جلابيبهن: الجلباب ثوب واسع للمرأة دون الملحفة أو ما تغطي به ثيابها كالملحفة، أو هو الخمار كما قال صاحب القاموس، ورُوي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أنه الرداء: ذكره القرطبي وقال: وقد قيل إنه القناع، والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن، وفي صحيح مسلم عن أم عطية قلت: «يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب قال: لتُلْبسها أختها من جلبابها»[1].

فهذا دليل على أنه ما يستر جميع البدن كالعباءة.

المرجفون: الإرجاف من الرجف وهو الاضطراب الشديد، والإرجاف إيقاع الرجفة إما بالقول أو بالفعل[2].

لنغرِيَنَّك: الإغراء هو التسليط والتحريش، كما أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية: لنسلطنك عليهم[3].

ملعونين: اللعن هو الطرد والإبعاد على سبيل السخط[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٤٣.

(٢) المفردات، القاموس.

(٣) جامع البيان ١٢/ ٤٨.

(٤) المفردات، القاموس.

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي يرخين على أجسامهن من جلابيبهن، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي ذلك الأمر لنساء المؤمنين بالتستر أقرب إلى أن يعرفن بأنهن نساء مؤمنات، ملتزمات بأحكام الإسلام، فلا يتعرض لهن أحد من الفساق الذين يتتبعون النساء فيؤذونهن، فإنهن حينما يرتدين لباس الحشمة والوقار يجتنبهن الفساق، فلا يتعرضون لهن خوفا من انتقام المؤمنين منهم.

وقال جمهور المفسرين بأن المعنى: ذلك أقرب إلى أن يعرفن بأنهن حرائر فلا يتعرض لهن الفساق الذين اعتادوا أن يتعرضوا للإماء[1]، وهذا القول مبني على الرواية التي سبق ذكرها في بيان من نزل فيه النص وقد سبق تضعيفها وتضعيف هذا القول.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ساترا ذنوب عباده المؤمنين إذا أنابوا إليه، فإذا كانت النساء يخرجن قبل ذلك غير متسترات فالله يغفر لهن هذا الذنب، ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم إذا امتثلوا أوامره فيكافئهم بخير الجزاء.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الذين يظهرون الإيمان أمام المؤمنين فإذا خلوا إلى بعضهم تخلوا عن منهج الإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي فساد واعتلال بحيث يتأثرون بأهوائهم، ولا يستطيعون السيطرة على غرائزهم، ونُقل عن بعض السلف أنهم الزناة[2] وهذا مستفاد من الآية السابقة إذ أن فيها ذكر التعرض للنساء من قِبَل الفساق، ولكن الميل إلى الزنا ما هو إلا أثر من آثار مرض القلوب.

---

(١) انظر جامع البيان ٢٢/ ٤٧، الكشاف ٣/ ٢٧٤، الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٤٤.

(٢) انظر جامع البيان ٢٢/ ٤٧.

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي الذين يحدثون الاضطراب في مجتمعها، إما بالتخويف من كثرة الأعداء أو بالتهوين من قوة المؤمنين، وهم اليهود كما تقدم ترجيح ذلك.

المعنى: لئن لم يقلع هؤلاء المذكورون عما هم عليه من قصد الإفساد في المجتمع الذي ينزل فيه الوحي ليُعدَّ مجتمعا صالحا للحياة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنك عليهم بأن نأمرك بقتالهم تطهيرا للمجتمع وتخليصا له من عناصر الإفساد.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ثم إذا سلطناك عليهم ستكون عاقبتهم الجلاء عن المدينة لأنهم لن يصمدوا لقتالك، بل سيطلبون الجلاء فرارا من القتل، ولن يتمتعوا بالبقاء في المدينة إلا وقتا قصيرا بقدر ما يتم به إعلان الحرب عليهم وإجلاؤهم.

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ أي مطرودين من رحمة الله عز وجل في الدنيا والآخرة ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ أي في أي مكان وجدوا استحقوا أن يؤسروا وأن يقتلوا قتلا ذريعاً، حتى يتطهر منهم المجتمع الصالح ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي هذه شريعة الله في الأمم الماضية التي أرسلنا إليها رسلا لتكوين مجتمع فاضل أن يطهر ذلك المجتمع من عناصر الإفساد حتى يكون مجتمعا صالحا.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي ولن تجد لشريعة الله المحكمة تغييرا لأنها متعلقة بأصول لا تتبدل، فما جرى على الأمم الماضية من العقوبة والنكال حينما انحرفت عن الطريق المستقيم سيجري على هذه الأمة.

وقد أغرى الله المؤمنين باليهود حينما استمروا في حرب الإسلام، فأجلوهم عن المدينة وقضوا على البقية الباقية منهم، أما المنافقون فقد اعتصموا بالتكتم وبالغوا في النفاق حتى لا ينكشف أمرهم.

* * *

١٤- إعراضهم عن تحكيم الإسلام رغبة في ظلم الناس

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[النور: ٤٧ - ٥٤].

بيان من نزل فيه النص:

١ - قيل إن هذه الآيات نزلت في بشر المنافق حينما اختصم مع اليهودي، ولم يرض بشر بالتحاكم إلى النبي ﷺ[(١)] وقد سبق بيان هذه القصة عند تفسير قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآيات من سورة النساء.

---

(١) روح المعاني ١٨/ ١٩٤.

٢- وقال الضحاك: نزلت في المغيرة بن وائل وكان بينه وبين علي كرم الله وجهه خصومة في أرض فتقاسما فوقع لعليٍّ ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة فقال المغيرة: بعني أرضك فباعها إياه وتقابضا فقيل للمغيرة: الماء لا ينالها، فقال لعليٍّ كرم الله وجهه: اقبض أرضك فإنما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فإن الماء لا ينالها، فقال عليٌّ: قد اشتريتها ورضيتها وقبضتها وأنت تعرف حالها لا أقبلها منك، ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ فقال: أما محمد فلست آتيه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليٌّ فنزلت[1] وهذه القصة تنطبق على مضمون الآيات وقد ذكرها الألوسي بلا سند.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنها نزلت في المنافقين، وروى عن الحسن نحوه[2] وكونها في المنافقين ظاهر من مضمون الآيات.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات ليس لها سبب نزول بسند صحيح، وعلى فرض صحة ما سبق في بيان من نزل فيه النص فليس فيه ما يبين وقت نزولها، وهذه الآيات من سورة «النور» ومما نزل قبلها سورة «الحشر» ومما نزل بعدها سورة «المنافقون» كما في رواية ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنهما التي سبقت في المقدمة، وسورة الحشر قد نزلت في أوائل السنة الرابعة كما سبق، أما «المنافقون» فقد نزلت بعد غزوة المريسيع التي كانت في شعبان من السنة الخامسة كما سيأتي فهذا مما يرجح كون هذه الآيات مما نزل بين ذلك.

بيان مفردات النص:

يخشى: الخشية الخوف مع التعظيم[3].

---

(١) روح المعاني ١٨/ ١٩٤.

(٢) المرجع السابق ١٨/ ١٩٤.

(٣) المفردات، القاموس.

يَتَّقْه: التقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف، والوقاية الصيانة والحفظ، وهي في الشرع حفظ النفس عما يؤثم[١].

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ الضمير يعود على المنافقين وبهذا قال جمهور المفسرين[٢]، أي ويقول المنافقون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول والتزمنا بطاعتهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي ثم يُعرض فريق من هؤلاء المنافقين عن الطاعة التي التزموا بها، وذلك كتخلفهم عن الجهاد ونحوه من التكاليف التي يرونها شاقة عليهم ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقا الذين يتفق ظاهرهم مع باطنهم ويطابق قولهم فعلهم.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ أي هؤلاء القائلون آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيما إذا كان هناك خصومة بينهم وبين غيرهم ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ رسول الله ﷺ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي يفاجئون خصماءهم بالإعراض عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ على غير المؤمل منهم باعتبارهم مؤمنين في الظاهر، وهؤلاء الذين يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ هم الذين يعلمون أن الحق عليهم لا لهم، ولذلك قال تعالى في وصفهم ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى النبي ﷺ ﴿مُذْعِنِينَ﴾ مسلّمين منقادين لعلمهم بأنه سيحكم لهم، فهم لم يخضعوا لحكم الله إلا لتحقيق مصلحتهم، فأمر الطاعة لا يرجع عندهم إلى الإيمان ولكنه يدور حول منفعتهم حقا أو باطلا، وما هذه صفة المؤمنين.

---

(١) نفس المصدرين السابقين.

(٢) انظر مثلا جامع البيان ١٨/ ١٥٦، إرشاد العقل السليم ٤/ ١٣٤، روح المعاني ١٨/ ١٩٤.

ثم ذكر سبحانه السبب في كونهم يُعرضون عن التحاكم إلى النبي ﷺ حينما يكون الحق عليهم فقال ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي هل الدافع لهم إلى الإعراض عن التحاكم إلى النبي ﷺ أن في قلوبهم علة تمنعهم من الذهاب إليه كالكفر والنفاق؟

أم الدافع لهم شكهم في عدالة النبي ﷺ؟

أم خوفهم من أن يجور عليهم إذا حكم فيهم بحكم الله؟

وقد أضرب سبحانه وتعالى عن ذلك كله وأثبت أن الدافع لهم إلى الامتناع عن التحاكم إلى النبي ﷺ حينما يكون الحق عليهم هو أنهم يريدون ظلم الآخرين بأكل أموالهم وجحد حقوقهم، ورسول الله ﷺ لا يمكّنهم من ذلك حينما يتحاكمون إليه فقال تعالى ﴿بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، أما كون قلوبهم مريضة بالكفر والنفاق فإنهم متصفون بهذه الصفة حتى فيما إذا كان الحق لهم، ولم يمتنعوا من التحاكم إلى النبي ﷺ والحالة هذه، وأما شكهم في عدالة النبي ﷺ أو خوفهم من ظلمه فغير متحقق فيهم لأنهم لم يروا منه ما يقدح في عدالته، ولو كانوا يتوقعون منه الظلم ما تحاكموا إليه فيما إذا كان الحق لهم خوفا من ظلمه.

وقد اختار هذا المعنى وهو كون الإضراب عن التساؤلات الثلاثة أبو السعود والألوسي[1] إلا أنهما اعتبرا الارتياب في الآية بمعنى الارتياب في أمر نبوة رسول الله ﷺ، وهذا غير ظاهر لأن هذا الأمر داخل في مرض الكفر والنفاق.

ثم بين سبحانه وتعالى السلوك الذي يجب أن يكون عليه المؤمنون إذا دُعوا إلى الله ورسوله، مشيرا بذلك سبحانه إلى أن المنافقين بسلوكهم المنحرف في رفض تحكيم الإسلام لا يُعتبرون من المؤمنين، حيث قال تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ١٣٥، روح المعاني ١٨/ ١٩٦.

إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ ﴾ أي إنما كان القول الذي يليق بالمؤمنين باعتبارهم مؤمنين بالله ورسوله حقا أن يقولوا إذا دعاهم خصماؤهم إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﷺ: سمعنا وأطعنا، لا أن يرفضوا التحاكم إليه إذا كان الحق عليهم، فإن هذا من أخلاق المنافقين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الذين استجابوا لله ورسوله حقا ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون ببغيتهم وهي رضوان الله تعالى وجزاؤه العظيم الخالد،لطاعتهم الله تعالى ورسوله وخشيتهم من الله واتقائهم عذابه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في جميع الأوامر الشرعية ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ يخاف منه مع تعظيمه وإجلاله ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ أي يتقي عذابه وذلك بحفظ النفس من الوقوع فيما يغضب الله من ترك الأوامر أو فعل النواهي ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أي هم وحدهم الظافرون بسعادة الدنيا والآخرة.

ثم ذكر سبحانه مشهدا من نفاق هؤلاء المنافقين يبين توغلهم في النفاق حيث قال تعالى ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ﴾ أي وحلفوا بالله باذلين أقصى ما في وسعهم وطاقتهم مؤكدين بذلك طاعتهم أمر النبي ﷺ، واستعدادهم للجهاد في سبيل الله حتى يغطوا بذلك نفاقهم، ويؤكدوا دعوى الإيمان.

﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ ﴾ أي لا حاجة إلى أن تقسموا بالله وتبذلوا الوسع في ذلك تأكيدا لما ادعيتموه من الإيمان والطاعة فطاعتكم طاعة معروفة بأنها صادرة من اللسان فقط من غير أن يكون لها حقيقة في القلب، فمهما حاولتم إخفاءها بالأيمان الكاذبة فإن حقيقتها تظهر في تصرفاتكم نحو الالتزام بتكاليف هذا الدين، وقد اختار هذا المعنى الطبري وأبو السعود والألوسي[1].

---

(١) جامع البيان ١٨/ ١٥٧، إرشاد العقل السليم٤/ ١٣٨، روح المعاني ١٨/ ١٩٩.

وقيل أن المعنى: الأمر الذي يُطلب منكم طاعة معروفة، كطاعة الخلَّص من المؤمنين، أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة، ذكره الزمخشري[1].

والقول الأول أرجح لأن طاعة الإيمان قد أمرهم الله بها بعد هذه الآية فتبين بهذا أن الطاعة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية هي طاعة النفاق التي اتصفوا بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي دقيق العلم بجميع أعمالكم أيها المنافقون، الظاهرة والباطنة فلا تظنوا أنها إن خفيَ بعضها على المؤمنين تخفى على الله عز وجل فإنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وسيجازيكم عليها في الآخرة.

وبعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبين لهم أن طاعتهم التي أعلنوها لا صحة لها، لأنها مبنية على النفاق، أمره أن يأمرهم بالطاعة الحقيقية التي لا يشوبها شيء من النفاق حيث قال تعالى ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتزام ما يأمركم به من التكاليف الشرعية ظاهرا وباطنا ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ باعتبار كونه مرسلا من الله إليكم، طاعةً صادرة من إيمان قلبي بلزوم طاعته و أن طاعته من طاعة الله.

ثم بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بنهيهم عن إصدار الأيمان الكاذبة وأمرهم بلزوم الطاعة الحقيقية خاطبهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ أي فإن تُعرضوا عن طاعة الله ورسوله فإنما على رسول الله ﷺ أن يبلغ الناس ما كلفه الله تبليغه، وعليكم تنفيذ ما كلفكم الله به من طاعة الله ورسوله ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ فيما أمركم به ﴿تَهۡتَدُواْۚ﴾ إلى سلوك الطريق المستقيم الموصل إلى سعادة الدارين ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي وما على

(١) الكشاف ٣/ ٧٣.

الرسول من واجب في دعوة الناس إلى الله، إلا تبليغهم ما أرسله الله به تبليغا واضحا يفهمه الناس عنه، وقد أدى الواجب الذي عليه، فلا حجة لمن انحرف عن الطريق المستقيم الذي دعا الناس إليه.

* * *

١٥- إثارتهم الفتنة بين المؤمنين وتذمرهم من هجرتهم إلى بلادهم

النص القرآني في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون: ١-٨].

بيان من نزل فيه النص:

أخرج البخاري بسنده عن زيد بن أرقم ﵁ قال: كنت مع عمّي فسمعت عبد الله ابن أبي ابن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقال أيضا: لئن

رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز مها الأذل، فذكرت ذلك لعمّي فذكر عمّي لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله وكذبني فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ -إلى قوله- هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ -إلى قوله- لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ فأرسل إليّ رسول الله ﷺ فقرأها عليَّ ثم قال: إن الله قد صدقك[1].

وقد ذكر محمد بن إسحاق أن هذه الحادثة وقعت في غزوة بني المصطلق كما سيأتي في تصوير الموقف، وقال ابن حجر:وكذا وقع عند الإسماعيلي من طريق ابن أبي عمر عن سفيان قال: يرون أن هذه الغزاة غزاة بني المصطلق قال: وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عقيل عن الزهري عن عروة بن الزبير، وعمرو بن ثابت أنهما أخبراه أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع[2]، ثم ذكر خبر الخصومة التي جرت بين المهاجريّ والأنصاريّ وقول ابن أبيٍّ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل إلى آخر القصة[3].

وذكر ابن أبي حاتم في روايته عن سعيد بن جبير أنها في غزوة تبوك، كما نقل ذلك عنه ابن كثير وقد علق على هذه الرواية بقوله: وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير، قال وقوله إن ذلك في تبوك فيه نظر، بل ليس بجيد فإن عبد الله بن أبيٍّ لم يكن ممن خرج في

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير / ٦٣، باب ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ فتح الباري ٨/ ٦٤٦.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٤٩.

(٣) المريسيع ماء لبني المصطلق من ناحية قديد إلى الساحل (السيرة النبوية ٣/ ٣٦٩) وقديد قال ياقوت في معجم البلدان: قرية قرب مكة، وقال البكري في معجم ما استعجم قرية جامعة مذكورة في رسم الفرع وفي رسم العقيق وهي كثيرة المياه والبساتين.

غزوة تبوك بل رجع بطائفة من الجيش، وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك في غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق [(١)].

قال ابن حجر: وهذه الغزاة وقع في رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند النسائي أنها غزوة تبوك، قال: ويؤيده قوله في رواية زهير المذكورة «في سفر أصاب الناس فيه شدة» ثم قال: وأخرج عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير مرسلا «أن النبي ﷺ كان إذا نزل منزلا لم يرتحل منه حتى يصلي فيه، فلما كانت غزوة تبوك نزل منزلا فقال عبد الله بن أبيّ.. فذكر القصة، ثم قال: والذي عليه أهل المغازي أنها غزوة بني المصطلق وسيأتي قريبا في حديث جابر ما يؤيده [(٢)] ويقصد بذلك قول جابر رضي الله عنه: «وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم كثروا بعد» وذلك في تعقيبه على الخبر السابق، وقال ابن حجر في تعليقه على هذه الجملة: هذا مما يؤيد تقدم القصة ويوضح وَهْمَ من قال إنها بتبوك، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيرا جدا، وقد انضافت إليهم مسلمة الفتح في غزوة تبوك فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار والله اعلم [(٣)].

ومن هذا يتبين لنا أن الراجح كون هذه الحادثة وقعت في غزوة المريسيع لا في غزوة تبوك، لأن الكلمات القبيحة التي كشفتها هذه الآيات كلها تدور حول عبد الله بن أبيّ وهو لم يشهد غزوة تبوك، كما قال ابن كثير وكما ذكر ابن إسحاق [(٤)] ولمّا ذكره جابر رضي الله عنه من أن

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٢.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٤٤.

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٥٠.

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٢.

الأنصار كانوا آنذاك أكثر من المهاجرين، وقد كانوا في غزوة تبوك أكثر من الأنصار كما نبه على ذلك ابن حجر رحمه الله.

وقت نزول هذا النص:

سبق لنا في بيان من نزل فيه النص أن هذه الآيات قد نزلت في حادثة جرت في غزوة بني المصطلق على الأرجح، وقد اختلف المؤرخون في تحديد وقت هذه الغزوة فقال بعضهم إنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، وبهذا قال موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وقتادة واختار ذلك أبو معشر[1]، وابن سعد[2] والبيهقي[3] وابن تيمية[4] وابن القيم[5].

واستدل أصحاب هذا القول بأن قضية الإفك كانت في رجوع النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق كما سيأتي، وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها المقالة التي جرت بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في شأن أهل الإفك كما في الصحيح، وسعد بن معاذ قد توفي في السنة الخامسة بعد القضاء على بني قريظة، فلو كانت غزوة بني المصطلق في السنة السادسة لكان ما في الصحيح من شهود سعد بن معاذ لقضية الإفك غلطا[6].

وقيل إنها كانت في شهر شعبان من السنة السادسة وممن قال بهذا محمد بن إسحاق[7]،

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٣٠.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٢.

(٣) سنن البيهقي ٩/ ٥٤.

(٤) فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٦٥.

(٥) زاد المعاد ٢/ ١١٢.

(٦) فتح الباري ٧/ ٤٣٠، زاد المعاد ٢/ ١١٥.

(٧) السيرة النبوية ٣/ ٣٦٨.

وخليفة بن خياط[1]، والطبري[2]، وابن حزم[3]، والمودودي[4].

ومما استُدل به لهذا القول أن عائشة رضي الله عنها صرحت بأن خبر الإفك كان بعد زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها كما سيأتي، وقد كان زواجه بها في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة، وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن أن تكون غزوة بني المصطلق إلا بعد ذلك[5].

ومما استُدل به أيضا لهذا القول ما ذكره أبو الأعلى المودودي من أن أحكام الحجاب قد نزلت في سورتين هما سورة النور والأحزاب، وقد صرحت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك بأنه كان بعدما أنزل الحجاب، وسورة النور قد اقترن نزولها بحادث الإفك، فيتعين أن تكون السورة التي أنزل فيها الحجاب قبل ذلك هي سورة الأحزاب، وسورة الأحزاب قد نزلت بعد غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، فتكون غزوة بني المصطلق التي جرى فيها حادث الإفك بعد ذلك[6].

وقد أجاب هؤلاء عن دليل القول الأول بترجيح رواية ابن إسحاق التي فيها أن القائل لسعد بن عبادة في شأن الإفك هو أسيد بن حضير على رواية الصحيحين، التي فيها أن القائل هو سعد بن معاذ لسلامة رواية ابن إسحاق من الإشكال الذي يرد على رواية الصحيحين، على اعتبار أن غزوة بني المصطلق متأخرة عن غزوة بني قريظة[7].

---

(١) تاريخ خليفة / ٤٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٦٠٤.

(٣) جوامع السيرة / ٢٠٦.

(٤) تفسير سورة النور / ٨.

(٥) زاد المعاد ٢/ ١١٥، تفسير سورة النور / ٨.

(٦) تفسير سورة النور / ٨ – ٩.

(٧) جوامع السيرة / ٢٠٦، تفسير سورة النور / ٩.

والذي يظهر أن القول الأول أرجح، لما جاء في رواية البخاري من أن سعد بن معاذ كان موجودا أيام حديث الإفك، وحديث الإفك جرى عقب غزوة بني المصطلق بالاتفاق، وقد كان موته بعد ذلك عقب غزوة بني قريظة باتفاق المؤرخين، فيتعين أن تكون غزوة بني المصطلق قبل ذلك، ورواية البخاري أصح من رواية ابن إسحاق.

أما أدلة القول الثاني ففيها نظر، فالجواب على الدليل الأول أن تحديد وقت زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها ليس محل اتفاق بين العلماء، وقد سبق بيان الخلاف في ذلك، وترجيح كونه في السنة الرابعة، وسبق بيان ضعف القول بأنه في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة، فلا يبقى في هذا دليل للقائلين بأن غزوة بني المصطلق كانت في السنة السادسة.

أما الجواب على الدليل الثاني: فهو أن السورة حينما تنزل مخبرة عن عدة وقائع لا يستلزم ذلك تقاربها في الزمن، إذ أن السور لا تنزل جملة واحدة في الغالب، فإذا كان أهم الأحداث التي تناولتها سورة الأحزاب هو مناقشة وقائع هذه المعركة، فإن هذا لا يقتضي أن جميع آيات هذه السورة قد نزلت بعد غزوة الأحزاب جملة واحدة، بل لابد لمعرفة وقت وقوع الحوادث التي تحدثت عنها هذه السورة من الرجوع إلى التاريخ، ومن بين هذه الحوادث زواج النبي ﷺ بزينب ونزول الحجاب، وعلى هذا فيحتمل أن تكون آيات زواج النبي ﷺ ونزول الحجاب قد نزلت قبل غزوة الأحزاب، بل هو المتعين كما سبق تقرير ذلك.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

ذكر محمد بن إسحاق فيما أخرجه عنه ابن هشام تلك الحادثة التي كانت سببا في نزول هذه الآيات والموقف الذي حدثت فيه بالتفصيل، حيث قال: فحدثني عاصم بن عمر بن

قتادة وعبد الله بن أبي بكر ومحمد بن يحيى بن حبّان، كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق، قالوا: بلغ رسولَ الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ، فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له «المريسيع» من ناحية «قُديد» إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم،ونَفَّل رسولَ الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه.

فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.

وفي صحيح البخاري: فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: دعوها فإنها منتنة[1].

قال ابن إسحاق: فغضب عبد الله بن أبيّ ابن سلول وعنده رهط من قومه، فيهم زيد ابن أرقم غلام حَدَث، فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا[2] وكاثرونا في بلادنا، والله ما

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله (سواء عليهم) فتح الباري ٨/ ٦٤٨.
وقوله «كسع» الكسع هو الضرب من الخلف باليد أو بصدر القدم كما ذكر صاحب القاموس، والضمير في قوله «دعوها» يعود على دعوى الجاهلية، وقد شبهها النبي ﷺ بالعفن لأن العفن يؤذي الإنسان براحته الكريهة فكذلك دعوى الجاهلية تهدم كيان المجتمع وتفرق بين الأخوة المتحابين.

(٢) المنافرة من معانيها المفاخرة كما في القاموس وهو المناسب هنا.

أعدُّنا وجلابيب قريش[1] إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

وفي مرسل عروة بن الزبير، وعمرو بن ثابت الذي أخرجه ابن أبي حاتم: فانكفأ كل منافق إلى عبد الله بن أبيّ فقالوا: كنت تُرجّى وتدفع فصرت لا تضر ولا تنفع، فقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. قال ابن حجر وهو مرسل جيد[2].

قال ابن إسحاق فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال: مُرْ به عباد ابن بشر فليقتله فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه! لا ولكن أذِّن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وفي صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه: فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ «دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»[3].

قال ابن إسحاق: وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به -وكان

---

(١) الجلابيب جمع جلباب وهو الثوب الواسع كما تقدم، وقد كنى به هنا عن الفقر كما في قول علي رضي الله عنه «من أحبنا أهل البيت فليعدَّ جلبابا» أي فليلبس إزار الفقر كما ذكر في النهاية.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٤٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المنافقون (فتح الباري ٨/ ٦٤٨).

في قومه شريفا عظيما- فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبا على ابن أبيّ ابن سلول ودفعا عنه.

قال ابن إسحاق: فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: والله يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أوَما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبيّ قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت هو الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به فو الله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس،ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ.

ثم راح رسول الله ﷺ بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له بقعاء، فلما راح رسول الله ﷺ هبت على الناس ريح شديدة آذتهم وتخوفوها فقال رسول الله ﷺ «لا تخافوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار» فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت -أحد بني قينقاع من عظماء اليهود وكهفا للمنافقين- مات في ذلك اليوم [١].

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٦٩ - ٣٧٣.

وقد روى الإمام مسلم خبر هذه الريح عن أبي سفيان عن جابر ﵁ «أن رسول الله ﷺ قدم من سفر فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثتْ هذه الريح لموت منافق» فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات»[1].

ومن خبر عبد الله بن أبيّ هذا يتبين لنا مدى ما يكنه المنافقون للمؤمنين المهاجرين إلى ديارهم من حقد وكراهية، فهم يعتبرونهم غرباء عنهم، حلُّوا في ديارهم لاستنزاف أموالهم والسيطرة عليهم، ويحسبون أن المؤمنين يفكرون في متاع الدنيا كما يفكرون هم فيه، فلذلك قال عبد الله بن أبيّ لأصحابه: «أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم» ولا يعلمون أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء، وأن الله عز وجل لن يضيع أولياءه المؤمنين.

وإن من عرف ما يتصف به المنافقون من الانزواء والتستر ليستغرب من ذلك التهور الذي صدر من عبد الله بن أبيّ حينما قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل، ولعله قد اضطر إلى التفوه بهذا الكلام دفاعا عن نفسه التي استذلت، وكبريائه التي جُرحت عندما قال له أصحابه من المنافقين كنت ترجّى وتدفع فصرت لا تضر ولا تنفع، ومما يدل على ذلك أنه عندما علم باطلاع الرسول ﷺ على كلامه بادر إليه بالاعتذار، والحلف بين يديه بأنه ما قال ذلك الكلام، ولقد أخزاه الله بذلك حتى عند رفاقه من المنافقين حيث أذلّ نفسه بالاعتذار، بعدما كان يتظاهر أمامهم بالعزة والكبرياء، ويبني لنفسه شخصية هي أكبر من نفسه الضعيفة الذليلة.

---

(١) صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين رقم ١٥ (ص ٢١٤٥).

ولقد كان النبي ﷺ حكيما حينما لم يقتل عبد الله بن أبيّ لَمّا أشار عليه عمر بذلك، لأن ابن أبيٍّ كان ذا اعتبار في قومه، فلو قتله النبي ﷺ لربما غضب له طائفة من قومه بحجة أنه كان مظهرا للإسلام، ومما يدل على احتمال وقوع ذلك ما أخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله[1] أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمَتْ الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وجعل بعد ذلك -يعني ابن أبيّ- إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله «لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم»: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأُرعدَتْ له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته «قال: قال عمر: قد والله علمت لأمرُ رسول الله» أعظم بركة من أمري[2].

هذا إضافة إلى أن قتله وهو يظهر الإسلام يعتبر تشويها للدعوة الإسلامية خارج المدينة، لأن الناس حينما يتسامعون بأن محمدا يقتل أصحابه المعتنقين لدينه يتوقفون عن الدخول في الإسلام، لأنهم لا يفهمون حقيقة الأوضاع التي تجري داخل المدينة، ولذلك قال رســول الله ﷺ لعمر يوم أشار عليه بقتله: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل

---

(١) يعني ابن عبد الله بن أبيّ.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٧٤ – ٣٧٥.

أصحابه» أخرجه البخاري[١].

وقد كان لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ رضي الله عنه موقف كريم آخر مع النبي صلى الله عليه وسلم في قضية الفتنة التي أثارها أبوه، وذلك أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبدالله هذا على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله ابن أبيّ قال له ابنه: وراءك.. فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول صلى الله عليه وسلم وكان إنما يسير ساقة[٢]، فشكا إليه عبد الله بن أبيّ ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما إذ أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجُز الآن. هكذا ذكره ابن كثير عن عكرمة وابن زيد بلا سند[٣].

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده: حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو هارون المدني قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ابن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبدا حتى تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز وأنا الأذل، قال: وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي فو الذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه هيبة له ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك به فإني أكره أن أرى قاتل أبي[٤].

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب قوله ﴿سواء عليهم استغفرت لهم﴾ الآية (فتح الباري ٨/ ٦٤٨).

(٢) أي يسير خلف أصحابه كي يحفظهم كما ذكر في النهاية.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٥.

(٤) المرجع السابق ٤/ ٣٩٥.

بيان مفردات النص:

جُنَّة: الجُنَّة الوقاية والستر[١].

فصدوا: يحتمل أن يكون من صد اللازم، فيكون المعنى أعرضوا وانصرفوا يقال صد يصد صدودًا، ويحتمل أن يكون من صدَّ المتعدي، أي: منعوا غيرهم يقال صد يصد صدا[٢].

قاتلهم الله: القتل في الأصل إزالة الروح عن الجسد، وصيغة المفاعلة هنا قيل إنها من جانب واحد فيكون المعنى قَتَلهم، وقيل المعنى لعنهم، وقيل إنها من جانبين فيكون المعنى عاداهم الله، ومَنْ عاداه الله فقد هلك[٣].

يؤفكون: الإفك الصرف عن الشيء إلى شيء آخر، والمراد به هنا الصرف عن الحق إلى الباطل[٤].

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ أي إذا حضروا إليك بعدما ينكشف أمرهم كما هو الحال في حادثة ابن أبيّ السابقة ﴿قَالُوا﴾ إبعادا للشبهة عن أنفسهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي نقر ونعترف بأنك رسول الله، وفي هذا أمران: الأول قضية أن محمدا رسول الله، والثاني شهادتهم بصحة هذه القضية، أي إخبارهم بأنهم يعلمون علم شهادة

---

(١) القاموس المحيط، النهاية في غريب الحديث.

(٢) المفردات في غريب القرآن.

(٣) النهاية، المفردات.

(٤) نفس المرجعين السابقين.

بأن هذه القضية صحيحة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ كما قالوا أي أن القضية في نفسها -بقطع النظر عن شهادتهم- صحيحة لا ريب فيها فقد أحاط الله بها علما، أما إخبارهم عما يعتقدونه من صحة هذه القضية فهو كذب ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ أي يخبر عن علمه تعالى بما في قلوبهم ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في شهادتهم بأنك رسول الله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ أي أقسامهم الكاذبة التي قد أعدوها للخروج من المآزق ﴿جُنَّةً﴾ وقاية لأنفسهم وأموالهم ﴿فَصَدُّواْ﴾ أي فبسبب هذا السلوك المنحرف الذي يتناقض فيه ظاهرهم مع باطنهم أعرضوا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ المستقيم الذي يتفق فيه الظاهر مع الباطن في الإيمان بالله ورسوله ﴿إِنَّهُمۡ﴾ بسلوكهم هذا ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي قبح ما قاموا به من عمل حيث أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وصاروا يقومون بالأعمال المنكرة تجاه المؤمنين، ثم يتّقونهم بالأيمان الكاذبة.

ثم لما حكم الله سبحانه على عملهم بالقبح بيَّنَ الدافع لهم على الإقدام على ذلك التصرف الشنيع حيث قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما سبق ذكره من إظهارهم الإيمان نفاقا واتخاذهم أيمانهم جُنة ﴿بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي بسبب أنهم آمنوا بالإسلام أولاً ثم ارتدوا عنه ثانيا لما رأوا أنه لا يتفق مع أهوائهم المنحرفة، ثم لما كانوا يعلمون أن عقوبتهم القتل لو أظهروا كفرهم أخفوه ولجؤوا إلى النفاق ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي فبسبب كفرهم بعد الإيمان ختم الله على قلوبهم، فلا تؤثر فيها المواعظ ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون فهما دقيقا يكشف لهم سوء أعمالهم، لأنهم اتبعوا أهواءهم فحالت بينهم وبين التفكير في الحق وتفهم آياته.

ثم بين سبحانه وتعالى أن لأولئك المنافقين من المنظر الخلاب والمظهر الجذاب وفصاحة اللسان ما يعجب الناظر إليهم، ويشده إلى استماع كلامهم، حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي لحسن منظرهم وحلاوة منطقهم كما قال زيد بن أرقم ﷺ في وصفهم: كانوا رجالا أجمل شيء[1].

ولكن هل مخبرهم كمظهرهم؟ وهل فيهم نفع لأبناء مجتمعهم؟ إنهم لا نفع فيهم ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي كأنهم في عدم الانتفاع بهم في أجسامهم وفي كلامهم خشب مسندة لا نفع فيها ولا يستفاد منها. وقد شبههم الله سبحانه بهذا الجماد لعدم استفادتهم من حواسهم التي وهبهم الله إياها، وليس هناك ما هو أبلغ من هذا الكلام في تحقيرهم وإذلالهم.

ثم بين سبحانه أن مظهرهم المعجب لا يدل على أنهم يعيشون في سعادة وطمأنينة؛ بل هم في فزع وقلق ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي كلما سمعوا صوتا من الحق فزعوا وحسبوه صيحة عليهم وأمرًا بقتلهم، لأنهم لم يكونوا مع الحق فهم يتوقعون كل يوم أن ينكشف أمرهم فتكون في ذلك نهايتهم.

وفي هذا تصوير بليغ لما كان يعيش فيه المنافقون في ذلك الزمن من حياة الرعب والفزع.

ولكن هل هم من الوهن والجبن بحيث لا يهتم بأمرهم النبي ﷺ ولا يأبه بشأنهم؟ لا، ليسوا كذلك بل ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي لا تأمن جانبهم فإنهم وإن اتصفوا بتلك الصفات التي تلمح من خلالها حياة الذعر والانزواء هم العدو الأكبر، الذي يجب أن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (فتح الباري ٨/ ٦٤٧).

تحسب له حسابا لا تحسبه لغيره من الأعداء، لأنه يكيد في الخفاء فيأتي عدوه من مأمنه، ويوقع من الضرر ما لا يستطيع أن يصيبه به الأعداء المجاهرون بعداوته، لأن هؤلاء الأعداء مكشوفون أمامه يعرف قوتهم ويتأهب لهم ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن اتباع الحق إلى الباطل.

ثم بين سبحانه وتعالى زهدهم في مغفرة الله تعالى، وتكبرهم عن المجيء إلى رسول الله ليستغفر الله لهم، حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وإذا أشفق عليهم قومهم فطلبوا منهم أن يذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستغفر الله لهم، حركوا رؤوسهم وهزوها استهزاء، ورأيتهم يُعرضون عن الاستجابة لهذا الطلب والحال أنهم مستكبرون.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي أنه يستوي بالنسبة لهم استغفارك لهم وعدمه فلن ينفعهم استغفارك لو استغفرت لهم لأن الله لن يغفر لهم، حيث إنهم قد انحرفوا عن الطريق المستقيم بعدما عرفوه، واختاروا عليه طريق الغواية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن الطريق المستقيم خروجا كاملا بعدما عرفوه لأن سنة الله اقتضت أن الذين يضلُّون عن علم تتمحض نفوسهم لنوازع الشر التي تبعدهم عن الطريق المستقيم، وتخْلو من نوازع الخير التي تقربهم إليه.

ثم بين سبحانه وتعالى الأقوال المنكرة التي صدرت من عبدالله بن أبيّ في رجوع النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق حيث قال تعالى ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ۗ﴾ أي أولئك المنافقون الذين يظهرون الإقرار برسالة

محمد ﷺ ويتخذون أيمانهم جُنَّة دون دمائهم وأموالهم، هم الذين قالوا في غزوة بني المصطلق لقومهم من الأنصار لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ من المهاجرين حتى يتفرقوا عنه، وقائل هذا الكلام هو عبد الله بن أبي كما سبق، وإنما جاء الضمير مجموعا في هذه الآية وفي سائر آيات السورة نظرا لأن عبد الله بن أبيّ يمثل جماعة من قومه، كلهم يعتقدون عقيدته ويسيرون على منهجه، فإذا تفوه بمثل هذا الكلام أعجبهم ذلك منه ولم ينكروا عليه.

وقد ظن هؤلاء المخدوعون من المنافقين أن صحابة رسول الله ﷺ لم يهاجروا إلى المدينة إلا ليسدوا جوعتهم، وأنهم بقطع النفقة عنهم سيرجعون إلى بلادهم، وقد نسوا أو تناسوا أن أكثر المهاجرين قد هاجروا وتركوا أموالهم ومصالحهم التجارية وراء ظهورهم، ولم يزدادوا بهجرتهم إلى المدينة سعة في المال، بل كانوا في بلادهم التي هاجروا منها أحسن حالا من الناحية المالية، وقد رد الله عليهم بتقرير سنة من سننه الشاملة التي لا تختص بذلك الظرف المعين الذي نزلت فيه هذه الآيات، حيث قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أن مصادر الرزق كلها بيد الله عز وجل يهب منها من يشاء من عباده ويحرم منها من يشاء، لحكمة يريدها سبحانه وتعالى، وليس كل من تفضل الله عليه بالمال هو راض عنه، ولا كل من حرمه الله منه هو ساخط عليه، بل يعطي سبحانه ويمنع ابتلاء منه لعباده ليظهر من يشكر عند الرخاء ويصبر عند الابتلاء، ولئن قطَع الأغنياء من الأنصار النفقة عن الفقراء من المهاجرين، فإن الله سبحانه يهيء لهم موارد أخرى للرزق، لأن خزائن السموات والأرض بيده وحده سبحانه، لا بيد الأغنياء من عباده ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون أن مصادر الرزق كلها بيد الله وحده، وأن ما يتمتعون به من المال هو من رزق الله الذي تكفل به سبحانه لكل نسمة خلقها، كما قال

تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦] ولا يدركون أن الله سبحانه بيده إغناء الفقير وإفقار الغني .

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ قائل هذا الكلام هو عبد الله بن أبيّ كما سبق وقد عنى بالأعز نفسه وعنى بالأذل رسول الله ﷺ، وقد رد الله عليه بقوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن القوة والغلبة إنما هي لله عز وجل ولرسوله ﷺ وللمؤمنين الذين ينصرون الله ورسوله، فمن انتصر لدين الله فهو القوي الغالب دائما، ومن خذل دين الله وعاداه فهو الذليل المغلوب على أمره، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي يجهلون التلازم بين الانتصار لدين الله وبين العزة.

وقد ختم الله سبحانه هذه الآية بنفي العلم وختم الآية التي قبلها بنفي الفقه لأن معرفة كون مصادر الرزق بيد الله وحده أمر فيه خفاء فيحتاج إلى دقة في الفهم وعمق في الإدراك، أما معرفة كون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فهو أمر ظاهر لا ينكره إلا جاهل أو مكابر، ويستطيع المنافقون أن يعرفوه من واقعهم فقد أصبحوا أذلة من اليوم الذي تنكروا فيه لهذا الدين وحاربوه، وقد أصبح المؤمنون أعزة منذ اليوم الذي آمنوا فيه بهذا الدين وجاهدوا الناس في سبيله، ويستطيعون أن يلمسوا ذلك من الواقع الذي حولهم فاليهود والكفار قد حاربوا هذا الدين، فما زالت قوتهم في ضعف، وأمرهم في اضمحلال حتى ذهبت دولتهم، وأصبحت السيادة للإسلام والمسلمين.

* * *

١٦- خوضهم في أعراض المؤمنين وتشويه سمعتهم

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:١١-٢٠].

بيان من نزل فيه النص:

أخرج الإمام البخاري ومسلم بسندهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول

الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع أظفار[(١)] قد انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين يرحّلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم، إنما يأكلن العُلقة من الطعام[(٢)] فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع أو مجيب، فأممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني ويرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة[(٣)] ، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول.

---

(١) الجزع نوع من الخرز، والبلد التي ينسب إليها الخرز ظفار في جنوب شرق اليمن لا أظفار كما في هذه الرواية وقال ابن حجر في توجيه هذه الرواية: فلعل عقدها من الظفر أحد أنواع القسط وهو طيب الرائحة يتبخر به (فتح الباري ٨/ ٤٥٩).

(٢) أي القليل من الطعام الذي يتبلغ به إلى وقت الغذاء، وأصل العلقة شجر يبقى في الشتاء تتبلغ به الإبل حتى يدخل زمن الربيع (فتح الباري ٨/ ٤٦٠).

(٣) قولها «موغرين في نحر الظهيرة» في صحيح مسلم: قال عبدين حيد قلت لعبد الرازق ما قوله موغرين؟ قال: الوغر شدة الحر (٤/ ٢١٣٧) المعنى: نازلين في وقت شدة الحر.

فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبنى في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت فخرجتْ معي أم مسطح قِبَل المناصع، وهو متبرَّزُنا وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن تُتخذ الكُنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح -وهي ابنة أبي رُهم ابن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة- فأقبلتُ أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا فعثرتْ أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا؟ قالت: أي هنتاه؟ أو لم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا على مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ -تعني سلَّم- ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ -قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما- قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أُمّتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوِّني عليك، فوالله قَلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت سبحان الله أوَقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم[1] حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله،

---

(١) قولها «لا يرقأ لي دمع» أي لا ينقطع «ولا اكتحل بنوم» استعارة للسهر (فتح الباري ٨/ ٤٦٧).

قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار إلى رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله [(١)].

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبيّ ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة- وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية - فقال سعد: كذبت لعمْر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله [(٢)] فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمْر الله لنقتلنّه فإنك

---

(١) «أغمصه» أي أعيبه، والداجن المراد بها الشاة كما في رواية أخرى للبخاري جاء فيها «لا والله ما علمت عليها عيبا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها» (فتح الباري ٨/ ٤٨٨).

(٢) وذلك لأن عبد الله بن أبي من الخزرج قوم سعد بن عبادة وفي رواية أخرى للبخاري أن سعد بن عبادة قال أيضًا: ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل (فتح الباري ٧/ ٤٣٣).

منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

قالت: فأصبح أبواي عندي -وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع- يظنان أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت[1] عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني.

قالت: فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال.. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت -وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن- إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة

---

(١) كذا في بعض روايات البخاري وفي رواية مسلم «استأذنت» بلا فاء (صحيح مسلم كتاب التوبة باب حديث الإفك حديث ٦٥ (ص ٢١٣٥) وفي رواية فليح عند البخاري «إذا استأذنت» (فتح الباري ٨/ ٤٧٤).

-والله يعلم أني بريئة- لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله يعلم أني منه بريئة- لتصدقني، والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبي يوسف قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[(١)].

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي: قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنزل في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كانَ أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبَرِّؤني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ[(٢)] ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[(٣)] حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان[(٤)] من العرق

(١) في رواية هشام بن عروة عند البخاري «والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه وفي رواية أبي أويس عنده أيضًا «نسيت اسم يعقوب لما بي من البكاء واحتراق الجوف». وفي رواية ابن جريج عنده أيضًا «واختلس مني اسمه» (فتح الباري ٨/ ٤٧٦) وهذه الروايات تبين السبب في اعتذارها بقولها وكنت جارية حديثة السن أي من أجل ذلك نسيتُ اسم يعقوب.

(٢) قوله «ما رام» قال ابن حجر ووقع في رواية صالح وفليح ومعمر وغيرهم « مجلسه » أي ما فارق مجلسه – فتح الباري ٨/ ٤٧٦.

(٣) قال ابن حجر هي شدة الحمى، وقيل شدة الكرب، وقيل شدة الحر قال: ووقع في رواية إسحاق بن راشد «وهو العرق» وبه جزم الداوودي. وهو تفسير باللازم غالبًا لأن البرحاء شدة الكرب ويكون عنده العرق غالبًا (فتح الباري ٨/ ٤٧٦).

(٤) قال ابن حجر: الجمان بضم الجيم وتخفيف الميم اللؤلؤ، وقيل حب يعمل من الفضة كاللؤلؤ، وقال الداوودي: خرز أبيض والأول أولى (فتح الباري ٨/ ٤٧٦).

وهو في يوم شات من ثقل القول الذي يُنزل عليه.

قالت: فلما سُرِّي عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها: يا عائشة أمَّا الله عز وجل فقد برأك. فقالت أمي:قومي إليه،قالت: فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل.وأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ العشر الآيات كلها. فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه -وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره- والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع الى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيرا، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع [1]، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك [2].

(١) قولها «تساميني» قال ابن حجر: أي تعالبني من السمة وهو الارتفاع والعلو أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب، وتعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده -فتح الباري ٨/ ٤٧٦-.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة النور (فتح الباري ٨/ ٥٤٢) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب حديث الإفك (ص٢١٢٩).

ومن هذا الحديث يتبين لنا أن الذي تولى كبر الإفك هو عبدالله بن أبيّ ابن سلول فهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وبذلك قال جمهور المفسرين.

وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها ما يدل على أن الذي تولى كبره هو حسان بن ثابت رضي الله عنه، فقد أخرج الامام البخاري بسنده عن مسروق[1] قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبَّب[2] وقال:

حَصَــان رَزان ما تُزَنّ بريبة   وتصبح غَرثَى من لحوم الغوافل[3]

فقالت عائشة: لستَ كذلك[4]، قلت تَدَعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فقالت: وأي عذاب أشد من العمى؟ وقالت: وكان يرد عن رسول الله ﷺ[5].

---

(١) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني وهو ثقة فقيه عابد من الطبقة الثانية مات سنة اثنتين ويقال سنة ثلاث وستين قبل المائة.

(٢) قال ابن حجر: شبب أي تغزل والمراد ترقيق الشعر بذكر النساء وقد يطلق على إنشاد الشعر وإنشائه وإن لم يكن فيه غزل كما وقع في حديث أم معبد: «فلما سمع حسان شعر الهاتف شبب يجاريه» أي أخذ في نظم جوابه (فتح الباري ٨/ ٤٨٥).

(٣) حصان أي متحصنة منيعة من الرجال، رزان: أي رزينة قليلة الحركة، تُزَنّ: أي ترمي، غَرثَى من لحوم الغوافل أي خميصة البطن لم يمتلىء بطنها من لحوم النساء الغافلات عن الشر، مأخوذ من قوله تعالى ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا﴾ (فتح الباري ٨/ ٤٨٥).

(٤) أي لست ممن يعف عن أعراض الناس، قالت ذلك تذكُره بما مضى منه في شأنها.

(٥) صحيح البخاري كتاب التفسير سورة النور، باب رقم ١٠(فتح الباري ٨/ ٤٨٥).

وقد اتهم بعض الأمويين عليّ بن أبي طالب ﷺ بأنه هو الذي تولى كبر الإفك، فقد أخرج يعقوب بن شيبة في مسنده عن الحسن بن عليّ الحلواني عن الشافعي قال: حدثنا عمّي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان الذي تولى كبره من هو قال: عبد الله بن أبيّ قال: كذبت هو علي، قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهري فقال[١]: يا ابن شهاب من الذي تولى كبره ؟ قال: ابن أبيّ، قال: كذبت هو علي ، فقال: أنا أكذب لا أبالك، والله لو نادى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت، حدثني عروة وسعيد وعبيد الله وعلقمة عن عائشة أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ.. فذكر له قصة مع هشام في آخرها: نحن هيجنا الشيخ، ذكره ابن حجر وقال: هذا أو معناه[٢].

وقد نسب الألوسي هذه الرواية الى البخاري[٣]، ولكن البخاري لم يخرجها فلم يذكرها ضمن أحاديث الإفك لا في المغازي ولا في التفسير، وابن حجر حينما نسب هذه الرواية إلى يعقوب بن شيبة لم يذكر أن البخاري أخرجها وهو من أعلم الناس بصحيح البخاري، وإنما الذي أخرجه البخاري هو خبر استفسار الوليد بن عبد الملك من الزهري عن عليّ ﷺ في قضية الإفك فبرأه الزهري من ذلك[٤] فلعل الأمر قد التبس على الألوسي فخلط بين الخبرين.

هذا ولا شك أن الصواب في المراد بالذي تولى كبر الإفك أنه عبد الله بن أبيّ ابن سلول كما صرحت بذلك عائشة ﷺ في سياقها لحديث الإفك.

---

(١) أي هشام بن عبد الملك كما يفهم من السياق.

(٢) فتح الباري ٧/ ٤٣٧ وإسناده صحيح.

(٣) روح المعاني ١٨/ ١١٧.

(٤) صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث الإفك (فتح الباري ٧/ ٤٣٥).

ومما يدل على ذلك أن النبي ﷺ لم يطلب من الأنصار أن ينصفوه من أحد في شأن الإفك إلاّ من عبد الله بن أبيّ حيث قال: ﷺمن يعذرني[1] من رجل بلغني عنه أذاه في أهلي «كما سيأتي في تصوير الموقف، كما أن عبد الله بن أبيّ هو الذي يَصدُق عليه أنه هو الذي تولى كبره، لأنه هو الذي ابتدأه وأخذ يستخرجه بالبحث عنه كما سبق.

أما ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها من أنه حسان بن ثابت رضي الله عنه فقد جاء في معرض الجواب على من اعترض عليها بإذنها لحسان بالدخول عليها، فكأنها قالت: وإن كان ممن أشاع الإفك فقد نال عقوبته في الدنيا، ولم تُرِد بذلك بيان مراد الله بقوله ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ بدليل أنها صرحت في سياقها لحديث الإفك بأن الذي تولى كبره هو عبد الله ابن أبيّ.

ومما يدل على ذلك أنه لا أحد يستطيع أن يجزم بأن ما أصاب حسان بن ثابت من العمى إنما هو عقوبة له على خوضه في الإفك، حتى يفسر العذاب العظيم في الآية بأنه هو.

وإنما قالت عائشة ذلك تفاؤلاً منها بأنه قد استوفى عقوبته في الدنيا، وأملاً منها بأن الله لن يعذبه على ذلك الذنب في الآخرة، بدليل أنها أثنت عليه بعد هذه الكلمة بقولها «وكان يردُّ عن رسول الله ﷺ» فهذا دليل على أنها كانت ترجو أن يغفر الله له في الآخرة بدفاعه عن النبي ﷺ بشعره، وأنها لم تذكر ما أصابه من العمى لغرض التشفي منه.

ولعلها فهمت من حال السائل أنه قد عرف القصة، وفهم أن متولي كبر الإفك هو عبدالله بن أبيّ -خصوصًا وأن السائل وهو «مسروق بن الأجدع» من العلماء بالحديث

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: اعذر الرجل إذا بلغ أقصى الغاية من العذر وقال في معنى الحديث: أي من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني؟

ولا يخفى عليه مثل ذلك- وأنه إنما أراد أن يتعجب من إذنها لحسان بالدخول عليها، مع ما سبق منه في شأنها، فأرادت أن تقول: إن حسّانًا وإن كان ممن أشاع الإفك فاني أرجو أن يكون الله قد عجل عقوبته في الدنيا، فاهتمت بمثار العجب من السائل وأجابت عنه، ولم تهتمّ بالتحقيق في تعيين من تولى كبر الإفك، لأن السائل لم يقصدها لهذا السؤال، وإنما عرض له لما دخل عليها حسان، ولا شك أن للوقائع ظروفها وملابساتها التي يجب مراعاتها عند تحليلها والحكم عليها.

وقول عائشة ﵂ «وأي عذاب أشد من العمى» إنما أرادت به عذاب الدنيا كما هو ظاهر، والمراد بالعذاب العظيم في الآية عذاب الآخرة، إذ لا يتصور أن يكون العمى عذابًا عظيمًا، حيث إنه مصيبة من سائر المصائب التي يَبتلي بها الله عباده تكفيرًا لسيئاتهم، فذِكْر عائشة لما أصيب به حسان من العمى؛ دليل على أنها لم تُرد أنه هو المقصود بالآية، إذ لا يمكن أن يكون المراد بالعذاب العظيم غير عذاب الآخرة، وقال ابن حجر:وقد وقع في رواية أبي حذيفة عن سفيان الثوري عند أبي نعيم في المستخرج «وهو ممن تولى كبره» فهذه الرواية أخف إشكالاً[(١)] وهي كما قال ابن حجر إذ إنها لا تعين أن الذي تولى كبره هو حسان، فقد يكون مراد السائل بهذا التعبير أن حسان بن ثابت كان من أعظم من أشاع الإفك لا أنه يقصد أنه هو المراد بمن توعده الله بالعذاب العظيم في الآية.

أما اتهام هشام بن عبد الملك لعليّ ﵁ بأنه هو الذي تولى كبر الإفك فهو فرية عظيمة لا أصل لها، لأن عليّـًا لم يتهم عائشة ولم يخض في حديث الإفك، فضلاً عن أن يكون هو المتولي كبره، فليس هناك من أصل يعتمد عليه في هذا الاتهام، إلا ما ورد في حديث الإفك من أن الرسول ﷺ استشار عليًا في عائشة فقال له: «لم يضيق الله عليك والنساء سواها

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٨٥.

كثير وسل الجارية تصدقك» وهذا لا يصلح معتمدًا لمن اتهم عليّـًا بتلك التهمة الباطلة، لأن عليـًا ﷺ شعر بما يساور قلب النبي ﷺ من القلق والضجر، فأراد بهذه المشورة أن ينفس عنه، فرجح بذلك مراعاة جانب النبي ﷺ على مراعاة جانب عائشة، وقد أشار إلى ذلك ابن القيم[1] وابن حجر[2]، ونقل ابن حجر عن أبي محمد بن أبي جمرة أنه قال: لم يجزم عليٌّ بالإشارة بفراقها، لأنه عقب ذلك بقوله وسل الجارية تصدقك، ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إن أردت تعجيل الراحة ففارقها، وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها[3] وقد اختار النبي ﷺ الأمر الثاني، فسأل عنها جاريتها فأثنت عليها، كما سيأتي في تصوير الموقف.

فهذا هو ما رُوي عن علي بالنسبة لعائشة ولا يعدُّ بذلك ممن خاض في الإفك، أما ما رُوي عن عائشة من أن عليًا كان مسيئًا في شأنها[4] فإنها لا تقصد غير هذا الكلام الذي صدر منه، وإنما كانت عليه عاتبة لأنه لم يقل كما قال أسامة حينما استشاره رسول الله ﷺ «يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلاّ خيرا» كما سبق في حديث الإفك.

ومما لا شك فيه أنه لا يمكن أن يوضع من خاض في الإفك من المؤمنين مع عبد الله ابن أبيّ في ميزان واحد، ذلك لأن قصد ابن أبيّ الأول من إشاعة الإفك هو الإساءة إلى النبي ﷺ وإلى دعوته، بينما لا يمكن أن يكون هذا قصد أحد من المؤمنين لأنه لا يبقى مع هذا القصد إيمان، وإنما كان نتيجة التسرع والانخداع بالنسبة لحسان ومسطح ونتيجة

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١١٣.

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٦٨.

(٣) المرجع السابق ٨/ ٤٦٨.

(٤) فتح الباري ٧/ ٤٣٧.

الغيرة بالنسبة لحمنة بنت جحش، إضافة إلى أن ابن أبيّ هو الذي ابتدأ الإفك ولفت الأنظار إليه.

وقت نزول هذا النص:

تقدم لنا ذكر الخلاف في تحديد وقت غزوة بني المصطلق، وبيان أن القول الراجح في ذلك أنها في شهر شعبان من السنة الخامسة، وخبر الإفك الذي نزلت فيه هذه الآيات قد كان في رجوع النبي ﷺ من هذه الغزوة، قال الإمام البخاري: وقال النعمان بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع [(١)]، قال ابن حجر: وصله الجوزقي والبيهقي في الدلائل من طريق حماد بن زيد عن النعمان بن راشد ومعمر عن الزهري عن عائشة. فذكر قصة الافك في غزوة المريسيع [(٢)] وكذا ذكر ابن اسحاق في روايته حديث الإفك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه.. الحديث [(٣)].

أما نزول هذه الآيات فقد كان بعد وقوع الإفك بشهر واحد، كما يفيده حديث عائشة رضي الله عنها السابق حيث قالت: «وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني بشيء، ثم ذكرت نزول الوحي بذلك على النبي ﷺ» [(٤)].

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

عندما أقبلت عائشة رضي الله عنها يقود بها الناقة صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه كما سبق في حديث الإفك رأى عبد الله بن أبيّ ابن سلول أن الفرصة قد سنحت له لينال من عرض

---

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة بني المصطلق (فتح الباري ٧/ ٤٢٨).

(٢) فتح الباري ٧/ ٤٣٠.

(٣) السيرة النبوية ٣/ ٣٨٢.

(٤) صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث الإفك (فتح الباري ٧/ ٤٣٤).

النبي ﷺ وعرض أعظم بيت في الإسلام بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقام بمكيدة كان يتوقع أن سيكون لها أبلغ الأثر في تشويه سمعة الدعوة الإسلامية الممثلة بشخصية النبي ﷺ، التي حاول ابن أبيّ أن يثلم من شرفها وسمعتها، فاتّهم عائشة مع صفوان رضي الله عنهما زورًا وبهتانًا، وقد رُوي شيء من كلامه في ذلك، فقد جاء في مرسل سعيد بن جبير «وقذفها عبد الله بن أبيّ فقال: ما برئت عائشة من صفوان ولا برئ منها، وخاض بعضهم وبعضهم أعجبه»[(١)] وقد ذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وقد يُحسّن حديثه وبقية رجاله رجال الصحيح[(٢)].

وقد أشاع ذلك ابن أبيّ حتى انتشر في الجيش قبل وصوله المدينة، وقد سبق في حديث الإفك أن عروة بن الزبير قال: أُخبرت أنه كان يشاع ويُتحدَّث به عنده - يعني ابن أبيّ - فيقره ويستمعه ويستوشيه «وقال عروة أيضًا: لم يسمَّ من أهل الإفك أيضًا إلاّ حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى» ذكره البخاري ضمن حديث الإفك[(٣)].

وهؤلاء الذين ذكر عروة أسماءهم ليسوا من المنافقين، وإنما انخدعوا بكلام المنافقين فخاضوا معهم في هذا الحديث.

ومن هذه الآثار يتبين لنا أن المنافقين قد أشاعوا هذا الخبر، وعمروا به مجالسهم، غير أنه لم يعرف منهم غير ابن أبيّ، وقد كان زعيمًا للمنافقين، فلا شك أنهم كانوا يتقربون إليه بإشاعة هذا الخبر كما يُفهم من كلام عروة بن الزبير.

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٦٤.

(٢) مجمع الزوائد ٧/ ٧٧.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب حديث الإفك (فتح الباري ٧/ ٤٣٢).

وهكذا استمر المنافقون ومن انخدع بهم من المؤمنين في نشر الإفك وتأييد احتمال كونه أمرًا واقعًا بمختلف الحجج الشيطانية.

ولقد كانت براءة عائشة ﵂ واضحة ظاهرة لا تخفى على المتأمل لقصتها، إذ أن قدومها مع صفوان بن المعطل في وضح النهار والجيش كلهم يشاهدونها من أكبر الأدلة على براءة ساحتها، ولم يسبق لها ما يدنس شرفها فليس هناك ما يدعو إلى اتهامها.

ولقد كان موقف الصحابة ﵃ من قضيتها موقفًا كريمًا نزيهًا، وقد رُويتْ عن بعضهم كلمات في تبرئتها تدل على ورعهم وقوة إيمانهم، كما تدل على نزاهة عائشة ﵂ ومقدار قيمتها في نفوس المؤمنين.

ومن هؤلاء أبو أيوب الأنصاري ﵁ كما في رواية البخاري عن عطاء الخراساني عن الزهري أن عائشة ﵂ قالت: وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فحدثتْه بقول أهل الإفك فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم[1].

وفي رواية ابن اسحاق أن أم أيوب قالت: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك[2].

ومنهم سعد بن معاذ كما روى الطبراني عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ يعني ألا قلتم مثل ما قال سعد بن معاذ الأنصاري وذلك أن سعد لما

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٧٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٩١.

سمع قول من قال في أمر عائشة قال: ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ قال الهيثمي رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف[1].

ومنهم زينب بنت جحش فإنها أثنت على عائشة ولم تتهمها حينما استشارها النبي ﷺ فيها كما سبق في حديث الإفك.

ولقد كان النبي ﷺ يعيش تلك الفترة في حرج وقلق شديد، وكان ينتظر نزول الوحي ليكشف الحقيقة ويخلصه من ذلك الموقف الحرج، ولما أبطأ عليه الوحي بلغ منه القلق مبلغه، فاستشار بعض خاصته في ذلك الأمر، فأشار عليه علي رضي الله عنه بأحد أمرين إما أن يفارقها ويريح نفسه من ذلك القلق، أو يتثبت من براءتها عن طريق خادمتها لأنها تعلم من أحوالها الخاصة ما لا يعلمه غيرها، وقد اختار النبي ﷺ الطريق الثاني فسأل عنها خادمتها كما سبق فأثبتت عفتها ونزاهتها، كما أشار عليه أسامة بإمساكها لما يعلم من طهارتها ولم يثبت عليها ما يوجب فراقها.

ولعل ما رآه النبي ﷺ من ثناء أسامة بن زيد على عائشة وإصرار الجارية على تزكيتها وهي أخبر الناس بها هو الذي شجعه على أن يقوم فيستعذر من عبد الله بن أبيّ إضافة إلى تزكية زينب بنت جحش مع وجود ما يدعوها إلى اتهامها -لكونها ضرَّتها- لولا دينها، ومما يدل على ذلك أن عائشة بعد ما ذكرت خبر الاستشارة ذكرت خبر استعذار النبي ﷺ من ابن أبيّ حيث قالت: فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبيّ ابن سلول.

وقد تقدم في حديث الإفك خبر الفتنة التي كادت أن تنشب بين الأوس والخزرج بسبب ذلك، ومما هو جدير بالذكر في شأن ذلك الجدال الذي جرى بين سعد بن معاذ

---

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٧٨.

وأسيد بن حضير من جهة وسعد بن عبادة من جهة أخرى، أن قول عائشة عن سعد بن عبادة «وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا» لا تعني به أنه بعد ذلك أصبح غير صالح، وإنما أرادت أنه كان كامل الصلاح بحيث لم يصدر منه مثل تلك الزلة التي حمله عليها التعصب لقومه، وقول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة «فإنك منافق» لم يُرد به قطعًا أنه يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وإنما أراد أن يقول إنك تصنع صنيع المنافقين؛ وفسره بقوله «تجادل عن المنافقين» وبهذا قال ابن حجر [١]، وذلك لأن من جادل عن قوم وهو في حاله الطبيعية فهو راض بمعتقداتهم ومنهجهم، أما سعد بن عبادة فإنه قال ذلك في حال الغضب لما احتملته الحمية لقومه، فلذلك لم يؤاخذه النبي ﷺ كما أنه لم ينكر على أسيد بن حضير لأنه عرف مقصوده من إطلاق النفاق على سعد بن عبادة، ولأن الكلام الذي دار بين الرجلين كان كله نتيجة الغضب، والغضب قد يُخرج الرجل العاقل المتقي الى ما يتنافى مع العقل والتقوى.

وقد اختلف العلماء في الذين صرحوا بالإفك هل أقام عليهم النبي ﷺ الحد أم لا على ثلاثة أقوال:

أولاً: أنه لم يُقم الحد على أحد منهم لأن الحد لا يثبت الاّ ببينة أو إقرار، ولم يحصل شيء من ذلك، وبهذا قال الماوردي كما ذكر ابن حجر [٢].

ثانيًا: أنه قد أقيم الحد عليهم جميعًا إلاّ عبد الله بن أبيّ، وبهذا قال ابن القيم [٣].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٧٤.

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٧٩.

(٣) زاد المعاد ٢/ ١١٤ - ١١٥.

ومما يستدل به لهذا القول ما أخرجه الترمذي قال: حدثنا بندار أخبرنا ابن أبي عدي عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حَدّهم» هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الاّ من حديث محمد بن إسحاق[1] .

وأخرجه ابن ماجه بهذا السند[2] كما أخرجه أبو داود من طريقين عن محمد بن إسحاق به، إحداهما مرسلة وفيها: «فأمر برجلين وامرأة ممن تكلم بالفاحشة: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة، قال النفيلي[3] : ويقولون إنّ المرأة حمنة بنت جحش»[4] .

فهذا الحديث فيه التصريح بأن الذين أقيم عليهم الحد ثلاثة، وفي الرواية المرسلة التي أخرجها أبو داود أنهم حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثه، وحمنة بنت جحش وليس فيه ذكر لابن أبيّ.

وقد قيل في التعليل لعدم إقامة الحد عليه أنه لم يصرح بالقذف بل كان يجمع الحديث ويستخرجه بالبحث عنه، وممن قال بذلك القاضي عياض كما ذكر ابن حجر[5] .

وقيل إن النبي ﷺ ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه خوفًا من وقوع الفتنة بسببه لأنه مطاع في قومه.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة النور (تحفة الأحوذي ٩/ ٣٧).

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الحدود، باب القذف، حديث رقم (٢٥٦٧).

(٣) هو عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل النفيلي الحراني.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب حد القذف (عون المعبود(١٢/ ١٧٣).

(٥) فتح الباري ٨/ ٤٨١.

وقيل إنما ترك حده لأن الحدود تقام على المؤمنين تكفيرًا لذنوبهم، وابن أبيّ قد ثبت نفاقه فليس مؤمنًا حتى يقام عليه الحد. ذكر هذين القولين ابن القيم ورجح الثاني (١).

ثالثًا: أنه قد أقيم عليه الحد كغيره ممن صرح بالإفك ومما يدل على ذلك ما أخرجه الطبراني بسنده عن سعيد بن جبير أنه قال: «جلد النبي ﷺ حسان بن ثابت وعبد الله ابن أبيّ ومسطحًا وحمنة بنت جحش كل واحد ثمانين جلدة، في قذف عائشة رضي الله عنها ثم تابوا من بعد ذلك، غير عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين مات على نفاقه» قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح (٢).

وذكر ابن حجر أن الحاكم أخرج في «الإكليل» من رواية أبي أويس عن الحسن ابن زيد وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما مرسلاً أن ابن أبيّ ممن جُلد الحد (٣).

والظاهر أن هذا القول أرجح لأمرين:

أولاً: لأنه قد ثبت في الحديث السابق الذي أخرجه أصحاب السنن أن النبي ﷺ أقام الحد على الثلاثة المذكورين، ولا يمكن شرعًا أن يقيم الحد على بعض القَذَفَة ويترك البعض الآخر.

أما القول بأنه ﷺ ترك إقامة الحد على ابن أبيّ لأنه مطاع في قومه فربما حصل بسبب ذلك فتنة، فهو مردود لأنه إما أن يكون كافرًا قد أعلن كفره فيجب قتله ردة، ولن يثور لقتله ثائر لأنه مرتد، وإما أن يكون مظهرًا الإسلام فلابد من إقامة الحدود عليه إذا

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١١٥.

(٢) مجمع الزوائد ٧/ ٨٠.

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٨١، وأبو أويس هو عبد الله بن عبد الله بن أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي قريب الإمام مالك وصهره.

ارتكب جريمة كغيره من المسلمين ولن يثور لذلك ثائر، وقد كان ابن أبيّ ممن يظهر الإسلام نفاقًا فلذلك لم يقتله النبي ﷺ بالرغم من ظهور أمارات الكفر عليه، واقتناع النبي من ذلك حتى لا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه كما سبق، أما أن يترك إقامة الحد خوفًا من قومه فهذا ما لا يمكن وقوعه، لأن كونه مظهرًا الإيمان يستلزم إقامة الحد عليه إذا عصى.

ثم من هم قومه الذي سيثورون له؟ أليسوا من المؤمنين؟ وهل يثور المؤمنون إذا أقيم حد الله على واحد منهم بحق وإن كان شريفًا فيهم؟ هذا ما لا يمكن أن يقع أبدًا من مؤمن حقًا، أما تركه قتله مع ظهور نفاقه فانه يختلف عن هذا لأنه يظهر الإيمان، فحقن بذلك دمه فليس هناك سبب ظاهر يستوجب قتله، وقد قتل النبي ﷺ سويد بن الصامت حدًا لقتله المجذر بن ذياد البلوي، كما سبق فلم ينكر ذلك أحد من قومه.

والرسول ﷺ هو أول من أنكر على الأمم السابقة إقامة الحد على ضعفائهم وترك إقامته على أشرافهم، كما أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها في حديث المخزومية التي سرقت أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[1].

فكيف ينكر «شيئًا ثم يرتكبه؟ هذا ما لا يمكن حدوثه ولا يليق بمقام النبوة.

أما القول بأنه ﷺ ترك إقامة الحد عليه لكونه منافقًا والحدود إنما تقام تكفيرًا لذنوب مقترفيها؛ والمنافق كافر فلا يكفر ذنبه إلاّ الإسلام، فالجواب على ذلك من وجهين:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد (فتح الباري ١٢/ ٨٧) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (ص ١٣١٥).

أولاً: أن الحدود لا تقام لتكفير ذنوب مقترفيها فحسب بل لحِكَم أخرى أهمها: تطهير المجتمع وإصلاحه من الفساد، وهذا يستدعي إقامة الحد سواء كان مرتكب الجريمة مؤمنًا أو منافقًا.

ثانيًا: أن الحدود لا يراعى فيها عند إقامتها كونها مكفرة لصاحبها أو غير مكفرة، ولو كان هذا أمرًا معتبرًا لامتنعت إقامة الحدود على كل من يُشك في إيمانه ولكان هذا داعيًا لانتشار الجرائم من المنافقين إذا كان الشك في إيمانهم يحول دون إقامة حد الجرائم عليهم والشك في كفرهم يحول دون إقامة حد الردة عليهم، فكون الحدود تكفِّر أو لا تكفر يرجع إلى علم الله تعالى، فإن كان المحدود مؤمنًا كان الحد كفارة له. وإن كان منافقًا فقد لقي جزاءه في الدنيا وسيلقى جزاءه أيضًا في الآخرة.

وقد اختلف العلماء في الحدود هل هي كفارات لأصحابها أم لا ؟ على قولين:

أولاً: أنها كفارات لما أخرجه البخاري بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه -أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه. فبايعناه على ذلك»[1].

ثانيًا: التوقف في ذلك لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا أدري الحدود كفارة لأهلها أم لا؟» ذكره ابن حجر وقال: أخرجه الحاكم في المستدرك، والبزار من

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار.

رواية معمر عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة، وهو صحيح على شرط الشيخين، وقد أخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر، ذكر الدارقطني أن عبد الرزاق تفرد بوصله وأن هشام بن يوسف رواه عن معمر فأرسله، قال ابن حجر: وقد وصله آدم بن أبي إياس عن ابن أبي ذئب وأخرجه الحاكم أيضًا فقويت رواية معمر [(١)].

وهذان الحديثان بينهما تعارض كما هو ظاهر وقد جمع بينهما القاضي عياض بأن حديث أبي هريرة ورد أولا قبل أن يعلمه الله ثم أعلمه بعد ذلك، ذكره ابن حجر عنه واستحسنه [(٢)].

أقول وهذا الجمع الذي ذكره القاضي واستحسنه ابن حجر هو الظاهر لأنه لا يمكن أن يموت النبي ﷺ وهو لا يدري هل الحدود كفارات أم لا، وبناء على ذلك يترجح القول بأنها كفارات لأهلها، وقد رجح هذا القول ابن حجر وأورد أحاديث أخرى تؤيده وتشهد لحديث عبادة بن الصامت وهي:

أولاً: قوله ﷺ «من أصاب ذنبًا فعوقب به في الدنيا فالله أكرم من أن يُثَنِّي العقوبة على عبده في الآخرة» رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب وصححه الحاكم ورواه الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي تميمة الهجيمي.

ثانيًا: قوله ﷺ «من أصاب ذنبًا فأقيم عليه حدّ ذلك الذنب فهو كفارة له» رواه الإمام أحمد من حديث خزيمة بن ثابت بإسناد حسن.

ثالثًا: قوله ﷺ «ما عوقب رجل على ذنب إلاَّ جعله الله كفارة لما أصاب من ذلك الذنب» رواه الطبراني من حديث ابن عمرو [(٣)].

---

(١) فتح الباري ١/ ٦٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) فتح الباري ١/ ٦٧ – ٦٨.

أما قول الماوردي أنه لم يُقم الحد على أحد منهم فهو مردود بما ثبت في الأحاديث السابقة، واشتهار ذلك عنهم قام مقام البينة عليهم.

بيان معنى النص:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الإفك: تقدم أنه في اللغة صرف الشيء عن حقيقته، ومعناه هنا الكذب، وسُمي الكذب بذلك لأن فيه قلبًا للحقائق، والمراد به هنا رمي عائشة رضي الله عنها.

والعُصْبة: الجماعة من الرجال ما بين العشرة الى الأربعين[1].

المعنى إن الذين جاءوا بالكذب على عائشة رضي الله عنها حين اتهموها في عِرضها، هم جماعة منكم أيها المسلمون، ومنهم عبد الله بن أبيّ وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش كما مر في بيان من نزل فيه النص.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي لا تحسبوا خبر الإفك على عائشة رضي الله عنها شرا لكم كما يبدو لكم قبل التفكير في نتائجه، بل هو خير لكم من حيث نتائجه العظيمة في العاجل والآجل.

ومن أهم الأمور التي كان حادث الإفك خيرًا بسببها هو أنه لما كانت ناحية العرض ناحية حساسة بالنسبة للمجتمعات التي تحافظ عليها، أصبح يقع بسبب انتهاكها قتل وتفكك في الأسر وتشويه للسمعة، حتى تنحط بعض الأسر بسببه من الشرف والعلو إلى الحضيض، فأراد الله سبحانه بتقديره وقوع ذلك الحادث أن يضرب المثل للمؤمنين بأن الاتهام الكاذب لم يبرأ منه حتى سيد البشر عليه الصلاة والسلام، وأسرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الناس بعد الأنبياء، حتى لا يتسرع المؤمنون في مواجهة مثل هذا الحادث إذا

---

(١) القاموس المحيط، لسان العرب،، الصحاح، تفسير الزمخشري ٣/ ٥٢.

ما وقعوا فيه فيتصرفوا تصرفًا شائنًا بالقتل أو الطلاق بالنسبة لمن وقعت عليهم التهمة، أو بإشاعة الخبر والظنون السيئة بالنسبة لمن سمع به من المؤمنين، فقدَّر الله وقوع هذا الحادث ليتجمل من أصيب بمثل ذلك بالصبر ويتصرف بحكمة وروية، وليظن المؤمنون بإخوانهم خيرًا، فيكفوا عن الخوض في مثل هذه الأمور التي تشتهي بعض النفوس الخوض فيها، حتى يستقيم المجتمع الإسلامي، ويتطهر من إشاعة مثل هذه الأخبار السيئة التي تحطم كيانه الأخلاقي ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي لا تحسبوا خبر الإفك شرًا لكم أيها المؤمنون، بل هو خير لكم وشر على من ارتكبه، فإن لكل امرئ منهم جزاء ما تحصل له من الإثم في ذلك الافتراء الشنيع على قدر إجرامه فيه.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي والذي تصدى لمعظم الإفك حيث بدأ باتهام عائشة رضي الله عنها ونشر ذلك الخبر الكاذب حتى شغل به مجتمع المدينة شهرًا كاملاً.

﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي فظيع هائل لا يُقدَّر وصفه من شدة هوله، وذلك في نار جهنم، والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبيّ ابن سلول كما سبق تحقيق ذلك.

ثم عاتب الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين خاضوا في حديث الإفك، ووبخهم بقوله ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي هلا إذ سمعتم هذا الإفك أيها المؤمنون والمؤمنات ممن خاض فيه من المنافقين ظننتم ببعضكم خيرا وكففتم عن الخوض فيه!!

وفي وصف المؤمنين والمؤمنات بالإيمان وعدم الاكتفاء بالضمير إشارة إلى أنه كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يردعهم إيمانهم عن الخوض في مثل ذلك.

وفي التعبير بالأنفس عن الأخوّة في الإيمان بقوله ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى أنه يجب على المؤمن أن يراعي سمعة أخيه كما يراعي سمعة نفسه، فإن المؤمنين جميعًا كالجسد الواحد

وكل فرد منهم كعضو في ذلك الجسد، كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم[1] وكما قال ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا،وشبك بين أصابعه» أخرجه الشيخان[2]. فالأذى الذي يصيب أي فرد من أفراد المسلمين يجب أن يشعر به المؤمنون جميعًا، وإلاَّ فليسوا بمؤمنين حقا،فكيف بمن يحاولون إلحاق الضرر بإخوانهم المؤمنين.

ويشبه هذا التعبير في الآية قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء: ٢٩] وقوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[الحجرات ١١].

﴿وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي هلا إذ سمع المؤمنون ذلك الخبر ظنوا بإخوانهم المؤمنين خيرا وقالوا هذا الخبر الذي سمعنا كذب واضح!! إذ أن من اتهموا به ليسوا مظنة لارتكاب مثل هذه الفواحش، بعد أن اتصفوا بالإيمان المانع من ارتكابها.

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشِيْعِين لهذه التهمة الباطلة لم يعتمدوا في اتهامهم على أصل معتبر شرعًا، حيث قال تعالى ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي هلاَّ أحضروا في اتهامهم هذا أربعة شهداء ممن تُرضى شهادتهم يشهدون بأنهم رأوا فعل الجريمة !! ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ كما هو الحال في أهل الإفك هذا ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (فتح الباري ١٠/ ٤٣٨) صحيح مسلم، كتاب البر، باب تراحم المؤمنين (ص١٩٩٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، (فتح الباري ٥/ ٩٩) صحيح مسلم، كتاب البر، باب تراحم المؤمنين (ص ١٩٩٩).

حكمه وشريعته ﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ الذين بلغوا من الكذب حدًا بالغًا حتى كأن غيره من الكذب لا شيء معه، وذلك يفيده الحصر المفهوم من الجملة الإسمية ﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾.

ثم بين سبحانه فضله على من خاض في حديث الإفك من المؤمنين ورحمته بهم، حيث قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ وذلك بالتشريع العادل حيث لا يُظلم البريء ولا يترك الظالم يستمر في ظلمه، وقيل إن المراد بالرحمة هنا الإمهال للتوبة[1] ، وهو غير ظاهر لأن الإمهال للتوبة وقبولها مما يتعلق بالآخرة حيث إنها هي دار الجزاء، وقد ذُكرت الآخرة بعد هذا ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بقبول التوبة والكفارة بالحد ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبالتعرض للفتنة والانتقام ونحو ذلك، وأما في الآخرة فبالتعرض لعذاب النار، وقيل المراد بالعذاب هنا العقوبة في الدنيا[2] ولكن ما سبق من ذكر تعلق رحمة الله بالمؤمنين في الدنيا والآخرة يمنع من تخصيص العذاب في الدنيا، لأن وقوع العذاب مترتب على عدم تحقق رحمة الله بالمؤمنين المذكورة في الآية، وما دامت الرحمة شاملة للدارين فالعذاب شامل لهما أيضًا عند عدم تحققها.

ثم بين سبحانه وتعالى كيفية إفاضتهم حديث الإفك بقوله ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الظرف في الآية يحتمل أن يكون متعلقًا بقوله ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أو بقوله ﴿أَفَضْتُمْ﴾ في الآية السابقة[3] والثاني أقرب لأن هذه الآية بيان

(١) الكشاف ٣/ ٥٤، روح المعاني ١٨/ ١١٨.

(٢) جامع البيان ١٨/ ٩٧، الكشاف ٣/ ٥٤.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤.

للإفاضة المذكورة في الآية السابقة ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ أي تروونه بعضكم عن بعض، وبهذا قال مجاهد كما أخرجه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نجيح[1] ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي وتنطقون بأفواهكم بكلام لا تعلمون عن حقيقته شيئًا وإنما هو الرجم بالغيب والظنون الكاذبة التي أشاعها الأفاكون من أعداء الإسلام ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أي وتحسبون هتك أعراض المؤمنين وتشويه سمعتهم أمرًا سهلاً لا خطورة فيه ولا مسؤولية ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي وهو في حكم الله أمر فظيع لما يترتب عليه من الآثار الخطيرة التي تحطم كيان المجتمع، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لعِرض أي رجل من المؤمنين؛ فإن الأمر يزداد خطورة عند انتهاك عرض النبي ﷺ، وعِرض الرجل الأول في دولة الإسلام بعد النبي ﷺ، لأن ذلك يؤثر على سير الدعوة الإسلامية.

ونظرًا لخطورة هذا الأمر أرشد الله المؤمنين الذين لم ينكروا خبر الإفك إلى الواجب عليهم تجاه هذا الخبر الكاذب، حيث قال تعالى ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي وهلاً إذ سمعتم خبر الإفك أنكرتموه من أول وهلة، وقلتم ما يصح لنا ولا يستقيم مع أصول ديننا أن ننطق بهذا الخبر الكاذب!! ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي ننزهك يا ربنا عن أن ننسب هذا الخبر الكاذب إلى زوجة نبيك العفيفة الطاهرة، لأنك لن تختار لنبيك الطاهر إلاّ الزوجة الطاهرة ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي هذا الاتهام الموجه إلى عائشة رضي الله عنها كذب شنيع فظيع.

وبعد أن بين سبحانه فظاعة هذا العمل حذر عباده المؤمنين من أن يعودوا لمثل هذا التصرف، فينتهكوا أعراض إخوانهم المؤمنين بلا بينة ولا برهان، حيث قال تعالى

---

(١) جامع البيان ١٨/ ٩٨.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي يذكركم الله وينهاكم بآي كتابه لئلا تعودوا أبدًا لمثل فعلكم الذي فعلتموه، من تلقيكم الإفك وقولكم بأفواهكم ما ليس لكم به علم[١] ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيمان الصادق فلا تعودوا لمثل هذا التصرف الخاطئ فإنه يتنافى مع الإيمان الحق، لأن من واجبات المؤمن أن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ويكره له ما يكرهه لنفسه، كما قال ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢] ومن لوازم هذه المحبة أن يحافظ على عِرض أخيه المؤمن كما يحافظ على عرضه.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ أي يوضح لكم الآيات الدالة على خيركم في الدنيا والآخرة، لتكونوا أمة قائمة على العدل والحق، مصونة من التردي في الأخطاء المهلكة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح المجتمع الإسلامي، ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث شرع له ما يطهره من الرذائل.

وبعد أن بين سبحانه شناعة اتهام المؤمنين الأبرياء بارتكاب الجريمة، بين العقوبة الشديدة لمن أحب انتشار الفاحشة بين المؤمنين، وتجرأ على انتهاك أعراضهم، حيث قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال[٣]، والمراد بها هنا جريمة الزنا كما يستفاد من سياق الآيات، المعنى: إن الذين

---

(١) جامع البيان ١٨/ ٩٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه.. الخ (فتح الباري ١/ ٥٧) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب.. الخ.

(٣) المفردات في غريب القرآن، النهاية في غريب الحديث.

يشعرون بمحبة فشو هذه الجريمة، والرغبة في انتشارها بين مجتمع المؤمنين الصادقين، فيستغلون الفرص لقذف المؤمنين الأبرياء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي عذاب موجع في الدنيا وذلك بانتقام الله منهم بسائر أنواع النقم التي يصبها على المفسدين في الأرض، ومن ذلك إقامة الحد عليهم إذا ثبت ذلك عليهم شرعًا ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي ولهم عذاب أليم في الآخرة وهو عذاب النار، ويدخل في هذه الآية دخولاً أوّليًا عبد الله بن أبيّ المنافق، لأنه هو الذي ابتدأ خبر الإفك على عائشة ﵂، واستغل الفرصة ليفسد مجتمع المؤمنين بإشاعة ذلك الخبر الكاذب، هو ومن تبعه من المنافقين، لأنهم هم الذين يحبون انتشار الفاحشة في مجتمع المؤمنين، ولا يدخل فيها القذفة من المؤمنين الذين يصدر عنهم القذف نتيجة ظن خاطئ، أو انخداع بكلام الآخرين.

ومن المفسرين من فسر محبة إشاعة الفاحشة بنفس إشاعتها أي بمباشرة قذف المؤمنين الأبرياء، واستدلوا على ذلك بأن الآية ذُكر فيها عذاب الدنيا وهو الحد، والحد لا يجب على من أحب انتشار الفاحشة من دون أن يصرح بالقذف[1]، ولكن هذا القول مخالف لظاهر الآية إذ إن محبة انتشار الفاحشة ليس معناها التفوّه بالقذف، فقد يحب الشخص انتشار الفاحشة بين المؤمنين من غير أن يتفوه بالقذف، إما لعدم سنوح الفرصة له في ذلك، أو لخوفه من إقامة الحد عليه، وقد يحصل التفوه بالقذف من غير محبة لإشاعة الفاحشة بين المؤمنين، إما نتيجة ظن خاطئ أو انخداع بكلام الآخرين، فمحبة إشاعة الفاحشة بين المؤمنين لا يُتصور صدورها من مؤمن، وإنما تصدر من المنافقين والكفار، بخلاف التفوه بالقذف فإنه يصدر من المؤمن نتيجة التسرع والأخذ بالظن، لا لقصد إشاعة الفاحشة وإفساد المجتمع الإسلامي.

---

(١) روح المعاني ١٨/ ١٢٣.

أما ترتب الحد -على اعتبار أنه هو المراد بالعذاب الأليم في الدنيا- فليس على محبة إشاعة الفاحشة وإنما هو على إشاعتها بالفعل، وقد كان المنافقون الذين خاضوا في عِرض عائشة ﵂ قد جمعوا بين محبة إشاعة الفاحشة بين المؤمنين والتفوه بالقذف، والأولى أن تفسر الآيات بمدلول الموقف الذي نزل فيه النص، فتكون الآية فيمن خاض في أعراض المؤمنين قاصدًا بذلك هدم المجتمع وتشويه سمعة المؤمنين، ولا مانع من أن تكون الآية فيمن أحب إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، سواء أشاع ذلك أو لم يفعل لأنه سيفعل ذلك حين تسنح له الفرصة، وعذاب الدنيا لا يقتصر على الحد بل يشمل سائر ما يكتبه الله على المجرمين من أنواع النقم، ولعل في هذا جوابًا على الإشكال الذي أُورد على هذه الآية من أنه لا يُجمع على شخص واحد من المؤمنين بين حد الدنيا وعذاب الآخرة، باعتبار أن الحدود مكفرات للذنوب كما سبق، لأننا إذا فسرنا محبة إشاعة الفاحشة في الآية بأن المراد بها التفوه بالقذف، استلزم ذلك أن نجعل الآية في عموم القذفة فتشمل المؤمنين منهم، وهنا يَرِد الإشكال السابق، أما إذا فسرنا إشاعة الفاحشة على ظاهرها فإنها لا تشمل المؤمنين من القذفة بل تختص بالمنافقين، وهنا لا يكون إشكال لأن الحدود ليست مكفرات بالنسبة لهم باتفاق العلماء.

وقد أجيب عن الإشكال السابق بأن حكم الآية مخصوص بمن أشاع ذلك في حق أم المؤمنين، أي أن الحد لا يكفّر ذنب من افترىِ عليها ﵂، بخلاف غيرها من سائر الأمة لما لأمهات المؤمنين من الحقوق التي ليست لسائر النساء، وأجيب أيضًا بأن الحد لمن نقل الإفك من المسلمين، والعذاب الأخروي لمبتدئه ومتولي كبره عبد الله بن أبيّ، وقد ذكر هذين القولين الألوسي[1].

---

(١) روح المعاني ١٨/ ١٢٣.

ولكننا حينما نفسر الآية على ظاهرها لا نقع في هذا الإشكال أصلاً كما سبق، والقول بأن حكم الآية مخصوص بمن قذف عائشة ﵂ بعيد لأنه لا دليل عليه، وإن كانت هذه الآيات قد نزلت فيها فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما أن الذين قذفوا عائشة من الصحابة لا شك أنهم قد تابوا جميعًا، وهذا أمر لا يُتوقع خلافه من الصحابة ﵃ فلا ينطبق عليهم إذًا الوعيد لأن كل منافق صدر منه قذف المؤمنين يستحق هذا الوعيد، وإن أقيم عليه الحد في الدنيا كما سبق.

وأما القول بأن الحد لمن نقل الإفك من المسلمين، والعذاب الأخروي لعبد الله بن أبيّ، فيبعده أن الصحابة الذين قذفوا عائشة لا يجوز إدخالهم في مدلول هذه الآية، لأن محبة إشاعة الفاحشة بين المؤمنين لا يمكن أن تصدر من سائر المؤمنين فضلاً عن الصحابة ﵃، وإذا كان هذا القول مبنيًا على تفسير محبة إشاعة الفاحشة بقذف الأبرياء فقد سبق تضعيف هذا القول فيكون ما بني عليه ضعيفًا.

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي يعلم جميع الأمور التي فيها صلاح البشرية، ومن ذلك علمه سبحانه بمدى شناعة هذا الأمر الذي تحدثت عنه هذه الآيات، ومبلغ خطره على أخلاق الأمة الإسلامية، فإن في إشاعة الفاحشة انتهاكًا لأعراض المؤمنين وتشويهًا لسمعتهم وتهوينًا من شأن المنكرات، فالمنكر إذا تردد ذكره على الألسنة وعُمرت به المجالس لا تنشط النفوس في إنكاره ولا تبادر إلى تغييره، كما يتجرأ على ارتكابه ضعفاء الإيمان لضعف الوازع الديني عندهم، بخلاف ما إذا تطهر المجتمع من ذكر الرذائل فإنه يكون نقيًا نزيهًا، يبادر أفراده إلى تغيير المنكر حال وقوعه لأنه أمر مستنكر وقوعه في المجتمع.

ومن ثَمَّ اقتضت حكمته سبحانه أن يفرض على مشيع الفاحشة تلك العقوبات الشديدة في الدنيا والآخرة، أما الناس فإنهم يجهلون خطر ذلك لأنهم يؤخذون بشهوة

نقل الأخبار وإشاعة الأمور الشنيعة التي تستنكرها النفوس من دون أن يُلقوا لخطرها على كيان أمتهم بالاً، أو أن يحسبوا لأثرها على من أشيعت فيه حسابا.

ثم كرر سبحانه مِنَّته على الذين أفاضوا في حديث الإفك، بترك معاجلتهم بالعقوبة حيث قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ المعنى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم، ولولا أن الله رؤوف رحيم بكم لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم، وإنما كرر سبحانه مِنَّته عليهم بذلك تهويلاً لشأن تلك الجريمة التي ارتكبوها.

* * *

١٧- إظهارهم مودة المؤمنين وإبطانهم مودة الكفار

النص القرآني في ذلك:

قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ١٤- ٢٢].

بيان من نزل فيه النص:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل حدثنا زهير عن سماك بن حرب حدثني سعيد بن جبير أن ابن عباس حدثه: أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده

نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه»، فجاء رجل أزرق فدعاه النبي ﷺ فكلمه فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان».. نفر دعاهم بأسمائهم، قال: فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا اليه قال: فأنزل الله عز وجل ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[1].

وأخرجه ابن جرير من طريق سماك بن حرب به وذكر نحوه إلاّ أنه قال: فنزلت هذه الآية التي في المجادلة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ والآية الأخرى[2].

وقت نزول هذا النص:

ليس في هذه الآيات ما يبين وقت نزولها على التحديد، وليس في سبب النزول ما يبين ذلك أيضًا، غير أنه ذكر في هذه الآيات موالاة المنافقين لليهود في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وقد ذكر اليهود قبل هذه الآيات في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الآية [المجادلة: ٨] والمدينة قد تم تطهيرها من اليهود في السنة الخامسة بعد «الخندق» مباشرة فهذا مما يرجح أن هذه الآيات مما نزل قبل ذلك.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

كان مجتمع المدينة في السنوات الخمس الأولى من الهجرة مكونًا من ثلاث طوائف هم المؤمنون والمنافقون واليهود.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٩، إسناده حسن.

(٢) جامع البيان ٢٨/ ٢٣.

وكان موقف المؤمنين واليهود بعضهم من بعض صريحًا، لأن عداوة اليهود للمؤمنين ظاهرة وإن كانوا يحاولون إخفاءها عن المؤمنين.

أما المنافقون فكانوا يُظهرون مودة المؤمنين نفاقًا ويبطنون عداوتهم، وكانوا لهذا يلجأون إلى اليهود فيعتزون بهم، ويُظهرون لهم المودة والنصرة كما سبق في بيان موقف ابن أبيّ مع بني قينقاع، وكانوا يشعرون بالحرج أمام المؤمنين إذ أن الحقائق لابد أن تظهر وإن حاولوا إخفاءها.

ولما كانوا يخافون من بطش المؤمنين بهم إذا انكشف أمرهم، أصبحوا يلجأون إلى الحلف بالله أمامهم على نفي التهم الموجهة إليهم نحو خيانة الله ورسوله، مبالغة منهم في ستر كفرهم.

بيان معنى النص:

بعد أن بين سبحانه بعض منكرات اليهود التي يقومون بها تجاه رسول الله ﷺ والمؤمنين بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وبعد أن نهى المؤمنين عن ذلك بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ الآيات بين سبحانه شيئًا من منكرات المنافقين التي يقومون بها مع اليهود، حيث قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ والاستفهام للتقرير حيث دخل على النفي، والرؤية علمية، والخطاب لرسول الله ﷺ، أي قد علمت أيها الرسول حال هؤلاء المنافقين

الذين أحبوا وناصروا ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ فهم مخذولون منه تعالى، وهم اليهود لأنهم هم الذين غضب الله عليهم لَمَّا تركوا الحق بعد معرفته، كما يؤيد ذلك وضع المنافقين في المدينة مع اليهود، فاعْجَب لأمرهم كيف تولوا قومًا هذه صفتهم إضافة إلى أن هؤلاء اليهود ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون فيكون في توليهم سلامتهم وأمنهم حيث يكونون قد تولوا قومًا يتصفون بالإيمان الذي تظاهر به هؤلاء المنافقون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي من المنافقين فيكونون قد تولوا قومًا يتفقون معهم في المبدأ ظاهرًا وباطنًا،بل تولوا قومًا أظهروا كفرهم بالإسلام وعداءهم له فلن يستفيدوا من توليهم شيئًا لأن من تولوهم ليسوا أقوياء حتى ينتصروا بهم بل قد خذلهم الله تعالى،ولا من المؤمنين حتى يتستروا بتوليهم، ولا من المنافقين مثلهم حتى يخفى أمرهم عن المؤمنين[1] .

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي وإذا انكشف أمرهم ووقعوا في مآزق صاروا يحلفون بالله على الأمر الكذب، وهو ادعاء الإيمان الحق والسلامة من المنكرات التي تُنسب إليهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي والحال أنهم حينما تفوهوا بهذا الحلف كانوا يعلمون أنهم كاذبون فيه.

وهذا من أبلغ الأدلة على نفاقهم وخلو أفكارهم من الاستعداد لحمل المبدأ الصحيح حيث يعقدون الأيمان لتوكيد أمر يعتقدون خلافه.

---

(١) وقيل إن الضمير في قوله (هم) يعود على المنافقين وفي قوله (منهم) يعود على اليهود وبهذا قال الطبري ٢٨/ ٢٢ والزمخشري ٤/ ٧٧. وهذا خلاف الظاهر لأن الضمير يعود على أقرب مذكور إذا استقام المعنى فقوله (ما هم) جاء بعد ذكر اليهود فكونه يعود عليهم أولى إضافة إلى أن هذا المعنى الذي فسَّرتُ الآية على ضوئه هو الذي يتبين به العجب من أمرهم حيث يتولون قومًا ما هم منهم ولا من المؤمنين، أما كون المنافقين ليسوا من اليهود ولا من المؤمنين فهو أمر معروف.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾ أي هيأ لهم في الآخرة عذابًا بالغ القسوة وهو ما ذكره سبحانه بقوله ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي هيأ لهم سبحانه ذلك العذاب الشديد بسبب ما قدموه من العمل السيئ حيث كانوا يظهرون الإسلام ومودة المسلمين بينما هم يبطنون الكفر ومودة الكفار.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الكاذبة التي يعدونها للتخلص من المآزق التي يقعون فيها ﴿جُنَّةٗ﴾ سترة ووقاية دون أنفسهم وأموالهم.

﴿فَصَدُّواْ﴾ أعرضوا بسبب ذلك ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المستقيم المتزن الذي لا يقبل من المسلم هذا التناقض الظاهر بين ظاهره وباطنه.

﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي فلهم بسبب هذا الإعراض عن سبيل الله عذاب مُذِلٌ مُخزٍ لهم يوم القيامة، فليتبوؤوا مقعدهم في الدرك الأسفل من النار.

فهؤلاء المنافقون أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتخذوا من اليهود أولياء لتبقى لهم دنياهم من مال وبنين، ولكن هل ستنفعهم دنياهم فترد عنهم شيئًا من عذاب الله إذا حلّ بهم؟

﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ إذا أنزل بهم عذابه في الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في الآخرة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فلا ينفلتون منها.

وما دام الاعتداد بالأموال والأولاد لا يمنع عنهم عذاب الله في الدنيا والآخرة فلماذا يتشاغلون به عن الأمر المهم الذي يدفع عنهم عذاب الله الأليم ويجعلهم أهلاً لثوابه العظيم، ألا وهو الإيمان بالله حقًا والعمل الصالح.

ثم ذكر سبحانه مشهدًا من مشاهدهم في الآخرة يبين أصالتهم في النفاق ومقدار هيمنته على نفوسهم فقال تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فتغلب عليهم عادتهم التي مرنوا عليها في الدنيا ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي فيعقدون الأيمان الكاذبة أمام الله عز وجل في الآخرة لتأييد دعوى الإيمان كما يعقدونها أمامكم في الدنيا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ بهذا الحلف ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ ينجيهم من عذاب الله كما نجوا من المؤمنين في الدنيا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ البالغون في الكذب نهايته حيث قامت حياتهم في الدنيا على الكذب، وسيختمون ذلك بالكذب يوم القيامة أمام رب العالمين.

ثم بين سبحانه الباعث لهم على سلوكهم هذا فقال تعالى ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي غلب على أمرهم واستولى على عقولهم وأفكارهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي نزع من أفكارهم الخوف من عذاب الله والرجاء لما عنده، بما أشغلهم به من التعلق بالدنيا وبما زينه لهم من الأهواء المنحرفة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أتباعه وجنوده ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حيث خسروا الدنيا والآخرة.. خسروا الدنيا لأنهم فقدوا حياة الأمن التي يحظى بها المؤمنون، وخسروا الآخرة لأنهم حُرموا ثواب الله الذي أعده لأوليائه وباءوا بأليم عقابه.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا أمل لهؤلاء المنافقين في طلب العزة عند الكفار وانتكاس راية المؤمنين، لأن الله سبحانه قد كتب الذلة على جميع الكفار الذين يعادون دينه وقد كتب العزة لأوليائه الذين ينصرون دينه، حيث قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي إن الذين اتخذوا لهم منهجًا يخالف دين الله وناصبوا دين الله

ورسوله العداء أولئك في عداد أهل المهانة والحقارة المغلوبين على أمرهم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ أي قضى وقدر سبحانه أن الغلبة له ولرسله وبالتالي لجميع المؤمنين الصادقين الذين يدافعون عن دينه ولا رادَّ لقضاء الله وقدره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ولا يحول بينه وبين إمضاء قدره أي حائل جل وعلا عن ذلك.

ثم بين سبحانه الدليل على كفرهم باطنًا ببيان امتناع الجمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر ومودة الكفار في قلب واحد، وإن كان هؤلاء الكفار من أقرب الناس إلى من أحبهم حيث قال تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يمتنع في شرع الله أن يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر ومحبة أعداء الله ورسوله الذين اتخذوا لهم منهجًا في الحياة يخالف المنهج الذي شرعه الله، وإذا وُجد من يجمع بين ذلك فليس بمؤمن حقًا، لأن الجمع بين الإيمان بالله ومودة أعدائه من صفات المنافقين ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي ولو كان هؤلاء الكفار المحادون الله ورسوله من أقرب الناس إلى من أحبهم كالآباء والأبناء والأخوة أو أي فرد من أفراد القبيلة، وتخصيص الآباء والأبناء والأخوة بالذكر مع دخولهم في أفراد العشيرة لمزية قربهم، إذ أن للقرابة الأدنين من التأثير على الشخص ما ليس لسائر أفراد العشيرة.

ثم أثنى سبحانه على المؤمنين الصادقين الذين تبرؤوا من الكفار جميعًا، ولو كانوا من أقاربهم حيث قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي ثبته الله حتى رسخ فيها وتحكم في غرائزهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي قواهم ببرهان منه ونور وهدى[1]

---

(١) جامع البيان ٢٨/ ٢٧.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ أي وجزاؤهم في الآخرة الخلود في جنات النعيم والفوز برضوان الله عز وجل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين أخلصوا ولاءهم لله ورسوله والمؤمنين ﴿حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ﴾ جنوده وأنصاره ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

* * *



١٨- موقف المنافقين في غزوة الأحزاب

النص القرآني في ذلك:

١ - قال الله تعالى ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور: ٦٢-٦٤].

٢- وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ

لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩ - ٢٧].

بيان من نزل فيه النص:

١- قال ابن إسحاق في سياقه لغزوة الخندق بعد ما ذكر مجيء قريش ومن سار معهم من العرب إلى المدينة: فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب

الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبًا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يُورُّون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بُدَّ له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابًا له، فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين والمنافقين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ إلى قوله ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[1] [النور :٦٢- ٦٤].

٢- قال ابن جرير حدثنا ابن بشار قال: حدثنا محمد بن خالد بن عثمة قال: حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني قال: حدثنا أبي عن أبيه قال: خط رسول الله ﷺ الخندق عام ذكرت الأحزاب.. ثم ذكر اختلاف المهاجرين والأنصار في سلمان الفارسي وقول الرسول ﷺ فيه «سلمان منا آل البيت» ثم ذكر الصخرة التي استعصت عليهم إلى أن قال: فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق ورقينا نحن التسعة على شفة الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابَتَيها -يعني لابتي المدينة- حتى لكأنها مصباح في جوف بيت مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأنها مصباح في

(١) السيرة النبوية ٣/ ٢٥٥ – ٢٥٦ وسيأتي سند ابن إسحاق في تصوير الموقف حيث قد ذكر هذا الأثر ضمن خبر غزوة الخندق.

جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة فكسرها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأنها مصباح في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح ثم أخذ بيد سلمان فرقى فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئًا ما رأيته قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج فرأيناك تكبر فنكبر ولا نرى شيئًا غير ذلك قال: صدقتم.. ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاء لي منه قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثانية فبرق الذي رأيتم أضاء لي منه قصور الحمر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا - يبلغهم النصر - وأبشروا - يبلغهم النصر - وأبشروا - يبلغهم النصر - فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعود صدق بأن وُعدنا النصر بعد الحصر، فطبقت الأحزاب فقال المسلمون ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية، وقال المنافقون: ألا تعجبون؟ يحدثكم ويعدكم الباطل يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق من الفَرَق [يعني من الخوف] ولا تستطيعون أن تبرزوا، وأنزل القرآن ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[1].

وأخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: احتفر رسول الله ﷺ الخندق وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع... ثم ذكر خبر الجدْي الذي أكل منه أهل الخندق جميعًا ببركة دعاء النبي ﷺ فيه، ثم قال: فقال -أي رسول الله- ﷺ

(١) جامع البيان ٢١/ ١٣٣.

اذهبوا بنا إلى سلمان، وإذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها، فقال النبي ﷺ لأصحابه: دعوني فأكون أول من ضربها فقال: بسم الله فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال: الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة، ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة فقال: الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة، فقال عندها المنافقون: نحن بخندق وهو يعدنا قصور فارس والروم - قال الهيثمي رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان[1] .

وذكر ابن إسحاق فيما أخرجه عنه ابن هشام أن قائل هذا الكلام هو مُعَتِّب بن قشير، وقد علق على ذلك ابن هشام بقوله: وأخبرني من أثق به من أهل العلم أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين واحتج بأنه كان من أهل بدر[2] . وقد سبق التحقيق في هذا الموضوع في غزوة أحد.

٣ - أخرج ابن جرير من طريق ابن حميد عن ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ إلى قوله ﴿غُرُورًا﴾ يقول: أوس بن قيظي ومن كان على رأيه من قومه[3] ، وقد روى ذلك ابن هشام عن ابن إسحاق أيضًا وذكر أن أوس ابن قيظي من بني حارثة وأنه قال هذه المقالة أمام جماعة من أشراف قومه[4] .

٤ - أخرج ابن جرير من طريق ابن حميد عن ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ فهم

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٣١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٦٥.

(٣) جامع البيان ٢١/ ١٣٥.

(٤) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٥.

بنو حارثة وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يوم أحد، ثم عاهدوا الله لا يعودون لمثلها فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم [(١)]، وهكذا رواه ابن هشام عن ابن إسحاق [(٢)].

٥ - اخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال في قوله ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلاّ أَكَلة رأس، ولو كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعُوا هذا الرجل فإنه هالك [(٣)].

٦ - أخرج ابن جرير من طريق ابن وهب عن ابن زيد أنه قال في قوله ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ إلى آخر الآية: هذا يوم الأحزاب، انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ فوجد أخاه بين يديه شواءً ورغيفًا ونبيذًا فقال له: أنت ههنا في الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف! فقال هلمّ إلى هذا فقد بُلِغ بك وبصاحبك، والذي يُحلف به لا يستقبلها محمد أبدا، فقال: كذبت والذي يحلف به -قال: وكان أخاه من أبيه وأمه- أما والله لأخبرن النبي ﷺ أمرك، قال: وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، قال فوجده قد نزل جبرائيل عليه بخبره ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [(٤)].

---

(١) جامع البيان ٢١/ ١٣٧.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٢.

(٣) جامع البيان ٢١/ ١٣٩.

(٤) جامع البيان ٢١/ ١٣٩.

٧- وقال ابن السائب: الآية في عبد الله بن أبيّ ومعتب بن قشير ومن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له: ويحك اجلس ولا تخرج ويكتبون إلى إخوانهم في العسكر أن ائتونا فإنا ننتظركم، هكذا ذكره الألوسي بلا سند[(١)].

والذي يتلخص من هذه الروايات أن هذه الآيات قد نزلت في طوائف من أهل النفاق، قاموا بالتخذيل عن الجهاد في سبيل الله يوم الخندق، وتفوهوا بكلمات ساخرة تدل على كفرهم وتكشف نفاقهم.

وقت نزول هذا النص:

تبين لنا مما مضى أن هذه الآيات قد نزلت في غزوة الأحزاب، وقد اختلف المؤرخون في تحديد وقت هذه الغزوة فقيل: إنها كانت في شوال سنة أربع، وبهذا قال موسى بن عقبة[(٢)] واختاره البخاري وأيده بما أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه»[(٣)] وقيل إنها في شوال سنة خمس وبهذا قال ابن إسحاق[(٤)]، وجزم به غيره من أهل المغازي[(٥)]، وهذا أرجح لما سبق من أن أبا سفيان يوم أحد قد ضرب موعدًا مع النبي صلى الله عليه وسلم للقتال بعد سنة فلما حان الأجل خرج ثم رجع متعللاً بالجدب في تلك السنة، وقد كانت غزوة أحد في السنة الثالثة كما سبق، فهذا دليل على أن المشركين لم يغزوا المدينة في

---

(١) روح المعاني ٢١/ ١٦٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (فتح الباري ٧/ ٣٩٢).

(٣) المرجع السابق، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٧/ ٣٩٢).

(٤) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٣.

(٥) فتح الباري ٧/ ٣٩٧.

السنة الرابعة وقد ذكر ذلك ابن حجر[١]، أما حديث ابن عمر السابق فلا حجة فيه لاحتمال أن يكون ابن عمر في غزوة أحد كان في أول الرابعة عشرة من عمره، وكان في الأحزاب قد استكمل الخامسة عشرة، وقد ذكر ذلك ابن حجر ونسبه إلى البيهقي[٢].

وذكر عن البيهقي أيضًا أن سبب هذا الاختلاف هو أن جماعة من السلف كانوا يَعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة، ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان فذكر أن غزوة بدر الكبرى كانت في السنة الأولى وأن غزوة أحد كانت في الثانية وأن غزوة الخندق كانت في الرابعة[٣]، قال ابن حجر: وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، ولكنه بناء واه مخالف لما عليه الجمهور مِن جَعْل التاريخ من المحرم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر في الثانية وأحد في الثالثة والخندق في الخامسة وهو المعتمد[٤].

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

هذه الآيات قد نزلت في شأن غزوة الأحزاب كما سبق في الروايات.

وقد أخرج ابن هشام من طريق البكائي عن ابن إسحاق أنه قال في خبر هذه الغزوة: ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس، فحدثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير، ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر وغيرهم من علمائنا، كلهم قد

---

(١) المرجع السابق ٧/ ٣٩٧.

(٢) المرجع السابق ٧/ ٣٩٧.

(٣) المرجع السابق ٧/ ٣٩٧.

(٤) المرجع السابق ٧/ ٣٩٧.

اجتمع حديثه في الحديث عن الخندق وبعضهم يحدث ما لا يحدث به بعض.. ثم ذكر أخبار هذه الغزوة، وكان مما ذكر أن نفرًا من بني النضير وبني وائل خرجوا الى مكة فدعوا قريشًا إلى حرب النبي ﷺ وقالوا لهم: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، ثم خرج أولئك النفر حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعَوهم إلى حرب النبي ﷺ، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن ابن حذيفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرّي في بني مرة، ومِسعر بن رُخيلة من بني أشجع فيمن تابعه من قومه من أشجع.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه، واشترك رسول الله ﷺ مع المؤمنين في حفر الخندق وأبطأ عن العمل فيه رجال من المنافقين وجعلوا يُوَرّون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن بخلاف المؤمنين فإنهم لا يذهبون إلاّ بإذن من النبي ﷺ في الحاجة التي لابد منها ثم يرجعون على عجل.

وفي أثناء حفر الخندق حدثت معجزات للنبي ﷺ كان بعضها سببًا في ظهور نفاق بعض المنافقين، كما تقدم في وعد رسول الله ﷺ المؤمنين بفتح بلاد فارس والروم واليمن وهم في تلك الحال الشديدة، حيث كانوا ينتظرون قدوم الأعداء عليهم من كل جانب، فافتتن بذلك بعضهم وصاروا يسخرون من النبي ﷺ فقالوا: ألا تعجبون؟ يحدثكم ويُمنّيكم ويعدكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق من الخوف ولا تستطيعون أن تبرزوا.

وهذا من أوضح الأدلة على نفاقهم، حيث ظنوا أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين، فسخروا من وعد الرسول الذي بشر به أصحابه بالنصر على الأعداء واعتزاز هذا الدين في المستقبل.

ولما فرغ رسول الله ﷺ والمؤمنون من حفر الخندق أقبلت قريش ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سَلع فضربوا عسكرهم هناك والخندق بينهم وبين القوم.

وخرج عدوّ الله حيي بن أخطب النضري يؤلب بني قريظة على رسول الله ﷺ، فامتنع أول الأمر زعيمهم كعب بن أسد القرظي من نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ، ولكنه نقض العهد بعد ذلك تحت إلحاح حيي بن أخطب بعد أن عاهده على أن يدخل معه في حصنه فيصيبه ما أصابه.

فلما علم رسول الله ﷺ بذلك بعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير وقال لهم ﷺ: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فان كان حقًا فالحَنُوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس».

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلاً فيه حدة – فقال له سعدة بن عبادة: دَعْ عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: «عَضَل والقارة» أي كغدر قبيلتي عضل والقارة بخبيب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر ابشروا يا معشر المسلمين.

وأقام المشركون في حصار المدينة قريبًا من شهر من غير حرب بينهم وبين المؤمنين غير التَّرامي بالنبال، إلاّ ما كان من بعض فرسانهم كعمرو بن ود، وعكرمة بن أبي جهل فإنهم

تيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق فاقتحموا منه بخيلهم وبرز علي بن أبي طالب لعمرو بن ود عندما طلب المبارزة فقتله عليّ ﷺ، وانهزم من كان مع عمرو من المشركين.

وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم عليهم، وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وفي أثناء ذلك أسلم نُعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني وعرض الخدمة على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة»، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان صاحبًا لهم في الجاهلية فقال لهم: إن البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإن قريشًا وغطفان إن أصابوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل، والرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه، قالوا: قد أشرت بالرأي، ثم إنه أتى قريشًا فقال لأبي سفيان وقومه: تعلَّموا أن معشر يهود على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثَتْ إليكم يهود يطلبون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحدًا، ثم أتى غطفان فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان يوم السبت من شوال سنة خمس أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم التقدم معهم لقتال المسلمين، فاعتذروا إليهم بأن اليوم يوم السبت وهو يوم لا يعملون فيه شيئًا وقالوا لهم: ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، فتيقن المشركون عند ذلك من صدق ما

قاله نعيم بن مسعود وأبوا أن يدفعوا لبني قريظة رجلاً واحدًا، فعند ذلك عرف اليهود صدق ما أخبرهم به نعيم بن مسعود، ووقع الخلاف والفشل في جيش الأحزاب، وأرسل الله عليهم الريح الشديدة والبرد القارس، فأحس النبي ﷺ أن حدثًا مهمًا سيكون تلك الليلة في جيش الكفار، فبعث حذيفة بن اليمان لينظر ما فعل القوم[1].

وقد أخرج خبره البيهقي في الدلائل مطولاً من حديث عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلي عن عبد العزيز بن أخي حذيفة قال: ذكر حذيفة رضي الله عنه مَشاهِدهم مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه: أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحًا منها في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة فما يستأذنه أحد منهم إلاَّ أذن له، ويأذن لهم ويتسللون ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك[2] إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلا رجلا - وفي رواية مسلم أن النبي ﷺ قال «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة» فسكتنا فلم يجبه منا أحد - حتى أتى عليَّ وما علي جُنَّة من العدو ولا من البرد إلا مِرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، قال: فأتاني وأنا جاثٍ على ركبتيّ فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة، فقال: حذيفة! فتقاصرت للأرض فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم، فقمت فقال: إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم، قال: وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدهم قُرًا[3]، قال: فخرجت فقال رسول الله

---

(١) السيرة النبوية ٣/ ٢٥٣ - ٢٨٢ بتصرف.

(٢) يعني كتيبة القيادة التي كان فيها رسول الله ﷺ، وهناك كتائب أخرى في مواقعها الدفاعية.

(٣) القُرُّ بضم القاف وتشديد الراء: شدة البرد.

ﷺ «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته» قال: فوالله ما خلق الله فزعًا ولا قُرًا في جوفي إلاّ خرج من جوفي فما أجد فيه شيئًا، قال: فلما وليت قال: يا حذيفة لا تُحدثَنَّ في القوم شيئًا حتى تأتيني -وفي رواية مسلم «ولا تذعرهم عليّ»- قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم تُوقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيديه على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيلَ الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهما من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ «لا تحدثن فيهم شيئًا حتى تأتيني» فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي، ثم أني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضرب بها، ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ، فلما انتصفت بي الطريق أو نحوٌ من ذلك إذا أنا بعشرين فارسًا أو نحو من ذلك معْتَمِّين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلّي، فوالله ماعدا أن رجعت راجعني القُرّ وجعلت أقرقف فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه فأسبل عَلَيَّ شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى، فأخبرته خَبر القوم وأخبرته أني تركتهم يرتحلون، وأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾[1].

وأخرجه مسلم في صحيحه والحاكم في مستدركه بأخصر من هذا[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩١. البداية والنهاية ٤/ ١١٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (ص١٤١٤) المستدرك ٣/ ٣١.

وهذا الخبر يبين لنا مبلغ ما كان المسلمون يعانونه في آخر ليالي الحصار من الشدة والضيق، حيث اجتمع عليهم شدة البرد والجوع والريح، مع ما كانوا يتوقعون من هجوم الأعداء عليهم.

ومما يصور ما كان المسلمون يعانون من ذلك ما أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط عن ابن عمر ﵄ قال: بعثني خالي عثمان بن مظعون لأبيه بلحاف فأتيت النبي ﷺ فاستأذنته وهو بالخندق فأذن لي وقال: ما لقيت فقل لهم إن رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا وكان ذلك بردًا شديدًا فخرجت ولقيت الناس فقلت لهم: إنّ رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا، قال: فلا والله ما عطف عليّ منهم اثنان أو واحد[1].

وفي أثناء تلك الشدائد التي واجهها النبي ﷺ والمؤمنون حاول بعض المنافقين إحداث البلبلة والخلل في صفوف المؤمنين، وذلك بتخذيلهم عن رسول الله ﷺ وهو يواجه أكبر تجمع استطاع أعداؤه أن يحشدوه ضده، حيث اجتمع لحرب المسلمين لأول مرة اليهود وقريش مع قبيلة غطفان، ومن انضم إليهم من الأعراب.

وقد مثَّل المنافقون هذا الدور من قبل في معركة أحد حينما انخزل [أي رجع] عبد الله ابن أبيّ عن رسول الله ﷺ في ثلاثمائة من المنافقين، وقد استمروا في مزاولة هذا العمل كلما وجدوا له مجالاً، ولكن الله سبحانه يخذلهم ويرد كيدهم في نحورهم، حتى أعز الله دينه وأعلى كلمته، فمات المنافقون كمدًا وحسرة، وبدأت أعمالهم في الكيد للنبي ﷺ والمؤمنين تتضاءل شيئًا فشيئًا، لأنهم لم يجدوا لها أثرًا فعالاً بين الصحابة ﵃.

والمنافقون كانوا يتمنون هلاك النبي ﷺ وهلاك المؤمنين معه في كل موطن من مواطن القتال، ولكنهم لا يملكون الشجاعة الكافية التي تمكنهم من مواجهة المؤمنين

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح (٦/ ١٣٥).

بالقوة، وضربهم من الداخل فيما إذا انشغلوا بقتال عدوهم، فكانوا يلجأون في حربهم مع النبي ﷺ إلى أساليب المكر والاحتيال، فيخرجون مع النبي ﷺ للقاء الأعداء فإذا اشتد البأس تراجعوا عن القتال، واختلقوا لأنفسهم الحجج الواهية في ذلك، كي يجتذبوا معهم من يتوسمون فيه عدم الصلابة في الدين، وهم مع ذلك يتقنّعون بالإسلام حتى يأمنوا على دمائهم وأموالهم، بل إنهم يبالغون في التظاهر بالتدين حتى إنهم ليعاهدون الله على الثبات في مواطن القتال ثم يخونون عهدهم إذا جد الجد وحمي الوطيس.

وهؤلاء المنافقون يقولون مالا يفعلون ويدّعون الشجاعة وهم جبناء، فهم في السلم فصحاء بلغاء يتطاولون على غيرهم بالكلام، ويقذفون بأنواع السباب والشتائم التي ربما يطرب لها ضعفاء الإيمان، ويتخيلون بأصحابها الشجاعة والإقدام، فإذا اشتد البأس واحمرت الحِدَق أصبحوا كهيئة المحتضر الذي نزل به الموت، وراحوا يلوذون بغيرهم من أهل البأس والنجدة، فاذا وجدوا الفرصة سانحة للفرار ولوا هاربين، لا يلوون على شيء وليس لهم همٌّ إلا إنقاذ أرواحهم.

ويصور لنا القرآن مبلغ جبنهم بأنهم يرهبون من الأحزاب حتى بعد رحيلهم، فيحسبون أنهم لم يذهبوا إلى ديارهم وأن لهم رجعة إلى المدينة، ولو رجع الأحزاب لتمنى هؤلاء المنافقون من جبنهم أنهم بعيدون عن المدينة في البادية مع الأعراب يسألون عن أخبار المؤمنين مع أعدائهم، وهم بعيدون عن متناول أيدي أولئك الأحزاب.

وقد سبق أن ذكرنا وصفًا للشدة التي واجهها المؤمنون في آخر ليلة من ليالي المعركة، وقد حصل الفرج من الله عند اشتداد الأمر، فأنزل تعالى نصره على المؤمنين حيث أنزل ملائكته تزلزل بالكفار، وأرسل عليهم الريح ترميهم بالحصباء وتكفأ قدورهم وتقتلع خيامهم، كما قال تعالى ممتنًا على عباده بنعمته عليهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ

ﭐللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: ٩]. ويعبر حذيفة ﷺ عمّا لقِيَه المشركون من ذلك حين بعثه النبي ﷺ بقوله: فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناء[١] كما يصور ذلك كلام أبي سفيان الذي حكاه حذيفة ﷺ حيث يقول: ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة وبلَغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم... قال حذيفة: وسمعَتْ غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم[٢].

قال ابن إسحاق: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح. فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ كما حدثني الزهري معتجرًا بعمامة[٣] من استبرق على بغلة عليها رحالة[٤] عليها قطيفة من ديباج فقالَ: أوَ قد وَضعتَ السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٠.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٢٨٠ – ٢٨١.

(٣) الإعتجار بالعمامة هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئًا تحت ذقنه ذكره في النهاية.

(٤) الرحالة هي السرج الذي يركب عليه أو هو خاص بما كان من الجلد مما لا خشب فيه ويستعمل عادة للركض الشديد.

إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم، فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلاّ ببني قريظة.

ثم ذكر خروج النبي ﷺ إليهم وحصاره إياهم حتى نزلوا على حكمه فجعل ذلك إلى سعد بن معاذ سيد الأوس حتى يقتنع قومه بحكمه، نظرًا إلى أن بني قريظة كانوا حلفاءهم في الجاهلية فحكم فيهم رضي الله عنه بأن تُقتل الرجال وتُقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء، فقال ﷺ له: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، ثم أنزلهم رسول الله ﷺ من حصونهم ونفذ فيهم هذا الحكم[1].

بيان مفردات النص:

يثرب:اسم للمدينة قبل الإسلام وقال أبو عبيد: يثرب اسم أرض والمدينة ناحية منها[2] وقال أبو السعود في تسميتهم المدينة باسمها القديم: كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام[3]، وهذا أمر محتمل فإن المنافقين يكرهون الرسول ﷺ وما جاء به من تغيير للأسماء والشعارات، كقول عمرو بن قيس أحد المنافقين لما أخرجه أبو أيوب رضي الله عنه من المسجد: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟[4].

المعوِّقين: التعويق الحبس والصرف والتثبيط عن طريق الخير[5].

هلم: هلم دعاء إلى الشيء ومعناه: تعال وفي أصله قولان: أحدهما أن أصله هالم من قولهم لممت الشيء أي أصلحته فحُذفت ألفها فقيل هلم، والثاني أن أصله هل أَمَّ كأنه قيل

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٢ – ٢٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٤٨.

(٣) إرشاد العقل السليم ٤/ ٤٠٥.

(٤) السيرة النبوية ٢/ ١٦٧.

(٥) القاموس، المفردات.

هل لك في كذا أمّه أي قصْده فرُكّبا، وفيه لغتان فأهل الحجاز يطلقونه على الواحد والجمع والاثنين والمذكر والمؤنث بلفظ واحد مبني على الفتح وبهذا نزل القرآن، وبنو تميم تُثنّي وتجمع وتؤنث فتقول هلمَّ وهلمّي وهلمّا وهلمُّوا[١].

أشحة: الشح قيل هو أشد البخل، وقيل هو البخل مع الحرص[٢].

سلقوكم: السلق بسط بقهر إما باليد أو باللسان، ومنه التسلق على الحائط[٣]، وسلق اللسان بسطه بالطعن والذم، وقد سأل نافع بن الأزرق ابن عباس رضي الله عنهما عن السلق في الآية فقال: الطعن باللسان، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم أما سمعت قول الأعشى:

فيهمُ الخصب والسماحة والنجدة فيهم والخاطب المسلاق[٤].

حداد: قال الراغب: جمع حديد، يقال: لسان حديد نحو لسان صارم وماض وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد، وقال الفيروز آبادي: حِداد يكون في اللسن والفهم والغضب[٥] وقال الفراء في قوله (ألسنة حداد) سلطة ذربة[٦].

نحْبَه: النَّحب هو النذر كأنه ألزم نفسه أن يصدق مع الأعداء في الحرب فوفّى به ولم يفسخ، وقيل هو من النحب الذي هو الموت، كأنه يلزم نفسه أن يقاتل حتى يموت[٧].

---

(١) المفردات، النهاية.

(٢) النهاية، المفردات، مقاييس اللغة.

(٣) المفردات، القاموس المحيط.

(٤) روح المعاني ٢١/ ١٦٣.

(٥) المفردات، القاموس المحيط.

(٦) روح المعاني ٢١/ ١٦٣.

(٧) لسان العرب.

صياصيهم: الصياصي جمع صيصية وهو شوكة الحائك التي يسوّي بها السُّداة واللَّحمة ومنه قول دريد بن الصمة:

فجئت إليه والرماح تنوشه   كوقع الصياصي في النسيج الممدد

ومنه صيصة الديك التي في رجله، وصياصي البقر قرونها، وأنشد ابن بري لعبد بني الحسحاس:

فأصبحَت الثيران غرقى وأصبحت   نساء تميم يلتقطن الصياصيا

أي يلتقطن القرون لينسجن بها.

والصياصي الحصون، وكل شيء امتُنع به فهو صيصية، ومنه قيل للحصون الصياصي[1] والمراد بالصياصي في الآية الحصون.

بيان معنى النص:

١- تبين لنا مما مضى في بيان من نزل فيه النص أن فريقًا من المنافقين كانوا يتسللون أيام حفر الخندق عن العمل مع المؤمنين بلا إذن من النبي ﷺ، ولما كان هذا السلوك منافيًا للإيمان الذي يتظاهرون به حذرهم الله سبحانه من مغبة هذا السلوك وبين لهم أن خُلُق المؤمنين الصادقين يتنافى مع ذلك فقال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إنما المؤمنون حقًا هم الذين آمنوا بالله ورسوله بصدق وإخلاص ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي أمر مهم يتطلب اجتماعهم للعمل أو للمشورة، وذلك كأمر الحروب والاستعداد لها، والتشاور في الأمور المهمة ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي لم ينطلقوا من ذلك الاجتماع المهم أو العمل المشترك حتى يستأذنوا

(١) لسان العرب، تاج العروس، النهاية في غريب الحديث.

الرسول ﷺ في ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ حينما يريدون الذهاب لقضاء حوائجهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أولئك هم المؤمنون حقا، لأنهم باستئذانهم قد أعطوك حقك من التقدير والإجلال وقدروا مصلحة المجتمع العامة، فلم يقدِّموا عليها مصلحتهم الخاصة إلا عند الضرورة، وبإذن من القائد العام رسول الله ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لأمرهم المهم وحاجتهم الملحة لا لكل حاجة تعرض لهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أي لمن ترى أن فقده لا يؤثر على سير ذلك الأمر الجامع ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أي اطلب المغفرة لهم من الله، لأنهم قد يكونون مقصرين في أداء الواجب حينما يستأذنونك في الذهاب لقضاء حوائجهم، وذلك فيما إذا لم تكن لهم ضرورة لابد لهم من الذهاب لقضائها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يستر ذنوب عباده ويكافئهم على امتثالهم أوامره.

وقيل إن المراد بالأمر الجامع صلاة الجمعة، فيكون المراد بالاستئذان استئذان المأمومين من الإمام وهو يخطب وبهذا قال الزهري[1].

وهذا القول غير مناسب للآية لقوله تعالى ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ إذ أن هذا يدل على أن المراد بالأمر الجامع أمر يتفاوت فيه الناس في لزوم الحضور أو عدم لزومه، وذلك على حسب تفاوتهم في الرأي والشجاعة، وسائر المؤهلات التي يتم بها نجاح ذلك الأمر الجامع، أما الجمعة فإن غياب البعض عنها لا يؤثر في كمالها سواء كان الغائب من أهل الحل والعقد أو من سائر الناس، فالإذن للمستأذن بالنسبة للجمعة إنما يرجع لحاجته هو، لا إلى ضرورة وجوده للمجتمع أو عدم ذلك، فلا يكون إذًا لتعليقه بمشيئة النبي ﷺ فائدة.

---

(١) جامع البيان ١٨/ ١٧٦.

ثم ذكر سبحانه وتعالى وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما يدعو إليه، وأنه لا يجوز أن تقاس أوامره على سائر أوامر الناس، حيث قال تعالى ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي لا تعتبروا نداء الرسول ﷺ إياكم كنداء بعضكم بعضا فلا تتساهلوا في أمر يدعوكم إليه، وبهذا قال أبو مسلم والمبرد والقفال[1] وعلى هذا يكون من إضافة المصدر إلى فاعله، وقيل المعنى: أمرهم أن يدعوا: يا رسول الله في لين وتواضع ولا يقولوا: يا محمد في تجهم، وبهذا قال مجاهد[2] وعلى هذا يكون من إضافة المصدر إلى مفعوله،وقيل المعنى: اتقوا دعاءه عليكم، فإن دعاءه ليس كدعاء غيره من الناس، وقد رُوي القول بهذا عن ابن عباس رضي الله عنهما[3] وعلى هذا يكون من إضافة المصدر إلى فاعله.

والقول الأول أرجح لمناسبته لسياق الآيات لأن الآية السابقة يفهم منها دعاء الرسول ﷺ المؤمنين إلى الأمور الجامعة والثناء على من استجاب لدعوته ولم يذهب إلا بإذنه، وفي آخر هذه الآية التحذير عن مخالفة أمره.أما ما رُوي عن ابن عباس فهو من طريق العوفي وسنده ضعيف جدًا كما تقدم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى المنافقين الذين يذهبون خفية بلا إذن من النبي ﷺ بقوله ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي لا يخفى على الله سبحانه أمر

---

(١) روح المعاني ١٨/ ٢٢٤.

(٢) جامع البيان ١٨/ ١٧٧.

(٣) المرجع السابق ١٨/ ١٧٧.

أولئك المنافقين الذين يتسللون من معسكر المؤمنين خفية، يلوذ بعضهم ببعض حتى لا يراهم المؤمنون، فلا يظنوا أنهم إن خفي أمرهم على المؤمنين سيخفى على الله سبحانه [١].

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة وبلاء في الدنيا وعدّى ﴿يُخَالِفُونَ﴾ بعن لتضمينه معنى يُعرضون أو يحيدون [٢].

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا بالقتل والتشريد ونحو ذلك، وفي الآخرة بعذاب جهنم، والذين يخالفون أمر النبي ﷺ من المؤمنين يُخشى عليهم الوقوع في الفتنة المفضية إلى الكفر، بسبب الاستخفاف بأوامره ﷺ.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات جميعها خلقا وملكا وتصرفا، فلا يظن المخالفون عن أمره أنهم في منجاة من نقمته ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي لا يخفى عليه سبحانه شيء من تصرفاتكم في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ

---

(١) اختلف أهل اللغة في معنى قد إذا دخلت على المضارع، وقد ذكر ابن هشام في المغني (١/ ١٧٤) أن من معانيها التقليل قال: وهو ضربان تقليل وقوع الفعل نحو قد يصدق الكذوب، وقد يجود البخيل، وتقليل متعلقه نحو قوله تعالى ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي ما هم عليه من أهل معلوماته سبحانه، ونقل القول بأنها للتحقيق في مثل هذه الآية ورجحه (١/ ١٧٥) وهذا هو الذي رجحه الألوسي في تفسير هذه الآية (١٨/ ٢٦٦)، وقال الزمخشري في الآية: أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، وذلك أن قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قوله:

فإن تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

ونحو قول زهير: أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله (الكشاف ٣/ ٧٩).

(٢) روح المعاني ١٨/ ٢٢٧.

إِلَيْهِ﴾ أي ويعلم يوم يُبعث هؤلاء المخالفون عن أمر النبي ﷺ إلى الحياة مرة أخرى ويتقدمون بين يدي الله ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي فيطلعهم على أعمالهم التي عملوها في الدنيا ومن جملتها مخالفتهم أمر النبي ﷺ ثم يجازيهم عليها ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء مما في الوجود جَل وعلا.

٢- وفي سورة الأحزاب ذكّر الله سبحانه أولياءه المؤمنين بنعمته عليهم حينما أنقذهم من موقف عصيب، فهزم الأحزاب وشتت جمعهم، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ الظرف في قوله ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ والمراد بالجنود في قوله ﴿جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ الأحزاب الذين تحزبوا ضد المؤمنين يوم الخندق، أما الجنود في قوله ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ فالمراد بهم الملائكة عليهم السلام والريح كما تقدم في حديث حذيفة، المعنى يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم حيث نصركم بالريح والملائكة وقت مجيء الأحزاب إليكم، فهزمهم وفرق شملهم، وكان الله سبحانه وتعالى مطلعًا على جميع الأعمال التي تقومون بها نحو نصرة هذا الدين أو خذلانه، فيجازي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم حينما نصركم على أولئك الأعداء وقت مجيئهم إياكم من فوقكم ومن أسفل منكم.

وقد اختلف المفسرون في تعيين من جاءوا من فوق المؤمنين، والذين جاءوا من أسفل منهم، فقيل إن الذين جاءوا من فوقهم قبائل نجد والذين جاءوا من أسفل منهم قريش،

وبهذا قال مجاهد كما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح [(١)]، وقيل إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة والذين جاءوا من أسفل منهم قريش وغطفان، وبهذا قال ابن إسحاق [(٢)]، وقيل إن الذين جاءوهم من فوقهم الأحزاب جميعًا والذين جاءوهم من أسفل منهم بنو قريظة، وبهذا قال ابن كثير واستدل عليه بما سبق في حديث حذيفة من قوله ﷺ وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب من فوقنا، وقريظة واليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا» [(٣)].

ولعل هذا هو الراجح لما رُوي عن حذيفة ﷺ، ولأن الأحزاب جميعًا قد اجتمعوا في مكان واحد ماعدا بني قريظة فإنهم داخل حصونهم خلف المؤمنين، فبهذا يتصور أن الأعداء قد أحاطوا بالمؤمنين من فوقهم ومن أسفل منهم.

وعلى أي حال فالمراد إحاطة الأعداء من الأحزاب بالمؤمنين بحيث يخشون على أنفسهم ممن خلفهم إذا واجهوا من أمامهم.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا [(٤)].

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي خافت خوفًا شديدًا وفزعت فزعًا عظيمًا، فالجملة كناية عن شدة الخوف والفزع، وليس المراد أن القلوب انتقلت من أماكنها حتى بلغت الحناجر، لأن الحياة لا تبقى والحالة هذه، وبهذا قال عكرمة [(٥)]، وقيل: إن الآية على الحقيقة

---

(١) جامع البيان ٢١/ ١٢٩.

(٢) السيرة النبوية ٣/ ٣٠١، جامع البيان ٢١/ ١٣١.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٢.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٥٣.

(٥) روح المعاني ٢١/ ١٥٧.

وأن المعنى انتفاخ الرئة من الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها وبهذا قال قتادة، والقول الأول أرجح لأنه غير معروف عادة أن القلوب ترتفع عن أماكنها من الفزع حتى تبلغ الحناجر.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ الخطاب في الآية للمسلمين عمومًا.. المؤمنون الصادقون منهم والمنافقون، أي وتظنون بالله الظنون المختلفة، فأقوياء الإيمان ظنوا بالله ظنًا حسنا، فأيقنوا أن النصر في النهاية للإسلام وأهله، مهما تكالب عليهم الأعداء، أما ضعفاء الإيمان الذين يقوى إيمانهم وقت الرخاء ويضعف وقت الشدة، والمنافقون الذين لم يؤمنوا إيمانًا صادقًا فقد ساورتهم الظنون السيئة بالإسلام وأهله، وبدأوا يتسللون من معسكر الإيمان كلما اشتد الأمر وادلهم الخطب كما مر في تصوير الموقف.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ أي عند ذلك امتُحن المنتسبون للإيمان، ليتبين للناس عيانًا المؤمن الثابت على دينه من ضعيف الإيمان، الذي يتزعزع إيمانه عند الشدائد، من المنافق الذي أظهر الإيمان وأبطن الكفر ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ أي اضطربت أفئدتهم لهول الشدائد التي أحاطت بهم من الأعداء الجاثمين حولهم من كل جانب والبرد القارس والرياح العاصفة والجوع المنهك، فالمؤمنون الأقوياء في إيمانهم عرفوا أن نصر الله قريب، وأن الفرج يأتي بعد اشتداد الكرب، بما سبق من وعد الله لهم بذلك بقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤] أما ضعفاء الإيمان والمنافقون فإنهم لا يفكرون عند اشتداد الكرب إلا بتخليص أنفسهم، ولا يهمهم بعد ذلك مصير المعركة، وقد رأينا في تصوير الموقف كيف كانوا يتسللون إلى المدينة، لا يلوي أحدهم على شيء.

ثم ذكّر الله المؤمنين بنعمته عليهم إذ حماهم من إرجاف المنافقين؛ فقال تعالى ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ الواو عاطفة على ما سبق من الآيات من قوله تعالى ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وما بعدها، المعنى واذكروا نعمة الله عليكم إذ حماكم من إرجاف المنافقين والذين في قلوبهم مرض، إذ يقولون ما وعدنا الله ورسوله من النصر على الأعداء؛ وفتح فارس والروم واليمن إلا خداعًا لنا.

وعطْف الذين في قلوبهم مرض على المنافقين ظاهره أنهم غيرهم، فيكون المراد بهم ضعفاء الإيمان ممن استطاع المنافقون أن يستميلوهم، ويحتمل أن يكون المراد المنافقين أنفسهم، فيكون العطف لتغاير الصفات، والأول هو الظاهر لأنه هو المتبادر عند الإطلاق، ولا يُحمل على تغاير الصفات إلا مع وجود القرينة.

كما ذكّر سبحانه وتعالى المؤمنين بنعمته عليهم إذ حماهم من التأثر بتخذيل المنافقين حيث قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم إذ وقاكم شر هؤلاء المنافقين المخذلين لكم، فلم يحدث في صفوفكم أي خلل بسبب تخذيلهم، إذ يقولون يا أهل يثرب لا مقام لكم في الجهاد مع المؤمنين فارجعوا إلى بيوتكم.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي ويستأذن طائفة من المنافقين النبي ﷺ في الرجوع إلى بيوتهم لحمايتها، بدعوى أنها غير محصنة فهي عرضة لهجوم الأعداء أو اللصوص، وقد سبق بيان بعض من صدر منهم هذا القول في بيان من نزل فيه النص.

وقد كذبوا في حجتهم هذه فإن بيوتهم حصينة ولم تتعرض لهجوم من أحد، ولذلك قال تعالى في الرد عليهم: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ فالدافع لهم إلى ترك ميدان القتال ليس كون بيوتهم غير محصنة؛ وإنما هو الرغبة في الفرار من المعركة، فقد كان حصن بني حارثة الذين صدرت منهم هذه المقالة هو أحصن حصون المدينة كما روى الطبراني، عن رافع بن خديج ﷺ قال: لم يكن حصن أحصن من حصن بني حارثة فجعل النبي ﷺ النساء والصبيان والذراري فيه... الحديث قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات[1].

وقد ذكر قتادة أن النبي ﷺ بعث إلى بيوتهم فلم يجد بها عدوا، أخرج ذلك ابن جرير عن قتادة من طريق ابن أبي عروبة[2].

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ المراد بالفتنة هنا الشرك بالله وبذلك قال قتادة، كما أخرجه عنه ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة[3].

المعنى: ولو دخل الكفار على هؤلاء المنافقين بيوتهم من جوانبها، ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الإسلام لأجابوا إلى ذلك على الفور بلا تردد، ولم يتريثوا في الإجابة إلى ذلك إلا وقتًا يسيرًا بمقدار ما تتم به مفاوضتهم على ذلك، وقيل إن المراد بالفتنة القتال أي لو سئلوا القتال من العصبية لسارعوا إلى تلبية ذلك، وقد اختار ذلك الألوسي ونسبه إلى

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٣٣.

(٢) جامع البيان ٢١/ ١٣٦.

(٣) المرجع السابق ٢١/ ١٣٦.

الضحاك[1] والأول أرجح لأن الذين سيدخلون عليهم بيوتهم هم الكفار، حيث إن هؤلاء المنافقين يُظهرون الإسلام فلن يعاديهم ظاهرًا إلا الكفار، ولا يُتصور أن الكفار سيطلبون منهم أن يقاتلوهم دفاعًا عن أنفسهم، كما لا يتصور أن يصدر طلب ذلك من بعضهم لبعض، لأنهم والحالة هذه يكونون في موقف الدفاع عن النفس، فإما أن يدافعوا عن أنفسهم وإما أن يخضعوا لما يريده من دخل عليهم بيوتهم، والكفار لا يريدون ممن يظهر الإسلام إلا أن يرتد عن دينه، فتبين بهذا أن القول بأن الفتنة هي الردة عن الإسلام والدخول في الشرك هو الراجح، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي ولقد كان هؤلاء المستأذنون في ترك القتال قد عاهدوا الله في معركة أحد أن لا يعودوا لما همُّوا به في تلك المعركة من الرجوع الى المدينة وخذلان النبي ﷺ، وهم بنو حارثة كما سبق في بيان من نزل فيه النص ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي مسئولا عن الوفاء به أمام الله جل وعلا من عقده فكيف ينقضون عهدهم مع الله إن كانوا مؤمنين حقا؟!

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبين لهم أن ما فروا منه سيقع بهم لا محالة حيث قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لن تطول أعماركم إن أبعدتم عن مواطن الخطر والهلاك فإن الله جل وعلا قد حدد أجل الموت لكل نفس بوقت معين لا تتقدم عنه ولا تتأخر، فمن كُتب عليه الموت في ذلك اليوم فسيموت وإن فرَّ من المعركة، ومن قدَّر الله له البقاء بعد ذلك اليوم فلن يبقى طويلا لأن الدنيا ليست دار خلود، فلماذا يفر الإنسان من الموت إذاً ويرغب في الحياة وهي إلى زوال؟

---

(١) روح المعاني ٢١/ ١٦١.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي قل لهم أيها الرسول: لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم ما كتبه الله عليكم من المصائب، ولا ما مَنَّ به عليكم من النعم، فلماذا تفرون من القتال وأمر الحياة والموت بيد الله وحده؟ والتعبير عن الرحمة بالعصمة مع أنه لا عصمة إلا من السوء لما في العصمة من معنى المنع[1] ويحتمل أن يكون المعنى: من ذا الذي يعصمكم من عذاب الله إن أراد بكم سوءًا فلم تصبروا أو أراد بكم رحمة فلم تشكروا؟

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي وإذا لم يلجأوا إلى الله وحده في حالة الشدة والرخاء فلن يجدوا لهم من يتولى أمرهم ويغنيهم عن الله تعالى، ولا من ينصرهم ويدفع عنهم ما قدره عليهم من المصائب.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ سبق الكلام على قد إذا دخلت على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ في هذه الآيات، والخطاب في قوله ﴿مِنكُمْ﴾ لعموم المسلمين، والعطف في قوله ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾ لتغاير الصفات لا لتغاير الذات فيما يظهر، لأن الآية قد نزلت في فريق واحد وهم المنافقون كما سبق.

المعنى: قد أحاط علم الله تعالى بالمثبطين منكم، الذين يصرفون الناس عن الجهاد في سبيل الله، من المنافقين القائلين لإخوانهم في الصحبة والمذهب تعالوا إلينا واتركوا القتال مع المؤمنين.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٤٠٧.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولا يشتركون معكم في قتال عدوكم إلا بنسبة قليلة ، وذلك بقدر ما يدفعون به عن أنفسهم حيث إنهم لا يخرجون للقتال مع المؤمنين إلا نفاقا أو طلبًا للغنيمة.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي والحال أنهم حينما يحضرون القتال معكم بخلاء بأنفسهم عليكم، فلا يبذلون وسعهم في نصرتكم وجهاد أعدائكم، لأنهم لا يريدون إلا تخليص أنفسهم فقط.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ الفاء عاطفة على مقدّر أي بخلاء بأنفسهم عن نصرتكم، وإن خرجوا معكم للقتال فإنهم يجبنون عند اللقاء، فإذا اشتد البأس اضطربت أعينهم من شدة الخوف والرعب، فهي لا تستقر على هدف معين بل تدور يمينًا وشمالاً بحثًا عن الخلاص بأنفسهم، لأنهم لا يهتمون إلاّ بنجاتها، فليس لهم مبدأ سام يبذلون أنفسهم من أجله، فهم من شدة خوفهم من القتل كالمحتضر الذي يعاني سكرات الموت.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي فإذا زال الخوف بزوال سببه وهو الحرب وأصبحوا في السلم والأمن أظهروا الشجاعة بألسنتهم السليطة، فبسطوها بما تمليه عليهم قرائحهم من أنواع السب والشتم، وهكذا المنافقون دائمًا فصحاء بلغاء في السلم يملأون الدنيا صياحًا ووعيدًا وتهديدًا، ويقذفون بالحُمم من أنواع السباب والشتائم، فإذا جد الجد وانقضى دور اللسان وجاء دور السنان انكمشوا واستخفَوا بأنفسهم، ولاذوا بغيرهم لأنهم يحبون الدنيا ويكرهون الموت فهم يتقونه بغيرهم.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي بخلاء، حريصين على ما يتنافس عليه الناس من أمور الدنيا.

فبهذا يكون الله سبحانه قد وصفهم في أول الآية بالبخل بالأنفس في مواطن القتال ووصفهم في آخر الآية بالبخل بالأموال.

﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات السيئة لم يؤمنوا بالله إيمانًا حقًّا، وإنما كانوا منافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها فلا ثواب لهم عليها في الآخرة، حيث إن أعمالهم لا تعتبر صالحة وهم كفار.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإحباط المذكور ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلاً وهينًا، وكل شيء سهل هين على الله تعالى، وإنما وُصف هذا العمل باليسر لبيان أنه أمر موافق للحكمة، جار على وفق الأسباب والمسببات، فالعمل الذي لم يُقصد به وجه الله نتيجته البطلان عند الله تعالى.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي يظنون أن الأحزاب من قريش وغطفان لم يرجعوا إلى بلادهم، وذلك من شدة خوفهم وهلعهم.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي وإن يأت الأحزاب لقتال المؤمنين يود المنافقون لو أنهم غائبون في البادية مع الأعراب، وذلك من شدة خوفهم وفزعهم من القتال.

﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي يسألون الناس عن أخباركم مع الأحزاب وهم بعيدون عنكم.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو كانوا معكم في قتال عدوكم ما نفعوكم بشيء، لأنهم لا يقاتلون معكم إلا نفاقًا حتى لا ترتابوا منهم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم أيها المؤمنون في رسول الله قدوة حسنة في الإقدام والثبات واحتمال الشدائد، فلا تكونوا كهؤلاء المنافقين الذين يرغبون بأنفسهم عن نفسه.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي إنما ينتفع بالاقتداء بالنبي ﷺ من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأمل في ثواب الله ويخشى من عقابه، وأصبح ملازمًا لذكر الله تعالى، والشعور برقابته عليه في جميع تصرفاته.

وفي الآية تعريض بالمنافقين الذين لم يتأسوا برسول الله ﷺ في ثباته عند اللقاء.

وبعد أن ذكر الله سبحانه بعض صفات المنافقين وموقفهم في معركة الأحزاب، ذكر موقف المؤمنين في تلك المعركة، ثناءً منه سبحانه وتعالى عليهم وتثبيتًا لهم، وتبكيتًا للمنافقين الذين خالفوهم في هذه الصفات فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ أي ولما أبصر المؤمنون جيوش الأحزاب مقبلة عليهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ كما أخرج ذلك ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق العوفي[1] وعن قتادة من طريق ابن أبي عروبة[2].

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي في وعده بالنصر عند اشتداد الكرب في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وهذا حسن ظن وثقة عظيمة بالله تعالى من الصحابة رضي الله عنهم، بخلاف المنافقين الذين قالوا فيما حكاه الله عنهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

---

(١) جامع البيان ٢١/ ١٤٤.

(٢) المرجع السابق ٢١/ ١٤٤.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي وما زادهم ما رأوا من شدة الهول والكرب إلا إيمانًا بالله عز وجل وثقة بوعده بالنصر، وتسليمًا كاملاً لأوامره وأقداره.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ أي من الثبات مع رسول الله ﷺ في قتال الأعداء، فلما واجهوهم ثبتوا على ما عاهدوا الله عليه من ذلك فلم يفروا، ومن هؤلاء أنس بن النضر رضي الله عنه كما سبق في بيان من نزل فيه النص.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي وَفَّى بعهده فقُتل أو عاش، وبذلك قال مجاهد كما أخرجه عنه ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح[1].

ومنهم طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، كما أخرج ابن جرير قال: حدثنا ابن إدريس عن طلحة بن يحيى عن عمه عيسى بن طلحة أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فسأله: مَن الذين قضوا نحبهم؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ودخل طلحة من باب المسجد وعليه ثوبان أخضران فقال ﷺ: هذا من الذين قضوا نحبهم»[2].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾ مشهدًا آخر من مشاهد القتال فيوفِّي عهده فيه.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي وما غيروا العهد الذي عقدوه بينهم وبين ربهم تغييرا كما غيره المنافقون المثبطون عن القتال في سبيل الله القائلون إن بيوتنا عورة، الذين قال الله تعالى عنهم ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

---

(١) جامع البيان ٢١/١٤٦.

(٢) جامع البيان ٢١/١٤٦.

ثم لما ذكر الله سبحانه موقف المنافقين والمؤمنين في معركة الأحزاب أعقب ذلك بذكر الجزاء الذي يستحقه كل منهم فقال تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إنما ابتلى الله عباده وزلزلهم حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، ليُثبّت المؤمنين الصادقين بما ظهر من صدقهم في الوفاء بعهدهم وإخلاصهم لدينهم، وليعذب المنافقين الناقضين عهد الله، الظانين بالله ظن السوء المخذلين عن رسول الله ﷺ، والله سبحانه وتعالى عالم بالفريقين بلا امتحان ولا ابتلاء، ولكنه يبتلي عباده بالمحن ليظهروا على حقيقتهم فيتميز المخلص من المنافق، وليجازيهم سبحانه وتعالى على الأعمال التي تصدر منهم إزاء تلك المحن، ولذلك قال تعالى ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، أما تقييد تعذيب المنافقين بالمشيئة في قوله تعالى ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ مع أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار كما أخبر الله تعالى عنهم فلاحتمال أن يتوبوا قبل موتهم فيتوب الله عليهم، والمعنى ويعذب المنافقين إن أراد تعذيبهم وذلك فيما إذا استمروا على ما هم فيه من النفاق حتى الموت، أو يتوب عليهم إذا تابوا واستقاموا على الإسلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يستر ذنوب عباده إذا تابوا إليه وأقلعوا عما هم فيه من المعاصي ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث تكفل لهم بالمكافأة على امتثال الأوامر.

ثم بين سبحانه نتيجة هذه المعركة التي أثارها اليهود، وحزبوا لها الأحزاب على رسول الله ﷺ والمؤمنين، حيث قال تعالى ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ به وبرسوله من قريش ومن انضم إليهم من قبائل العرب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ بكربهم وغمهم ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ﴾

مما كانوا يؤملونه من الظفر على المؤمنين وحيازة أموالهم ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ حيث نصرهم بالملائكة والريح كما سبق في حديث حذيفة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ لا يُغلب على أمر أراده ﴿عَزِيزًا﴾ شديدًا في نقمته من أعدائه، كما أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة قال: قويًا في أمره عزيزًا في نقمته[1].

أما يهود بني قريظة الذين ظاهروا هؤلاء الأحزاب على المؤمنين فقد ذكر الله سبحانه وتعالى مصيرهم بقوله ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم التي كانوا امتنعوا فيها ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ حتى جبنوا عن قتالكم، ورضوا بأن ينزلوا على حكمكم ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والصبيان كما سبق.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾ أي ملّككم ديارهم من بعدهم فنعمتم بخيرها جزاء نصركم دين الله، وجهادكم في سبيله، مع ما أعده لكم في الآخرة من النعيم المقيم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ أي وسيملّككم أرضًا أخرى لم تطئوها بعد، وقد اختلف أهل التأويل في المراد بهذه، فقيل: المراد بها أرض فارس والروم، وبهذا قال الحسن كما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة[2]، وقيل: إنها أرض خيبر، وبهذا قال يزيد بن رومان كما أخرجه ابن جرير من طريق ابن إسحاق[3] وبه قال ابن زيد كما أخرجه ابن جرير من طريق ابن وهب[4].

---

(١) جامع البيان ٢١/ ١٤٩.

(٢) جامع البيان ٢١/ ١٥٥.

(٣) المرجع السابق ٢١/ ١٥٥.

(٤) المرجع السابق ٢١/ ١٥٥.

والظاهر أن المراد بها كل أرض افتتحها المسلمون بعد ذلك، وبهذا قال الطبري[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فلا يعجزه شيء ولا يحول دون إرادته حائل.

* * *

(١) المرجع السابق ٢١/ ١٥٥.

القسم الرابع

المنافقون بعد الخندق

وفيه مباحث:

١- الأمر بجهادهم وبيان نوع ذلك.

٢- ظنهم السيئ بالإسلام وأهله.

٣- اتهامهم رسول الله ﷺ بالظلم.

٤- المنافقون في غزوة تبوك.

في هذه الفترة دخل المنافقون في طور جديد يغلب عليه التكتم الشديد والاستخفاء المتناهي، وضعُف الأمل عندهم في انكسار شوكة الإسلام وانهزام المؤمنين.

وكانوا قبل هذه الفترة يملكون شيئًا من الحرية والانطلاق، فكانت تصدر منهم بعض التصرفات التي يظهر منها نفاقهم واضحًا جليًا، كموقفهم في غزوة أحد وغزوة المريسيع، وكان أملهم كبيرًا في انهزام المؤمنين وانكسار شوكتهم أمام أعدائهم، حيث كانت قوة المؤمنين المادية لا تعتبر شيئًا أمام قوة أعدائهم وكثرتهم.

وكانوا يستندون إلى قوتين كبيرتين تعاديان الإسلام آنذاك، هما قوة قريش، وقوة اليهود، ويأملون في أن يتم القضاء على الإسلام على أيديهما، فلما كان عام الأحزاب رجعت قريش عن المدينة خاسئة ذليلة، لم تستطع أن تنال من المؤمنين أي ضرر، رغم تحزيبها الأحزاب لحرب الإسلام من مختلف قبائل العرب.

ثم لما تم القضاء على آخر قبيلة من قبائل اليهود في المدينة وهم بنو قريظة على إثر انسحاب قريش يوم الأحزاب، أُسقط في أيدي المنافقين، وفقدوا بذلك السند الذي كانوا يركنون إليه، ويودعونه أسرارهم ويبثونه أشجانهم، فلم يكن أمامهم من عمل يواجهون به الإسلام إلا أن يبالغوا في ستر معتقداتهم، وإن كانوا سيدفعون الثمن في سبيل ذلك غاليًا، حيث فقدوا الحرية والراحة والاطمئنان النفسي.

ولما خرج النبي ﷺ للعمرة في السنة السادسة تخلفوا عنه وقالوا: لعل قريشًا تنال منه حينما خرج إليهم في عقر دارهم فنستريح منه، فلما جاءت النتيجة بعقد الصلح بينه وبين قريش، عرفوا أنه حينما أمن جانب أكبر قوة تناوئه في بلاد العرب سيعلو شأنه، وأن أنصاره سيكثرون فزادهم ذلك حسرة وتكتمًا.

ثم لما قضى النبي ﷺ على قوة اليهود في خيبر، فقد المنافقون بذلك آخر سهم في كنانتهم يمكن أن يستفيدوا منه في حرب الإسلام، وعلموا أن ما أحرزه المؤمنون من غنائم خيبر العظيمة سيكون قوة لهم في حرب أعدائهم.

ولعله كان عندهم بعض الأمل في أن قريشًا ينقضون ذلك الصلح ويعودون لحرب النبي ﷺ، ولكن ما أن فتح الله مكة للمسلمين حتى ضاع ما عساه أن يكون قد بقي في نفوسهم من أمل في قريش.

والظاهر أن كثيرًا من المنافقين قد أقلعوا عن النفاق، ورجعوا إلى الإسلام حينما رأوا قوة أعدائه تتهاوى أمام أقدام المؤمنين، وحينما رأوا الوفود تَقدم إلى رسول الله ﷺ من سائر أنحاء بلاد العرب مسلمين خاضعين، ذلك لأن كثيرًا من المنافقين لم يدفعهم إلى الكفر بهذا الدين إلا ضعف قوة المؤمنين المادية في مبدأ أمرهم أمام قوة أعدائهم وكثرتهم، فلا شك أن موقف المؤمنين الحرج يوم أحد لا يقاس بموقفهم العزيز بعد فتح مكة.

وأهم ما حدث في هذه الفترة من الأحداث التي تتعلق بالمنافقين هو تخلفهم عن النبي ﷺ حينما خرج إلى مكة عام الحديبية، حيث ساورتهم ظنون الجاهلية فظنوا أن رسول الله ﷺ والمؤمنين لن يعودوا إلى أهليهم أبدًا، وتخلفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حيث خرج لغزو الروم في شدة الحر وأوان نضوج الثمار، فرغب المنافقون في الإقامة بين الظلال والثمار.

١- الأمر بجهادهم وبيان نوع ذلك

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[التحريم: ٩].

وقت نزول هذا النص:

هذه الآية من سورة التحريم وقد سبقتها في النزول سورة «المنافقون»، وقد تبين لنا فيما مضى أن هذه السورة نزلت بعد غزوة المريسيع، وقد كانت هذه الغزوة في شعبان من السنة الخامسة كما سبق، ومما نزل بعدها سورة الفتح وقد نزلت في أواخر السنة السادسة كما سيأتي، فتكون سورة التحريم مما نزل في تلك الفترة، وليس لهذه الآية سبب يحدد وقت نزولها.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

تبين لنا أن هذه الآية مما نزل بعد غزوة المريسيع والأحزاب، وقد حدث من المنافقين عقب غزوة المريسيع وفي أثناء غزوة الأحزاب أحداث جسام، أظهروا فيها كفرهم وصرحوا فيها بعداء الرسول ﷺ، فمن ذلك الفتنة التي أثارها عبد الله بن أبيّ بين المهاجرين والأنصار في رجوعهم من غزوة المريسيع، وخوضه في عرض عائشة رضي الله عنها في ذلك الوقت نفسه، ثم أعقب ذلك موقف المنافقين يوم الأحزاب حينما خذلوا المسلمين وصاروا يتسللون من معسكرهم، ويُحدثون الاضطراب والبلبلة بينهم حتى يتفرق شملهم ويصبحوا لقمة سائغة لأعدائهم.

فكانت هذه التصرفات التي صدرت منهم مما يجعلهم موضع الريبة والحذر، ويجعل التساهل في أمرهم داعيًا إلى صدور مزيد من التأبي والعصيان منهم، ومحاولة الكيد

للإسلام وأهله، فأنزل الله جل وعلا هذه الآية يأمر فيها النبي ﷺ بأن يبذل جهده في رد كيدهم، من التشنيع عليهم وكشف أسرارهم وهتك أستارهم، حتى يستسلموا ويقلعوا عما هم فيه من حرب الإسلام والكيد للمؤمنين.

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الجهاد في اللغة بذل الجهد، وشاع في الاستعمال الشرعي في قتال الكفار، وقد أمر الله المؤمنين في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين، فأما الكفار فالأمر بقتالهم لا إشكال فيه لأنهم مظهرون كفرهم ولم يشرع الجهاد إلا لهم، وأما المنافقون فإنهم يظهرون الإسلام فكيف يأمر الله نبيه بقتالهم؟

لعل المراد بالجهاد في الآية المعنى اللغوي للكلمة؛ الذي هو أعم من أن يخصص بالقتال فيكون المعنى: ابذل وسعك في مدافعة الكفار والمنافقين، فأما الكفار فبجميع وسائل الدفاع من قتال وغيره، وأما المنافقون، فبوسائل الدفاع الأخرى التي هي دون القتال، من كشف أمرهم ولومهم وتعنيفهم، وعدم قبول اعتذاراتهم، وإظهار احتقارهم، وعدم إسناد أي عمل من أعمال المسلمين إليهم، وإن كان عملاً لا أهمية له وغير ذلك من وسائل الجهاد، حتى يقلعوا عما هم فيه من النفاق، وينضموا إلى صف المؤمنين الصادقين، ومما يدل على أن المراد جهادهم بما دون القتال ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية: فأمره الله بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم[1].

وأخرجه ابن جرير أيضًا عنه من طريق ابن جريج[2].

---

(١) جامع البيان ١٠/ ١٨٣.

(٢) المرجع السابق ١٠/ ١٨٣.

وقيل إن المراد جهادهم باليد واللسان كسائر الكفار، وبهذا قال ابن مسعود ﷺ واختاره ابن جرير[١].

والقول الأول أرجح لأن المنافقين في حال إظهارهم الإيمان لا يجوز قتالهم، وفي حال إظهارهم الكفر يخرجون عن كونهم منافقين، ويصبحون مرتدين عن الإسلام فيكونون كسائر الكفار.

وقيل: إن المراد بجهادهم إقامة الحدود عليهم، وبهذا قال الحسن وقتادة[٢] وهذا قول ضعيف لأن الحدود تقام على جميع العصاة سواء من المنافقين أو من المؤمنين.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي شدد الوطأة عليهم في القتال بالنسبة للكفار، وفي المعاملة بالنسبة للمنافقين، فإنهم لا يدخرون وسعًا في حرب الإسلام، وإيقاع الضرر بالمؤمنين إذا تمكنوا من ذلك.

هذا جزاؤهم في الدنيا، أما في الآخرة فذكره الله جل وعلا بقوله ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مصيرهم الذي سيقيمون فيه ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وساء ذلك المكان مستقرًا ومقامًا لهم.

* * *

---

(١) المرجع السابق ١٠/ ١٨٣.

(٢) جامع البيان ١٠/ ١٨٣ - ١٨٤.

٢- ظنهم السيئ بالإسلام وأهله

النص القرآني في ذلك:

١- قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[الفتح ١-٧].

٢- ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ

لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفتح: ١١-١٧].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج الإمام البخاري عن أنس بن مالك ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحديبية، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: هنيئًا مريئًا فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قال شعبة: فقدمتُ الكوفة فحدثت هذا كله عن قتادة ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فعن أنس وأما هنيئًا مريئًا فَعَنْ عكرمة [١] أي أن آخر الحديث مرسل.

٢- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾: أعراب المدينة: جهينة ومزينة استنفرهم لخروجه إلى مكة، قالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (فتح الباري ٧/ ٤٥٢).

أصحابه فنقاتلهم؟ فاعتلوا بالشغل[١].

٣- وقال الألوسي: قال مجاهد وغيره -ودخل كلام بعضهم في بعض- المخلفون من الأعراب هم جهينة ومزينة وغفار وأشجع والدِّيل وأسلم، استنفرهم رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا ليخرجوا معه، حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليُعلم أنه لا يريد حربًا، ورأى أولئك الأعراب أنه ﷺ يستقبل عددًا عظيمًا من قريش وثقيف وكنانة، والقبائل المجاورين مكة وهم الأحابيش[٢]، ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم فقعدوا عن النبي ﷺ وتخلفوا وقالوا: نذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم! وقالوا: لن يرجع محمد ﷺ ولا أصحابه من هذه السفرة ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم رسوله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل اليهم فكان كذلك، هكذا ذكره الألوسي بلا سند[٣].

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات نزلت في رجوع النبي ﷺ من الحديبية كما في رواية مسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى قوله ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ -مرجعه

---

(١) جامع البيان ٢٦/ ٧٧، وقوله (اعتلوا بالشغل) يعني قولهم الذي حكاه الله عنهم بقوله ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

(٢) قال ابن حجر: هم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة وبنو المصطلق من خزاعة كانوا تحالفوا مع قريش تحت جبل يقال له الحبشي أسفل مكة وقيل سموا بذلك لتحبشهم أي تجمعهم (فتح الباري ٥/ ٣٣٤).

(٣) روح المعاني ٢٦/ ٩٧.

من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحر الهدي بالحديبية- فقال: لقد أنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعا[(١)]، وذكر ابن إسحاق بعد ذكره خبر صلح الحديبية عن الزهري أنه قال في حديثه: ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلاً حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح[(٢)].

وقد كان صلح الحديبية في شهر ذي القعدة من السنة السادسة وبذلك قال الجمهور، قال ابن القيم: قال نافع كانت في سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم، وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان وكانت في شوال، وهذا وَهْمٌ وإنما كانت غزوة الفتح في رمضان. أهـ[(٣)].

وقال ابن حجر: «وكان توجهه ﷺ من المدينة يوم الاثنين مستهل ذي القعدة سنة ست فخرج قاصدًا إلى العمرة فصده المشركون، قال: وجاء عن هشام بن عروة عن أبيه ﷺ أنه خرج في رمضان واعتمر في شوال»، وشذ بذلك وقد وافق أبا الأسود عن عروة الجمهور.

تصوير الموقف الذي فيه النص:

رأى رسول الله ﷺ في المنام أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت فأخبر بذلك أصحابه وعزم على المسير للعمرة، وذلك في السنة السادسة للهجرة.

ولما كان رسول الله ﷺ لا يأمن قريشًا استنفر الأعراب من حول المدينة، فاستنفر قبائل جهينة ومزينة وغفار وأشجع والديل وأسلم فاعتذروا عن المسير بالانشغال بالأهل

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد باب صلح الحديبية (ص ١٤١٣).

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٢٠.

(٣) زاد المعاد ٢/ ١٢٢.

والأموال، لكن الرسول ﷺ مضى بأصحابه وساق الهدي معه، لتعلم قريش بأنه جاء معتمرًا ولم يأت لقتالهم.

ونزل رسول الله ﷺ بالحديبية، ثم كان ما كان من تعرض قريش للمسلمين وصدهم عن البيت، ثم إرسال النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه ليُعلم قريشًا بأنهم لم يقدموا لحربهم، ثم أشيع أن عثمان قد قتل، فتمت بيعة الرضوان على مناجزة القوم وعدم الفرار، كما جاء في صحيح مسلم من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال: لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر[1] ولم يتخلف عن البيعة إلا الجدُّ بن قيس[2]، كما أخرج الإمام مسلم من حديث أبي الزبير أنه سمع جابرًا يُسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جدِّ بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره[3].

ثم بلغ المسلمين أن الخبر غير صحيح[4]، وكان ما كان من الصلح بين رسول الله ﷺ وقريش، ثم إحلال المسلمين من عمرتهم ورجوعهم إلى المدينة، على أن يعودوا لقضاء عمرتهم بعد عام كما هو معروف في أحاديث السيرة.

هذا وقد بين الله سبحانه لنا السبب في تخلف الأعراب عن الخروج مع النبي ﷺ حين استنفرهم وهو ما خالج نفوسهم من الظنون السيئة بالإسلام والمسلمين.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، رقم ١٨٥٨.

(٢) وقد تبين نفاقه حينما تخلف عن غزوة تبوك، وقد نزل فيه قوله تعالى ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ كما سيأتي.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش رقم(١٨٥٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب رقم ١٨.

كما بين لنا سبحانه إحجام هؤلاء المنافقين من الأعراب عن الجهاد في سبيل الله عند الفزع والإقدام عليه عند الطمع، فحينما توقعوا هلاك المؤمنين على يد الكفار عام الحديبية تثاقلوا عن الخروج معهم، وحينما لاحظوا وفرة الغنائم في خيبر وضعف العدو أمام قوة المؤمنين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم في الخروج معه، وتناسوا عذرهم المختلق الذي اعتذروا به عن تخلفهم عن المسير معه إلى مكة، بأنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، فكيف شغلتهم عن السير إلى مكة ولم تشغلهم عن المسير إلى خيبر؟!

ويشبههم في ذلك المنافقون من أهل المدينة فإنهم يتخلفون عن الجهاد حينما يكون العدو في نظرهم أقوى من المؤمنين، كما هو الحال في غزوة أحد، ويسارعون إلى الخروج حينما يكون العدو أضعف من المؤمنين طمعًا في الغنائم كما هو الحال في غزوة المريسيع.

بيان مفردات النص:

فتحنا: الفتح إزالة الأغلاق والإشكال، ويطلق على النصر، وعلى الحكم بين المتخاصمين[1].

مبينا: المبين إما من أبان بمعنى بان اللازم أي فتحًا بينًا ظاهر الأمر مكشوف الحال، أو يكون من أبان المتعدي فيكون المعنى: فارقًا بين الحق والباطل[2].

السكينة: السكينة من السكون وهو ثبوت الشيء بعد تحرك[3]، والمراد بها في الآية تثبيت المؤمنين بالطمأنينة واليقين عندما تم صلح الحديبية.

بورا: البور الرجل الفاسد والهالك الذي لا خير فيه، ويستوي فيه المفرد والمثنى والجمع[4]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: البور في لغة أزد عمان: الفاسد والبور في كلام

---

(١) المفردات، القاموس.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٥٥، روح المعاني ٢٦/ ٨٩.

(٣) المفردات، مقاييس اللغة.

(٤) المفردات، القاموس، مقاييس اللغة.

العرب: لا شيء، يقال: أصبحت أعمالهم بورا أي مبطلة وأصبحت ديارهم بورا أي معطلة خرابا[١].

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ المراد بهذا الفتح صلح الحديبية كما مرَّ في بيان من نزل فيه النص، وقد أخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب ﵁ قال: «تَعدُّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[٢].

وقيل المراد بالفتح في الآية فتح مكة، فيكون وعدًا بما سيجيء في المستقبل والتعبير عنه بالماضي لتحقق وقوعه[٣].

ومما يدل على أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية ما أخرجه الشيخان من حديث سهل ابن حنيف ﵁ أنه قال بعدما ذكر شيئًا من خبر الحديبية: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله أوَ فتح هو؟ قال: نعم، فطابت نفسه ورجع»[٤].

وإنما كان صلح الحديبية فتحًا لأن مكة كانت قبله مغلقة أبوابها أمام المؤمنين، فلما تم الصلح فُتح باب المعاملة مع المشركين، واستطاع المؤمنون أن يدخلوا مكة معتمرين مع رسول الله ﷺ بعد عام من الصلح.

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة / ٤١٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (فتح الباري ٧/ ٤٤١).

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٠.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجهاد باب رقم ٣٤ (ص ١٤١٢). صحيح البخاري، كتاب الجزية باب رقم ١٨ (فتح الباري ٦/ ٢٨١).

وكانت المدينة مغلقة أمام المشركين من سائر العرب، لقلة المؤمنين وكثرة أعدائهم فما كان العرب يُقدمون على الدخول في الإسلام والحالة هذه، فلما تم الصلح دخل في الإسلام أضعاف من كانوا دخلوا فيه قبله، وذلك أن العرب لما تسامعوا بأن محمدًا ﷺ قد تصالح مع قريش، ووضعت الحرب بينه وبين أكبر أعدائه، علموا بذلك عزته وأنهم لا قِبَل لهم بحربه، فأسرعوا إلى الدخول في دينه، وخصوصًا بعدما قضى رسول الله ﷺ على أكبر أعدائه بعد قريش وهم اليهود في خيبر، وكان القضاء عليهم من آثار تفرغه ﷺ بعد الصلح، فلم يبق بعد القضاء عليهم من يحارب الإسلام بقوة وضراوة، ولقد أدرك العرب عزة الإسلام في تلك الفترة فسارعوا إلى الدخول فيه، وممن أسلم في هذه الفترة رجلان من صناديد قريش، هما عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما[1]، وقد أصبحا بعد ذلك من أعلام المسلمين وقادتهم.

يقول الزهري: فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضًا والتقوا تفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر..[2].

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[3].

---

(١) السيرة النبوية ٣/ ٣٥٣.

(٢) السيرة النبوية ٣/ ٤٢٥.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٤٢٦.

وبعد أن ذكر سبحانه أن صلح الحديبية كان فتحًا عظيمًا ظاهر المصلحة، بيّن سبحانه أن هذا الفتح قد ترتب عليه أمور أربعة:

أولاً: مغفرة ذنوب النبي ﷺ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فما المراد بهذا الذنب الذي غفره الله له؟ وما أثر هذا الفتح في مغفرته؟

لو بحثنا في الأمور التي كان النبي ﷺ يشعر بتقصيره فيها لم نجد إلاَّ أمر الدعوة التي كلفه الله بإبلاغها للناس جميعًا، إذ أنه يرى أنه مهما بلغ في الجد والاجتهاد في سبيل تبليغ هذه الدعوة فلن يبلغ نهاية ما كُلِّف به من ذلك، لوجود العوائق التي تحول دون انتشار الدعوة، وكونه مكلفًا بأن يبذل ما في وسعه أمر غير محدود بحد معين، وكون النبي ﷺ أخوف الناس وأتقاهم لربه يجعله يشعر بشيء من التقصير في ذلك، لكن بعد هذا الصلح أصبح في مأمن من أكبر أعدائه الذين يُكنُّ لهم سائر العرب كثيرًا من الإكبار والإجلال، وينتظرون في تحديد موقفهم من الإسلام نهاية معركتهم مع النبي ﷺ، فما أن تم الصلح بينه وبينهم حتى بدأ يرسل الرسل بالكتب، يدعو الناس الذين لم تبلغهم الدعوة، فأرسل الرسائل إلى ملوك الأمم المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، وفي هذا استدراك لما عساه أن يكون قصَّر فيه في الماضي، أما المستقبل فإنه يحمل في طياته واجبًا أكبر على النبي ﷺ ومن اتبعه في نشر هذه الدعوة، وهذا الفتح سيكون من آثاره التغلب على أعداء آخرين كاليهود، والتمكن من البلاغ لأمم أخرى، وبهذا التمكن سيتلافى الرسول ﷺ تقصيرًا لولا هذا الفتح لظل يشعر به.

ثانيًا: إتمام نعمته عليه ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ فما المراد بهذه النعمة وإتمامها على النبي ﷺ؟

إن النعمة الكبرى بالنسبة لرسول الله ﷺ باعتبار كونه رسولاً: هي نجاحه في تبليغ دعوته، وباستجابة العرب وسائر الأمم له في هذه الدعوة يكون قد تم نجاحه في تبليغها،

وبهذا الفتح العظيم قد أتم الله هذه النعمة على رسوله، حيث بدأ الناس يستجيبون لدعوته أكثر من ذي قبل.

ثالثًا: هدايته إلى الصراط المستقيم ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ والنبي ﷺ كان على هذه الهداية منذ نزل عليه الوحي، وكان يدعو لهذه الهداية فما معنى هدايته لصراط مستقيم يترتب على هذا الفتح؟

إن الصراط المستقيم الذي هداه الله إليه بهذا الفتح هو ما يتعلق بسيرة دعوته حربًا وسلمًا، مما كان مترتبًا على هذا الفتح، كحربه يهود خيبر، وفتح مكة، وإرسال الكتب والبعوث للقبائل والأمم من حوله، فكان هذا الفتح ممهدًا لهذا الصراط المستقيم الذي سار عليه ﷺ بعده بهدي من الله تعالى.

رابعًا: نصر الله إياه ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي وليبلغك الله القمة في النصر على أعدائك ذلك النصر الذي لا يغلب أبدًا، وعلاقة هذا الفتح بنصر الله أمر واضح، وقد تحقق هذا النصر العظيم إثر ذلك الصلح، فقضى النبي ﷺ على أعدائه من يهود خيبر، وخضع له العرب وفتح الله له مكة، حتى جاء إليه ألدُّ أعدائه صاغرين يطلبون منه التكرم والعفو.

ثم ذكر سبحانه مِنَّته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، حيث قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الله الذي فتح لك فتحًا مبينًا هو لا غيره الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين، في موقف كان يسوده الاضطراب والخوف والقلق. فثبّت قلوب المؤمنين حينما أقدموا على مبايعة النبي ﷺ على الثبات عند لقاء العدو، وثبت قلوب المؤمنين باليقين بعدما اعتراها شيء من الشك والضيق والاضطراب بسبب قبول النبي ﷺ شروط قريش الجائرة مع تعصبهم لجاهليتهم، وما أعقب ذلك

من الرضا بالإحلال من العمرة، قبل الوصول إلى البيت ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ بإقدامهم على بذل أرواحهم في سبيل الله واستسلامهم الكامل لتنفيذ أوامر لم تقتنع بها نفوسهم ولم يفهموا لها حكمة آنذاك لمجرد أن النبي ﷺ أقرها وأمر بها ﴿إِيمَٰنًا﴾ جديدًا ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ السابق الذي دفعهم إلى بذل أرواحهم وأموالهم في سبيل الله قبل ذلك.

وقد ذكر سبحانه إنزال السكينة في قلوب المؤمنين بعد ذلك في قوله تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح:٢٦] والمراد بحمية الجاهلية صدهم المؤمنين عن البيت، وامتناع سهيل بن عمرو عن كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، كما أخرج ذلك ابن جرير من طريق معمر عن الزهري[1]، وترتيب إنزال السكينة في قلوب المؤمنين على اعتصام الذين كفروا بحمية الجاهلية في قضية الصلح، يدل على أن المراد بهذه السكينة تثبيت قلوب المؤمنين للرضا بهذا الصلح.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والمؤمنين من البشر وغيرهم، فلو شاء الله لسلطهم على الكفار فأبادوهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بجنوده ﴿حَكِيمًا﴾ في أمرهم بالجهاد إذا وقع موقعه، وقد بين سبحانه في آخر هذه السورة شيئًا من حكمته تعالى في عدم وقوع القتال في ذلك الوقت، حيث قال تعالى ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفتح: ٢٥].

(١) جامع البيان ٢٦/ ١٠٣.

فبين سبحانه أن من حكمته في عدم وقوع القتال وجود طائفة من المسلمين بين الكفار يخفون إسلامهم، ولو وقع القتال لأصابهم الضرر بأيد المؤمنين لعدم تميزهم عن الكفار.

ولما ذكر سبحانه في هذه الآيات أثر هذا الفتح بالنسبة للنبي ﷺ ودعوته بيَّن أثره بالنسبة للمؤمنين فقال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي قدَّر سبحانه إتمام هذا الفتح ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي يمحوها فلا يؤاخذهم عليها جزاء بذلهم أرواحهم في سبيل الله لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، وإذعانهم لأمره حينما كفهم عن القتال ورضي بالصلح ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي منحه الله المؤمنين ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ظفرًا لا يدانيه أيُّ ظفر لأن أصحابه بلغوا القمة في السعادة.

ومما يدل على تعلق الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ما سبق في حديث البخاري عن عكرمة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لما نزلت الآيات المتعلقة بالنبي ﷺ: هنيئًا مريئًا فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾ أي قدر سبحانه وقوع هذا الفتح ليثيب المؤمنين بذلك الثواب العظيم، وليعذب الكفار الذين أخفوا كفرهم، والذين أظهروه بالغم والحسرة، بمشاهدتهم ما سيترتب على هذا الفتح من آثار عظيمة كلها في صالح المؤمنين.

وقدَّم سبحانه وتعالى ذكر المنافقين لأنهم كانوا كلما خرج الرسول ﷺ للغزو يترقبون بشغف بالغ خبر انهزام جيش المؤمنين، وكانوا حينما خرج المؤمنون إلى مكة عام

الحديبية يتوقعون عدم رجوعهم إلى أهليهم سالمين كما أخبر الله عنهم في هذه السورة، فلما كان ما يشعر به المنافقون من الحسرة عند انتصار المؤمنين والفرحة عند انهزامهم أكبر مما يشعر به سائر الكفار من ذلك، قدمهم سبحانه وتعالى بالذكر ليغيظهم بذلك وليشفى قلوب المؤمنين بذكر ما يعانونه من الغم القاتل.

ثم بين سبحانه السبب الذي جعلهم يتصدرون لعداوة المؤمنين، ويتوقعون لهم من النتائج مع أعدائهم خلاف ما يرونه في نهاية كل جولة يخوضونها، بقوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي الظن السيء، وذلك ظنهم أن الله لا ينصر أولياءه المؤمنين، فهذا الظن هو الذي منع المنافقين من الاشتراك مع المؤمنين في القتال، وهو نفسه الذي دفع الكفار إلى قتال المؤمنين، وقد بينه الله سبحانه بقوله مخاطبًا المنافقين: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، وهذه الصفة تنطبق على المنافقين أكثر من انطباقها على سائر الكفار، لأن المنافقين كانوا إذا خرج المؤمنون للغزو يتوقعون هلاكهم، ويرجون زوال الإسلام من الوجود، ويبنون على ذلك آمالهم وأحلامهم، فإذا رجع المؤمنون ظافرين منصورين غابت آمالهم وضاعت أحلامهم وباءوا بالغم والحزن.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي عليهم ترجع آثار ظنهم السيء كمدا وحسرة وقتلا وتشريدا ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لإساءتهم الظن بالله تعالى ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ جزاء عملهم السيء ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي قَبُحت مرجعًا ومآلاً.

ثم كرر سبحانه ذكر هيمنته على ما في السموات والأرض بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليبين لهؤلاء الكفار أنه جل وعلا مع المؤمنين في معركتهم فلن يتحقق ما ظنوه من انهزام المؤمنين وزوال دولتهم، فالمعنى: إذا كنتم أيها الكفار تتوقعون

هلاك المؤمنين واندثار عزهم لقلة عددهم أمام كثرة أعدائهم، فأنتم مخطئون في هذا الظن لأنهم ليسوا وحدهم في المعركة؛ بل الله ناصرهم بجنود السماوات من الملائكة وجنود الأرض من الريح ونحوها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فلن يفلت هؤلاء الكفار من قبضته وهو القوي الغالب الذي يضع الأمور مواضعها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى حال فريق من المنافقين دعاهم النبي ﷺ للخروج معه فتثاقلوا وتخلفوا عنه، وهم المنافقون من الأعراب الذين هم حول المدينة، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ﴾ أي سيأتي إليك يا رسول الله الذين تخلفوا عن الخروج معك من الأعراب معتذرين إليك عن تخلفهم بأنهم شغلوا بإصلاح أموالهم، والحفاظ على أهليهم طالبين منك أن تستغفر الله لهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ أي تنطق ألسنتهم بالاعتذار وطلب الاستغفار على خلاف ما يضمرونه في قلوبهم، من عدم الرغبة في الخروج معك فهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيبهم ببيان حقيقة التوحيد التي جهلوها، وهي أن ما يخشونه من لحوق الضرر بهم فيما إذا خرجوا لا يستطيع أحد أن يمنعهم منه إذا كان الله سبحانه قد كتبه عليهم ولو قعدوا في ديارهم، كما أنه لا يستطيع أحد أن يمنع عنهم الخير الذي يكتبه الله لهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ﴾ أي لا أحد يملك شيئًا من ذلك، فما قضاه الله على العبد لابد أن يقع لا محالة، فلا يمنع من وقوع المكروه القعود عن المخاطر، ولا يمنع من وقوع المحبوب اقتحامها، فما تعللتم به للقعود عن الجهاد من الاشتغال بحفظ الأموال والأهل غير صحيح، على فرض كونه هو الواقع لأن الله سبحانه إذا كان قد قضى لحوق الضرر بها فلن

يمنع هذا الضرر بقاؤكم إلى جانبها، وإذا كان الله سبحانه قد قضى سلامتها فلن يستطيع أحد إلحاق الضرر بها ولو خرجتم مع رسول الله ﷺ.

ثم أبطل سبحانه وتعالى ما تعللوا به بقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون من أن المانع لكم من الخروج هو الاشتغال بالأموال والأهلين، بل الله سبحانه وتعالى عالمٌ دقيق العلم بجميع تصرفاتكم وما تُكِنُّه ضمائركم من المقاصد السيئة.

ثم فصَّل سبحانه وتعالى هذه المقاصد السيئة بقوله ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي بل المانع الحقيقي لكم من الخروج مع النبي ﷺ أنكم ظننتم أن رسول الله والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبدًا، بل سيهلكون على يد قريش وحلفائها، فخشيتم أن تهلكوا إن أنتم خرجتم معهم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي إنكم قلَّبتم هذا الظن السيئ في أفكاركم وأجَلتم فيه وجوه النظر فقلتم: يخرج محمد وأصحابه إلى قوم قد غزوه في عقر داره مرتين، ثم يخرج إليهم في عقر دارهم وهم بين حلفائهم فكيف ينجو منهم؟ حتى رسخ ذلك في أذهانكم ووقر في قلوبكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي الظن السيئ حيث ظننتم أن المسلمين سيبادون عن آخرهم، وأن الإسلام سيُمْحَى من الوجود ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي لا خير فيكم فوجودكم كالعدم.

ثم بين سبحانه وتعالى النهاية التي سيصيرون إليها في الآخرة إذا هم استمروا على الكفر بالله تعالى، حتى يتذكروا فيعودوا إلى الإيمان الصادق فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي هيأنا لهم نارًا ملتهبة جزاء كفرهم بالله تعالى، وأنتم لم تؤمنوا بالله ورسوله فجزاؤكم الخلود في نار جهنم مع سائر الكافرين.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى مصيرهم في الآخرة، بيَّنَ سعة ملكه سبحانه وأنه هو الذي بيده الرحمة والعذاب، ولا أحد يستطيع أن ينجيهم من عذاب الله إذا أراد تعذيبهم، ولا أن يمنع عنهم رحمته إن أراد رحمتهم، حيث قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من التائبين ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ من المصرين على الذنب، ومادام العذاب واقعًا عليهم في الآخرة لا محالة إن استمروا على كفرهم؛ والملك لله وحده فلا منقذ لهم من عذابه إلا هو، فليرجعوا إليه وليؤمنوا به، حتى يظفروا بنعيم ثوابه وينجوا من أليم عقابه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ ساترًا ذنوب عباده إذا أنابوا إليه ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث يثيبهم على امتثال أوامره.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن أولئك المنافقين من الأعراب سيطلبون من النبي ﷺ أن يأذن لهم في الخروج معه طمعًا في الغنائم، وأرشده سبحانه إلى الجواب الذي يجيبهم به على طلبهم هذا، حيث قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والمراد بالمغانم في الآية مغانم خيبر، وبذلك قال جمهور المفسرين[1] وقد كان خروج النبي ﷺ إلى خيبر في شهر محرم من السنة السابعة[2] بعد صلح الحديبية بحوالي شهرين، وقد وعد الله المؤمنين الذين حضروا الحديبية بمغانم خيبر، حيث قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ

(١) انظر: مثلا جامع البيان ٢٦/ ٧٩ – الكشاف ٣/ ٥٤٥ – الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٧٠ – إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٠ – روح المعاني ٢٦/ ١٠١.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٤٣.

ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني فتح خيبر[1] ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ -يعني مغانم خيبر[2]- وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ - ٢٠].

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي وعده السابق لأهل الحديبية بأن غنائم خيبر لهم خاصة وبذلك قال جمهور المفسرين.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي من قبل أن تتهيأوا للخروج معنا إلى خيبر، وذلك حينما أخبر سبحانه بعد الحديبية بأن غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة وليس لغيرهم فيها نصيب، ومادام أولئك الأعراب محرومين من غنائم خيبر فلن يخرجوا للقتال لأن مقصدهم الغنائم فقط.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ﴾ أي ليس قصدكم تنفيذ قول الله عز وجل بل أردتم حرماننا من الغنائم حسدًا لنا.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي بل كانوا لا يفهمون من أمور هذا الدين إلا فهمًا قليلاً، ولو كانوا يفهمون حقيقة الدين فهمًا صحيحًا لعرفوا أن الذي يؤمن به ويلتزم بأحكامه لا ينافس الناس على الدنيا ولا يحسدهم عليها، فضلاً عن أن يكون من اتهموه بالحسد لهم هو رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

---

(١) جامع البيان ٢٦/ ٨٩.

(٢) جامع البيان ٢٦/ ٨٩.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يبين لهؤلاء الأعراب أنه سيكون لهم في المستقبل مقام من مقامات الجهاد في سبيل الله يُمتحنون فيه، فيثيبهم الله إن أطاعوا ويعذبهم إن عصوا حيث قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين تخلفوا عنك حينما خرجت إلى مكة ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي سيدعوكم النبي ﷺ أو خليفته من بعده إلى قتال قوم ذوي قوة عظيمة، ونكاية شديدة حتى يدخلوا في الإسلام ويذعنوا لحكمه، والمراد بهؤلاء القوم قبائل العرب الذين ارتدوا عن الإسلام بعد موت النبي ﷺ، وخصوصًا بني حنيفة، كما رُوي عن رافع بن خديج رضي الله عنه أنه قال: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم[1]. ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أهل فارس[2]، كما رُوي عن عكرمة وسعيد بن جبير أنهم هوازن وثقيف[3] فيكون الذي دعاهم هو النبي ﷺ، ولا مانع من شمول الآية لهؤلاء الكفار جميعًا.

﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ بأن تستجيبوا لهذا الدعاء فتشتركوا مع المؤمنين في قتال هؤلاء الأعداء ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وذلك مما أعده سبحانه للمجاهدين في سبيله من الثواب الجزيل في الجنة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ تُعْرضوا عن إجابة هذا الدعاء فتتخلفوا عن الجهاد في سبيل الله ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي عن إجابة دعاء النبي ﷺ حينما دعاكم إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٧٢.

(٢) جامع البيان ٢٦/ ٨٢.

(٣) المرجع السابق ٢٦/ ٨٣.

الخروج معه إلى مكة ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في نار جهنم جزاء كفركم بالله وعدم استجابتكم لرسوله حينما دعاكم إلى الجهاد في سبيل الله.

ثم ذكر سبحانه أن وجوب الطاعة في الجهاد إنما هو بالنسبة للقادر عليه أما من به عاهة لا يستطيع معها مباشرة القتال فإنه معذور في التخلف، حيث قال تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

عندما خرج المؤمنون لقتال أعدائهم في «أحد» ظن المنافقون أن ساحة أحد ستكون مقبرة للمسلمين وأنه لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة. ومن ثَمَّ انخذلوا عنهم أثناء الطريق، وعندما خرج المؤمنون إلى مكة عام الحديبية، ظن المنافقون أنهم لن يرجعوا إلى أهليهم أبدًا.. ولذلك تخلفوا عنهم.

لقد ظنوا أن الإسلام سيزول من الوجود، وأن أنصاره سَيُسحقون سحقًا على يد الكفار، وهذا هو ظن الجاهلية بمختلف أشكالها، ذلك أن أهل الجاهلية يقيسون القوى المتقابلة في الميدان بالمقياس المادي، وهو مقياس العدد والعُدد ولا يشعرون بأن الله مع المؤمنين وإن قلوا وكثر أعداؤهم، وبأنه لابد أن ينتصر المؤمنون في النهاية وإن أصيبوا ببعض النكسات في أثناء الطريق.. إنهم لا يدركون أن الله عز وجل قد أنزل هذا الوحي من السماء لتحمله تلك الفئة المؤمنة إلى الناس كافة، وأن راية الإسلام ستعلو في كل أنحاء الأرض، حتى لا تبقى فيها قوة تقاوم قوة الإسلام.

ولم تكن الآيات البينات المنزلة من السماء، ولا الوقائع المشهورة التي عرفوها من حماية الله نبيَّه ﷺ بخوارق العادات ونصره المؤمنين في بدر بما يشبه تلك الخوارق... لم

تكن هذه ولا تلك لتؤثر في نفوسهم فتدفعها إلى الإيمان بأن الله سيحمي هذا الدين، وسينصر تلك الفئة المؤمنة مهما تسلط عليها الأعداء المظهرون لعداوتها، أو خانها الأعداء المظهرون لصداقتها، لأنهم لم يؤمنوا بالله عز وجل إيمانًا حقًا ففقدوا بذلك المبدأ السامي الذي يدفعهم إلى بذل نفوسهم في سبيله مهما تكن الظروف والعواقب، ومن ثم ساورتهم الظنون السيئة وخافوا على أنفسهم أن يوردوها موارد الهلاك إذا هم دخلوا في حزب النبي ﷺ واشتركوا معه في حرب أعدائه، وأعلنوا البراءة من الكفار جميعًا.

وهذا هو ظن بعض المسلمين اليوم الذين لم يفهموا الإسلام على حقيقته، ولم يتشبعوا بروح الإيمان بالله تعالى، فهم إذا نظروا إلى ما يملكه الكفار في الشرق والغرب من أسلحة فتاكة، ووسائل قوية في الإبادة والتدمير، وعلوم مادية تنبهر لها العقول؛ ثم نظروا إلى ضعف المسلمين في هذه النواحي كلها أيسوا من عزة الإسلام وانتصار المسلمين في المستقبل، ونصبوا أمام أعينهم وسائل الحرب المادية فقط، وضعفت ثقتهم بالله واعتمادهم عليه وحده.

أما المؤمنون فإنهم يوقنون بنصر الله في النهاية وإن كثرت العقبات والانتكاسات في الطريق؛ إذا وجدت القيادة الإسلامية المخلصة التي لا ترفع شعارًا غير شعار الإسلام.

والمؤمنون يعتقدون بأنهم هم وأعداؤهم في قبضة الله عز وجل وتحت تصرفه، فإذا شاء أن ينصر عباده المؤمنين على أعدائهم نصرهم، وإن كانت قوتهم المادية لا تقاس بقوة أعدائهم، ولكنهم يعلمون أن هذا النصر مترتب على تمسكهم بدين الله ونصرهم إياه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[محمد:٧] وإخلاص العبادة لله والاعتماد عليه وحده ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ

ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[النور: ٥٥].

وإذا وُجِد المؤمنون الذين يتمسكون بدينهم وينصرونه فلن تقع عليهم الهزائم من الكفار التي تقضي على دولتهم، وتجعلهم خاضعين لأعدائهم ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٤١]، ولابد أن يوجد على وجه الأرض من يقوم بنصرة الحق حتى تقوم الساعة، كما قال ﷺ: «ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»(١).

وستكون لهذه الطائفة المؤمنة قيادة إسلامية راشدة في آخر الزمان ترفع راية الجهاد في سبيل الله، ويكون الله معها حتى يسخِّر الشجر والحجر لخدمتها، كما يدل عليه قول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون؛ حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهوديٌّ خلفِي فتعال فاقتله، إلاَّ الغرقد فإنه من شجر اليهود»(٢).

فأين أصحاب الظنون السيئة من المنافقين وضعفاء الإيمان الذين أعشاهم بريق الحضارة المادية فقضى على عزائمهم وأصابهم باليأس والضعف، حتى أصبح قصارى

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة باب قوله ﷺ «لا تزل طائفة حديث رقم (١٩٢٠) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ «لا تزال طائفة» (فتح الباري ١٣/ ٢٩٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل. حديث رقم (٢٩٢٢)، والغرقد: ضرب من شجر العضاة وشجر الشوك، ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة «بقيع الغرقد» لأنه كان فيه غرقد وقطع كما قال ابن الأثير في النهاية.

جهدهم أن يجاروا هذه الحضارة في الخير والشر، غير عابئين بتعاليم دينهم التي تخالفها وتنهاهم عن التورط في ويلاتها.

أين هؤلاء من هذه الوعود الصادقة التي وعدهم الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ؟!

أفلا يتعظون بها فيرجعوا إلى الاعتصام بهذا الدين؟ أم هم في شك منها فلا يؤمنون بأنها واقعة لا محالة؟

* * *

٣ - اتهامهم رسول الله ﷺ بالظلم

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[التوبة: ٥٨- ٥٩].

بيان من نزل فيه النص:

١ - أخرج الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي[1]، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.. قال: فنزلت فيه ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[2].

وقوله رضي الله عنه بينا النبي ﷺ يقسم «قال ابن حجر: زاد أفلح بن عبد الله في روايته «يوم حنين»[3].

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفه من حنين..»[4]. وذكر نحو حديث أبي سعيد المتقدم. ولم يصرح باسمه في هذه

---

(١) هكذا جاء اسمه هنا، والمشهور في كتب السيرة أنه ذو الخويصرة وهو رجل واحد فلعله اشتهر بهذا الاسم فاكتفى بعض الرواة بذلك عن نقل اسمه كاملاً.

(٢) صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج (فتح الباري ١٢/ ٢٩٠).

(٣) فتح الباري ١٢/ ٢٩٢.

(٤) صحيح مسلم كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج (٧٤٠).

الرواية ولكن جاء مصرحًا به في رواية ابن إسحاق حيث قال: وحدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثي حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص وهو يطوف بالبيت، معلقًا نعله بيده فقلنا له هل حضرت رسول الله ﷺ حين كلمه التميمي يوم حنين؟ قال:نعم، جاء رجل من بني تميم يقال له ذو الخويصرة[1] .. وذكر نحو حديث أبي سعيد.

وقت نزول هذا النص:

يتبين وقت نزول هذا النص بمعرفة الواقعة التي نزل بسببها النص، وقد نزل بسبب الاعتراض على قَسم قسمه النبي ﷺ يوم أن قسم غنائم حنين، وكان ذلك في الجعرانة بعد رجوع النبي ﷺ من غزوة الطائف، وذلك في شهر ذي القعدة من السنة الثامنة، فقد ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ اعتمر من الجعرانة بعد أن قسم غنائم حنين، قال وكانت عمرة رسول الله ﷺ في ذي القعدة[2]. وحدده ابن حجر بأنه في خامس ذي القعدة[3].

تصوير الموقف الذي فيه النص:

عندما سار النبي ﷺ لقتال هوازن وثقيف يوم حنين كان معه عدد من زعماء مكة وزعماء القبائل العربية، وكان بعضهم قد آمن بالإسلام إيمانًا ضعيفًا، وبعضهم لم يؤمن بعد، فلما نصر الله نبيه ﷺ على أعدائه وظفر منهم بالغنائم العظيمة أعطى عددًا من وجوه قريش ووجوه بعض القبائل العربية عطايا كبيرة يتألفهم بذلك للإسلام.

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧٢، وإسناده حسن كما قال ابن حجر في الفتح ١٢/ ٢٩١.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧٨ - ١٧٩.

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٨.

وقد ذكر ابن إسحاق عددًا ممن أعطاهم النبي ﷺ، فممن ذكر من أشراف قريش أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وممن أعطي من زعماء القبائل العربية عيينة بن حصن زعيم بني فزارة، والأقرع بن حابس زعيم بني تميم وعباس بن مرداس زعيم بني سليم، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل، وأعطى دون ذلك أناسًا آخرين[1].

وهل كان إعطاء النبي ﷺ هؤلاء المؤلفة قلوبهم من أصل الغنيمة أم من الخمس؟ على قولين:

الأول: أنه من الخمس وبهذا قال القرطبي حيث قال في «المفهم»: الإجراء على أصول الشريعة أن العطاء المذكور كان من الخمس، ومنه كان أكثر عطاياه، وقد قال في هذه الغزوة للأعرابي «مالي مما أفاء الله عليكم إلاَّ الخمس والخمس مردود فيكم» أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو،ذكره ابن حجر[2].

الثاني: أنه من أصل الغنيمة وقد اختاره ابن حجر وقال هو المعتمد، واستشهد لذلك بما وقع في رواية الزهري عن أنس رضي الله عنه «فقالوا يغفر الله لرسوله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم» وبما في رواية هشام بن زيد عن أنس «إذا كانت شديدة فنحن ندعَى ويُعطَى الغنيمة غيرنا» وقال في موضع آخر: وإسناده على شرط مسلم[3].

وبناء على هذا القول يكون تصرف النبي ﷺ في توزيع هذه الغنائم مبنيًا على مراعاته مصلحة الإسلام آنذاك، فهذا الحادث من باب السياسة الشرعية للأمر العارض،

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٦٥.

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٨.

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٨ – ٥٠.

وقد أقنع النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم الذين هم أصحاب الحق في ذلك المال بالتنازل عن حقهم، مراعاة لمصلحة الدعوة الإسلامية في تلك الفترة.

أما المنافقون فقد اتخذوا من ذلك وسيلة لعيب النبي ﷺ والطعن في عدالته، وانتهزوا هذه الفرصة لتشويه سمعته في ذلك المجمع العظيم، حيث اتهموه بالجور سرًّا وعلانية، فإن منهم من جهر بنقده وعيبه أمام الناس، كما سبق في خبر ذي الخويصرة التميمي، ومنهم من أسرَّ ذلك كما أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ ناسًا، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسًا، فقال رجل: ما أُريدَ بهذه القسمة وجه الله، فقلت: لأُخبرن النبي ﷺ، قال: رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1].

وقوله ﷺ فقال رجل «قال ابن حجر: في رواية الأعمش» فقال رجل من الأنصار «وفي رواية الواقدي أنه معتب بن قشير من بني عمرو بن عوف وكان من المنافقين[2].

ولقد ظهرت آثار ما قصده النبي ﷺ من تأليف الناس للإسلام، فممن أسلم بعد ذلك مالك بن عوف النصري سيد هوازن، وقد كان النبي ﷺ منَّ عليه بأهله وماله وأعطاه مائة من الإبل بعد أن وعده بذلك إن جاء مسلمًا، فأسلم وحسن إسلامه، وولاه النبي ﷺ على من أسلم من قومه فكان يقاتل بهم ثقيفًا، لا يخرج لهم سرح إلاَّ أغار عليه حتى ضيق عليهم كما ذكر ابن إسحاق[3] وذلك قبل أن يأتوا إلى المدينة مسلمين، وقد كان ذلك من أسباب انقيادهم للإسلام.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي باب غزوة الطائف، فتح الباري ٨/ ٥٥ صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (ص ٧٣٩).

(٢) فتح الباري ٨/ ٥٦.

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ١٦١.

وممن أسلم صفوان بن أمية، وكان قد طلب من رسول الله ﷺ يوم فتح مكة أن يجعله بالخيار في الإسلام شهرين فقال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر كما ذكر ابن إسحاق[١].

وقد قال عن نفسه بعدما أسلم: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ» أخرجه مسلم[٢].

بيان معنى النص:

قوله ﴿وَمِنْهُم﴾ أي ومن المنافقين كما يدل على ذلك سياق الآية، حيث إنها بين آيات المنافقين، وقد فضحهم الله سبحانه في هذه السورة سورة «التوبة» وهتك أستارهم كما رُوي عن سعيد بن جبير أنه قال: «سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل ومنهم ومنهم حتى خفنا أن لا تدع أحدا»[٣].

﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي يعيبك، وأصل اللمز الإشارة بالعين ونحوها[٤].

﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي في طريقتك في توزيعها فيتهمونك بالظلم.

والمراد بالصدقات -على ما ترشد إليه رواية الشيخين السابقة- غنائم حنين، والغنائم في الأصل ليست من الصدقات، وقد سبق الخلاف فيما أعطى النبي ﷺ منه المؤلفة قلوبهم هل هو من الخمس، أم من أصل الغنيمة، فإن كان من الخمس فلا إشكال لأنه مال غير مملوك لأحد، فهو داخل في الصدقات، وإن كان من أصل الغنيمة فلعل ذلك

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٥٠ – ٥١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا.. الخ (ص ١٨٠٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٦١.

(٤) الصحاح، القاموس المحيط.

لكونها لم تتعين لأحد معين، واجتهد النبي ﷺ في توزيعها كما سبق فصرفها مصرف الصدقات حيث أعطى منها المؤلفة قلوبهم، فلهذا سماها الله سبحانه بالصدقات.

ثم بين الله سبحانه أن هؤلاء المنافقين لم يصدروا في نقدهم هذا عن مقصد حسن ولا هدف نبيل، حيث راعوا مصالحهم الخاصة ولم يراعوا المصلحة العامة، فقال تعالى ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ فمدار الرضا والسخط عندهم إنما هو في إعطائهم أو حرمانهم، فالذي عابوه في ذلك القَسْمِ هو حرمانهم مما أُعطي منه غيرهم لا مجرد وقوع الخطأ في القسمة من حيث هو.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ قليلاً كان أو كثيرًا فاقتنعوا بما كتب الله لهم من الخير وبما يعطيهم النبي ﷺ من المال الذي يرى أنهم مستحقون له، ولم يتطلعوا إلى ما وراء ذلك مما غيرهم أحق به منهم ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا الله إيمانًا به ورضًا بقضائه أعطينا أو لم نعط ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من رزقه الواسع الذي يتفضل به على عباده ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مما أفاء الله عليه باعتباره مُنفِّذًا لشريعة الله بينهم.. لو أنهم رضوا بذلك وقالوا ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لا إلى غيره، لكان خيرًا لهم من عيبهم الرسول فيما رأوه غير لائق به مما يجهلون حقيقته.

ثم بين سبحانه بعد ذلك أن المؤلفة قلوبهم لهم حق في الصدقات كغيرهم ممن يستحقون الصدقة، فقال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٤- المنافقون في غزوة تبوك

النص القرآني في ذلك:

١- الدافع الحقيقي لإقدامهم على الجهاد وإحجامهم عنه:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة: ٤٢- ٤٥].

٢- تثبيط الله إياهم عن الخروج والحكمة في ذلك:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[التوبة: ٤٦ - ٤٨].

٣- مثل من أعذارهم الكاذبة:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[التوبة: ٤٩].

٤- استياؤهم من انتصار المؤمنين واغتباطهم بهزيمتهم:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٠-٥٢].

٥- بيان عدم انتفاعهم بأعمالهم والسبب في ذلك:

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ۝ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: ٥٣-٥٥].

٦- كشف نفاقهم وبيان الباعث عليه:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[التوبة:٥٦- ٥٧].

٧- استهزاؤهم بالله ورسوله والمؤمنين:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٧٠].

٨ - سخريتهم بالمؤمنين في الصدقات:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: ٧٩].

٩ - تثبيطهم عن الخروج للجهاد في سبيل الله:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟

يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ [التوبة:٨١-٨٣].

١٠ - استئذانهم في القعود بلا مُسوِّغ:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا

ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٨٦ - ٩٦].

بيان من نزل فيه النص:

١- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ الآية. قال ابن إسحاق: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ يذكر أهل النفاق ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾... وذكر الآيات الى قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ ثم قال: وكان الذين استأذنوه من ذوي الشرف فيما بلغني منهم، عبد الله بن أبيّ ابن سلول والجدّ بن قيس وكانوا أشرافًا في قومهم[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ الآية:

أخرج الطبراني في الكبير والأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك[٢] قال للجد بن قيس: ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ قال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن أفتأذن لي في الجلوس ولا تفتني فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ

(١) السيرة النبوية ٤/ ٢٦١ - ٢٦٣.

(٢) تبوك موضع بين المدينة والشام وهي تبعد عن المدينة بحوالي عشرين وأربعمائة ميل.

سَقَطُواْ ﴾. ذكره ابن حجر الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف[١] وقد ذكر هذا الأثر ابن إسحاق في السيرة[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الآية.

أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمدًا وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعاقبة النبي ﷺ وأصحابه فساءهم ذلك، فأنزل الله ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الآية، ذكره السيوطي بلا سند[٣].

٤- قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الآية.

أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس ﷺ أنه قال: قال الجد بن قيس: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالي، قال: ففيه نزلت ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ قال: لقوله «أعينك بمالي»[٤].

والجهاد بالمال مشروع وهو أحد أقسام الجهاد لقول رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» ذكره الحافظ السيوطي من رواية الأئمة أحمد وأبي داود والنسائي، وصححه الشيخ الألباني رحمهم الله تعالى[٥] ولكن الله تعالى ذكر أنه

---

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٣٠.

(٢) السيرة النبوية ٤/ ١٩٦.

(٣) لباب النقول/ ١٧.

(٤) جامع البيان ١٠/ ١٥٢.

(٥) صحيح الجامع الصغير، رقم (٣٠٨٥).

لن يقبل من المنافقين نفقتهم في الجهاد لأنهم لم يريدوا بها وجهه عز وجل، وإنما أرادوا قبول عذرهم في ترك الجهاد بالنفس الذي كان فرض عين في ذلك الخروج حيث أمر النبي ﷺ كل قادر بالخروج للجهاد، والإخلاص لله تعالى شرط أساسي لقبوله.

٥- قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

قال ابن إسحاق:وكان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشِّن بن حُمَيِّر-قال ابن هشام:ويقال مخشي- يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا! والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنَّا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

قال ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فان أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت -ورسول الله ﷺ واقف على ناقته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله إنا كنا نخوض ونلعب فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، وقال مخشِّن بن حميِّر: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، وكان الذي عُفي عنه في هذه الآية مخشن بن حمير فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله تعالى أن يقتل شهيدًا لا يُعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٢.

أخرج ابن جرير الطبري رحمه الله من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس[1]: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[2].

وأخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال في هذه الآية: بينما رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها!! هيهات فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال نبي الله ﷺ «احبسوا عليَّ الركب» فأتاهم فقال: «قلتم كذا قلتم كذا» قالوا يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون[3].

ومن هذه الروايات يتبين لنا أن هذه الآيات نزلت بسبب كلام صدر من بعض المنافقين قالوه على سبيل الاستهزاء بهذا الدين وأنصاره المؤمنين به، فكشفهم الله جل وعلا بهذه الآيات.

٦- قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

---

(١) هو عوف بن مالك رضي الله عنه كما هو معين في رواية أخرى أخرجها الطبري عن زيد بن أسلم (١٠/ ١٧٢).

(٢) جامع البيان (١٠/ ١٧٢).

(٣) جامع البيان (١٠/ ١٧٢).

أخرج الشيخان عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال «لما أُمِرْنا بالصدقة كنا نتحامل[1]، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء، فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية»[2].

٧- قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ الآية؟

قال ابن جرير حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ قال: كان منهم عبد الله بن أُبَيّ والجد بن قيس فنعى الله ذلك عليهم[3] وفي رواية ابن هشام عن ابن إسحاق: «وكان ابن أبيّ من أولئك فنعى الله ذلك عليه وذكره منهم»[4].

٨ - قوله تعالى ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ الآية.

أخرج ابن هشام عن ابن إسحاق في قوله تعالى ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أنه قال: وكان المعذرون فيما بلغني نفرًا من بني غفار منهم خفاف بن أيماء بن رحضة[5].

---

(١) قوله (نتحامل) أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة – فتح الباري (٨/ ٣٣١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ -فتح الباري (٨/ ٣٣٠)– صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب التصدق بأجرة الحمل (ص٧٠٦).

(٣) جامع البيان (١٠/ ٢٠٧).

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٧٠.

(٥) المرجع السابق ٤/ ٢٧٠.

٩ - قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الآيتان:

أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﵄ أنه قال في قوله تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ إلى قوله ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: والله ما أجد ما أحملكم عليه فتولوا ولهم بكاء، وعزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال ابن إسحاق في سياقه لغزوة تبوك: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم ابن عمير، وعُلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن ابن النجار، وعمرو بن حمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المزني -وبعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزني- وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألاَّ يجدوا ما ينفقون[2].

---

(١) جامع البيان ١٠/ ٢١١.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١٩٩ – ٢٠٠.

وقت نزول النص:

هذه الآيات في غزوة تبوك، وهذه الغزوة كانت في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة كما ذكر ابن هشام[١] فتكون هذه الآيات مما نزل في ذلك الوقت.

تصوير الموقف:

هذه الآيات قد نزلت في غزوة تبوك كما سبق في بيان من نزل فيه النص، وقد أخرج ابن هشام خبر هذه الغزوة عن ابن إسحاق قال: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين الحجة إلى رجب -أي من سنة تسع- ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وقد ذكر لنا الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم من علمائنا، كلٌّ حدَّث في غزوة تبوك ما بلغه عنها، وبعض القوم يحدّث مالا يحدّث بعض: أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلاَّ كنَّى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبُعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يعمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم.

ثم ذكر خبر تثبيط بعض المنافقين عن رسول الله ﷺ كاستئذان بعضهم في القعود وقولهم لا تنفروا في الحر[٢].

قال: ثم إن رســول الله ﷺ جد في سفره وأمر الناس بالجهاز والانكماش[٣] وحضَّ

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٩٥.

(٢) سبق ذكر هذه الآثار في بيان من نزل فيه النص.

(٣) الانكماش السرعة كما ذكر في القاموس.

أهل الغنى على النفقة والحُملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة.

قال: وخلَّف رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلَّفه إلاَّ استثقالاً له تخففًا منه، فلما قال ذلك المنافقون، أخذ عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف[1] فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني فقال: «كذبوا ولكني خلفتك لِمَا تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلاَّ أنه لا نبي بعدي» فرجع عليٌّ إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره[2].

ومع هذه الظروف العسيرة التي أحاطت بهذه الغزوة فقد سارع المؤمنون جميعًا إلى الخروج مع النبي ﷺ، حتى بلغ شوق المؤمنين للخروج حدًّا جعل بعض الفقراء منهم يبكون أسفًا حينما لم يجدوا ما يركبون عليه، ولم يجد لهم النبي ﷺ ما يحملهم عليه.

ولم يتخلف من المؤمنين الصادقين غير أولي الأعذار إلاَّ عشرة نفر فيما ذُكر، كما أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع النبي ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي ﷺ إذا رجع في المسجد عليهم فلما رآهم قال: من

---

(١) الجرف على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام كما في معجم البلدان.

(٢) السيرة النبوية ٤/ ١٩٥ - ٢٠٣.

هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله وحلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى تطلقهم وتعذرهم، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن بالله لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وعسى من الله واجب، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم[(١)].

أما الثلاثة الباقون فهم الذين اشتهر ذكرهم في حديث كعب بن مالك، الذي أخرجه الشيخان وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية[(٢)].

وقد تخلف أيضًا أبو خيثمة أول الأمر ولكنه ندم بعد ذلك فلحق بالنبي ﷺ وهو نازل بتبوك وقد ذكر ابن هشام في السيرة خبره عن ابن إسحاق[(٣)].

أما المتخلفون غير هؤلاء ممن ليس لهم عذر فكانوا من المنافقين، وقد ذكر كعب بن مالك في حديثه الذي سبقت الإشارة إليه أن الذين جاءوا يعتذرون من النبي ﷺ ويحلفون له كانوا بضعة وثمانين رجلا.

هذا وليس كل المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بل خرج معه منهم طائفة قليلة، ولكنهم مع قلتهم قد جرت منهم أحداث شنيعة، تدل على مقدار عداوتهم للإسلام

---

(١) جامع البيان ١١/ ١٢ – ١٣.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب ٧٩ (فتح الباري ٧/ ١١٣). صحيح مسلم كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك (ص ٢١٢٠).

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٤.

وكيدهم للمسلمين، ومن ذلك ما تقدم في بيان من نزل فيه النص من خبر المستهزئين الذين قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء، فنزل القرآن بفضيحتهم وخزيهم، ومن ذلك أحداث أخرى لم ينزل بها قرآن كخبر أصحاب العقبة الذين أرادوا الفتك بالنبي ﷺ، فأنجاه الله منهم ورد كيدهم في نحورهم، وقد روى خبرهم الإمام أحمد عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديًا فنادى: أن رسول الله ﷺ آخذ العقبة فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوق به عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل حتى غشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله لحذيفة «قد قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار هل عرفت القوم» فقال: قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال: «هل تدري ما أرادوا»، قال:الله ورسوله أعلم قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه»[1].

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: واه أحمد ورجاله رجال الصحيح[2].

وهذه الحادثة تدلنا على أنهم قد بذلوا نهاية ما في جعبتهم من المحاولات لأجل القضاء على الإسلام والمسلمين، وذلك بمحاولة إهلاك النبي ﷺ بعدما حاولوا صرف الناس عن الدين بمختلف الوسائل، فباءت محاولاتهم كلها بالفشل وظهر أمر الله وهم كارهون.

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٤٥٣.

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥.

ومما جرى من المنافقين في هذه الغزوة اتهامهم رسول الله ﷺ بالكذب في خبر السماء حيث ضلت ناقته ولم يدر أين هي، وقد أخرج ابن هشام عن ابن إسحاق هذا الخبر حيث قال: ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته فخرج أصحابه في طلبها وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له عمارة بن حزم وكان عَقَبيًا بدريًـا[1] هو عم بني عمرو بن حزم وكان في رحله زيد بن اللُّصَيت القينقاعي وكان منافقًا.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رجال من بني عبد الأشهل قالوا: فقال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة عند رسول الله ﷺ: ليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟! فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلاَّ ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستْها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: والله لعجب من شيء حدثَنَاه رسول الله ﷺ آنفًا عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا للذي قال زيد بن اللصيت فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد يجاني عنقه ويقول: إليَّ عباد الله إن في رحلي لداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي فلا تصحبني[2].

ومن هذه الحادثة ندرك كيف كان المنافقون يستغلون الفرص لتشويه دعوة النبي ﷺ وصد الناس عن الإيمان به واتِّباعه. ولكن سرعان ما ينزل الوحي كاشفًا أمرهم محبطًا مساعيهم.

---

(١) أي قد شهد بيعة العقبة الثانية ومعركة بدر.

(٢) السيرة النبوية ٤/ ٢٠٩ – ٢١٠.

وكانوا على الرغم من قلة عددهم يتجرؤون على مخالفة أوامر النبي ﷺ، كما أخرج ابن هشام عن ابن إسحاق قال: وكان في الطريق ماء يخرج من وشل[1] ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة، بواد يقال له وادي المشقق فقال رسول الله ﷺ: من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقينَّ منه شيئًا حتى نأتيه، قال فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير شيئًا، فقال: من سبقنا إلى هذا الماء فقيل له: يا رسول الله فلان وفلان فقال: أَوَلَمْ أنههم أن يستقوا منه شيئًا حتى آتيه! ثم لعنهم رسول الله ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب ثم نضحه به ومسحه بيده ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به، فانخرق من الماء -كما يقول من سمعه- ما إنَّ له حسّا كحسِّ الصواعق فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله ﷺ: لئن بقيتم أو من بقي منكم لتسمعُنَّ بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه[2].

وها نحن قد رأينا هؤلاء المنافقين الذين ساروا مع النبي ﷺ إلى تبوك قد وقعت منهم على قلتهم نحو النبي ﷺ والمؤمنين أحداث جسيمة، من سخرية واتهام بالكذب والجبن ومخالفة للأوامر.

وهذه الأحداث مما يكشف مدى عداوتهم للإسلام وأهله؛ ولكن رب ضارة نافعة، فلقد ظهرت بسببها على يد النبي ﷺ معجزات تقف شاهدًا على صدقه فيما يخبر به عن الله، وإن فيها لعبرة لمن أراد أن يعتبر وإقناعًا لمن أراد أن يقتنع.

وإذا كانت هذه الأحداث قد جرت من فئة قليلة منهم؛ فكيف لو خرجوا كلهم وفيهم سادتهم كابن أبيّ والجد بن قيس؟ وصدق الله إذ يقول: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

---

(١) الوشل الماء القليل كما ذكر في النهاية.

(٢) السيرة النبوية ٤/ ٢١٧ – ٢١٨.

بيان مفردات النص:

سفرًا قاصدا: القاصد هو القريب، يقال بيننا وبين الماء ليلة قاصدة أي هينة السير[١] وقيل هو المتوسط غير متناهي البُعد[٢].

الشقة: هي الناحية التي تلحقك المشقة في الوصول إليها وفي حديث عبد القيس «إنا نأتيك من شقة بعيدة»[٣].

ثبطهم: أي عوقهم وبطأ بهم وحبسهم[٤].

ولأوضعوا خلالكم: أي أسرعوا بينكم، والإيضاع نوع من سير الإبل وهو السير السريع، يقال: أوضعت الناقة أي أسرعت في سيرها[٥].

فاسقين: الفسق في الأصل الخروج، يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره، والفسق في الاصطلاح الشرعي: الخروج عن طاعة الله تعالى، ويقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تُعورف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها، وإذا أطلق على الكافر الأصلي فلأنه أخل بحكم مما ألزمه العقل واقتضته الفطرة[٦].

تزهق أنفسهم: أي تخرج أرواحهم[٧] وقيل زهوق النفس خروجها من الأسف على الشيء[٨].

---

(١) القاموس المحيط. لسان العرب.

(٢) المفردات في غريب القرآن.

(٣) المفردات في غريب القرآن، النهاية في غريب الحديث.

(٤) القاموس المحيط، المفردات.

(٥) نفس المرجعين السابقين.

(٦) القاموس المحيط، المفردات.

(٧) لسان العرب، القاموس المحيط.

(٨) المفردات في غريب القرآن.

يَفْرقون: الفَرَق هو الخوف، واشتقاقه من التفرق، قال الراغب في المفردات: والفرق تفرق القلب من الخوف، واستعمال الفرق فيه كاستعمال الصدع والشق فيه.

ملجأ: الملجأ المعقل والملاذ كالحصون المنيعة[١].

مغارات: المغارات الكهوف، من الغور وهو القعر من كل شيء[٢].

مُدَّخلا: المدَّخل ما يُدخل فيه مما يشبه الغار[٣].

وقد أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح وعن قتادة من طريق ابن أبي عروبة أنهم فسروا الملجأ بالحصون، والمغارات بالغيران، والمدَّخل بالأسراب.

يجمحون: الجموح الإسراع، ومنه قيل فرس جموح إذا ذهب في عَدْوه فلم يثنه شيء[٤].

مجرمين: الجرم هو الذنب، وأصله قطع الثمرة عن الشجر، واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه[٥].

نسوا الله: النسيان يأتي بمعنى الغفلة عن الشيء ويأتي بمعنى تركه، فمن الأول النسيان المعروف الذي هو عدم التذكر، ومن الثاني النِّسْي وهو ما سقط من منازل المرتحلين من رذال أمتعتهم فيقولون: تتبعوا أنساءكم، كما ذكر ابن فارس، وقد اعتبر من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٦].

---

(١) القاموس، لسان العرب.

(٢) نفس المرجعين السابقين.

(٣) نفس المرجعين السابقين.

(٤) تفسير غريب القرآن / ١٨٨، المفردات، لسان العرب.

(٥) المفردات، القاموس المحيط.

(٦) مقاييس اللغة.

خلاقهم: الخلاق هو النصيب الوافر من الخير وأصله ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه[١].

وخُضْتم: الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ويستعار في الأمور، وأكثر ما ورد في القرآن فيما يُذم الشروع فيه[٢].

كالذي خاضوا: ذكر المفسرون في معنى الذي في الآية أربعة احتمالات:

أولاً: أن المراد بها الذين فحذفت نونه تخفيفًا، كما في قول الشاعر:

وأن الذي حانت بفَلْج دماؤهم هـمُ القوم كل القوم يا أم خالد

ثانيًا: أن تكون «الذي» صفة لمفرد اللفظ مجموع المعنى كالفوج والفريق، فلوحظ في الصفة اللفظ وفي الضمير المعنى.

ثالثًا: أن تكون صفة لمصدر محذوف أي كالخوض الذي خاضه، قال الألوسي: ورُجّح بعدم التكلف.

رابعًا: أن تكون مصدرية قاله الفراء وخرّج هذا عليه أي كخوضهم، قال الألوسي: وهو كما قال أبو البقاء نادر، ذكر هذه الأوجه الألوسي، وقدم الأول كما قدمه الزمخشري[٣].

المطَّوّعين: أصله المتطوعين فادغمت التاء بالطاء، من التطوع قال الراغب: والتطوع في الأصل تكلف الطاعة. وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم كالتنفل[٤]. بمقعدهم خلاف رسول الله: أي بقعودهم بعده كما قال الحارث بن خالد:

---

(١) القاموس المحيط، المفردات.

(٢) نفس المرجعين السابقين.

(٣) روح المعاني ١٠/ ١٣٤، الكشاف ٢/ ٢٠١.

(٤) المفردات في غريب القرآن.

عقب الربيع خلافهم فكأنما بسط الشواطب حولهن حصيرا

ذكره أبو عبيدة وقال: والشواطب هن اللاتي يشطبن سحاء الجريد ثم يصبغنه ويصبغن منه الحصر[١].

المعنى: جاء الربيع بعد ما رحلوا، حتى أشبهت الأرض قطعة من الحصير المخضب.

بيان معنى النص:

بعد أن عاتب الله سبحانه المؤمنين على تباطؤ بعضهم في الخروج مع رسول الله ﷺ لما استنفرهم لقتال الروم في غزوة تبوك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وبعد أن أمرهم سبحانه بالنفور إلى الجهاد على أي حال من الأحوال بقوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ذكر المتخلفين من المنافقين، والأسباب التي دعتهم إلى التخلف، والأعذار الكاذبة التي انتحلوها ليتقوا بها غضب النبي ﷺ وانتقامه منهم، فقال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ أي لو كان ما تدعوهم إلى الخروج اليه متاعًا من متاع الدنيا الذي يعرض ثم يزول مما هو قريب المنال سهل المأخذ ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ أي إلى موضع غير بعيد ولا شاق ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ فساروا معك ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ أي ولكن رأوا ما أمرتهم بالخروج إليه مكانًا بعيدًا يشق عليهم الوصول إليه، إضافة إلى ما وافق ذلك من شدة الحر، وأوان نضوج الثمار.

﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ لكم أيها المؤمنون إذا رجعتم إليهم قائلين ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا﴾ أي لو استطعنا الخروج باكتمال وسائله فينا ﴿لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ للجهاد في سبيل الله، فما

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٦٤.

عاقبة أمرهم؟ ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي يوردونها موارد الهلاك في الوقت الذي كانوا يسعون فيه لنجاتها بتخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، وحلفهم بالله كاذبين في اعتذارهم من ذلك التخلف، وذلك لتفكيرهم الخاطئ وظنهم القاصر، في أن النجاة من شدائد الدنيا هو الفلاح، والوقوع فيها هو الهلاك، وما عرفوا أنهم بذلك قد استبدلوا متعة عاجلة بنعيم خالد، واتقوا شدائد الدنيا العارضة الزائلة ليبوءوا بعذاب الآخرة الدائم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في حلفهم على عدم استطاعة الخروج، وذلك لتوافر وسائله لديهم من الصحة والمال، وعدم وجود الأعذار المانعة فلن يفلتوا من عذاب الله.

ثم عاتب الله سبحانه نبيه ﷺ في إذنه للمستأذنين في التخلف؛ قبل أن يتبين الصادق منهم من الكاذب، فقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي تجاوز الله عما كان منك من المبادرة إلى الإذن للمستأذنين في التخلف، وكان الأولى أن تتريث في ذلك ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في اعتذارهم بقيام البينة الشاهدة على صدقهم، وذلك فيما إذا خرجوا مع ما بهم من العذر إذا لم تأذن لهم في التخلف ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بقيام القرائن على كذبهم في اعتذارهم، حيث سيتخلفون سواء أذنت لهم بالتخلف أو لم تأذن لهم بذلك، كما أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ناس قالوا: استأذِنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا[1].

وإنما استأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف مع عزمهم على القعود، سواء أذن لهم أو لم يأذن لهم، لأنهم يطمعون في إذنه لهم فيكون ذلك مسوغًا لهم في القعود.. وقد صدّر

(١) جامع البيان ١٠/ ١٤٢.

سبحانه هذا العتاب بالعفو عن نبيه ﷺ لأن تصرفه هذا كان عن اجتهاد منه، ولم يخطئه الله تعالى في إذنه لهم مطلقًا، وإنما عاتبه في كيفية هذا الإذن، حيث بين له أن الأولى أن يتريث في الإذن لهم قليلاً حتى ينكشف أمرهم.

ثم بين سبحانه وتعالى أن الاستئذان في القعود عن الجهاد ليس من أخلاق المؤمنين، وإنما هو من أخلاق المنافقين، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ في القعود كراهة ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾، الذين يخافون الله فلا يستأذنون في القعود عن الجهاد إلاَّ من عذر يجبرهم على القعود، وسيجازيهم أفضل الجزاء.

وقيل إن المعنى لا يستأذنك المؤمنون في الإقدام على الجهاد، بل يبادرون إليه بلا استئذان، فضلاً عن أن يستأذنوا في التخلف عنه، وبذلك قال الزمخشري وأبو السعود[1] والقول الأول قال به الطبري وابن كثير[2] وهو الراجح لدلالة السياق عليه حيث قال تعالى قبل هذه الآية ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي في التخلف وقال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ يعني في التخلف أيضًا، فيدل هذا على أن المراد بالمستأذن به في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ هو التخلف عن الجهاد، ولأن الذي أثبته الله سبحانه وتعالى للمنافقين يجب أن يكون هو الذي نفاه عن المؤمنين، والذي أثبته تعالى للمنافقين هو الاستئذان في التخلف عن الجهاد، باتفاق المفسرين فيجب أن يكون هو الأمر الذي نفاه الله عن المؤمنين بعينه.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٩٢، إرشاد العقل السليم ٥٧٧/ ٢.

(٢) جامع البيان ١٠/ ١٤٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٦.

ثم ذكر سبحانه أن القعود عن الجهاد في سبيل الله إنما هو من أخلاق المنافقين، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في القعود عن الجهاد ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ وذلك لأنهم لو آمنوا بالله حقًّا لجاهدوا الكفار من أجله، ولو آمنوا باليوم الآخر لعرفوا عاقبة الإقدام على الجهاد في سبيل الله وعاقبة القعود عنه، ولَمَا قدَّموا اتقاء ما يتوقعونه من الألم البسيط المنقطع في الدنيا على اتقاء ما يتحققونه من الألم الهائل الدائم في الآخرة، ولما قدَّموا ما يحلمون به من النعيم القليل الزائل في الدنيا على ما ينتظرونه من النعيم العظيم الخالد في الآخرة، ولكنهم لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر حقًّا فلذلك قعدوا عن الخروج في سبيل الله وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكت في صحة ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ من الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتقلبون متحيرين لأن الذي يعيش في الشك يكون مترددًا حائرًا بخلاف الذي يعيش في اليقين، فإنه يستهين بكل شيء في سبيل خدمة مبدئه الذي آمن به، فيقْدم على الجهاد في سبيله وإن كان في ذلك حرمانه من نعيم الدنيا، وتعريض نفسه للمهالك.

ثم بين سبحانه الدليل الظاهر الذي يبين عزمهم على القعود سواء أُذن لهم فيه أم لا، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي ولو أرادوا الخروج إلى الجهاد معكم لهيئوا الاستعداد اللازم لذلك، من الزاد والراحلة والسلاح كما يفعل المؤمنون.

أما الباعث الحقيقي لعزمهم على القعود فهو أن الله سبحانه قد حال بينهم وبين الخروج بما ألقاه في قلوبهم، بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي كره خروجهم معكم للغزو في سبيل الله، لما يعلمه سبحانه من المفاسد العظيمة التي تترتب

على خروجهم معكم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي عوقهم عن الخروج حتى استثقلوه فلم يريدوه، وذلك ببث الرعب في قلوبهم، وتركيز مانع الخروج في نفوسهم، كبُعد الشقة وشدة الحر وطيب الثمار.

﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ أي وألقى الله في قلوبهم كراهة الخروج فكأنما قيل لهم اقعدوا مع الذين لا يستطيعون القتال، كالمرضى والمسنين والنساء والصبيان، ولهذا جاء التعبير بصيغة المبني للمجهول لأنه لم يكن قول ولا خطاب، بل مثّل سبحانه حالهم في استجابتهم للتثبيط بحال من قيل له اقعد مع القاعدين[١].

ثم بيّن سبحانه الفساد المترتب على خروجهم لو خرجوا بقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلاّ فسادًا وضررًا في جيشكم، من إثارة الخوف فيكم، وتوهين عزائمكم، وتحريك الفتن بينكم، والفرار عند اللقاء لإيقاع الفشل بينكم، فلا ينتظر من زيادة عددكم بهم لو خرجوا أن تزداد قوتكم، لأنهم سيكونون عامل إفساد وتخريب في جيشكم[٢].

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ أي ولأسرعوا بينكم حال كونهم ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون فتنتكم عن الجهاد في سبيل الله، بإلقاء الرعب في قلوبكم من أعدائكم، وإيقاع الخلاف بينكم.

---

(١) وقيل إن هذا القول صادر من الشيطان بالوسوسة وقيل إنه قولهم لأنفسهم وقيل هو إذن رسول الله ﷺ لهم بالقعود، ذكر ذلك الزمخشري واختار أن الآية على سبيل التمثيل حيث جُعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمرًا بالقعود -الكشاف ٢/ ١٩٣- وهذا هو الراجح لتناسبه مع صدر الآية حيث ذكر فيها أن الله سبحانه هو الذي ثبطهم.

(٢) مضى تفسير الخبال في اللغة في ص ١٧٨.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي يسمعون كلام هؤلاء المنافقين لو خرجوا معكم فيتأثرون به، وبذلك قال قتادة كما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة[١] وإليه ذهب ابن إسحاق كما أخرج عنه ابن هشام أنه قال: وكان الذين استأذنوه من ذوي الشرف فيما بلغني منهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، والجد بن قيس وكانوا أشرافًا في قومهم فثبطهم الله -لعلمه بهم- أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، فقال تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[٢].

وقيل إن معنى قوله ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ﴾ عيون لهم غير منافقين، ينقلون كلامكم إليهم، وبذلك قال مجاهد كما أخرجه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نجيح[٣].

والقول الأول أرجح لأنه هو المناسب لسياق الآيات فإن المراد بهذه الآية بيان أن خروج أولئك المنافقين الذين تخلفوا له أثر بالغ في إضعاف جيش المؤمنين، فالمناسب لهذا بيان أن في الجيش الإسلامي ضعفاء الإيمان، يتأثرون بكلام أولئك المنافقين، لأنه لو كان جميع المؤمنين على درجة قوية في الإيمان لم يستطع أولئك المنافقون أن يؤثروا فيهم، إضافة إلى أن المؤمنين ما كانوا يستخْفون بكلامهم عن المنافقين، نظرًا لأن المنافقين غير معروفين كلهم بأعيانهم، ولعدم الحاجة إلى ذلك الاستخفاء فليس هناك ما يُستخفَى به إلاَّ أسرار الحرب، وهذه لم يكن النبي ﷺ يظهرها إلاَّ للخلص من أصحابه من أهل الرأي، فليس هناك إذًا ما يدعو المنافقين إلى اتخاذ عيون لهم بين المؤمنين.

(١) جامع البيان ١٠/ ١٤٦.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٦٣.

(٣) جامع البيان ١٠/ ١٥٤.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله، وإرادتهم الإفساد بالصد عن دين الله والتخذيل عن الجهاد في سبيله، والمراد بهم المنافقون الذين سبق ذكرهم، وجاء التعبير بالظالمين ولم يأت بالضمير لبيان أن ما يصدر منهم من ذلك يعتبر ظلمًا، فالله عالم بهم وسيجازيهم على أعمالهم، فلا يظنوا أن أمرهم سيخفى على الله كما خفي على الناس.

ثم بين سبحانه أن محاولة أولئك المنافقين فتنة المؤمنين لو خرجوا معهم ليس أمرًا جديدًا في حياتهم مع المؤمنين، ولا غريبًا على سلوكهم معهم، بل قد سبق أن حاولوا ذلك معهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي لقد حاولوا صرف المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله من قبل هذه الغزوة بشتى الوسائل، وذلك بنشر الرعب، وتخويف المؤمنين من قوة أعدائهم، وخيانتهم لهم في أحرج المواقف كما حدث من عبد الله بن أبيّ حينما انخزل بثلث الجيش الإسلامي في معركة أحد، بعدما أوشك المؤمنون على مواجهة عدوهم، وكما تسلل أولئك المنافقون من جيش المؤمنين وهم محاصرون في الخندق، وقصدهم من ذلك إحداث الفشل في المؤمنين، حتى يتفرقوا عن رسول الله ﷺ فينهزم بعد ذلك، وتكون الدولة للكفار ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي حرفوها على مختلف وجوهها ليعلموا منها ما يؤثر عليك وعلى دعوتك فتنقّلوا في ذلك من أمر إلى أمر، فكلما دبروا خطة للقضاء عليك وعلى دعوتك فلم تنجح انتقلوا إلى تدبير خطة أخرى، حاولوا خذلانك في وقت الشدائد أمام أعدائك، ففشلوا ونصرك الله على أعدائك، وحاولوا إثارة العصبية بين أتباعك فلم يفلحوا في التفريق بينهم، وحاولوا تشويه سمعتك في أخطر الجوانب التي تنفر الناس عنك، ألا وهو جانب العرض فلم ينجحوا في ذلك، ولا زالوا في تقليب تلك المحاولات معك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي حتى تحقق نصر الله الذي وعدك

به فانتصرت على أكبر أعدائك المناوئين لك وهم كفار مكة، ودانت لك قبائل العرب ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي غلب دينه واعتز، حتى دخل الناس فيه أفواجًا ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ أي والحال أنهم كارهون لانتصارك وظهور دعوتك ومجتهدون في إخمادها.

ثم ذكر سبحانه مثلاً من أمثلة الاعتذار الكاذب التي صدرت من المنافقين في غزوة تبوك فقال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ أي ومن المنافقين الذين كُشف أمرهم في هذه السورة من يقول لك أيها الرسول ائذن لي في القعود عن الجهاد ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ بالتعرض لنساء الروم فيما إذا خرجت معك، فتوقعني في الإثم المؤدي للعذاب[1]، وقيل المعنى لا توقعني في المعصية والإثم بمخالفة أمرك في الخروج إلى الجهاد، رُوي هذا عن الحسن وقتادة واختاره الجبائي[2] والزمخشري[3] وقيل المراد بالفتنة الضرر أي لا توقعني في الضرر فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي، لعدم وجود من يقوم بمصالحهم[4] وقال أبو مسلم: أي لا تعذبني بتكليف الخروج في شدة الحر[5].

والقول بأن المراد الافتتان بنساء الروم قال به الجمهور[6] وهو أرجح لما سبق في بيان من نزل فيه النص من قول الجد بن قيس للنبي ﷺ «أوَ تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد

(١) سبق تفسير الفتنة في اللغة.

(٢) روح المعاني ١٠/ ١١٣.

(٣) الكشاف ٢/ ١٩٤.

(٤) روح المعاني ١٠/ ١١٣.

(٥) المرجع السابق ١٠/ ١١٣.

(٦) انظر: مثلاً جامع البيان ١٠/ ١٤٨، الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٥٨، روح المعاني ١٠/ ١١٣.

عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر».

ثم أجابهم الله سبحانه عن هذا العذر الكاذب والشبهة المختلقة بقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي إذا كانوا قد فروا من الوقوع في الفتنة التي ادَّعوها، فقد وقعوا في فتنة محققة تؤدي بهم إلى العذاب، حينما تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآخرة، فكما أنهم أسقطوا أنفسهم في الفتنة في الدنيا؛ فجزاؤهم أن يسقطوا في نار جهنم المحيطة بهم من جميع الجوانب فلا يستطيعون الخروج منها، والتعبير عن المستقبل باسم الفاعل الدال على الحالِّ من باب تنزيل الآتي المحقق منزلة الواقع لثبوت سببه، وهو ارتكاب النفاق والاعتذار عن أداء الواجب.

وفي هذه الآية بيَّن الله سبحانه مثلاً من أمثلة المراوغة والمخادعة التي اتصف بها المنافقون واتخذوها عدة لهم للخروج من المآزق، فهذا الرجل المنافق الذي عرض عليه النبي ﷺ الخروج للقتال لم يجد عذرًا يخرج به من هذا المأزق، إلاَّ أن يزعم بأنه يخشى على نفسه من الوقوع في الإثم حينما يتعرض لنساء الروم، وهذا مما يدل على نفاقه إذ لو كان مؤمنًا حقًا لما تذكر نساء الروم والخوف من الافتتان بهن، ونسي المعاني السامية التي يبعثها الجهاد في نفس المؤمن، من الشعور بالسعادة والطمأنينة في إعلاء كلمة الله، ونيل الشهادة وهي أقصى ما تتمناه نفس المؤمن.

ولقد عرف النبي ﷺ نفاقه من اعتذاره هذا فأعرض عنه، ولو كان يعتقد صدقه لأرشده إلى أنه لا يجوز للمسلم أن يترك فرضًا من فروض الإسلام متعينًا عليه خوفًا من الوقوع في فتنة تنجم عن أداء هذا الفرض، والجهاد في تلك الغزوة كان فرض عين على

كل قادر بدعوة الإمام العام، فالاعتذار عن الخروج بغير عذر صحيح يؤدي إلى مخالفة الواجب فيكون سقوطًا في الفتنة.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى تخلف من تخلف من المنافقين عن رسول الله ﷺ حينما خرج لغزو الروم، واستئذان بعضهم في هذا التخلف، ذكر تصويرًا لمشاعرهم نحو نتيجة تلك الغزوة التي قعدوا عنها وغيرها من الغزوات، فيما إذا كان النصر حليف رسول الله ﷺ، أو حليف أعدائه حيث قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ من نصر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ أي تسيء إليهم لأن فيها نصرًا لدعوتك التي لا يؤمنون بها ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ من هزيمة أو ضرر في الأنفس والأموال ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي حددنا موقفنا من هذه المصيبة فأنجينا أنفسنا بهذا الحذر..

﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي ويعرضوا عنك يا رسول الله وهم فرحون بما أصابك على يد عدوك شماتة وتشفيًا منهم، لأن في هذا نصرًا لهم، ويتخذوا من ذلك مدخلاً للطعن في نبوتك، فأجبهم ببيان عدم اكتراثكم بما يصيبكم لأنه من قضاء الله وقدره حتى يزدادوا غيظًا وحسرة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ فهونوا على أنفسكم ولا تفرحوا بما يصيبنا من البلاء، فإن ما يصيبنا من ذلك هو أمر قد كتبه الله علينا رحمة بنا لا عذابًا لنا، لأننا قد نصرنا دين الله ومن ينصر الله لا يعذبه، وإنما يصيبنا الله بالبلاء أحيانًا تمحيصًا لنا ليتبين من يصدق ممن لا يصدق، ولنأخذ من ذلك دروسًا في التربية نستفيد منها في مستقبل أيامنا، ونكسب من ذلك الأجر الجزيل جزاء صبرنا على البلاء ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي هو سبحانه متولي أمورنا، فنحن نرضى بما كتبه لنا من النصر على الأعداء أو الابتلاء على أيديهم، ولن يوهن من عزائمنا تخلف النصر عنا في بعض

الأحيان، فإننا إنما نعتمد على الله وحده في حصول النصر لنا، والله سبحانه أعلم بما فيه مصلحتنا من النصر على الأعداء؛ أو الإصابة على أيديهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليعتمدوا عليه في طلب النصر إذ هو متولي أمور المؤمنين.

ثم أمر الله نبيه أن يبين لهؤلاء المنافقين أنّ ما يتنظرونه بالمؤمنين من الشر هو خير كله، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي قل هل تنتظرون بنا في خروجنا لقتال الأعداء من النتائج إلاّ أن نظفر بإحدى النتيجتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى النتائج في مجالي الحياة والموت؟! فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء، وإما موت كريم بالظفر بالشهادة وكلاهما خير وسعادة، فلا تظنوا أيها المنافقون أننا إذا قتلنا في سبيل الله قد خسرنا، فإذا كنتم تفرحون بمصابنا فذلك لأنكم لا تقدّرون فائدتنا من ذلك المصاب واستبشارنا بالشهادة، ولو أدركتم ذلك لما كان استياء منكم في حال انتصارنا، ولا فرح في حال إصابتنا، إذ هو نصر لنا في الحالين ولآمنتم معنا وشاركتمونا في هذا النصر، فالفرح الذي صدر منكم والترح إنما هو من جهلكم بهذه الحقيقة.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي ونحن ننتظر بكم ما دمتم على حالكم هذه ولم تؤمنوا إيمان صدق أن يصيبكم الله بعذاب يرسله عليكم، كما أرسله على المكذبين من الأمم الماضية فيهلككم، أو يصيبكم بالقتل والتشريد على أيدينا إن أنتم أظهرتم كفركم ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ أي إذا كانت هذه عاقبتنا وعاقبتكم فانتظروا بنا هذه العاقبة ما شئتم أن تنتظروا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ أي منتظرون بكم العاقبة السيئة لكم أما ما تنتظرونه بنا فهو خير كله لنا على جميع الاحتمالات.

ولما كان بعض المنافقين يُخرجون من أموالهم في سبيل الله نفاقًا لكسب رضا النبي ﷺ والتهوين من شأن مخالفة أمره بالقعود عن الجهاد، أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبين لهم أن عملهم هذا مردود عليهم، ولن يستفيدوا منه في الآخرة لأنه عمل غير صالح، ولن يستفيدوا منه في الدنيا لأن الله سيكشف أمرهم ويظهر نفاقهم، حيث قال تعالى ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ اي أنفقوا أموالكم في سبيل الله طائعين أو مكرهين، وهو أمر بمعنى الخبر، أي لن يُتقبل منكم سواء أنفقتم طوعًا أو كرهًا[1] والمراد بما ينفقونه طوعًا ما يخرجونه من أموالهم نفاقًا من غير أن يلزموا به كتجهيز الغزاة، والمراد بما ينفقونه كرهًا ما ألزموا به كإخراج الزكاة باعتبار أنهم مؤمنون في الظاهر.

﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي لن يقبل الله ذلك منكم، فلا ثواب لكم عليه في الآخرة ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي لأنكم كنتم قومًا خارجين عن طاعة الله تعالى والخضوع له فكيف يقبل أعمالكم؟

ثم بين سبحانه خروجهم عن طاعته بقوله ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي وما حال بينهم وبين قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله باطنًا، والكفر مانع من قبول العمل ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ فهم لا يصلون رغبة في مناجاة الله وعبادته بل ليراهم المؤمنون، وهذه ليست صلاة طاعة وإنما هي صلاة نفاق، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ فهم لا يُخرجون من أموالهم في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وإنما يخرجونه رياء وأنفسهم كارهة لهذا الإنفاق، لأنه ليس من مصلحتهم، فإنه يتسبب في تقوية المجاهدين، ونصر الإسلام وهم يكرهون ذلك لأنهم ليسوا بمؤمنين.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٩٥.

وبهذا تبين لنا أن أعمالهم ليست على ظاهرها، وإنما هي تمويه على المؤمنين، وأن أعمالهم ليست مقبولة عند الله تعالى، وإذا كان كذلك فلماذا أعطاهم الله أموالاً وأولادًا ومتعهم بالحياة الدنيا، مع أن المتربّص بهم أن يعذبهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين؟ فهذا أمر عجب.. يفعلون ما يستحقون به وقوع العذاب عليهم، والله يمتعهم بمتعتي الأموال والأولاد.. فكيف هذا؟

أزال الله العجب بقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ أيها الناظر لحالهم المتعجب من أمرهم فليسوا سعداء بكثرة الأموال والأولاد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما ينالهم من همّ اكتسابها وتصريفها والمحافظة عليها ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي تخرج أرواحهم ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي والحال أنهم لا يزالون على كفرهم فيتركون أموالهم وراءهم ولا ينتفعون بها بعد موتهم.

فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا، وهذه الزينة قد تكون مصدر شقاء لصاحبها، وقد تكون مصدر سعادة، فالمال يشقى به صاحبه إذا كانت الدنيا أكبر همه، وغايته التي يسعى إلى تحقيقها ومصدر سروره أو حزنه، فلا يهدأ له بال ولا يهنأ بعيش بسبب جمع المال وتدبيره وصيانته، ويشقى بالإنفاق منه لأنه لا يملك مبدأ ساميًا يستهين ببذل المال من أجله، وإذا ذكر الموت زادت حسرته لأنه سيترك ذلك المال لمن لم يتعب في تحصيله، ولم يكن في حياته يرغب في منحه شيئًا منه، فقد يكون أبناؤه ممن يختلفون معه في المبدأ كما هو حال بعض المنافقين في عهد النبي ﷺ ومنهم عبد الله بن أبيّ حيث كان ابنه عبد الله من المؤمنين الصادقين، وقد لا يكون لصاحب ذلك المال أبناء فيرثه من الأباعد عنه من قد لا يكون على وئام معه في حياته، وقد يرثه بيت المال الذي لو طلب منه في حال حياته أن يتبرع له بدرهم لم يفعل إلا كارهًا فيما إذا لم يكن له ورثة.

أما إذا كان صاحب المال ممن يتخذ المال وسيلة إلى تحقيق غاية سامية، فإنه يجد السعادة في جمعه والعناية به لأنه يُعدُّه لخدمة تلك الغاية السامية التي يقدسها، ومن ثَمَّ لا يجد في نفسه شيئًا من الضيق والحسرة فيما أنفقه في سبيل تلك الغاية الشريفة، بل يشعر بالراحة والطمأنينة لأنه استطاع أن يبلغ الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه.

والفرق بين من يتخذ الدنيا وسيلة وبين من يتخذها غاية؛ أن الأول: قد استعبد الدنيا واستذلها للوصول إلى غايته الشريفة، أما الثاني: فقد استذلته الدنيا حتى صار عبدًا لها، فالأول لا يكون شَرِهًا في جمعها والحرص عليها، ولا يحزن على فواتها لأنها عنده ذليلة حقيرة، أما الثاني فإنه يبذل قصارى جهده في سبيل جمعها وحفظها، ويحزن كل الحزن على فواتها، لأنها معبوده الذي أخلص في حبه وتفانى في خدمته.

أما الأولاد فإنهم مصدر إتعاب لآبائهم في تربيتهم، وفي المصائب التي تجري عليهم بسببهم، إذا كان أولئك الآباء غير مستقيمين على منهج الإسلام، لأنهم يربون أولادهم على الانحراف عن الطريق المستقيم، وبالتالي يكونون مصدر إزعاج لهم وشقاء، ثم إنهم لعدم إيمانهم بقضاء الله وقدره لا يملكون اليقين الذي يهون عليهم المصيبة بفقدهم، بخلاف المؤمنين المستقيمين على منهج الإسلام، فإنهم يربون أولادهم على الاستقامة، فيكونون بذلك عونًا لهم في الحياة، وما ينتظرونه عند الله من الأجر يهوِّن عليهم متاعب تربيتهم ووقع المصيبة بفقدهم.

ثم بين سبحانه نفاق المنافقين وأنهم ليسوا من المؤمنين، وإن تظاهروا بأنهم منهم وأكدوا ذلك بالأيمان الكاذبة حيث قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ أي المنافقون ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي في الاعتقاد والمذهب ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لأنهم منافقون يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فهم كاذبون في حلفهم، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: وإنما يظهرون

لكم الإيمان لأنهم يفزعون منكم، ويخافون أن توقعوا بهم إذا هم أظهروا كفرهم بدينكم، كما تفعلون بسائر الكفار، والجملة استدراك لرفع ما يُتوهم من أن إظهارهم الإيمان، وتأكيدهم ذلك بالحلف بالله دليل على صدق إيمانهم، وذلك ببيان الباعث لهم على إظهار الإيمان، وهو الخوف من بطش المؤمنين بهم فيما لو أظهروا حقيقة معتقدهم.

ثم يصور لنا الله سبحانه وتعالى مبلغ خوفهم من المؤمنين، بأنهم قوم قد انخلعت قلوبهم من الخوف والفزع ففقدوا الراحة والطمأنينة، ولو حاول المؤمنون الإيقاع بهم فيما لو أظهروا كفرهم لفروا سراعًا يبحثون عن الملاجئ الحصينة التي تقيهم بأس المؤمنين، ولم يفكروا بالدفاع عن أنفسهم، لأنهم لم يبق لديهم طاقة من القوة والمنعة من شدة الخوف والذعر، بل إن طاقتهم كلها قد ركزوها في كيفية الخلاص من المؤمنين، حتى لو لم يجدوا إلاَّ الكهوف في الجبال والأسراب تحت الأرض لفروا إليها واختبئوا فيها، حيث قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي لو يجدون حصونًا يمتنعون بها، أو كهوفًا يتقون بها، أو أسرابًا تحت الأرض يختبئون فيها فيما لو أعلنتم الحرب عليهم لفروا إليها مسرعين فزعًا منكم.

وإنها لصورة مفزعة تبين لنا مدى حياة الخوف التي يعيش فيها المنافقون في الدنيا، مع ما أعد الله لهم في الآخرة من العذاب الأليم الذي لا يماثله عذاب، جزاء كفرهم بالله ورسوله ونفاقهم الذي أفقدهم سعادة الدارين.

ثم بين سبحانه وتعالى مقدار ما يعيش فيه أولئك المنافقون من القلق والرعب والاستخفاء الذي بلغ بهم حدًا لا يستطيعون معه أن يحصلوا على الراحة والطمأنينة فيما إذا بدر منهم كلام لا يرضي الله ورسوله، ولو في مجالسهم الخاصة خوفًا من نزول القرآن بفضيحتهم، فقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ أي يخافون ويحترسون من ﴿أَن تُنَزَّلَ

عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على المؤمنين ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾ أي تخبر المؤمنين ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ أي بما في قلوب المنافقين من إضمار عداء الإسلام وكيد المؤمنين به.

وقيل إن الضمائر في الآية كلها تعود على المنافقين فيكون معنى قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في شأنهم أي يحذر المنافقون من أن تنزل في شأنهم سورة تخبرهم عما يضمرونه في قلوبهم،ذكره الزمخشري[1].

والاحتمال الأول قال به الطبري[2] وهو أظهر لأن الذي يخشى منه المنافقون هو اطلاع المؤمنين على حقيقة أمرهم بواسطة القرآن.

وعلى أي حال فإن المقصود بالآية الإخبار عما يحس به المنافقون من الخوف الشديد من نزول القرآن بفضيحتهم، وقد سبق في بيان النص قول مُخَشِّن بن حُمَيِّر (والله لوددت أن أقاضَى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه).

وفي هذا دليل على أن هؤلاء المنافقين ليسوا ممن ينكر الوحي الإلهي، بل هم ممن يعترف بنزوله على رسول الله ﷺ، حيث حذر بعضهم بعضًا من نزول ما يكشف أمرهم ولكنهم يكفرون به إما حسدًا أو اتباعًا للشهوات أو استجابة للفتن.

ولكن هل يظن مرضى القلوب هؤلاء أن باستطاعتهم أن يبوحوا بمكنونات ضمائرهم وأن يتنفسوا من كرب النفاق؟

إن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم حتى يستطيعوا عقد المجالس الخاصة، وتدبير المخططات السرية وهم أحرار بمنجاة من سمع المؤمنين وبصرهم، إن معركتهم

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٩ - ٢٠٠.

(٢) جامع البيان ١٠/ ١٧١.

مع الله جل وعلا وهو سبحانه مطلع على مكنونات ضمائرهم، فليقوموا بجميع ما يرون القيام به من المخططات الهدامة والأعمال السرية ولينطقوا بما شاءوا من كلمات السخرية والاستهزاء، فإن الله سبحانه مطلع على كل ذلك وسيطلع رسوله ﷺ على جميع ما يكتمه المنافقون ويخشون من ظهوره ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي تمادوا في الاستهزاء فإن الجزاء واقع بكم لا محالة، فالأمر للتهديد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي كاشف للمؤمنين من أسراركم ما تخافون ظهوره لهم.

فإذا انكشف أمرهم ووقعوا في المأزق جاءوا يعتذرون بأعذار سخيفة تَنِمّ عن كذبهم وخداعهم، حيث زعموا أنهم ما قالوا ذلك الكلام إلا لمجرد التسلية وقطع عناء الطريق، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ أي عما تفوهوا به من السخرية بالإسلام وأهله ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي لم نكن جادين في كلامنا وإنما كنا هازلين، ومع أن الكلام الذي صدر منهم لا يحتمل الهزل بوجه من الوجوه، فقد أقدموا على الاعتذار بهذا العذر الكاذب لأنهم لا يستطيعون إنكار ما صدر منهم من الكلام بعد أن اطَّلع عليه النبي ﷺ بواسطة الوحي، وليس لكلامهم تأويل مقبول يرجعون إليه فلم يجدوا إلا هذا العذر الكاذب ليتخلصوا به من الموقف الحرج الذي وقعوا فيه، وكأنهم لم يجدوا ما يتسلون به إلا السخرية بالله وآياته ورسوله على فرض أنهم كانوا صادقين في اعتذارهم، ولكن هل صحيح أنهم ما قالوا ذلك الكلام إلاّ على سبيل التسلية واللعب؟

الواقع أنهم كانوا جادين في كلامهم مستهزئين بالله وآياته ورسوله حقيقة، ولذلك أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يبين لهم حقيقة نواياهم السيئة بقوله: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

واستهزاؤهم برسول الله ﷺ واضح من الروايات السابقة، أما استهزاؤهم بالله وآياته فان استهزاءهم برسول الله ﷺ يعتبر استهزاء بالله وآياته لأنهم لم يستهزئوا به إلاَّ من أجل الدين الذي يدعوهم إليه، فبهذا يكونون قد استهزأوا بالله تعالى الذي أرسله وبالقرآن الذي اشتمل على بيان هذا الدين، وكذلك الحكم فيمن استهزأ بالمؤمنين من أجل إيمانهم بالإسلام والتزامهم بأحكامه، فإنه يكون مستهزئًا بالإسلام، ومن استهزأ به فقد استهزأ بالله عز وجل الذي شرعه للناس.

والظاهر أن أصحاب تلك المقالة الساخرة لم يكونوا من المنافقين قبل ذلك وإنما كانوا من ضعفاء الإيمان الذين لا يثبتون على إيمانهم عند المحن والشدائد، فلما تصوروا إقدامهم على قتال دولة قوية مرهوبة الجانب كدولة الروم، التي قد أصبحت لها السيادة على العالم بعد انتصارهم الأخير على الفرس، ولم يسبق لهؤلاء العرب أن جربوا الحرب معهم، تزلزل إيمانهم المتهالك ونطقوا بذلك الكلام الساخر، وقد كفروا بهذه المقالة بعد الإيمان فأصبحوا منافقين، فلا جدوى من الاعتذار ولا فائدة في الخداع والتمويه ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾.

وإنما الذي ينفعكم عند الله ورسوله هو أن تتوبوا توبة صادقة وتخلصوا عملكم لله تعالى ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم ﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ أي بسبب إصرارهم على الإجرام وعدم توبتهم.

ومن الذين تابوا وحسنت توبتهم من هؤلاء (مَخْشّن بن حمَيِّر) كما سبق في رواية ابن إسحاق أنه سأل الله تعالى أن يُقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

ثم بين سبحانه وتعالى أن صفات المنافقين في كل زمان ومكان متشابهة، وموقفهم من الإسلام واحد، حيث قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي أهل النفاق رجالاً ونساء متشابهون في أخلاقهم وأعمالهم، حتى كأنهم قد جمعهم إطار واحد.

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ المنكر ما أنكره الإسلام وحذر منه، والمعروف ما استحسنه وأمر به، أي يأمرون الناس بالكفر بالله ورسوله وارتكاب المعاصي، وينهونهم عن الإيمان بالله ورسوله وفعل الطاعات، ومن ذلك اجتهادهم في تثبيط المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله والتسابق في أعمال الخير، فهم أدوات تخريب وعوامل إفساد في المجتمع، لأن دعوتهم التي يدعون إليها تناقض دعوة الإسلام، الذي جاء لإصلاح الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والذي حملهم على هذه الدعوة الهدامة جهلهم بحقيقة ما يدعو إليه الإسلام، ونظراتهم الضيقة المحدودة التي لا تتجاوز نطاق المصالح الفردية، ولذلك قال تعالى في وصفهم بعد هذا ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي لا ينفقون أموالهم في سُبل الخير التي تتطلب منهم الإنفاق.

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي تركوه فلم يطيعوا أوامره ولم ينتهوا عن نواهيه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركهم من رحمته وتخلى عنهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله تعالى والخضوع له فلا يستحقون الرحمة.

ثم بين سبحانه ما أعده للمنافقين وسائر الكفار من العذاب الأليم في الآخرة، بقوله تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ

حَسْبُهُمْ﴾ أي هي كافيتهم بعذابها لأن عذابها هائل لا مزيد عليه ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته لأنهم لا يستحقونها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع وهو عذاب النار، وقد أعيد ذكره مع ما سبق من بيان خلودهم في نار جهنم، فقيل إن المراد به عذاب آخر في الآخرة غير عذاب جهنم لا ينقطع أبدًا، وبذلك قال الزمخشري ومن تبعه وذكروا احتمال كون المراد عذاب الدنيا وهو ما يقاسيه المنافقون من خوف وهلع من انتقام المؤمنين منهم[١]، ولكن يمنع من ذلك أنه ليس هناك من أنواع العذاب ما هو دائم لا ينقطع أبدًا غير عذاب جهنم، وقيل إن المراد العذاب النفسي والمعنوي الذي يقاسيه الكفار يوم القيامة، وبذلك قال رشيد رضا[٢].

ولكن إن كان هذا العذاب النفسي ناتجًا عن عذابهم الحسي في جهنم فهو تابع له، وإن كان ناتجًا عن غير ذلك فهو غير دائم فلا تنطبق عليه الآية، فالظاهر أن المراد به عذاب جهنم، وإنما أعيد ذكره مع ما سبق من بيان خلودهم في نار جهنم، لأن الخلود يطلق على المكث الطويل، فبين سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أن خلودهم من النوع الذي لا ينقطع أبدًا.

ثم انتقل سبحانه من التحدث عن المنافقين إلى خطابهم للاهتمام بأمر هدايتهم، حيث ضرب المثل لهم بالكفار من الأمم السابقة الذين انخدعوا بالحياة الدنيا فخسروا الآخرة، وذلك بقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم أيها المنافقون كالذين كفروا من الأمم السابقة ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي أن دواعي الانخداع

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٠١، إرشاد العقل السليم ٢/ ٥٧٤، روح المعاني ١٠/ ٣٣.

(٢) تفسير المنار ١٠/ ٦٢١.

بالحياة الدنيا والاغترار بمظاهرها كانت عندهم أكبر مما هي عندكم ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي تمتعوا بنصيبهم من ملذات الحياة تمتعًا كاملاً بحيث لم يراعوا في ذلك الحدود التي شرعها الله لهم، وقصروا سعيهم على الحياة الدنيا فحصلوا منها على النصيب الوافر، ونسوا العمل للحياة الآخرة ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي شابهتم الكفار الذين من قبلكم بالاستمتاع بملذات الحياة الدنيا بلا حدود ولا قيود، وجعلها المطلب الوحيد الذي تهتمون به.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ أي أدخلتم أنفسكم في أمور لا تدركون حقيقتها ولا تعرفون قيمتها، فاستهزأتم بمن جاءكم يدعوكم إلى ما فيه صلاحكم وصلاح البشرية، وبما جاءكم به مما فيه صلاحكم ورفع شأنكم، كما فعل الكفار من قبلكم مع رسلهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بالصفات المذكورة من الأمم السابقة ومن سار على نهجهم من هذه الأمة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي بطلت مساعيهم التي كانوا يقومون بها ضد الأنبياء وضد دعواتهم، حيث نصر الله سبحانه أولياءه وخذل أعداءهم، وبطلت أعمالهم الدينية التي كانوا يعملونها نفاقًا، حيث فضحهم الله وكشف حقيقتهم أمام أوليائه ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ أي وبطلت أعمالهم في الآخرة وذهبت هباء، لأنها لم تكن خالصة لوجه الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فلأنهم خسروا معركتهم مع أولياء الله عن طريق المكائد الخفية لأنها لم تنجح، وعن طريق النفاق بالتظاهر بالإيمان والعمل الصالح لأنهم قد انكشف أمرهم، وأما في الآخرة فلأنهم لن يستفيدوا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا شيئًا، بل ستكون سببا في زيادة عذابهم في النار.

وبعد أن بين سبحانه ما أعده للكفار والمنافقين في الآخرة من العذاب الأليم، حذر منافقي هذه الأمة من أن يحل بهم ما حل بالكفار من قبلهم من عذاب الدنيا، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم التي بعث الله لها رسلاً فكذبوهم فعذبهم الله في الدنيا ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ حينما كذبوا نوحًا ﷺ فأهلكهم الله بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ حينما كذبوا هودًا ﷺ فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ﴿وَثَمُود﴾ حينما كذبوا صالحًا ﷺ فأهلكهم الله بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ حينما كذبوا إبراهيم ﷺ فأهلك الله مَلكهم نمرود ﴿وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ﴾ حينما كذبوا شعيبًا ﷺ فأهلكهم الله بعذاب يوم الظلة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾ أي المنقلبات، وهي قرى قوم لوط انقلبت بهم أرضهم فجُعل عاليها سافلها ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالآيات الواضحات الدالة على وحدانية الله عز وجل فكذبوهم فأهلكهم الله ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فليس من شأنه جل وعلا أن يظلمهم بما أنزل بهم من العقوبة، لأنه المتصف بكمال العدل ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرَّضوها بمحض اختيارهم لغضب الله وعذابه بمعصيتهم الله وتكذيبهم رسله.

فلينظر هؤلاء المنافقون إلى هذه العاقبة السيئة التي صار إليها المكذبون رسلهم نظر اعتبار وتذكر، وقد قص الله سبحانه عليهم من أخبارهم فيما نزل من القرآن قبل هذه الآيات في مناسبات عديدة.

ثم بين سبحانه لنا أن المنافقين لم يكتفوا بالقعود عن الجهاد والتخذيل عنه، ولا بإمساك أموالهم وقبض أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، بل تجاوزوا ذلك إلى الاستهزاء بالمؤمنين وإساءة الظن بهم، فاتهموا أغنياءهم الذين أخرجوا من أموالهم قدرًا كبيرًا

بالرياء، وسخروا من فقرائهم الذين صاروا يكدحون في العمل ليحصلوا على ما ينفقونه في سبيل الله؛ فاستقلوا نفقتهم وحقّروهم، حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي يعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي المتطوعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي الذين يخرجون الصدقات من تلقاء أنفسهم تطوعا من غير أن يكون الإنفاق واجبًا عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي الذين لا يجدون من القوت إلا ما يحصلون عليه ببذل وسعهم وطاقتهم ومع ذلك يتصدقون به، والجملة معطوفة على المطوعين كما قال أبو حيان[1] فهو من عطف الخاص على العام ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي يهزؤون بهم، معطوف على قوله يلمزون، والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ قيل إنه يعود على الفريق الأخير[2]، والظاهر أنه يعود على الفريقين الأغنياء والفقراء، لأن المنافقين المذكورين في الآية قد استكثروا صدقة الأغنياء فاتهموهم بالرياء، واستقلوا نفقة الفقراء فاحتقروهم، كما سبق في سبب النزول ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ فأنزل بهم نقمته وعذابه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم مع تعرضهم لغضب الله ونقمته عذاب أليم في نار جهنم.

ثم يخبرنا سبحانه عن شعور المنافقين نحو تخلفهم عن رسول الله ﷺ فيبين لنا أنه شعور الغبطة والارتياح بالقعود بين الظلال الوارفة، والثمار اليانعة والنجاة من رياح الصحراء اللاهبة، وسَمومها الخانق، حيث يقول تعالى ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ حينما خرج إلى تبوك من المنافقين، والتعبير عنهم باسم المفعول لأن الله سبحانه خلفهم عن الخروج للجهاد، ولأن النبي ﷺ أذن لهم بالتخلف

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٧٦.

(٢) إرشاد العقل السليم ٢/ ٥٨٢.

حين استأذنوه في ذلك[١]، وتخليف الله إياهم هو ما سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾.. ﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ﴾ أي بقعودهم بعد خروجه.

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وكان الدافع لهم إلى القعود كراهيتهم بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ أي وقال بعضهم لبعض لا تخرجوا للجهاد في وقت الحر، وقد كانت غزوة تبوك في فصل الصيف كما تقدم ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا﴾ أي قل لهم أيها الرسول نار جهنم التي أنتم مقبلون عليها في الآخرة أشد حرًا مما فررتم منه في الدنيا ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ أي لو كانوا يفهمون حقيقة مستقبلهم الأخروي لما آثروا راحة زمن قليل على عذاب الأبد.

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك من إيثارهم اتقاء حر الدنيا على اتقاء حر الآخرة فليضحكوا قليلاً من الوقت، لأن إقامتهم في الدنيا محدودة وليبكوا في الآخرة كثيرًا لأن عذابها دائم لا ينقطع.

والأمر في الآية بمعنى الخبر، وخرج على صيغة الأمر للدلالة على أن مضمونه واقع لا محالة[٢].

وقوله ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي عقابًا لهم بسبب ما كانوا في الدنيا يكسبونه لأنفسهم من الأعمال السيئة، فكما وقوا أنفسهم حر الدنيا بمعصية الله تعالى سيعاقبون بحر الآخرة، وكما ضحكوا في الدنيا قليلاً سيعاقبون في الآخرة بالعذاب الأليم الذي يسبب لهم البكاء الكثير، وإنه لفرق عظيم بين عملهم السيئ وجزائه كالفرق بين الدنيا والآخرة.

---

(١) جامع البيان ١٠/ ٢٠٠، الكشاف ٢/ ٢٠٥.

(٢) أنوار التنزيل ١/ ٢٢٩.

ولما ذكر سبحانه عقابهم في الآخرة ذكر ما يجب أن يعاملوا به في الدنيا جزاء تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، حيث قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ أي فإذا كان الأمر على ما ذكر من حال هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك، فإن ردّك الله من غزوتك هذه إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج معك في غزوة أخرى فقل لهم لن تخرجوا معيَ في غزوة أبدًا ولن تقاتلوا معيَ عدوًا أبدًا، لأنكم قد رضيتم بالقعود عن الجهاد أول مرة في غزوة تبوك حينما استأذنتم في التخلف، فاقعدوا مع القاعدين عن الجهاد لعذر يمنعهم من الخروج كالمرضى والمقعدين والنساء فهو أجدر بكم وأولى.

وعلى هذا فالضمير في ﴿مِّنْهُمْ﴾ يعود على المنافقين المتخلفين، والمراد بالطائفة المستأذنون منهم في التخلف لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وذلك في غزوة تبوك باتفاق المفسرين[1] والمنافقون قد رضوا بالقعود قبل ذلك كما في غزوة أحد، ولكن بغير استئذان في التخلف فيكون المراد بأولية التخلف القعود عن طريق الاستئذان، ولأن هذه الآيات في المتخلفين من المنافقين فيناسب هذا أن يعود الضمير في ﴿مِّنْهُمْ﴾ عليهم لا على عموم المنافقين.

ورجوع النبي ﷺ من تبوك إنما هو إلى المتخلفين جميعًا لا إلى طائفة منهم فقط، وإنما خص بعضهم بالذكر وهم المستأذنون في التخلف لأنهم هم الذين أراد الله سبحانه بيان كيفية معاملتهم في هذه الآية.

---

(١) انظر مثلا: جامع البيان ١٠/ ٢٠٣، الكشاف ٢/ ٢٠٦، روح المعاني ١٠/ ١٥٣.

ثم ذكر سبحانه استئذان بعضهم في التخلف عن الجهاد بلا عذر يمنعه من الخروج حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي وإذا أنزل الله تعالى سورة تشتمل على أمرهم بالإيمان بالله والجهاد في سبيله مع رسوله ﷺ ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي في التخلف عن الجهاد وأولوا الطول هم أهل الغنى، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي طلحة[1] واستئذانهم في التخلف عن الجهاد بلا عذر دليل على عدم صدقهم في دعوى الإيمان بالله ورسوله، لأن من لوازم الإيمان بالمبدأ الدفاع عنه والجهاد في سبيله حتى يعتز وينتشر.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي مع النساء كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي طلحة[2].

ولقد وضعوا أنفسهم موضع المهانة والذل حينما رضوا لأنفسهم بأن يقعدوا مع النساء الخوالف في البيوت ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي ختم على قلوبهم جزاء اتباعهم لأهوائهم المنحرفة عن الطريق المستقيم فأصبحوا لا يبصرون النور، ولا يستعملون مداركهم التي وهبهم الله إياها، لإدراك حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي في التخلف عن الجهاد، والمعذِّرون: قيل إنه من عذَّر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ، وحقيقته أن يوهم أن له عذرًا فيما يفعل ولا عذر له، وبهذا قال الزمخشري[3]، وقال أبو عبيدة: أي من معذر وليس

---

(١) جامع البيان ١٠/ ٢٠٧.

(٢) المرجع السابق ١٠/ ٢٠٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٠٧.

بجاد إنما يظهر غير ما في نفسه ويعرض مالا يفعله[١]، وبهذا قال ابن قتيبة[٢]، ولكن يمنع من اعتبار هذا القول قوله تعالى: ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ فهذا يدل على أنهم اعتذروا في التخلف لا أنهم كانوا يعرضون من العمل ما لا يريدون فعله.

وقيل إن أصلها المعتذرون فأدغمت التاء في الذال ونقلت حركتها إلى العين، ذكر ذلك ابن قتيبة والفراء والزمخشري[٣].

وسواء كانت هذه الكلمة من عذر في الأمر إذا قصر فيه، أو كان أصلها المعتذرون فإن المراد بها قوم من الأعراب، جاءوا يستأذنون في التخلف واعتذروا بأعذار كاذبة.

وقيل إنها في أهل الأعذار، أي الذين لهم عذر صحيح في التخلف وبذلك قال الطبري وابن كثير، وقد استدلوا على ذلك بقراءة ﴿ٱلْمُعْذِرُونَ﴾ بإسكان العين وتخفيف الذال، وبهذا قرأ يعقوب بن اسحاق الحضرمي[٤] واستدل ابن كثير أيضًا على هذا التفسير بقوله تعالى بعد هذه الجملة ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ قال ابن كثير: أي لم يأتوا فيعتذروا[٥].

والظاهر أن المراد بالمعذرين المعتذرون عن الخروج للجهاد بالأعذار الكاذبة، إذ أن أهل الأعذار المانعة من الخروج كالمرضى وذوي العاهات والفقراء لا يحتاجون إلى المجيء للاعتذار في التخلف، فالمرضى وذووا العاهات عذرهم واضح، والفقراء إذا كانوا مؤمنين

---

(١) مجاز القرآن / ٢٦٧.

(٢) تفسير غريب القرآن / ١٩١.

(٣) تفسير غريب القرآن / ١٩١ – معاني القرآن تفسير الزمخشري ٢/ ٢٠٧.

(٤) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٢٨٠.

(٥) تفسير ابن كثير.

حقًا يدفعهم إيمانهم إلى أن يطلبوا من النبي ﷺ أن يعينهم بالمؤونة اللازمة للخروج، ليخرجوا معه لا أن يستأذنوه في التخلف، وقد بين الله سبحانه أصحاب الأعذار المانعة بعد هذه الآية كما سيأتي.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الموصول يعود على المعذرين، أي وجاء المعذرون من الأعراب يستأذنون في التخلف وقعدوا عن الجهاد، وإنما وصفهم الله سبحانه بأنهم كذبوا الله ورسوله، ولم يعبر عنهم بالضمير لبيان كذبهم في الاعتذار.

وذكر ابن كثير أن المراد بهم فريق آخر قعدوا عن الاستئذان في التخلف، ولكن القول بأنهم فريق واحد أرجح لما يأتي:

أولاً: إن المجيء للاستئذان في التخلف ليس مما يحمد عليه صاحبه، فلا يكون التخلف عن ذلك أمرًا مذمومًا، وإنما الذي يحمد عليه صاحبه هو الخروج للجهاد فيكون الأمر المذموم هو القعود عن الجهاد.

ثانيًا: أن وصفهم بالكذب على الله ورسوله دليل على أنهم قد جاءوا معتذرين بالباطل، وأنهم قد انتحلوا لأنفسهم أعذارًا كاذبة.

ثالثًا: أن قوله تعالى بعد ذلك ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دليل على أن المعذرين هم الذين كذبوا الله ورسوله، إذ أننا لو فسرنا المعذرين بأنهم أهل الأعذار الحقة، واعتبرنا الذين كذبوا الله ورسوله فريقًا آخر لتحتم علينا إرجاع الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى الذين كذبوا الله ورسوله، وهذا غير صحيح لأن هؤلاء كلهم كفار، إذ أن معنى كونهم كذبوا الله ورسوله بناء على هذا التفسير هو كذبهم في ادعاء الإيمان، لا في انتحال الأعذار الكاذبة حيث إنهم قد قعدوا عن المجيء للاعتذار، والذين يدّعون الإيمان كذبًا لا يمكن أن يحكم على بعضهم بأنهم كفار وعلى البعض الآخر بغير هذا الحكم.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب موجع في نار جهنم وهؤلاء هم الذين تخلفوا لكونهم منافقين لا يريدون عزة الإسلام وانتصاره، أما الذين تخلفوا كسلاً وإيثارًا للراحة فلعل الله أن يتوب عليهم، بعدما يتقوّى إيمانهم ويقدمون على الجهاد في سبيل الله في مستقبل أيامهم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أهل الأعذار الحقة التي لا يستطيعون معها الخروج للجهاد بقوله تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ليس على الضعفاء الذين لا يستطيعون الجهاد كالشيوخ، ولا على المرضى بأي نوع من أنواع المرض، ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما يركبون عليه، ولا ما يتزودون به من إثم فيما إذا قعدوا عن الجهاد في سبيل الله إذا كانوا مخلصين لله ولرسوله بحيث يتمنون زوال المانع لهم من الخروج ليخرجوا للجهاد.

وإذا كانوا بهذه المثابة من الإخلاص لله ولرسوله فقد أحسنوا إلى أنفسهم، حيث خلصوها من المسؤولية، ومن خلص نفسه من الآثام في الدنيا لم يكن في الآخرة أهلاً للعقوبة ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ فالمحسنون إلى أنفسهم بتخليصها من الآثام والسيئات لا سبيل إلى لومهم أو عقوبتهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي وإذا حصل من العباد تفريط أو تقصير فإن الله سبحانه ساتر ذنوب عباده مكافئهم على إحسانهم.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي لا سبيل إلى لوم أولئك النفر الذين يتحرقون شوقًا إلى الجهاد، ولكن يمنعهم منه عدم امتلاكهم ما يركبون عليه

من الدواب، فإذا ما جاءوك يسألونك أن تعينهم بما يركبون عليه من الدواب ليشتركوا معك في الجهاد فاعتذرت لهم بعدم استطاعتك تلبية مطالبهم انصرفوا عنك وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألاَّ يجدوا ما ينفقونه من الأموال في سبيل الله، لأنهم قد بذلوا ما في وسعهم، وهؤلاء داخلون في قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ وإنما أفردوا بالذكر في هذه الآية لأن لهم حادثة معينة وهم بنو مُقَرِّن من مزينة كما سبق في بيان من نزل فيه النص.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى حال من لم ينجوا من المسؤولية ولم يخلصوا أنفسهم من الإثم لتخلفهم عن الجهاد وهم قادرون على الخروج له، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي إنما السبيل في اللوم والعتاب على الذين يستأذنونك في التخلف عن الجهاد وهم أغنياء، يجدون الزاد والراحلة، وليس لهم عذر يمنعهم من الخروج إلاَّ النفاق وإيثار متاع الدنيا العاجل، وقد أهانوا أنفسهم حينما رضوا بأن يجلسوا مع النساء الخوالف في البيوت، اللاتي يخلفن الرجال إذا خرجوا للغزو.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم عليها فلا يصل إليها النور، بسبب اتباعهم أهواءهم المنحرفة ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما فيه صلاحهم حيث انخدعوا بالدنيا فآثروا متاعها الزائل على الظفر بنعيم الآخرة الخالد، والنجاة من عذابها الدائم.

ثم بين سبحانه السلوك الذي سيواجه به هؤلاء المنافقون رسول الله ﷺ والمؤمنين إذا رجعوا إليهم من تبوك، فقال تعالى ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ أي من تخلفهم عنكم ﴿قُل﴾ لهم أيها الرسول ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ

مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي لا تعتذروا إلينا بالأعذار الكاذبة فلن نصدقكم في شيء منها، لأن الله تعالى قد أطلعنا على حقيقة أمركم الذي تخفونه عنا ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في مستقبل أيامكم، أتلتزمون بجميع تكاليف الإسلام حتى ما ترونه شاقًا كالجهاد بصدق وإخلاص، أم تتثاقلون عن بعض التكاليف وتستمرون على النفاق؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء من بواطن أموركم وظواهرها جل وعلا ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيظهركم على حقيقة أعمالكم ويحاسبكم عليها ثم يجازيكم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ثم بيّن سبحانه أنهم سيشفعون اعتذارهم بالحلف بالله ترويجًا له أمام المؤمنين، حتى يتخلصوا بذلك من نقمتهم فقال تعالى ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إذا انصرفتم راجعين إليهم من الغزو ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي عن لومهم والانتقام منهم ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ فإن جزاءهم على عملهم هذا ليس في الدنيا حيث إن عذابها يسير منقطع وإنما جزاؤهم في الآخرة، ولذلك قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ والرجس الشيء القذر، ولما كان النفاق مستقذرًا شرعًا أطلق الرجس على المنافقين[1].

المعنى: إذا كان غاية مطلبهم هو السلامة في هذه الحياة الدنيا فحققوا لهم هذا المطلب الرخيص، ولا تلقوا لهم بالاً فإنهم أحقر من أن تهتموا بأمرهم، وإذا كانوا إنما سلكوا هذا السلوك المنحرف للنجاة من نقمتكم في الدنيا فإن ما فروا منه سيضاعف لهم في الآخرة

---

(١) المفردات في غريب القرآن، القاموس المحيط.

أضعافًا كثيرة، فإن مصيرهم الذي سيأوون إليه هو نار جهنم جزاء لهم بسبب ما كسبوا لأنفسهم من أعمال سيئة.

ثم بيّن سبحانه مقاصدهم من وراء هذا الحلف بقوله ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فتتركوهم وشأنهم ولا تنتقموا منهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي فإن استطاعوا أن يلبسوا الأمر عليكم ويحوزوا على رضاكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله الذين أبوا أن يخضعوا له، وإذا كان الله غير راض عنهم فلا فائدة من رضاكم عنهم، لا في الدنيا لأن الله سيكشفهم لكم، ولا في الآخرة لأن الله أعد لهم العذاب الأليم.

القسم الخامس

المنافقون بعد غزوة تبوك

وفيه مباحث:

١- محاربتهم الإسلام عن طريق الدعوة إليه.

٢- المنافقون من الأعراب وأهل المدينة ونوع نفاقهم.

٣- تشكيكهم الناس في صدق النبيّ ﷺ.

٤- اتهامهم النبيّ ﷺ بالبلاهة.

٥- خيانتهم العهد من أجل الدنيا.

٦- سخريتهم بالقرآن الكريم.

٧- النهي عن الصلاة على المنافقين وشهود جنائزهم.

كان لغزوة تبوك أثر بارز في كشف المنافقين بقسميهم.. الذين خرجوا مع المؤمنين إلى تبوك والذين تخلفوا عنهم.

فأما الذين خرجوا إلى تبوك فقد انكشفوا بسبب المخالفات التي حدثت منهم في تلك الغزوة، ومن أبرزها محاولتهم الفتك بالنبي ﷺ ليلة العقبة، وشربهم من الماء الذي نهى النبي ﷺ عن الشرب منه، واستهزاؤهم برسول الله ﷺ والمؤمنين، وقد سبق بيان هذه الحوادث.

وأما الذين تخلفوا فقد كشفهم تخلفهم، سواء منهم من استأذن في التخلف أو من تخلف بلا استئذان.

هذا إضافة إلى نزول الآيات القرآنية بعد تبوك بفضيحتهم وكشف حقيقتهم، فقد كان ما نزل من القرآن بشأنهم في هذه الفترة هو أصرح ما نزل في كشفهم وهتك أستارهم.

وقد قام النبي ﷺ في هذه الفترة بهدم عمل كبير قاموا به لتدمير الإسلام وتفريق وحدة المؤمنين، وذلك حينما هدم مسجد الضرار الذي أقامه المنافقون لمحاربة الإسلام.

ثم تلا ذلك إخراج النبي ﷺ بعض المنافقين من المسجد وفضيحتهم أمام المؤمنين كما سيأتي.

كان لهذا كله أثر بالغ على حياة المنافقين في هذه الفترة وفيما تلاها بعد ذلك جعلهم أضعف مقاومة وأبلغ في التخفي والحذر.

وكان خاتمة المطاف موت عبد الله بن أُبيّ زعيم المنافقين، الذي طالما حارب الإسلام بخبث ومكر وأشعل نار الفتنة بين المؤمنين، ففقد المنافقون بموته زعيمًا كان يخطط لهم أعمال الإفساد، ويجمع شملهم في حربهم مع الإسلام، فشُلّت بموته حركتهم وخبت بفقده جذوتهم، ولم يعد لهم بعد ذلك كيان موحد ولا أخبار مأثورة.

١- محاربتهم الإسلام عن طريق الدعوة إليه

النص القرآني في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٧-١١٠].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر[١]: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فأنزل الله فيه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

---

(١) هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي الأوسي، كما سيأتي في تصوير الموقف.

(٢) جامع البيان ١١/ ٢٤.

٢- أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله ابن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: أقبل رسول الله ﷺ -يعني من تبوك- حتى نزل بذي أوان: بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: إني على جناح سفر وحال شغل -أو كما قال رسول الله ﷺ- ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه،فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي أو وأخاه عاصم بن عدي - أخا بني العجلان - فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه نارًا ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾ إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد بن عبيد بن زيد[1] أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وهو إلى بني أمية بن زيد، ومُعتِّب ابن قُشير من بني ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الازعر من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه مجمع بن جارية وزيد بن جارية، ونبتل بن الحارث وهو من بني ضبيعة ويحزج[2] وهو إلى بني

---

(١) الذي في سيرة ابن هشام: خذام بن خالد من بني عبيد بن زيد.

(٢) في الطبعة الثانية للطبري (بخدج) والذي في المخطوطه (بحزج) كما قال ذلك محقق الطبعة الثالثة، ويؤيده أنه كذلك في سيرة ابن هشام.

ضبيعة، ويجاد بن عثمان وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت وهو إلى بني أمية، رهط أبي لبابة بن عبد المنذر[1].

وأخرج ابن هشام أيضًا هذا الخبر عن ابن إسحاق[2].

وقت نزول هذا النص:

تبين لنا من عرض سبب النزول أن هذه الآيات قد نزلت على رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة عائدًا من تبوك، وقد نزلت عليه وهو بذي أوان مكان بينه وبين المدينة ساعة من نهار كما قال ابن إسحاق في الخبر السابق، وكان قدوم النبي ﷺ المدينة من تبوك في شهر رمضان من السنة التاسعة كما قال ابن إسحاق[3]. وبهذا يتبين أن هذه الآيات قد نزلت في ذلك الوقت.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

عندما انتشر الإسلام في المدينة وهاجر إليها رسول الله ﷺ كان من أهلها من لا يزالون على كفرهم، ولم يكونوا يشعرون بضرورة التظاهر بالإيمان بهذا الدين لضعف المؤمنين به آنذاك، فلما نصرهم الله في بدر ذلك النصر العظيم الذي لم يكن يتوقعه الكفار كان موقف من لم يؤمن به من الأوس والخزرج إما إظهار الإيمان به نفاقًا، وإما الفرار من المدينة، وكان من الذين فروا منها آنذاك أبو عامر الفاسق وصحبه أناس من قومه الأوس إلى مكة.

وقد أخرج خبره ابن هشام عن ابن إسحاق قال: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن أبا عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان أحد بني ضبيعة قد كان خرج حين

---

(١) جامع البيان ١١/ ٢٣.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٢١.

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٣٦.

خرج إلى مكة مباعدًا لرسول الله ﷺ معه خمسون غلامًا من الأوس وبعض الناس كان يقول: كانوا خمسة عشر، وكان يَعِد قريشًا أنْ لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس[1] كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش، وعبدان أهل مكة فقال: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، قالوا فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق -وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية الراهب فسماه رسول الله ﷺ الفاسق- فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالاً شديدًا ثم راضخهم بالحجارة[2].

واستمر بعد ذلك في التأليب على رسول الله ﷺ، ولكنه لما رأى عزة الإسلام وانتصاره لجأ إلى ملك الروم واستنصره على المسلمين.

وكان قد أرسل إلى المنافقين من قومه يطلب منهم أن يبنوا معقلاً للكفر، يُنفِّذون فيه مخططاتهم الفاسدة، وقد اختار أن يكون هذا المعقل مسجدًا حتى يكون الاجتماع فيه أمرًا لا يلفت النظر ولا يثير الشبهة.

وقد نفذوا مخططه ذلك فبنوا مسجدًا في قباء، وانتظروا قدومه عليهم من بلاد الروم بالجيش العظيم الذي وعدهم به، وأخبرهم بأنه سيُخرج به محمدًا وأصحابه من المدينة.

ولما أكملوا بناءه جاءوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهز للسفر إلى تبوك وطلبوا منه أن يصلي في مسجدهم، وكان قصدهم من ذلك إثبات شرعيته، حتى إذا ما أنكر عليهم أحد بعد ذلك شيئًا مما يختص بالمسجد احتجوا عليه بصلاة النبي ﷺ فيه، وقد أخفوا مقاصدهم من بنائه، وأظهروا للنبي ﷺ أنهم إنما بنوه ليكون مأوى لذوي الحاجات يقيهم من المطر وبرد الشتاء، فاعتذر لهم النبي ﷺ بالسفر ووعدهم بالصلاة فيه إذا رجع.

---

(١) يعني يوم أحد.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ١٣.

ولكن الله عز وجل أطلعه على نواياهم السيئة من بناء ذلك المسجد قبل وصوله إلى المدينة، فأمر رجلين من أصحابه أن يهدما ذلك المسجد ويحرقاه ففعلا.وكان أحدهما من أهل قباء المكان الذي بني فيه المسجد.

وقد بين ﷺ بهذا العمل السنة في القضاء على العمل الذي يراد منه الإضرار بالمؤمنين وتفريق كلمتهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج ببتره وإزالة آثاره حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى.

بيان مفردات النص:

إرصادًا: الإرصاد الاستعداد والترقب[١].

شفا: الشفا الحرف والشفير[٢].

جُرف: الجرف بضم الجيم جانب الوادي الذي ينحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيًا[٣].

هار: أصله هائر فنقلت الهمزة إلى ما بعد الراء، ونظيره شاك وصات في شائك وصائت، وفعله هور، والهائر المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط[٤].

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي ومن المنافقين أولئك الذين بنوا مسجدًا ضرارًا للمسجد الذي بني على التقوى وهو مسجد قباء ليصرفوا المؤمنين عنه إلى مسجدهم الذي بنوه لأغراض سيئة لا للتقرب إلى الله تعالى.

---

(١) المفردات، القاموس.

(٢) الكشاف ٢/ ٢١٥، تفسير غريب القرآن / ١٩٢، المفردات، لسان العرب.

(٣) المراجع السابقة.

(٤) المراجع السابقة.

﴿وَكُفْرًا﴾ أي ولأجل خدمة الكفر باتخاذه معقلاً لمحاربة الإسلام.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بين جماعة المؤمنين في الصلاة، حيث كان أهل قباء يصلون جميعًا في مسجد قباء، فبنوا مسجد الضرار قريبًا منه ليفرقوا جماعة المؤمنين هناك، وإذا تفرقوا في الصلاة تفرقت كلمتهم وضعفت ألفتهم واستطاع المنافقون أن يؤثروا على بعضهم.

﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي واستعدادًا وترقبًا ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهو أبو عامر الفاسق.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل ذلك الوقت حيث اشترك مع قريش في حرب المسلمين في غزوة أحد وغيرها كما مر في تصوير الموقف.

وقد كشف الله سبحانه بهذا أهدافهم السيئة من بناء هذا المسجد، حيث بيّن تعالى أن البواعث على بنائه ما هي إلاّ الضرار لمسجد بُنِيَ على التقوى، حتى يتفرق المؤمنون عنه فتذهب ألفتهم وتضعف أخوتهم، واتخاذ هذا المسجد الذي بنوه معقلاً لمحاربة الإسلام وموعدًا للقاء بينهم وبين زعيمهم في الباطل الذي طالما حارب الإسلام من قبل.

ومع هذه الأهداف السيئة التي بُنِيَ من أجلها هذا المسجد فإن أصحابه يتظاهرون بالمقاصد الحسنة من بنائه، ويؤكدون ذلك بالحلف بالله ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ قائلين ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي ما أردنا من بناء هذا المسجد ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي إلاّ الخصلة الحسنى التي تراد من بناء المساجد كالاجتماع للعبادة وإسداء الخير للمحتاجين إليه.

وقد كذبوا فالأمور التي كشفهم الله بها ما هي إلاّ أقبح القبح في نظر المؤمنين، فلا شيء منها يليق أن يتخذ غاية من بناء المساجد، وإنما تُنشأ المساجد للغايات الحسنى من

صلاة وقراءة قرآن ووعظ ودروس علم، واجتماع كلمة فيما فيه صلاح المسلمين، ولذلك قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ أي يعلم علم شهادة وعلم الله للواقع شهادة، ولغير الواقع الذي سيقع غيب ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم وحلفهم هذا.

ثم نهى الله سبحانه نبيه ﷺ عن الصلاة في هذا المسجد، الذي بُنِيَ لهذه المقاصد السيئة فقال تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لا تقم للصلاة فيه أبدًا مهما حاول أصحابه أن يُظهروا صلاح مقاصدهم وأن يسوِّغوا هدفهم من بنائه.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي لمسجد بُنِيَ على الأهداف الحسنة من أول يوم بُنِيَ فيه ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي أجدر وأولى أن تصلي فيه من المسجد الذي بُنِيَ على غير التقوى، وأفعل التفضيل هنا ليس على بابه إذ أنه ليس للمسجد الذي بُنِيَ على غير التقوى شيء من الأحقية فالمعنى: هو الحقيق بأن تقوم فيه لا غيره مما بُنِيَ على غير تقوى من الله.

وقد اختُلف في المراد بالمسجد الذي بُنِيَ على التقوى من أول يوم، بناء على اختلاف الروايات في تعيينه فقيل إنه مسجد رسول الله ﷺ في المدينة، وبذلك قال عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت رضي الله عنهم وسعيد بن المسيب واختاره ابن جرير[1]، ومما يستدل به لهذا القول ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال مَرَّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري قال قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله في بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًّا من حصباء فضرب

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٧، جامع البيان ١١/ ٢٦ – ٢٨.

به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم هذا» -لمسجد المدينة- قال فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره[1].

وقيل إنه مسجد قباء، وممن قال بذلك ابن عباس رضي الله عنهما وعروة بن الزبير وعبدالرحمن ابن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري وسعيد بن جبير وقتادة[2].

ومما يستدل به لهذا القول ما رواه الإمام أحمد والطبراني عن عويم بن ساعدة «أنه حدَّث أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: إن الله تبارك وتعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهَّرون به، قالوا: والله يا رسول الله لا نعلم شيئًا إلاَّ أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا» قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الثلاثة وفيه شرحبيل بن سعد ضعفه مالك وابن معين وأبو زرعة ووثقه ابن حبان[3].

وقد رواه الحاكم من طريق آخر وصححه وأقرَّه الذهبي[4].

فهذا الحديث يدل على أنه مسجد قباء، ويدل على ذلك سياق الآيات حيث ذُكر فيها أن من الأهداف التي بني من أجلها مسجد الضرار التفريق بين جماعة المؤمنين بتفريقهم في الصلاة، وقد تبين لنا من عرض سبب النزول أن مسجد الضرار كان في قباء، ومما يدل على ذلك أن خذام بن خالد الذي أُخرج مسجد الضرار من بيته من بني عمرو بن عوف

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحج باب بيان المسجد الذي أسس على التقوى (ص١٠١٥).

(٢) جامع البيان ١١/ ٢٧، تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٦.

(٣) مجمع الزوائد ١/ ٢١٢.

(٤) المستدرك ١/ ١٥٥.

ومنازلهم كانت في قباء[1]، وذلك يقتضي أن يكون المسجد الذي حاولوا تفريق المصلين عنه قريبًا من مسجدهم الذي بنوه، فيدل ذلك على أن المسجدين كانا في قباء إذ لا يتصور أن يفرقوا بمسجدهم الذي بنوه في قباء المصلين عن مسجد رسول الله ﷺ داخل المدينة. ولكن رواية مسلم صريحة في أن المراد بالمسجد في الآية المسجد النبوي، والظاهر أن المراد به مسجد قباء، وتحمل رواية مسلم على أن المراد إن كان مسجد قباء قد بُنِيَ على التقوى فالمسجد النبوي أحق منه وأحرى بهذا الوصف كما قال ابن كثير[2].

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ أي في ذلك المسجد الذي بُنِيَ على التقوى رجال يحبون أن يبالغوا في تنظيف أنفسهم من النجاسات، وذلك بالاستنجاء بالماء كما هو واضح من الأحاديث السابقة.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي المتنزهين من جميع الأدران الحسية والمعنوية، ومن كانوا محبوبين عند الله تعالى فهم الذين يستحقون أن يقصد مسجدهم ليصلى فيه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي هل من بنى أعماله وجميع تصرفاته في الحياة الدنيا على تحري تقوى الله وابتغاء مرضاته فنجى بذلك من عذاب الله كمن بناها على الكفر والنفاق فأودت به إلى السقوط في نار جهنم؟! إنهما لا يُجعلان محل موازنة، لأن الأول كمن بنى له بيتًا على شفا جرف واد قد هدمته السيول حتى صار باليًا فانهار به في بطن الوادي. وهذا المثل ضربه الله للمؤمنين الذين بنوا مسجد قباء وللمنافقين الذين بنوا مسجد الضرار.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٧.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم لسلوك الطريق المستقيم بعدما ظلموا أنفسهم بالانحراف عنه عقوبة لهم على اختيار الضلال على الهدى.

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي شكًا في قلوبهم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]. فقد كانوا قبل انكشاف أمرهم في شك من نجاح مخططهم الماكر، ثم أصبحوا بعد انكشافهم في شك من النجاة من مغبة عملهم ذلك.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي بالموت كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]. وفي التعبير عن الموت بتقطع القلوب وصف لحياة الخوف والقلق، والحقد والكمد التي يعيش فيها أولئك المنافقون.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يضمره عباده من أفعال الخير والشر ﴿حَكِيمٌ﴾ في الستر عليهم أو فضيحتهم.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

يبين الله سبحانه لنا خبر أولئك المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، كاشفًا سبحانه عن نواياهم السيئة وأهدافهم الهدامة.. من الإضرار بالمؤمنين والتفريق بين جماعتهم، واتخاذ ذلك المسجد معقلاً للكفر، يجتمعون فيه ويتبادلون الرأي في أعمال الهدم التي يريدون تنفيذها ويجعلون منه مأوى لمن حارب الله ورسوله، وإن مسجدًا هذه هي الأهداف من بنائه لا يجوز لمؤمن أن يصلي فيه، لأنه لم يؤسس على تقوى من الله بل أسس لمحادة الله ورسوله، وإن هذا التحريم ليزداد شدة حينما يكون من دعا للصلاة فيه رجل له

---

(١) أخرجه ابن جرير عنه من طريق علي بن أبي طلحة (جامع البيان ١١/ ٣٣).

(٢) أخرجه ابن جرير عنه من طريق علي بن أبي طلحة – جامع البيان ١١/ ٣٣.

مكانة عالية بين المؤمنين يُحتج بقوله وفعله، لأن المنافقين يستغلون هذه الفرصة فيتخذون ذلك مسوغًا شرعيًا لعملهم في الإفساد والتدمير.

وهكذا نجد أعداء الإسلام في كل زمن إذا لم يستطيعوا أن ينالوا منه بالوسائل المكشوفة، انتسبوا إليه وقاموا بالدعوة إليه، ليستطيعوا أن يغزوه عن كثب وهم محتمون بذلك من سطوة أتباعه المخلصين له.

وإذا كان المنافقون في عصر النبي ﷺ قد أنشأوا مسجدًا للضرار، فإن العصور التي تلت ذلك العصر قد شهدت من أعمال المكر والخداع المتلبس بالتدين ما يربو أثره على أثر ذلك المسجد الذي أقيم في عهد النبي ﷺ، وخصوصًا في هذا العصر الذي تعقدت فيه الحياة، وتلونت فيه أساليب المكر والخداع، وأصبحت من كثرة ممارسة الناس لها تتخذ صورة الشرعية والأحقية، فقد أُنشئت على مدى العصور الإسلامية أحزاب تتسم بالتدين، والدعوة إلى الإسلام في ظاهرها وهي في باطنها تحارب الإسلام الممثل في دعاته المخلصين، فتحاول أن تنفر الناس عنهم وتهدم في ساعات ما بنوه في سنوات.

ومن ذلك ما يقيمه أعداء الإسلام من المؤتمرات الإسلامية، التي يدعون لحضورها بعض المفكرين من علماء المسلمين، فيتخذون بعد ذلك من حضور هؤلاء العلماء وسيلة لتنفيذ مخططاتهم الآثمة، ويستغلون شهرتهم في المجتمع الإسلامي لترويج بضاعتهم الزائفة في الهدم والتضليل. ومما يدل على خبثهم ومكرهم أنهم لا يدعون لحضور تلك المؤتمرات من علماء المسلمين غالبًا إلاَّ من يتوسمون فيه ضعفًا في الدين، يحمله على مداهنتهم والسير في ركابهم، ممن تأخذه المظاهر البراقة ويجرفه تيار المجتمع الجاهلي الذي يُكْبِر أولئك المفكرين من أعداء الإسلام، ويُكِنُّ لهم غاية الاحترام والتبجيل، فتشغله هذه الاعتبارات الجاهلية عن تذكر واجبه نحو دينه ومسؤوليته أمام ربه جلَّ وعلا.

وربما دعوا أقوياء الإيمان الذين هم على يقين من أنهم لن يداهنوهم ولن يتأثروا بكلامهم، ليضفوا على مؤتمرهم شيئًا من التقدير والاعتبار لدى جمهور المسلمين المعجبين بأولئك العلماء، الذين أثبتت التجارب صمودهم في وجه الطغيان وتحديات الجاهلية.

* * *

٢- المنافقون من الأعراب وأهل المدينة ونوع نفاقهم

النص القرآني في ذلك:

١- قال تعالى ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٩٧-٩٩].

٢- قال تعالى ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:١٠١].

بيان من نزل فيه النص:

قوله تعالى ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ﴾ الآية.

أخرج الطبراني في الأوسط بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيبًا فقال: قم يا فلان فاخرج فإنك منافق فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم، ولم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له[1] فلقيهم عمر وهم يخرجون من

(١) يعني أنه تأخر في الحضور للمسجد.

المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا: واختبؤوا هم من عمر وظنوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين هذا اليوم. فهذا العذاب الأول، والعذاب الثاني عذاب القبر. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي وهو ضعيف[١].

وأخرجه الطبري أيضًا من طريق الحسين بن عمرو العنقزي نفسه[٢].

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات مما نزل في سياق آيات غزوة تبوك، وقد كانت هذه الغزوة في رجب من السنة التاسعة كما سبق، وقد تم انكشاف كثير من المنافقين من أهل المدينة ومن حولهم بسبب موقفهم من هذه الغزوة.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

حينما تم انتصار المسلمين في بدر على كفار مكة ظهرت عزة الإسلام، فأعلن عدد من عبدة الأوثان من أهل المدينة إسلامهم نفاقًا كما سبق.

ثم أعلن بعض الأعراب ممن هم حول المدينة إسلامهم بعد ذلك، كقبائل مزينة وأسلم وأشجع وغفار وجهينة.

ولقد ابتلى الله هؤلاء المنافقين بالمحن التي كشفتهم على حقيقتهم، فكان يوم [أحد] فرقانًا بين المؤمنين والمنافقين من أهل المدينة، حيث ظهر أمرهم وتميز بعضهم من بعض.

أما أعراب المدينة فقد استنفرهم النبي ﷺ ليخرجوا معه عام الحديبية، فتثاقل أكثرهم وتخلفوا عنه، فكان ذلك امتحانًا لهم تبين به نفاقهم.

---

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٣٣ – ٣٤.

(٢) جامع البيان ١١/ ١٠.

ولما فتحت مكة وانتصر المسلمون على أكبر أعدائهم في جزيرة العرب دخل الناس في دين الله أفواجًا، وجاءت وفود العرب إلى المدينة مسلمين خاضعين، وكان بعض هؤلاء الأعراب قد استسلم لعزة الإسلام الذي أصبحت له السيادة في بلاد العرب، ولم يدخل فيه عن فهم واقتناع، واستمروا على استسلامهم هذا إلى أن توفي النبي ﷺ، ولم يسبق ذلك محن تكشفهم وتظهر حقيقة إيمانهم، ولكن الله سبحانه قد أشار في هذه الآيات إلى وجود النفاق في الأعراب، وبيّن أنهم أشد تصلبًا في الكفر والنفاق من منافقي أهل القرى، وقد نبه الله سبحانه المؤمنين بهذا إلى الخطر الذي يكمن وراء هذا الإقبال السريع على الدخول في الإسلام، بعدما ظهرت عزة المؤمنين به واكتملت قوتهم، ليكونوا من المنافقين على حذر فلا يعتمدوا عليهم وقت الشدائد.

ولما توفي النبي ﷺ ارتد أكثر هؤلاء الأعراب عن الإسلام وظهر نفاقهم، فكانت وفاة النبي ﷺ محنة لهم أظهرت الصادق منهم في إيمانه من الكاذب.

ولكن الله سبحانه قيض لدينه أولئك المؤمنين الصادقين، من المهاجرين والأنصار الذين أكمل الله تربيتهم على يد نبيه ﷺ، فقضوا على قوة أولئك المنافقين وأرغموهم على الخضوع لدولة الإسلام، وأعادوا لهذا الدين عزته وانتصاره ﷺ.

بيان مفردات النص:

أجدر: أي أولى وأخلق وأحرى: والجدير بالشيء الخليق به[(١)].

وقال الراغب: والجدير المنتهي لانتهاء الأمر إليه انتهاء الشيء إلى الجدار[(٢)].

مغرمًا: قال الراغب: الغرم ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر، لغير جناية منه أو خيانة[(٣)].

---

(١) لسان العرب، تاج العروس.

(٢) المفردات في غريب القرآن.

(٣) نفس المصدر السابق.

صلوات: جمع صلاة والصلاة في اللغة: الدعاء، كما في قوله ﷺ «إذا دُعِيَ أحدكم إلى طعام فليجب وإن كان صائمًا فليَصلِّ»أي ليدعُ لأهله[1] فمعنى قوله ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ ودعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم.

مردوا: أي عتوا وطغوا، والمرود: أن يبلغ الغاية التي تخرج به عن جملة ما عليه ذلك الصنف ومنه ﴿شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾[2].

بيان معنى النص:

ذكر الله سبحانه في هذه الآيات المنافقين من الأعراب ليبين ما يتصفون به من قسوة القلوب والجهل بأحكام الإسلام فقال تعالى ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ والأعراب هم سكان البادية كما سبق، والمفضل عليه في الآية هم أهل المدن والقرى، أي أهل البادية أشد تصلبًا على الكفر والنفاق من أهل المدن والقرى ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ أي وأولى وأحرى بالجهل بأحكام الإسلام من أهل الحاضرة، لقلة سماعهم الكتاب والسنة ومشاهدتهم تطبيق أحكام الإسلام.

والأعراب معروفون بالجفاء والغلظة والتسرع في الحكم على الأمور، والمضي فيها بلا تعقل ولا تروٍّ، والتعصب الشديد لما يعتقدونه وإن كان وهمًا وخرافة، ولذلك كانوا أشد تعصبًا للكفر من أهل القرى.

وإنما كانوا أشد تصلبًا على الكفر لأنهم لا يعرفون أن ما يدعو إليه الإسلام هو الحق، وأن ما هم عليه هو الباطل، فهم متعصبون لباطلهم لأنه لم يدخل في مشاعرهم ما يزعزع

---

(١) المفردات في غريب القرآن، القاموس المحيط.

(٢) القاموس المحيط، لسان العرب، مجاز القرآن ١/ ٢٦٨.

اعتقادهم بذلك الباطل، بخلاف الكفار من أهل مكة والمدينة مثلاً الذين أكثروا من سماع القرآن وقت نزوله، وشاهدوا المعجزات النبوية فإنهم غالبًا يعرفون أن ما هم متمسكون به هو الباطل، وأن ما يدعو إليه رسول الله ﷺ هو الحق، وإنما حادوا عنه لهوى في نفوسهم، فهم في معركتهم مع الحق مهزومون من داخلهم.

ولذلك كان المنافقون من الأعراب الذين يجهلون حقيقة الإسلام أشد خطرًا على المسلمين من المنافقين من أهل المدينة الذين يفهمون حقيقة الإسلام، ويدركون قدرته على تحويل المؤمنين به إلى طاقات جبارة، لا يمكن أن يقف أمامها أحد، بعدما رأوا قدرة المؤمنين بقيادة رسول الله ﷺ على الخروج من مآزق حرجة، لم يكن أولئك المنافقون يتوقعون إلاّ أن تكون فيها نهايتهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمنافقين على مختلف طبقاتهم وبمقدار خطرهم على الإسلام ﴿حَكِيمٌ﴾ حينما أبقى عليهم، وأمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، مع ما في وجودهم بين المؤمنين من الخطر عليهم.

ثم بين سبحانه وتعالى حال المنافقين من الأعراب، بالنسبة لما يخرجونه من أموالهم في سبيل الله، كتجهيز الغزاة أو الصدقة على الفقراء فقال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي وبعض المنافقين من الأعراب يعتبر ما يخرج من ماله في سبيل الله خسارة لا تعوض، وضررًا عليه في ماله لا يجني من ورائه فائدة، لأنه لا يؤمن بالآخرة فلا يرجو فيها ثوابًا على عمله، وإنما يُخرج ما يخرجه من ماله نفاقًا.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي وينتظر بكم دوائر الزمان بالمكروه، وذلك لكراهتهم إياكم، لأنكم تجبرونهم على الإخراج من أموالهم، فهم ينتظرون بكم دائمًا صروف الدهر ونوائب الزمان حتى تهلكوا، فيستريحوا من دفع تلك الغرامة التي لم يخرجوها إلاّ نفاقًا.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي إن ما انتظروه بالمؤمنين من دوائر السوء سيحيق بهم بمقتضى وعد الله جل وعلا بنصر أوليائه وخذلان أعدائه ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية جل وعلا فلا يظن هؤلاء المخدوعون أنهم إن استطاعوا تلبيس أمرهم على الناس يستطيعون التلبيس على الله، فالله سبحانه عالم بجميع تصرفاتهم الظاهرة والباطنة، وسيحمي أولياءه المؤمنين من كيدهم.

وبعد أن بيّن سبحانه حال المنافقين من الأعراب، بيّن حال المؤمنين منهم بالنسبة لإنفاق الأموال في سبيل الله، حيث قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إيمانًا حقًا يسيطر على غرائزهم ويتحكم في تصرفاتهم ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ينوي بما ينفق في سبيل الله من ماله التقرب إلى الله عز وجل وابتغاء مرضاته لأنه مؤمن بالله واليوم الآخر حقًا ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي ويبتغون بإنفاقهم في سبيل الله دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي صدقة مقبولة عند الله عز وجل تقربهم منه ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ في جنات النعيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ساتر ذنوب عباده إذا أنابوا إليه، مكافئهم على أعمالهم الصالحة.

وبعد أن أخبرنا سبحانه عن وجود النفاق في الأعراب إجمالاً، وبيّن لنا الصفة المميزة لنفاقهم بيّن لنا أن النفاق قد فشا في الأعراب المجاورين للمدينة، وأن من المنافقين من أهل المدينة من لا يزالون على نفاقهم، حيث قال تعالى ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ وهم قبائل جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار، وكانت منازلهم حول المدينة، كما أخرج ذلك ابن المنذر عن عكرمة[1]. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، أي عتوا فيه ومرنوا عليه.

---

(١) روح المعاني ١١/ ٩.

والجملة في قوله ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ يحتمل أن تكون مستأنفة لبيان غلوهم في النفاق، ويحتمل أن تكون صفة لقوله ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾ وقد استبعد هذا أبو حيان للفصل بين الصفة والموصوف بقوله ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ ويحتمل أن تكون صفة لمبتدأ محذوف خبره قوله ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ والتقدير: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق[1].

وينبني على هذا الاختلاف أننا إذا اعتبرناها جملة مستأنفة رجع الخبر بكونهم مردوا على النفاق على الفريق الأول وهو قوله ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ وما عطف عليه وهو قوله ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ وكذلك فيما إذا اعتبرناها صفة للمبتدأ الذي هو قوله ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾ أما إذا اعتبرناها صفة لمبتدأ محذوف فإن الخبر بكونهم مردوا على النفاق يرجع إلى المنافقين من أهل المدينة فقط.

وقد رجح أبو السعود الوجه الأخير بقوله وهو الأظهر والأنسب بذكر منافقي أهل البادية أولاً، ثم ذكر منافقي الأعراب المجاورين للمدينة، ثم منافقي أهلها والله تعالى أعلم[2].

وهذا هو الظاهر لأن المنافقين من أهل المدينة هم الذين اشتهر عنهم العتو في النفاق والتمرد على الحق بعد وضوحه لهم، ولا يتنافى هذا مع قوله تعالى ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ لأن المقصود بالشدة التصلب في اعتناق الكفر وعدم التفكير في حقيقة الإسلام لجهلهم بحقيقته، بخلاف المنافقين من أهل المدينة الذين شاهدوا التنزيل والمعجزات النبوية فهم يعرفون الحق ولكنهم يرفضون أتباعه، ولذلك أصبحوا مخذولين

---

(١) الكشاف ٢/ ٢١١.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٥٩٧.

في معركتهم معه في بواطنهم، وكانوا أقل تصلبًا في الكفر من الأعراب، ولكنهم أعرق في النفاق وأشد رسوخًا فيه، لأن من يعرف الحق فيعزف عن أتباعه لهوى في نفسه يبعد أن يرجع إليه بخلاف من يعزف عنه جهلاً به.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لمهارتهم في النفاق وشدة حذرهم فتخفى عليك حقيقتهم ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فأمرهم لا يخفى علينا فالله سبحانه هو العليم بسرائرهم.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة في الحياة الدنيا بسائر أنواع العذاب من فضيحتهم وكشف أمرهم وما يصيبهم من الغم بسبب انتصار المؤمنين وعلو شأن الإسلام، وما سبق في بيان من نزل فيه النص عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن المراد فضيحتهم على لسان رسول الله ﷺ حينما أخرجهم من المسجد هو مما يدخل في معنى الآية.

أما المرة الثانية فالمراد بها عذابهم في القبور[1].

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي ثم يرجعون بعد ذلك إلى عذاب هائل مديد يوم القيامة وهو عذاب جهنم[2].

* * *

(١) انظر مثلاً: جامع البيان ١١/ ١٠ – ١١، الكشاف ٢/ ٢١١، روح المعاني ١١/ ١١.

(٢) جامع البيان ١١/ ١١، الكشاف ٢/ ٢١١، روح المعاني ١١/ ١١.

٣- تشكيكهم الناس في صدق النبي ﷺ

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٣ - ٧٤].

بيان من نزل فيه النص:

١- أخرج الإمام ابن جرير من حديث عروة بن الزبير في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قال: نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت قال: إن كان ما جاء به محمد حقًا لنحن أشر من الحمُر! فقال له ابن امرأته: والله يا عدوّ الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فإني إن لا أفعل أخاف أن تصيبني قارعة وأؤاخذ بخطيئتك، فدعا النبي ﷺ الجلاس فقال: «يا جلاس أقلتَ كذا وكذا؟» فحلف ما قال: فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ الآية[1].

وأخرج ابن جرير أيضًا عن عروة بن الزبير قال: وكان الجلاس قُتل له مولى فأمر له رسول الله ﷺ بديته فاستغنى فذلك قوله ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ﴾[2].

---

(١) جامع البيان ١٠/ ١٨٥.

(٢) جامع البيان ١٠/ ١٨٧.

وأخرج ابن جرير أيضًا عن عروة أنه قال في قوله ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: قال الجلاس قد استثنى الله لي التوبة فأنا أتوب، فقبل منه رسول الله ﷺ[1].

وأخرج ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: همَّ المنافق بقتله، يعني قتل المؤمن الذي قال له: أنت شر من الحمار، فذلك قوله ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾[2].

٢ - قال ابن كثير: قال الأموي في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبدالرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ[3] أخذني قومي فقالوا: إنك امرؤ شاعر فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة، ثم يكون ذنبًا تستغفر الله منه، وذكر الحديث بطوله إلى أن قال: وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي ﷺ[4] الجلاس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقًا فيما يقول لنحن شر من الحمير، فسمعها عمير بن سعد فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليَّ وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم عليَّ أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحني، ولئن كتمتها لتهلكني، ولإحداهما أهون عليَّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب عليَّ، فأنزل الله عزَّ وجل فيه

---

(١) المرجع السابق ١٠/ ١٨٨.

(٢) المرجع السابق ١٠/ ١٨٦.

(٣) يعني من غزوة تبوك لأنها هي الغزوة التي اعتذر من التخلف عنها كعب بن مالك.

(٤) يعني خارجًا معه في غزوة تبوك.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ إلى آخر الآية، فوقفه رسول الله ﷺ عليها فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع.

قال ابن كثير: هكذا مدرجًا في الحديث متصلاً به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك[(١)].

وهاتان الروايتان تحكيان قصة واحدة فيما يظهر.

٣ - قال ابن جرير: حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا عبد الله بن رجاء قال حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس:... وذكر قوله ﷺ «أنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه » الحديث[(٢)]. وقد سبق ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ من سورة المجادلة وقد رواه ابن جرير هناك عن ابن المثنى قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة عن سماك به وهذا السند أصح من سند ابن جرير في الآية التي معنا إضافة إلى أنه قد أخرج تلك الرواية ابن أبي حاتم وأحمد والحاكم كما سبق، فلعل أحد الرواة في الرواية التي معنا قد وَهِمَ فذكر هذه الآية بدلاً من آية المجادلة.

٤- أخرج ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة أن قوله تعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآية قد نزلت في عبد الله بن أبيّ حينما قال : فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلاّ كما قال القائل «سمِّن كلبك يأكلك»[(٣)]. وقد سبق بيان هذا الخبر في تفسير سورة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٧.

(٢) جامع البيان ١٠/ ١٨٥.

(٣) المرجع السابق ١٠/ ١٨٦.

[المنافقون] وذلك في غزوة بني المصطلق، ولم يرد في رواية البخاري التي سبقت هناك أن هذه الآية قد نزلت بسبب موقف عبد الله بن أبيّ في تلك الغزوة، فالظاهر أن في رواية قتادة وَهْمًا في ذكر الآية التي معنا فيها كما قال ابن كثير في التعقيب على هذه الرواية: والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق فلعل الراوي وَهِمَ في ذكر الآية وأراد أن يذكر غيرها فذكرها والله أعلم[1] .

وبهذا يظهر أن كون هذه الآية قد نزلت في الجلاس بن سويد هو الراجح.

وقت نزول هذا النص:

من الرواية السابقة التي ذكرها الأموي في مغازيه يتبين لنا وقت نزول هذا النص حيث ذكر فيها أن قول الجلاس بن سويد بن الصامت السابق، كان بسبب نزول الآيات في كشف المنافقين وذمهم بعد غزوة تبوك، وقد سبق لنا أن هذه الغزوة كانت في شهر رجب من السنة التاسعة، فيكون هذا النص قد نزل بعد ذلك.

تصوير الموقف:

بعد أن تخلف من المنافقين عن غزوة تبوك نزل القرآن بذمهم وانتقاصهم، والتشهير بهم حتى شبههم الله بالنساء والمقعدين. وكان بعضهم ذوي شرف وزعامة في قومهم، ومنهم عبد الله بن أبيّ الذي قد أجمعت الخزرج على تسويده عند قدوم رسول الله ﷺ، فاستنكر ذلك المنافقون حيث رأوا أن الذين ورثوا المجد كابرًا عن كابر، وحرص قومهم على رفعهم وتتويجهم ينزل بهم الإسلام، حتى يضعهم أسفل سافلين وينتزع منهم خلال العزة ومقومات الرجولة.

وكان الذي رُوي كلامه في استنكار ذلك الجلاس بن سويد بن الصامت حيث قال في رسول الله ﷺ: والله لئن كان هذا الرجل صادقًا فيما يقول لنحن شر من الحمير، كما في الروايات السابقة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٧.

ولقد سمعه وهو يقول ذلك الكلام عمير بن سعد ﷺ وكان يتيمًا في حجره، وكأن الجلاس لم يهتم بذلك اليتيم الذي رباه في حجره لصغر سنه، أو كأنه رأى أن أثر نعمته عليه سيمنعه من الإساءة إليه وإلحاق الضرر به، فتكلم بذلك الكلام القبيح وهو يسمع!! ولكن ذلك الفتى الذي رسخ الإيمان في قلبه في وقت مبكر، والذي أصبح فيما بعد علمًا من أعلام المسلمين قد رأى أن مراقبة الله أولى من مراقبة المخلوقين، وأن من واجبه أن يرضي الله ولو سخط عليه أقرب الناس إليه، الذي رباه في حجره وأضفى عليه من نعمته، ولقد وازن ﷺ بين فضيحته بإنكار المنكر الذي يتضمن كشف ستر من أحسن إليه، وبين هلاك الآخرة بكتمان الأمر والسكوت على المنكر، فرجّح النجاة من هلاك الآخرة لأنها هي الباقية، وأخبر النبي ﷺ بمقالة الجلاس بن سويد، وهذا مثل من أمثلة التقوى يضربه للناس ذلك الصحابي الجليل وقد كان آنذاك غلامًا.

ولقد هَمَّ الجلاس بقتله حتى لا يفشي عليه سره ولكن الله حماه منه، ولما علم الجلاس باطلاع رسول الله ﷺ على مقالته جاء إليه وحلف بالله أنه ما قالها، كعادة المنافقين عندما يقعون في المآزق ويريدون الخلاص منها، ولكنه بعد أن نزل القرآن بفضيحته لم يعد لحلفه قيمة وتبين أنه قد جمع بين ذلك الكلام السيئ والحلف بالله كذبًا.

وقد أظهر التوبة بعد ذلك كما يستفاد من رواية عروة السابقة.

بيان معنى النص:

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي ابذل وسعك في قتالهم، وشدد الوطأة عليهم في المعاملة في الدنيا، ومأواهم الذي يرجعون إليه في الآخرة نار جهنم وساءت مستقرًا ومقامًا.

قوله ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ الضمائر في الآية تعود على المنافقين كما سبق في سبب النزول، وكلمة الكفر هي قول الجلاس بن سويد: لئن كان هذا الرجل صادقًا فيما يقول لنحن شر من الحمير، كما سبق في سبب النزول.

المعنى: يحلف لكم بالله أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون بأنهم ما قالوا ما نسبه إليهم بعض المؤمنين، من كلمات السخرية بالدين وبمن جاء به لينجوا أنفسهم من مغبة الاعتراف بذلك أمامكم، ولقد كذبوا في ذلك الحلف وقالوا كلمة الكفر حينما كذّبوا محمدًا ﷺ فيما جاء به من عند ربه.وتبين كفرهم بعدما كانوا يظهرون الإسلام.

﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ المراد بهذا الهمّ همّ الجلاس بن سويد بقتل ابن امرأته، خوفًا من أن يفشي عليه سره كما سبق.

أي همّوا بشيء من الإفساد في الأرض، وذلك بقتل المؤمنين الأبرياء، ومن هذا يتبين لنا جرأة المنافقين على الإفساد، ولو عن طريق قتل المؤمنين من أقاربهم.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ النقمة: بمعنى الإنكار والكراهية، قال الراغب: نقمت الشيء ونقمته إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة[1].

أي: وما أنكروا في الإسلام شيئًا من الأشياء إلاّ أن أخرجهم من الفقر إلى الغنى، ومن الذل إلى العز حتى توصلوا به إلى استخراج حقوق مالية واكتساب أموال لولا الإسلام لم يصلوا إليها، فإذا كانوا إنما ينظرون للدنيا فماذا ينكرون في الإسلام وقد توصلوا به إليها؟!

(١) المفردات في غريب القرآن.

وهذا التعبير فيه تهكم بهم وهو من تأكيد الشيء بخلافه كقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب[1]

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي فإن يرجعوا إلى الله ويصدقوا في إيمانهم يكن الرجوع خيرًا لهم من البقاء على الكفر والنفاق، لأن الله سيغفر لهم تلك الذنوب على كثرتها وعظمتها، بمجرد رجوعهم إليه تائبين منيبين، لأن رحمته واسعة وفضله كبير.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وإن يعرضوا عن الرجوع إلى الله ويستمروا على نفاقهم فقد أعد الله لهم في الآخرة عذاب النار، مع ما يقاسونه في الدنيا من عذاب الخوف والقلق والحيرة، ولن يجدوا لهم في الأرض من يتولى أمرهم أو ينصرهم من عذاب الله إذا حل بهم.

* * *

(١) روح المعاني ١٠/ ١٣٩.

٤- اتهامهم النبي ﷺ بالبلاهة

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٦١-٦٣].

بيان من نزل فيه النص:

١- قال الألوسي: أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي أنها نزلت في جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن الصامت، ورفاعة بن عبد المنذر، ووديعة بن ثابت وغيرهم قالوا مالا ينبغي في حقه عليه الصلاة والسلام، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغ محمدًا ﷺ ما تقولون فيقع بنا، فقال: الجلاس بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإن محمدًا ﷺ أذن، وفي رواية: أذن سامعة[(١)].

٢- وقال ابن إسحاق في هذه الآية: وكان الذي يقول تلك المقالة -فيما بلغني- نبتل ابن الحارث أخو بني عمرو بن عوف وفيه نزلت هذه الآية، وذلك أنه كان يقول: إنما محمد أُذُنٌ من حدثه شيئًا صدقه[(٢)].

وما ذكره ابن أبي حاتم أرجح لأن ضمير الجمع في قوله تعالى ﴿يُؤْذُونَ﴾ يدل على أنهم كانوا جماعة لا واحدًا، ويحتمل أن نبتل بن الحارث كان من ضمنهم.

---

(١) روح المعاني ١٠/ ١٢٥.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٦٥.

وقت نزول هذا النص:

ليس في سبب النزول السابق الذكر ما يحدد وقت نزول هذه الآيات، وهذه الآيات من سورة التوبة وهي آخر سورة نزلت في المدينة، وقد نزلت هذه الآيات في سياق آيات غزوة تبوك، وقد سبق أن غزوة تبوك كانت في شهر رجب من السنة التاسعة.

تصوير الموقف:

كان بعض المنافقين في المدينة إذا دخلوا إلى بعضهم أخذوا يتحدثون في النبي ﷺ بما يؤذيه، فيعيبونه ويسخرون منه وينتقصون من قدره، وكان النبي ﷺ يطلع على كثير مما يدور بينهم، أحيانًا عن طريق الوحي وأحيانًا عن طريق بعض المؤمنين الذين يؤلمهم ما يسمعونه منهم من الكلام الجارح، فينزل الوحي يصدقهم في بعض الأحيان.

وكان النبي ﷺ يغضي عن أولئك المنافقين كرمًا منه وتسامحًا، وإذا جاءوا إليه معتذرين لم يجابهم باللوم والتعنيف، بل يقبل منهم ظواهرهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وكانوا يخافون من انكشاف أمرهم باطلاع النبي ﷺ على ما يقولونه في حقه من الكلام السيء، ولكن بعضهم لكثرة ما كان يعاملهم به النبي ﷺ من الحلم والعفو قد ظنوا أن أمرهم قد خفي عليه، وأنه يصدقهم في كل ما يقولونه له، ويقبل جميع اعتذاراتهم فلجُّوا في غوايتهم حتى بلغ بهم لؤمهم وخبث نفوسهم إن اعتبروا ما كان يعاملهم به النبي ﷺ من العفو والسماحة نوعًا من الغفلة والبله، فنزل القرآن يكشف حقيقتهم ويبين لهم خطأ ما توهموه في النبي ﷺ، من أنه يقبل اعتذاراتهم الكاذبة قبول اقتناع وتسليم.

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿وَمِنْهُمُ﴾ أي ومن المنافقين الذين سبق ذكرهم في هذه السورة ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ بانتقاده والسخرية منه فيما إذا خلا بعضهم ببعض ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عندما

يحذرهم بعضهم من اطلاع النبي ﷺ على ما يسرونه من ذلك ﴿هُوَ﴾ أي رسول الله ﷺ ﴿أُذُنٌ﴾ يصدق كل ما يسمع من غير وزن ولا تقدير، فإذا اطلع علينا ذهبنا إليه فاعتذرنا منه فصدقنا بما نقول، فلا يهمكم اطلاعه على ما يجري منا[١].

وقد جرأهم على هذا السلوك المنحرف تسامح النبي ﷺ معهم، وقبوله ما يظهر له من أمرهم من غير تحقيق معهم أو تعنيف لهم.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يجيبهم ببيان حقيقة مقامه، وقيمة وجوده بينهم فقال ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي هو أذن في الخير والحق، وفيما يُشرع سماعه وقبوله، وليس بأذنٍ في غير ذلك.

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي يصدق بوجود الله ووحدانيته، وهذا تفسير لقوله ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ وإنما كان خيرًا لهم بإيمانه بالله عز وجل لأنه مادام كذلك لن يأمرهم إلاَّ بما فيه خيرهم، ولن يحذرهم إلاَّ عما فيه شرهم.

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدقهم، وقد عُدِّي الفعل هنا باللام بينما عُدِّي بالنسبة لله عز وجل بالباء، لأن المقصود من الإيمان بالله التصديق بوجوده ووحدانيته، بينما المقصود من الإيمان للمؤمنين تصديقهم فيما يقولون والتسليم لهم، ونظيره قوله تعالى ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ وقوله حكاية عن أبناء يعقوب ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ وقد أشار إلى ذلك الزمخشري[٢].

---

(١) الأذن في الأصل هي الجارحة، ويستعار لمن كثر استماعه وقبوله لما يسمع من غير أن يتدبر فيه، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملته أذن سامعة – الكشاف ٢/ ١٩٩، المفردات في غريب القرآن.

(٢) الكشاف ٢/ ١٩٩.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ الجملة معطوفة على قوله ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾ أي وهو رحمة للذين آمنوا منكم، والمراد بالمؤمنين هنا المؤمنون الصادقون، وبهذا قال ابن جرير وابن كثير[1] فالخطاب في قوله ﴿مِنكُمْ﴾ لعموم المؤمنين بما فيهم المنافقون، المعنى: قل هو أذن خير لكم جميعًا، ورحمة للمؤمنين الصادقين خاصة لأنهم هم الذين استفادوا من دعوته، والمراد بهذه الرحمة الخاصة بالمؤمنين التي تترتب عليها سعادتهم في الآخرة، وقيل إن المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون، وكونه رحمة لهم لأنه قبِل منهم الإيمان الظاهر لا تصديقًا لهم بل رفقًا بهم، ولم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم، وبذلك قال أبو السعود والألوسي[2]: وهذا قول بعيد لأن النبي ﷺ إنما بعث رحمة لمن آمن به حقًا، أما تفسيرهم كونه رحمة للمنافقين بستره عليهم وقبوله الإيمان منهم ظاهرًا فهو خطأ واضح لأن ذلك يعتبر استدراجًا من الله لهم، وكيف يكون رحمة لهم وهم يعيشون في الدنيا في أسوأ حال، حيث يتوقعون في كل يوم أن يوقع بهم النبي ﷺ إذا انكشفوا وظهرت حقيقتهم، وسيؤول أمرهم في الآخرة إلى أسوأ حال حيث يكونون في الدرك الأسفل من النار؟

المعنى: ليس رسول الله ﷺ كما تصورتموه أيها المنافقون من أنه يصدق كل ما يسمع، بل هو لا يصدق إلاّ ما يأتيه عن الله، لأن هذا هو اليقين القطعي الذي لا يتطرق إليه الشك، ويصدق المؤمنين الصادقين في إيمانهم لأنهم لن يحدثوه كذبًا حيث إن الكذب يتناقض مع الإيمان الحق، أما أنتم أيها المنافقون فإنه لا يصدقكم وإن حلفتم له بالله، لأنكم بكفركم قد فقدتم الوازع الذي يمنعكم من الكذب، وإذا كنتم تتهمونه بأنه أذن

---

(١) جامع البيان ١٠/ ١٥٩، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٢.

(٢) إرشاد العقل السليم ٢/ ٥٦٩، روح المعاني ١٠/ ١٢٧.

سامعة فهو كذلك ولكن فيما فيه خيركم وخير البشرية لو كنتم تعقلون، لأنه يستمع ما يُلقى إليه من الوحي فيبلغكم إياه، وفي هذا خيركم وصلاحكم في الدنيا والآخرة، وهو رحمة للمؤمنين به لأنهم هم الذين استجابوا لدعوته فأنقذهم الله به من الضلالة إلى الهدى وأخرجهم من الظلمات إلى النور، أما الذين كفروا فهو نقمة عليهم لأنهم لم يستجيبوا لدعوته، فقامت الحجة به عليهم وباءوا بالعذاب الأليم يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي زيادة على عذاب الكفر يوم القيامة.

ثم بين سبحانه أنهم يحلفون بالله مؤكدين صحة إيمانهم وبراءتهم مما نسب إليهم، وليس لهم من وراء ذلك أي هدف إلاَّ محاولة إقناع المؤمنين وكسب رضاهم عنهم، حيث قال تعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي إن محاولة إرضائكم هي غايتهم القصوى ليأمنوا جانبكم، وذلك بإصلاح ظواهرهم لأنكم لا تعلمون من أمورهم إلاَّ ظواهرها، أما محاولة كسب رضا الله فأمر لا يفكرون فيه لأنهم لا يؤمنون بالله ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أي والله هو الحقيق بأن يرضوه وكذلك رسوله، ورضا الله إنما يكون بإصلاح البواطن لأنه لا يخفى عليه شيء من تصرفات عباده جل وعلا، ورضا الرسول ﷺ لا يكون إلاَّ بذلك أيضًا، فهم إن استطاعوا أن يخفوا حقيقتهم عنه بعض الوقت فسيخبره الله عنها بعد ذلك، فينكشف أمرهم فلا جدوى لهم من تلبيس الأمور وإخفاء الحقائق، ولما كان ما يرضي الرسول ﷺ هو عين ما يرضي الله عز وجل جاء الضمير بالإفراد في قوله ﴿يُرْضُوهُ﴾ بدلاً من التثنية التي هي الأصل. ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كانوا مؤمنين حقًا كما يزعمون فليطلبوا رضا الله ورسوله بإصلاح سرائرهم فهو الذي ينفعهم عند الله تعالى.

ثم ذكرهم الله سبحانه بالمصير المشؤوم الذي ينتظر كل من خالف الله ورسوله وناصبهما العداء حيث قال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي قد علموا من الآيات المنزلة أن عاقبة من يخالف الله ورسوله ويعاديهما الخلود في نار جهنم، وإن في ذلك لمذلة لا تشبهها أي مذلة وعارًا لا يقاس به أي عار، فكيف لم يهتدوا إلى سلوك الطريق المستقيم المنجي من هذه العاقبة الشنيعة؟!!

* * *

٥- خيانتهم عهد الله من أجل الدنيا

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[التوبة: ٧٥ - ٧٨].

بيان من نزل فيه النص:

أخرج الطبراني عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب[1] أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً قال: ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، أما تريد أن تكون مثل رسول ﷺ، لو سألتُ الله عز وجل أن يسيل لي الجبال

---

(١) ذكر ابن حجر في الإصابة بهذا الاسم رجلين أحدهما ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصاري، وقال: ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق في البدريين، وكذا ذكره ابن الكلبي وزاد أنه قتل بأحد، والثاني ثعلبة بن حاطب أو ابن أبي حاطب الأنصاري وقال: ذكره ابن إسحاق فيمن بني مسجد الضرار، ثم ذكر عن الباوردي وابن السكن وابن شاهين وغيرهم أنهم نسبوا هذه القصة التي نزلت بسببها هذه الآيات للأول، قال: وفي كون صاحب هذه القصة - إن صح الخبر ولا أظنه يصح - هو البدري المذكور فيه نظر، ثم قوى ذلك بقول ابن مردويه بعد روايته هذا الخبر: والبدري اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية» وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه وينزل فيه ما نزل؟ فالظاهر أنه غيره والله أعلم. (الإصابة ١/ ١٩٩).

ذهبًا وفضة لسالت، ثم رجع إليه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والله لئن آتاني الله مالاً لأوتين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً، اللهم ارزق ثعلبة مالاً، اللهم ارزق ثعلبة مالاً، قال: فاتخذ غنمًا فنَمت كما ينمو الدود، حتى ضاقت عليه أزقة المدينة فتنحى بها، وكان يشهد الصلاة مع رسول الله ﷺ ثم يخرج إليها ثم نمت فتنحى بها فترك الجمعة والجماعات، فيتلقى الركبان فيقول ماذا عندكم من الخبر وما كان من أمر الناس؟ وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ واستعمل رسول الله ﷺ على الصدقات رجلين من الأنصار ورجلاً من بني سليم[1]، فكتب لهم سُنَّة الصدقة وأسنانها وأمرهم[2] أن يُصدِّقا الناس، وأن يمرا بثعلبة فيأخذا منه صدقة ماله ففعلا حتى دفعا إلى ثعلبة فأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال: صدِّقا الناس فإذا فرغتم فمروا بي[3] ففعلا فقال: ما هذه إلاَّ أخيَّة الجزية، فانطلقا حتى لحقا برسول الله ﷺ فأنزل الله على رسوله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قوله ﴿يَكْذِبُونَ﴾، قال: فركب رجل من الأنصار -قريب لثعلبة- راحلته حتى أتى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة هلكتَ قد أنزل الله فيك من القرآن كذا، فأقبل ثعلبة وقد وضع التراب على رأسه وهو يبكي ويقول

---

(١) أي رجلاً من الأنصار ورجلاً من بني سليم لأن الضمائر الآتية تدل على أنهما اثنان وفي رواية الطبري «رجلان من جهينة ورجلاً من سليم» (١٠/ ١٨٩).

(٢) هذه الضمائر قد جاءت كلها في رواية الطبري بالتثنية وهو الظاهر (١٠/ ١٨٩).

(٣) هذه الضمائر قد جاءت كلها في رواية الطبري بالتثنية وهو الظاهر (١٠/ ١٨٩).

يا رسول الله يا رسول الله فلم يقبل منه رسول الله ﷺ، ثم أتى أبا بكر بعد رسول الله ﷺ فقال: يا أبا بكر قد عرفت موضعي من قومي ومكاني من رسول الله فاقبل مني فأبى أن يقبل منه، ثم أتى عمر فلم يقبل منه ثم أتى عثمان فلم يقبل منه ثم مات ثعلبة في خلافة عثمان. قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك[١].

وقد أخرجه ابن جرير[٢] وابن أبي حاتم[٣] والباوردي وابن السكن وابن شاهين[٤] كلهم من طريق عليّ بن يزيد الألهاني نفسه[٥].

فهذا الحديث ضعيف جدًا لأن طرقه كلها قد اجتمعت في عليّ بن يزيد الألهاني وهو ضعيف. واعترض ابن حزم على هذه الرواية بقوله: وهذا باطل بلا شك لأن الله تعالى أمر بقبض زكوات أموال المسلمين وأمر ﷺ عند موته أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان، فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلمًا ففرضٌ على أبي بكر وعمر قبض زكاته ولا بد، ولا فسحة في ذلك، وإن كان كافرًا ففرضٌ أن لا يُقَرَّ في جزيرة العرب، فسقط هذا الأثر بلا شك[٦].

وعلى فرض ثبوت هذا الأثر يمكن أن يقال في الجواب على كلام ابن حزم: إن هذا الحكم خاص بثعلبة لإخبار القرآن عنه بأنه سيستمر على النفاق حتى يموت، فيكون رفض قبول صدقته من باب عقوبته بفضيحته في الدنيا، أما ترك قتله فلأنه يظهر الإيمان.

---

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٣١.

(٢) جامع البيان ١٠/ ١٨٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٠.

(٤) الإصابة ١/ ١٩٩.

(٥) هو أبو عبد الله علي بن يزيد بن أبي زياد الألهاني الدمشقي صاحب القاسم بن عبد الرحمن.

(٦) المحلى ١١/ ٢٠٨.

ومما يبين ضعف هذه الرواية ما جاء فيها من أن النبي ﷺ أرسل العمال لجباية الزكاة من ثعلبة وغيره بعد نزول قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٣] وهذه الآية لم تنزل في وجوب إخراج الزكاة، وإنما نزلت في نفر ممن تخلف عن غزوة تبوك -ومنهم أبو لبابة- قالوا للنبي ﷺ: هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا قال: ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا فأنزل الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ الآية أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق عليّ بن أبي طلحة[1].

هذا ولعل أصل هذه القصة ثابت ولكن زاد فيها بعض الرواة زيادات منكرة جعلت الرواة الثقات يتركون روايتها.

وبالجملة فالله تعالى حكى عن المنافقين أن منهم من عاهد الله، وقص قصته ولا يهمنا أن يكون ثعلبة أو غيره، وقد تبين ضعف سند هذا الأثر وليس هناك ما يقويه، وهو يعارض الأصول الشرعية التي تنص على أن باب التوبة مفتوح لكل الأمة كافرها ومنافقها وفاسقها، فتوبة الكافر والمنافق أن يؤمن إيمانًا صادقًا والإيمان يجبُّ ما قبله، وعلى فرض ثبوت هذا الأثر يحمل على أنه خاص بثعلبة كما سبق ولكنه لم يثبت من طريق صحيح.

وقت نزول هذا النص:

ليس في هذه الآيات ما يحدد وقت نزولها غير أن سورة التوبة هي آخر سورة نزلت في المدينة، وقد جاءت هذه الآيات في سياق آيات غزوة تبوك فهذا مما يُرجّح كونها قد نزلت بعد غزوة تبوك، وقد سبق أن هذه الغزوة كانت في شهر رجب من السنة التاسعة.

---

(١) جامع البيان ١١/ ١٦.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

لا شك أن هذه الآيات قد نزلت في أمر واقع من بعض المنافقين على النحو الذي ذُكر في هذه الآيات، فهي تحكي أن طائفة من المنافقين كانوا فقراء فسألوا الله أن يؤتيهم من فضله حتى يصبحوا أغنياء، وأخذوا على أنفسهم عهدًا بينهم وبين الله إن رزقهم مالاً أن يؤتوا منه الفقراء وأن يكونوا من الصالحين، فلما رزقهم الله المال استولى عليهم حب الدنيا فبخلوا به ولم يخرجوا منه حق الفقراء، ونسوا عهدهم الماضي حينما كانوا فقراء ونقضوا العهد الذي أبرموه مع الله تعالى، فعاقبهم الله تعالى بحرمانهم من أعز ما يملكه الإنسان وهو التفكير السليم والإدراك الصحيح حيث ختم على قلوبهم بالنفاق إلى أن يموتوا.

وسواء ثبتت القصة السابقة أو لم تثبت، فإن هذه الآيات تعبر عن أمر واقع شبيه بما مضى في قصة ثعلبة السابقة وإن لم يكن بكل تفاصيلها.

بيان معنى النص:

قال تعالى ﴿وَمِنْهُم﴾ أي ومن المنافقين الذين ذكر الله سبحانه أخبارهم في هذه السورة ﴿مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أي عقد بينه وبين الله عهدًا قائلاً ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي أعطانا من رزقه الواسع الذي يتفضل به على عباده ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منه على الفقراء ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الذين زكوا أنفسهم والتزموا بطاعة الله تعالى.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي فلما استجاب الله لهم فأعطاهم المال من فضله ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ فلم يخرجوا منه حق الفقراء الواجب عليهم ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن طاعة الله في إخراج حق الفقراء من أموالهم ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ والحال أنهم معرضون بقلوبهم عن الالتزام بطاعة الله تعالى في جميع أوامره.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ ضمير الفاعل في ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ يرجع إلى الله تعالى أي جعل الله تعالى عاقبة فعلهم ذلك نفاقًا في قلوبهم وبهذا قال الجمهور[(١)] وذكر الزمخشري عن الحسن وقتادة أن الضمير للبخل أي فأورثهم البخل نفاقًا[(٢)].

وهذا خلاف الظاهر من الآية كما يمنع منه قوله تعالى ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ لأنه تعليل لما قبله أي بسبب إخلافهم وعد الله بالتصدق والصلاح، واستمرارهم في الكذب كما ذكر أبو السعود[(٣)].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي يلقون الله عز وجل بالموت ومفارقة الدنيا[(٤)]. ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟﴾ بسبب ما أخلفوا ﴿ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ من قولهم ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فأخلفوا فلم يصدقوا في عهدهم ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ فلم يزكوا أنفسهم بل كانوا كاذبين.

فما وقع منهم هو حب المال الذي طغى على قلوبهم فصرفها عن إرادة التصدق ولم يكونوا من الصالحين الذين صدقوا في استجابتهم لله تعالى، فجعل الله عاقبة سلوكهم هذا أن طمس على بصائرهم، وطبع على قلوبهم حتى انصرفت عن الإخلاص والصدق إلى حب المال الذي حملها على البخل والكذب.

---

(١) انظر مثلاً: جامع البيان ١٠/ ١٨٨، الكشاف ٢/ ٢٠٤، إرشاد العقل السليم ٢/ ٥٨١، روح المعاني ١٠/ ١٤٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٠٣ – ٤٠٤.

(٣) إرشاد العقل السليم ٢/ ٥٨١.

(٤) انظر جامع البيان ١٠/ ١٨٨، الكشاف ٢/ ٢٠٤.

وقد فعلوا ما فعلوه مما لا يرضي الله عز وجل وهم في غفلة عنه ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسروه في قلوبهم ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ ما تحدثوا به في خلوتهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بليغ العلم بكل ما خفي من الغيوب التي لا تظهر لأحد، دقيقها وجليلها لا يخفى عليه منها شيء؟ هذا أمر قد علموه فكيف يفعلون ما يفعلون؟ فالاستفهام لتقرير علمهم بهذا الأمر والإنكار عليهم لعدم عملهم بما علموا.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

يبين الله سبحانه وتعالى لنا في هذه الآيات خصلتين من خصال المنافقين البارزة، هما إخلاف الوعد والكذب في القول، ويبين لنا سبحانه النتيجة التي لابد أن يصير إليها كل من تخلق بهاتين الخصلتين وهي الابتلاء بالنفاق.

وإخلاف الوعد مبني على الاستهتار بالوقت، وعدم المبالاة بمشاعر الآخرين، وهو يفضي بصاحبه حتمًا إلى التخلق بخلق الكذب، لأن الذي يخلف الوعد لن يستطيع أن يصارح صاحبه بأنه أخلف وعده عمدًا بلا ضرورة ملجئة، بل سيعتذر له كذبًا إما بالنسيان وإما بادعاء أمر قاهر عرض له فمنعه من الوفاء بالوعد، ومن هنا كان إخلاف الوعد مفضيًا إلى النفاق، لأن صاحبه يظهر من المعاذير لمن أخلف وعده معه خلاف ما يبطن.

والكذب مبني على ضعف النفس عن مواجهة الآخرين ومصارحتهم بالحقيقة، لأن صاحبه سيتلقى ممن كذب عليه لومًا وتعنيفًا لا يستطيع احتماله، والكذب يتفق مع النفاق في الشكل العام لأن في كل منهما إظهار خلاف الحقيقة، ولهذا صار الكذب أبرز صفات المنافقين.

وقد اعتبر النبي ﷺ هاتين الخصلتين من علامات النفاق كما سبق بيان ذلك .

وقد كانت حياة النبي ﷺ مثلاً رائعًا للصدق والوفاء، فلم يُؤثَر عنه أنه كذب في حديث قط، ولا أنه أخلف وعده لأحد قط، ولذلك كان أعداؤه الذين يحاربونه يأمنونه إذا وعدهم بالأمان، فيأتون إليه وهم لا يخالجهم أي شك في أنه سيخون عهده معهم كما فعل مع مالك بن عوف النصري.

وقد تأسى به في ذلك صحابته الكرام ﷺ حتى كان ظاهرهم مرآة لباطنهم، ولقد كان الخلاف يحدث بينهم أحيانًا وربما يبلغ حد الهجر بعض الوقت، وكان بإمكانهم أن يتفادوا احتدام الموقف بينهم بشيء من النفاق العملي، الذي أصبح فيما بعد يسمى بالمرونة واللباقة وحسن التصرف، ولكن الشيء الوحيد الذي كانوا يهتمون به هو صفاء القلوب عن طريق إظهار الحق والاتفاق عليه لا عن طريق تغطيته وتدليسه.

ولقد كان خلق الصدق الذي جبل عليه الصحابة ﷺ والوفاء بالوعد من أسباب انتشار الإسلام وانقياد النفوس له، ثم خلَف من بعد الصحابة أجيال ضيعوا كثيرًا من أخلاق الإسلام وآدابه، وجهل الكثير منهم تعاليمه السامية، وغلبت عليهم صفات المنافقين، فالقليل منهم من يتقيد بالمواعيد تمامًا إلاَّ إذا كانت له مصلحة فيها، والقليل منهم من يلتزم الصدق في جميع أقواله ومعاملاته،حتى سادت الفوضى في العلاقات الاجتماعية واختل نظام المجتمع ولم يعد مجتمعًا يمثل الإسلام حقيقة، بل يعتبر مشوهًا له ومنفرًا للناس من الدخول فيه، وإنْ كان كل بلد لا يخلو من أفراد يلتزمون بأحكام الإسلام وآدابه إلاَّ أنهم يشعرون بالغربة في مجتمعهم، لأنهم لا يجدون من يتعامل معهم على قواعد الإسلام إلا قليلاً، ولا يرتضون لأنفسهم أن ينزلوا إلى المستوى الجاهلي الذي يعيش فيه أفراد مجتمعهم، وإن كان لهم شيء من الإصلاح فهو محدود لا يغير شكل المجتمع العام.

ويشبه هؤلاء الذين تحدثت عنهم هذه الآيات أولئك الذين يعطون من أنفسهم الوعود على القيام بأعمال الإصلاح والتعمير إذا أصبحوا مسؤولين عن شيء من أعمال الدولة، فإذا استلموا زمام العمل خانتهم نفوسهم الضعيفة، فغضوا النظر عن وجوه الفساد في محيط أعمالهم، وتجاهلوا عوامل التخريب التي يدبرها أصحابها تحت قيادتهم ويستغلون أسماءهم للوصول إلى أهدافهم السيئة.

وربما مالت بهم شهواتهم المنحرفة فاستغلوا مناصبهم لمصالحهم الخاصة، ومصالح أقاربهم وأصدقائهم.

فهؤلاء الذين أخلفوا وعودهم كانوا قبل تحملهم المسؤولية في سلامة من الإثم، ومنجاة من التبعة لأنهم غير مسؤولين عن أخطاء غيرهم، وإنما واجبهم إسداء النصيحة لهم، أما بعد أن حملوا المسؤولية فإنهم قد أدخلوا أنفسهم في فتنة لم يستطيعوا الخلاص منها، وامتحان كانت نتيجتهم فيه خاسرة فباءوا بعد ذلك بعقوبة التقصير في أداء الواجب.

* * *

٦- سخريتهم بالقرآن الكريم

النص القرآني في ذلك:

قال تعالى ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: ١٢٤- ١٢٧].

بيان من نزل فيه هذا النص:

هذه الآيات نزلت في المنافقين وبذلك قال جمهور المفسرين[(١)] وليس لها سبب نزول خاص.

وقت نزول هذا النص:

هذه الآيات قد جاءت في سياق آيات غزوة تبوك، وهي آخر آيات نزلت في المنافقين من سورة التوبة، وليس لها سبب نزول خاص، فالظاهر أنها قد نزلت بعد تبوك، وقد بينا سابقًا أن سورة التوبة هي آخر سور القرآن نزولاً.

بيان النص:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من المنافقين الذين سبق ذكرهم في آيات هذه السورة.. سورة التوبة ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لمن هم على شاكلته في النفاق

---

(١) انظر مثلاً: جامع البيان ١١/ ٧٢، الكشاف ٢/ ٢٢٢، روح المعاني ١١/ ٥٠.

﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة ﴿إِيمَٰنًا﴾ بهذا الدين الذي نزل هذا القرآن لبيانه والدعوة إليه؟

وذلك لعدم فهمهم مدلول الآيات وما تشير إليه وتُنبه عليه مما يزيد الفاهمين لها إيمانًا.

وقد رد الله سبحانه عليهم ببيان أن عدم استفادتهم من القرآن وعدم تأثرهم به لا يرجع إلى قصور القرآن عن التأثير في النفوس، وإنما يرجع إلى مرض في قلوبهم يحول بينهم وبين الاهتداء بهدي القرآن، بدليل أن المؤمنين استفادوا من القرآن لسلامة قلوبهم من المرض فقال تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ على إيمانهم السابق لعلمهم بأنها منزلة من عند الله، ولما تتضمنه من الإعجاز الذي يقوي الإيمان في القلب، ومن الأحكام التكليفية التي إذا طبقها العبد زاد يقينه وتضاعف عمله الصالح، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بما تحمله في طياتها من نور وهداية ووعد صادق.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يزعزع مداركها ويغشي مشاعرها ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ أي كفرًا ونفاقًا لأنهم لم يؤمنوا بأنها منزلة من عند الله، ولم يهتدوا بإعجازها ولم يطبقوا أحكامها ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ إلى كفرهم السابق بكل ما نزل من عند الله ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فإن انضمام الرجس إلى الرجس يغشي القلب بالأرجاس حتى يصر على الكفر إلى الموت.

﴿أَ﴾ يفعلون ما يفعلون ويستمرون في كفرهم ونفاقهم ﴿وَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يمتحنون ويبتلون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ﴾ بما يكشف أمرهم ويهتك سترهم ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ إما عن طريق الوحي أو إخبار بعض الصحابة عنهم ممن يشهدون وقائعهم التي تكشفهم، أو تثاقلهم عن الخروج مع المؤمنين للجهاد، وقد مرت في هذا الكتاب

أمثلة توضح ذلك ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا يرجعون إلى الإيمان الصادق ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فلا يزدجرون ولا يتعظون؟!

وقد اختلف في المراد بالشيء الذي يفتنون به فقيل هو ما يشيعه المشركون من الأكاذيب على رسول الله ﷺ وأصحابه فيفتتن بذلك الذين في قلوبهم مرض، وقد رُوي هذا عن حذيفة رضي الله عنه كما أخرج ابن جرير قال: حدثنا أحمد بن إسحاق قال حدثنا أبو أحمد قال حدثنا شريك عن جابر عن أبي الضحى عن حذيفة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئة من الناس[1].

وقيل المراد بذلك السَّنة والجوع وبهذا قال مجاهد كما أخرجه عنه ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح[2].

وقيل المراد بذلك الجهاد في سبيل الله، وبهذا قال قتادة كما أخرجه عنه ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة[3]، وبه قال الحسن، أخرجه عنه ابن جرير من طريق معمر[4].

وما رُوي عن حذيفة في سنده ضعف، إضافة إلى أن معناه يقتضي أن يكون المراد بالفتنة ما يكون سببًا في الضلال، وسياق الآية يقتضي أن يكون المراد بالفتنة ما يكون سببًا في الهداية.

---

(١) جامع البيان ١١/ ٧٤.

(٢) جامع البيان ١١/ ٧٤، والسَّنةُ الجدب.

(٣) المرجع السابق ١١/ ٧٤.

(٤) المرجع السابق ١١/ ٧٤.

أما القول بأن المراد السَّنَة والجوع فليس هذا خاصًا بالمنافقين، وسياق الآية يدل على أن الفتنة المذكورة في الآية مما يختص بهم.

أما القول بأن المراد بالفتنة الجهاد في سبيل الله فهذا من الأمور التي تكون سببًا في كشف نفاقهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ﴾ المراد بالسورة هنا ما تشتمل على ذكر صفات المنافقين وبيان أعمالهم[1].

المعنى:وإذا أنزلت سورة من القرآن يصعب على المنافقين سماعها لما تشتمل عليه من كشف حقيقتهم، وإظهار معايبهم التي يعرفونها في أنفسهم نظر بعضهم إلى بعض نظر المدهوش الوجل،ثم تغامزوا بينهم قائلين:هل يراكم من أحد من المؤمنين حتى ننصرف عن سماعها من غير أن يشعروا بنا؟ ثم تسللوا خفية حتى لا يظهر على وجوههم شيء من ملامح الخوف والانزعاج إذاهم استمروا في سماعها فينكشف أمرهم، لأن المجرم تظهر على ملامح وجهه آثار جريمته إذا ذُكرت أمامه بالتفصيل.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان والتذكر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي بسبب عدم فهمهم وإدراكهم لآيات الله المترتب على اتباعهم لأهوائهم المنحرفة.

* * *

(١) جامع البيان ١١/ ٧٥.

٧- النهي عن الصلاة على المنافقين وشهود جنائزهم

النص القرآني في ذلك:

١- قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

٢- وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٨٤ - ٨٥].

بيان من نزل فيه النص:

أخرج الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبد الله بن أبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيده على السبعين، قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.

زاد مسلم في رواية له: قال: فترك الصلاة عليهم[1].

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (فتح الباري ٨/ ٣٣٣).
صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين رقم (٣) ص ٢١٤١.

وقت نزول هذا النص:

تبين لنا أن هذا النص قد نزل بمناسبة موت عبد الله بن أبيّ وقد قال الحافظ ابن حجر في ذلك: ذكر الواقدي ثم الحاكم في الإكليل أنه مات بعد منصرفهم من تبوك، وذلك في ذي القعدة سنة تسع وكانت مدة مرضه عشرين يومًا ابتداؤها من ليال بقيت من شوال [(١)].

فيكون هذا النص قد نزل في ذلك الوقت، لأن الآية الأولى نزلت وهو في مرضه والثانية نزلت بعد موته كما في الحديث السابق.

تصوير الموقف الذي نزل فيه النص:

عندما مرض عبد الله بن أبيّ مرض الموت أرسل إلى رسول الله ﷺ ليأتي إليه، كما أخرج الطبري عن طريق معمر وابن أبي عروبة عن قتادة أنه قال: أرسل عبدالله بن أبيّ ابن سلول وهو مريض إلى النبي ﷺ، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: أهلكك حب يهود! قال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنبني! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه، فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [(٢)].

ذكره ابن حجر وقال: وهذا مرسل مع ثقة رجاله ويعضده ما أخرجه الطبراني عن طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما مرض عبد الله بن أبيّ جاءه النبي ﷺ فكلمه فقال: قد فهمت ما تقول فامنن عليّ فكفني في قميصك وصلِّ عليّ، ففعل قال ابن حجر: وكأن عبد الله بن أبيّ أراد بذلك دفع العار عن ولده وعشيرته بعد موته

---

(١) فتح الباري ٨/ ٣٣٤.

(٢) جامع البيان ١٤/ ٤١٠.

فأظهر الرغبة في صلاة النبي ﷺ عليه، ووقعت إجابته إلى سؤاله بحسب ما ظهر من حاله إلى أن كشف الله الغطاء عن ذلك [(١)].

وإنما اعترض عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الصلاة على عبد الله بن أبيّ لأنه فهم من قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أنها للتسوية في عدم حصول المغفرة لهم ولو كثر الاستغفار وأنَّ ذلك يستلزم عدم الفائدة من الصلاة عليهم، لأن الاستغفار للميت هو المقصود الأعظم من الصلاة عليه، ولكن من أين فهم عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قد نهاه ربه عن الاستغفار لهم والآية ليس فيها ما يدل على النهي عن ذلك؟

لعله فهم ذلك من هذه الآية فقد جاء في بعض الروايات ما يدل على ذلك قال ابن حجر: وروى عبد بن حميد والطبري من طريق الشعبي عن ابن عمر عن عمر قال: «أراد رسول الله ﷺ أن يصلي على عبد الله بن أبيّ فأخذتُ بثوبه فقلت: والله ما أمرك الله بهذا، لقد قال ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وكما أخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال عمر: أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ قال: أين؟ قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية [(٢)].

وقد كان عمر يعتقد أن ابن أبيّ كافر في باطن أمره، ويُفهم ذلك من قوله للنبي ﷺ عنه: «إنه منافق» أما صلاته عليه فيحتمل أن تكون لأنه لم ينزل عليه قبل ذلك نهي عن الصلاة على المنافقين والاستغفار لهم، وهم في ظاهر الأمر مسلمون وهذا يقتضي أن يعاملوا معاملة المسلمين والله يتولى السرائر.

---

(١) فتح الباري ٨/ ٣٣٤ – ٣٣٥.

(٢) فتح الباري ٨/ ٣٣٥.

ويحتمل أن النبي ﷺ لم يكن يجزم بكفره خصوصًا قرب موته حين طلب منه أن يستغفر له، قال ابن حجر: (أما جزم عمر بأنه منافق فجرى على ما كان يطلع عليه من أحواله، وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقوله وصلى عليه إجراء له على ظاهر حكم الإسلام كما تقدم تقريره واستصحابًا لظاهر الحكم، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته، ومصلحة الاستئلاف لقومه ودفع المفسدة، وكان النبي ﷺ في أول الأمر يصبر على أذى المشركين ويعفو ويصفح ثم أمر بقتال المشركين فاستمر صفحه وعفوه عمن يظهر الإسلام، ولو كان باطنه على خلاف ذلك لمصلحة الإستئلاف وعدم التنفير عنه،ولذلك قال» لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه« فلما حصل الفتح ودخل المشركون في الإسلام وقلَّ أهل الكفر وذلّوا أُمر بمجاهرة المنافقين وحملهم على حكم مُرِّ الحق،ولا سيما وقد كان ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على المنافقين وغير ذلك مما أُمر فيه بمجاهرتهم، وبهذا التقرير يندفع الإشكال عما وقع في هذه القصة بحمد الله تعالى[1] .

وقد أنكر بعض العلماء حديث الصلاة على عبد الله بن أبيّ مع اتفاق الشيخين على إخراجه، وذلك لقوله ﷺ فيه «إنما خيرني الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» مع أن ظاهر الآية أنها للتسوية في عدم نفع الاستغفار لهم، لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وممن أنكر صحة هذا الحديث القاضي أبو بكر الباقلاني وإمام الحرمين، والغزالي والداوودي أحد شراح البخاري كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر...[2] .

(١) فتح الباري ٨/ ٣٣٦.

(٢) فتح الباري ٨/ ٣٣٨.

وممن اعترض عليه من المتأخرين رشيد رضا حيث قال: «ولكن حديث معارضة عمر بطريقيه مشكل ومضطرب من وجوه:

١- جعل الصلاة على ابن أبيّ سببًا لنزول آية النهي، وسياق القرآن صريح في أنها نزلت في سفر غزوة تبوك سنة ثمان، وإنما مات ابن أبيّ في السنة التي بعدها.

٢- قول عمر للنبي ﷺ «وقد نهاك ربك أن تصلي عليه» يدل على أن النهي عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبيّ، وقوله بعده فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ الخ. صريح في أنه نزل بعد موته والصلاة عليه..

٣- قوله إنه «قال إن الله تعالى خيره في الاستغفار لهم وعدمه، إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كما ذكر في الحديث ولم يكن فيها بقيتها أي التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم وأن الله لا يهدي القوم الفاسقين، ومن ثَمَّ كان المتبادر من (أو) فيها أنها للتسوية بين ما بعدها وما قبلها لا للتخيير، وبه فسرها المحققون كما فهمها عمر واستشكلوا الحديث إذ لا يعقل أن يكون فهم عمر أو غيره أصح من فهم رسول الله ﷺ ولذلك أنكر بعضهم صحته.

٤- التعارض بين رواية «فلو أعلم أنني لو زدت على السبعين غُفر له لزدت عليها» ورواية «وسأزيد على السبعين».

٥- التعارض بين إعطائه «قميصه لابنه لتكفينه فيه وحديث جابر: إخراجه لابن أبيّ من قبره وإلباسه قميصه.

٦- إذا أمكن أن تكون الصلاة على ابن أبيّ قبل نزول النهي عن الصلاة عليهم فلا شك في أنها كانت بعد آية: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾

وآية ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ والجزم في كل منهما بأن الله لن يغفر لهم[١].

وهذا قول خاطئ وتجاسر على رد السنة النبوية الصحيحة بسبب شبهات بسيطة عارضة، ولو سلكنا هذه الطريقة لفقدنا الثقة بما ورد إلينا من السنة النبوية الصحيحة، أما الوجوه التي ذكرها فالجواب عليها أن نقول:

١- الوجه الأول مبنيٌّ على مقدمتين ونتيجة، المقدمة الأولى هي أن آية النهي عن الصلاة على المنافقين قد نزلت في سفر غزوة تبوك كما يدل على ذلك سياق القرآن،وغزوة تبوك في السنة الثامنة، والمقدمة الثانية هي أن موت ابن أُبيّ كان بعد ذلك بسنة،والنتيجة هي أن نزول الآية سابق على موت ابن أُبيّ فكيف تُجعل الصلاة عليه سببًا في نزولها؟

والجواب أن نقول إن المقدمة الأولى مبنية على خطأين: الأول اعتباره أن هذه الآية قد نزلت في سفر غزوة تبوك بناء على دلالة السياق، ووجه الخطأ في ذلك أنه ليس كل آيات المنافقين التي نزلت في سياق آيات غزوة تبوك قد نزلت في تلك الغزوة بل منها ما نزل قبل ذلك بعشرة أشهر كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ كما سبق في تفسيرها مع أنها في السياق بين آيات غزوة تبوك، فدلالة السياق لا تحدد وقت النزول، بل يستأنس بذلك فيما إذا لم يكن للآية سبب نزول صحيح، أما إذا كان لها سبب نزول صحيح كالآية التي معنا فإنه يؤخذ به ولا يؤخذ بدلالة السياق، لأن النبي ﷺ كان إذا نزلت الآية يأمر كُتّاب الوحي أن يضعوها في المكان المناسب لها من الآيات، وإن كانت قد تقدمتها في النزول كما هوَ معروف..أما الخطأ الثاني فهو قوله إن غزوة تبوك في السنة الثامنة،ولم أجد أحدًا قال بذلك وإنما المعروف أنها في شهر رجب من السنة التاسعة كما

---

(١) تفسير المنار ١٠/ ٦٦٦.

مضى،وقوله في المقدمة الثانية إن موت ابن أبيّ كان في السنة التي بعدها مبنيٌّ على خطئه في تحديد وقت غزوة تبوك، ولكن هذا الخطأ لا أثر له في دليله لو سلم من الخطأ الأول، إذ أن غزوة تبوك على أي حال قد سبقت موت عبد الله بن أبيّ حيث قد كان موته في شهر ذي القعدة من السنة التاسعة كما سبق.

٢- والوجه الثاني مبنيٌّ على خطئه في فهم معنى الصلاة في قول عمر «وقد نهاك ربك أن تصلي عليه» فاستشكل كون النهي عن الصلاة على المنافقين سابقًا للصلاة على ابن أبيّ معَ أنه ذُكر في الحديث أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ الآية، قد نزل بعد الصلاة عليه.

والجواب على ذلك أن يقال: إن التعبير بالصلاة في كلام عمر السابق فيه تجوُّز، فالمراد بالصلاة فيه الاستغفار كما جاء في رواية أخرى للبخاري عن عبد الله بن عمر أن عمر قال: «تصلي عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟» وكما سبق في رواية الطبري وابن مردويه من قول عمر: والله ما أمرك الله بهذا لقد قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وفي رواية أخرى لابن مردويه «أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ قال: أين؟ قال قال: ﴿تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية، وقد نبه على ذلك الحافظ ابن حجر[1].

فتبين لنا من هذه الروايات أن المراد بالصلاة في كلام عمر في الرواية الأولى الاستغفار، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن النهي عن الصلاة عليهم سابقًا لصلاة النبي ﷺ على ابن أبيّ كما استنتجه رشيد رضا، فلا إشكال في الحديث من هذا الوجه. والصلاة دعاء أعم من الاستغفار، فالمعنى إذا كان الله قد نهاك عن مجرد الاستغفار لهم فكيف تصلي عليه؟

---

(١) فتح الباري ٨/ ٣٣٥.

٣- والوجه الثالث مبني على أن آخر الآية وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يمنع من الفهم الذي فهمه النبي ﷺ من أن قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ للتخيير بين الاستغفار وعدمه، وهذه الشبهة هي التي حملت بعض العلماء على إنكار الحديث، وقد أورد ابن حجر أقوال العلماء في الرد على هذه الشبهة، والذي انتهى إليه بحثه فيها أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ إلى آخر الآية قد نزل متراخيًا عن أولها، قال: «ولذلك اقتصر النبي ﷺ في جواب عمر على التخيير وذكر السبعين، فلما وقعت القصة المذكورة كشف الله عنهم الغطاء ففضحهم على رؤوس الملأ، ونادى عليهم بأنهم كفروا بالله ورسوله»[1].

وما توصل إليه ابن حجر من ذلك هو الذي يمكن أن يرتفع به الإشكال، إذ لا يعقل أن يفهم النبي ﷺ التخيير بين الاستغفار وعدمه لقوم قد صرح الله بكفرهم، فلما نزل عليه صدر الآية فهم منه احتمال التخيير، وكان لا يخيَّر بين أمرين إلاَّ اختار أيسرهما وأنفعهما لأمته.

٤ - فهمه التعارض بين رواية «فلو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» ورواية «وسأزيد على السبعين».

والجــواب أن لا تعارض بين الروايتين فالرواية الأولى مفسرة للثانية، فهي تبين أن النبي ﷺ ما كان يجزم بانتفاع ابن أبيّ من استغفاره له، ولكنه فعل ذلك لأنه لم ينزل عليه حكم بهذا الشأن، فاجتهد فيما رأى أنه يخدم المصلحة العامة للدعوة آنذاك كما سيأتي في الوجه السادس، وورود الحديث بعدة روايات مختلفة في المعنى لا يقتضي رده إذ لو

(١) المرجع السابق ٨/ ٣٣٩.

فعلنا ذلك لرددنا كثيرًا من الأحاديث النبوية التي وردت على هذا الشكل، والسبب في اختلاف الروايات أن بعض رواة الحديث يروونه بالمعنى، وقد لا يروون كلام النبي ﷺ كاملاً فتأتي الروايات يكمل بعضها البعض الآخر، وقد يكون النبي ﷺ في هذا الحديث قال كلتا الجملتين السابقتين، فروى بعض الرواة إحداهما وروى البعض الآخر الأخرى.

٥- ذكر في الوجه الخامس التعارض بين رواية الشيخين «فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه» وبين رواية مسلم عن جابر «أتى النبيُّ ﷺ قبر عبد الله بن أبيّ فأخرجه من قبره فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه»[1].

والجواب أنه لا تعارض بين الروايتين وإنما في رواية مسلم زيادة بيان للوقت والمكان الذي أعطاه فيه قميصه، ولا يلزم من إعطائه إياه أن يسلمه إياه بيده.

٦- وملخص الوجه السادس أن الله سبحانه قد أخبر بأنه لن يغفر للمنافقين، قبل أن يصلي النبي ﷺ على ابن أبيّ فما الفائدة من صلاته عليه؟.

والجواب أن صلاته عليه لا لحصول المغفرة له فيما يظهر، وإنما هي لمصلحة الدعوة الإسلامية آنذاك، فإن في الصلاة عليه تأليفًا لقومه لسيادته فيهم وجبرًا لقلب ولده عبدالله، ولم يكن قد نزل على النبي ﷺ آنذاك نهي عن الصلاة على المنافقين فأقدم على الصلاة عليه لتلك المصلحة، كما ترك قتله قبلَ ذلك لنفس المصلحة إذ لم يؤمر بقتل المنافقين، وقد كان ابن أبيّ مظهرًا الإيمان فلو ترك النبي ﷺ الصلاة عليه لأنكر ذلك قومه لاعتقاد بعضهم بإيمانه، فإن في الصلاة عليه تأليفًا لقومه ودرءًا لما قد يحدث من الفتنة بسبب ترك الصلاة عليه، فإن من قومه من لا يزال يحترمه ويكبره حتى مات، ومما

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين رقم (٢) ص ٢١٤٠.

يدل على إرادة النبي ﷺ هذه المقاصد ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة قال بعدما ذكر خبر استغفار النبي ﷺ لابن أبيّ وتكفينه في قميصه: وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كُلِّم في ذلك فقال: وما يغني عنه قميصي من الله -أو قال رَبِّي- وصلى عليه- وإني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه»[1].

بيان معنى النص:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الأمر في الآية بمعنى الخبر أي سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[المنافقون: ٦].

قال أبو السعود: وتصويره بصورة الأمر للمبالغة في بيان استوائها، كأنه عليه الصلاة والسلام أُمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة ويترك أخرى ليظهر له جلية الأمر كما مر في قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ﴾[2].

و (أو) في الآية قيل إنها للتسوية أي سواء عليهم استغفارك لهم وعدمه[3]..

وقيل إنها للتخيير لقوله ﷺ في الحديث السابق «إنما خيرني ربي فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾»[4].

والراجح أنها للتسوية في عدم نفع الاستغفار لهم لقوله تعالى في آخر الآية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ﴾ أما قوله ﷺ «إنما خيرني ربي» فهو قبل أن ينزل آخر

---

(١) جامع البيان ١٠/ ٢٠٦.

(٢) إرشاد العقل السليم ٢/ ٥٨٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٠٤، إرشاد العقل السليم ٢/ ٥٨٢، فتح القدير ٢/ ٣٨٧.

(٤) روح المعاني ١٠/ ١٤٧.

الآية كما سبق ترجيح ذلك في تصوير الموقف، فلما نزل آخر الآية تبين أن (أو) في الآية ليست للتخيير.

قوله ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ العدد في الآية ليس المراد به التحديد وإنما هـو مبالغة في الكثرة فالمعنى مهما استغفرت لهم فلن يغفر الله لهم، وخُص هذا العدد بالذكر لأنه جارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإشارة تعود إلى امتناع المغفرة لهم، والباء سببية،أي امتنعت المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي لا يوفق القوم الخارجين عن الالتزام بحكم الإسلام إلى سلوك الطريق المستقيم وإن استغفر لهم رسول الله ﷺ والمؤمنون لأن من أراد الله ضلاله لن يملك أحد هدايته.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ الضمير في (منهم) للمنافقين كما هو واضح من سبب النزول، والخطاب في الآية للنبي ﷺ. أي ولا تصلِّ على أحد مات من المنافقين صلاة الجنازة أبدًا، ولا تقف على قبره للدفن أو للزيارة.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ الجملة تعليلية أي لأنهم كفروا بالله ورسوله في حياتهم ولا زالوا على ذلك حتى ماتوا وهم غير ملتزمين بأحكام الإسلام، ومن كانت هذه حاله فإنه لا ينفعه الدعاء ولا الاستغفار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨].

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٠٥.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ سبق تفسير هذه الآية، ومناسبتها للآية السابقة تنبيه المؤمنين إلى أن لا يغتروا بصاحب المال والجاه فيصلوا على جنازته إذا مات وهو منافق.

واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذا النص:

في هذه الآيات نهى الله سبحانه عن الصلاة على المنافقين، وبين أن الاستغفار لهم لا ينفعهم لأنهم قد كفروا بالله ورسوله وماتوا على ذلك، فكان جزاؤهم الخلود في النار والحرمان من الجنة، والاستغفار للميت لا يمنع عنه الخلود في النار ولا يمنحه دخول الجنة، ولو كان الاستغفار نافعًا للكفار لاستوى في الجزاء المؤمن المتقيد بأوامر الله ونواهيه مع الكافر المنقاد لشهواته، وهذا مخالف للحكمة، ولفسدت الأرض بكثرة الفجار الذين يرجون دخول الجنة بدعوات غيرهم، وإنما ينفع الاستغفار من مات على الإيمان، لأنه بإيمانه بالله قد التزم سلوك الطريق المستقيم الموصل إلى العاقبة الحميدة، وإنما حمله الضعف البشري على الانحراف عنه بعض الشيء، فإذا أراد الله له الخير شمله بعفوه ورحمته.

ولقد التزم النبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات بهذا الحكم فكان لا يصلي على المنافقين كما سبق في بيان من نزل فيه النص، والتزم به الصحابة رضي الله عنهم من بعده فيمن تأكدوا من نفاقه كما رُوي عن حذيفة رضي الله عنه قال: «مرَّ بي عمر بن الخطاب وأنا جالس في المسجد فقال لي: يا حذيفة إنَّ فلانًا قد مات فاشهده ثم مضى حتى إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إليَّ فرآني وأنا جالس فعرف فرجع إليَّ فقال: يا حذيفة أنشدك الله أمن القوم أنا؟ قلت: اللهم لا ولن أبرئ أحدًا بعدك، فرأيت عيني عمر جاءتا»، أخرجه ابن عساكر[1] وإنما عرف عمر رضي الله عنه أن ذلك الميت من المنافقين لأن حذيفة رضي الله عنه لم يَقُمْ لشهود جنازته وقد اختصه النبي ﷺ بمعرفة من بقي من المنافقين واستكتمه ذلك.. كما سيأتي في الخاتمة.

---

(١) منتخب كنز العمال ١/ ٩٥.

ولقد أهمل كثير من المسلمين بعد ذلك هذا الحكم، فصاروا يصلون على كل من أظهر الإسلام ولو كانوا يعلمون كفره، إما جهلاً بالحكم أو مداراة لأهل الميت وعشيرته، أو للمجتمع فيما إذا كان الميت زعيمًا له أنصاره ومؤيدوه ممن هم على شاكلته في النفاق أو من ضعفاء الإيمان.

* * *

الخاتمة

وفيها مباحث:

١- مجمل صفات المنافقين.

٢- أثر المنافقين في المجتمع الإسلامي.

٣- حكم الإسلام فيهم.

٤- تمييز أفعال النفاق مما يشابهها.

٥- نهاية المنافقين الذين عاصروا التنزيل.

١- مجمل صفات المنافقين

من دراسة آيات المنافقين وتاريخهم في عصر الرسول ﷺ يتبين لنا من مجمل أوصافهم البارزة ما يأتي:

١- أنهم قوم لم يرتضوا الإسلام دينًا ولا الكفر الصريح مبدأ فكانوا مذبذبين بين الكفار والمؤمنين، غير أنهم يبغضون المؤمنين ويتولون الكافرين. ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ الآيات [النساء: ١٣٨- ١٤٧].

٢- يأخذون من الدين ما سهل عليهم، ويتقاعسون عن تنفيذ ما يشق عليهم تنفيذه، كشهود صلاة العشاء والفجر في المسجد، وإذا أدوا شيئًا من العبادات فإنما يستكرهون أنفسهم عليه، ويؤدونه بكسل وتثاقل، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

٣- يقولون ما لا يفعلون، فينطقون بالكلام المعسول بينما يضمرون الكيد والمكر ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾الآيات[البقرة:٢٠٤-٢٠٦] ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ الآية [الفتح:١١].

٤- قلوبهم قاسية وعقولهم قاصرة فلا يتأثرون بالقيم الإنسانية النبيلة والمثل العليا ولا يُقدِّرون مكارم الأخلاق. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ

قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[محمد: ١٦].

٥- أفقهم ضيق ونظراتهم محدودة فهم يكرهون المهاجرين إلى بلادهم من المؤمنين ويكرهون من يحبهم من أبناء بلدهم. ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ٧].

٦- فصحاء شجعان في السلم، فإذا جد الجد وجاء دور العمل استخفوا بأنفسهم ولاذوا بغيرهم. ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب: ١٩].

٧- يتحاكمون إلى الطواغيت الذين يحققون لهم رغباتهم في ظلم الآخرين، ولا يتحاكمون إلى ما أنزله الله مقررًا للحق والعدل بين الناس. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

٨- يخدمون الكفار ويتجسسون لهم ضد المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾ الآية [المائدة: ٤١] فالمسارعة في الكفر هي في تقديم المنافقين الخدمات للكفار.

٩- يخذّلون المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله، وإذا اشتركوا معهم أحدثوا الخلل والاضطراب في صفوفهم وعملوا على تفكيك وحدتهم، وتفتيت قوتهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[التوبة: ٤٧].

١٠- ييأسون من رحمة الله وينقطع أملهم في نصره، ويلجأون في طلب النصر إلى أعداء الله ويعتمدون على القوى الحسية وحدها في وزن القوى المتقابلة في الميدان ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٩].

١١ - يلاحظون في موقفهم من الجهاد المكاسب الدنيوية، فإذا أمّلوا بها أقدموا عليه وإذا يئسوا منها تثاقلوا عنه ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٧٢-٧٣].

١٢- يغتنمون الفرص المناسبة للطعن في دعاة الإسلام المخلصين، وتشويه سمعتهم عن طريق الكذب وتغيير الحقائق ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ١١-٢٠].

١٣- يغتنمون الفرص لإثارة الشبهات حول الإسلام ليزعزعوا إيمان المؤمنين به ويصدوا الناس عن الدخول فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الأحزاب: ١-٦].

١٤- يحاولون إفساد المجتمع الإسلامي عن طريق تيسير سبل الفساد التي تحطم الأخلاق وتقضي على الفضائل الإنسانية. ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النور: ٣٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾[الأحزاب: ٥٩ - ٦١].

فالمنافقون سبب أساسي في مصائب الأمة الكبرى، ومن ذلك سفور النساء وعدم التزامهن بالحجاب، حيث كانت بداية السفور في كل بلد من فتيات قد هيمنت عليهن المبادئ الكافرة وظللن على انتسابهن للإسلام، فشجع بعضهن بعضًا حتى خرجن متحديات الدين مستهزئات بالمتمسكين به، فاجتمع حولهن من هن على شاكلتهن في النفاق وضعيفات الإيمان، حتى أصبح السفور ظاهرة اجتماعية مألوفة، وأصبح الحجاب الإسلامي مستنكرًا تحارب من أجله المؤمنات الملتزمات.

١٥- يحاربون الإسلام عن طريق التسمي به والدعوة إليه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨].

١٦- لا يهمهم إلا مصالحهم الذاتية ولا يتورعون عن إحداث الضرر بغيرهم مهما كان هذا الضرر، ليخلصوا أنفسهم ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا

يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾[آل عمران: ١٥٤].

١٧- يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٦٧].

١٨- يقبضون أيديهم فلا ينفقون المال في الحقوق الواجبة ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ﴾[المنافقون: ٧].

وقد بين النبي ﷺ علامات المنافقين التي تكشفهم وتميزهم عن المؤمنين، ومن هذه العلامات ما هو خاص بالمنافقين في عهده ﷺ كقوله «آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار» [أخرجه الشيخان][1] وفي غير مجتمع الصحابة ينطبق الحكم على حب المؤمنين المتمسكين وبغضهم، وإنَّ أظهر علامات التمسك بالإسلام الدعوة إلى الله تعالى، وإذا نظرنا إلى المجتمع المعاصر الذي يضم منافقين من مختلف الطبقات، نجد أنهم يكرهون الدعاة ويبغضونهم ويكيدون لهم، بينما نجد المؤمنين الصادقين يحبونهم ويشدون من أزرهم. ومنها ما هو عام في جميع المنافقين كقوله ﷺ: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول[2]، ولا يقربون المساجد إلاَّ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار [فتح الباري ١/ ٦٢] رقم ١٧.
صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار.. الخ [ص٨٥] رقم ٧٤.

(٢) الغلول هو الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة، كما ذكر ابن الأثير في النهاية.

هجرًا[1] ولا يأتون الصلاة إلاَّ دبرًا[2] مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون خشب بالليل صخب بالنهار[3] ». ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد والبزار وفيه عبد الملك ابن قدامة الجمحي وثقه يحيى بن معين وغيره وضعفه الدارقطني وغيره[4].

ومن أبرز خصال النفاق العامة الكذب في الحديث وإخلاف الوعد وخيانة الأمانة، وقد سبق بيان هذه الخصال، وكون هذه الصفات من صفات المنافقين محمول على أنها من السلوك الظاهر المنحرف المغاير لما يجب أن يكون عليه اعتقاد المؤمن بقلبه، وهذه أمثلة للسلوك المنحرف يفهم منها أن الانحراف في السلوك بكل جزئياته داخل في النفاق العملي.

وهذه الصفات وغيرها من مساوئ الأخلاق تعتبر طبيعية بالنسبة للكافر الذي يظهر الإسلام نفاقًا، لأنها موجهة من اعتقاده الباطني فهي بالنسبة له تلاؤم بين الظاهر والباطن، وإنما النفاق بالنسبة له يكون في إظهار الأعمال الصالحة، لكنها إذا صدرت من المؤمن فإنها مناقضة لاعتقاده الباطني فهي بالنسبة له من النفاق العملي.

* * *

---

(١) الهجر الترك والإعراض أي لا يأتون المساجد إلاَّ وقلوبهم معرضة، ذكره ابن الأثير في النهاية.

(٢) قوله دبرًا من الأدبار أي لا يؤدون الصلاة إلاَّ بعد خروج وقتها، كما ذكر ابن الأثير في «النهاية».

(٣) الصخب هو الضجة واضطراب الأصوات للخصام كما في النهاية، أي أنهم يعيشون طول نهارهم في ضجة وخصام من أجل دنياهم، فإذا جاء الليل كانوا كالخشب التي لا حراك بها فلا يقومون للصلاة.

(٤) مجمع الزوائد ١/ ١٠٧.

٢- أثر المنافقين في المجتمع الإسلامي

عندما يغلب الهوى الجامح على النفس وتتحكم فيها غرائزها المنحرفة لا تستطيع أن تتحكم في تصرفاتها بوحي من عقلها السليم، بل تغطي على عقلها نوازع الهوى المنحرف وجواذب الشهوات الجامحة، فلا يصبح المبتلى بهذا المرض صاحب عقل سليم، وإن كان قبل ذلك يعرف بين الناس برجاحة العقل وسداد الرأي.

فمن الناس من يستهويه المنصب والرئاسة فيرتفع بنفسه عن أن يؤمن بفكرة يكون فيها تابعًا وإن كان يدرك أن فيها سعادة الدنيا والآخرة فيسعى جهده لهدم هذه الفكرة ولو استلزم الأمر أن يستخدم في سبيل ذلك الوسائل المستهجنة، ويغطي على عقله هذا الهدف الفاسد فلا يفكر في مصلحة أمته ومستقبلها تفكيرًا سليمًا.

ومن الناس من يأكل قلبه الحسد لصاحب الفكرة التي تسود المجتمع ويُقبل الناس على اعتناقها، فينصب نفسه لعداوته ومحاولة تفريق الناس عنه، ولا يتورع عن أن يهاجم هذه الفكرة ويختلق لها العيوب والنقائص، وإن كان في قرارة نفسه مؤمنًا بها ويتمنى أن لو كان صاحبها.

ومن الناس من تستهويه الشهوات البهيمية فيستجيب لها وتعميه عن إدراك نور الحق، فيستمر في تلبية نداء هذه الشهوات ولو أضرَّ بنفسه أو بأفراد مجتمعه.

فهؤلاء المرضى جميعًا لا يشعرون بأنهم بعملهم هذا مفسدون في الأرض، وإنما يعتبرون عملهم هذا هو عين الإصلاح، وأن ما نصبوا أنفسهم لمحاربته هو الفساد في الأرض، وهذا يعتبر اختلالاً في الموازين وانعكاسًا في المفاهيم ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[المؤمنون: ٧١].

والمنافقون في كل أمة وفي كل عصر هم من جملة المفسدين في الأرض، بل هم أعظم المفسدين، وإفسادهم من النوع الذي يحتاج علاجه إلى مقاومة قوية وجهد متواصل.

فالنفاق إفساد في الأرض من الناحية الفكرية لأن التذبذب بين الطوائف المختلفة في الاتجاه يجعل الأمور الجدية محلاً للعب والهزل، ويحول بين أصحابه وبين التفكير في البحث عن الحق والاهتداء إليه، لأن الفكرة التي تستولي على عقولهم دائمًا هي إمكان مقدرتهم على كسب رضا تلك الطوائف المختلفة، فلا يستطيعون بعد ذلك أن يفكروا في معرفة الحق لأن الفكرة التي تهيمن عليهم هي محاولة إرضاء المخالفين لهم في المعتقد، والبراعة في تغطية معتقدهم الحقيقي.

كما أن وجود المنافقين في المجتمع الإسلامي يحول بين الناس وبين الدخول في الإسلام ومحاولة فهم دعوته، لأن من أهم ما يجذب الناس إلى الإسلام هو ما يرونه من سلوك أتباعه المتمسكين بتعاليمه السامية، وما حدث من انتشار الإسلام بين الأعاجم في عهد الفتح الإسلامي يشهد لذلك، لأن الأعاجم لا يفهمون القرآن ولا يدركون حقيقة ما يدعو إليه، وإنما جذبهم إلى الإسلام ما يتمتع به الصحابة ﷺ ومن تأثر بهم من مكارم الأخلاق، فإذا وُجد المنافقون في المجتمع الإسلامي كان وجودهم فيه مما ينفر الناس من الدخول في الإسلام، أو محاولة فهم دعوته لأنهم لن يتقيدوا بتعاليمه السامية، بل سيتصرفون على ضوء ما تمليه عليهم أفكارهم الزائفة وأهواؤهم المنحرفة، فإذا رآهم الكفار على هذا السلوك المنحرف وهم ممن ينتسبون إلى الإسلام رغبوا عنه، ولم يفكروا في تفهمه والدخول فيه.

ويتضاعف إفساد المنافقين إذا كانوا ممن ينتسب إلى العلم بالإسلام ويتخصص بدراسة علومه، لأنهم سيتخذون من التظاهر بالدعوة إلى الإسلام وتعليم علومه وسيلة

لتغطية نواياهم السيئة نحو هدم الإسلام وتضليل المسلمين، فيحاولون إثارة الشبهات في نصوص الإسلام، ويجادلون العلماء المؤمنين بالباطل ليثيروا الشكوك حولهم وينتزعوا ثقة المؤمنين بهم.

وقد حذر النبي ﷺ المؤمنين من هؤلاء المنافقين الذين ينتسبون إلى العلم بالدين كما في قوله ﷺ «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان».

قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والبزار ورجاله رجال الصحيح(١).

وأخرجه الفريابي عن أبي عثمان قال سمعت عمر بن الخطاب وهو على منبر رسول الله ﷺ أكثر من عدد أصابعي هذه وهو يقول: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم قيل: وكيف يكون المنافق العليم؟ قال: عالم اللسان جاهل القلب والعمل(٢).

وقد اعتبر عمر رضي الله عنه جدال المنافق بالكتاب من الأمور الثلاثة التي تهدم الإسلام، كما أخرج الدارمي قال أخبرنا محمد بن عيينة أنا علي هو ابن مسهر عن أبي إسحاق عن الشعبي عن زياد بن حُدير قال قال لي عمر: تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت لا، قال: يهدمه زلة عالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين(٣).

والنفاق إفساد في الأرض من الناحية الاجتماعية، لأن المنافقين لا يتحلون بالإيمان الذي يمنع صاحبه من الوقوع في الجرائم والاستهانة بمكارم الأخلاق، فإذا شاع هذا السلوك المنحرف في المجتمع اختل نظامه وأصبح المنكر فيه معروفًا والمعروف فيه منكرًا.

---

(١) مجمع الزوائد ١/ ١٨٧.

(٢) صفة المنافق ص ٣ – ٤.

(٣) سنن الدارمي [١/ ٧١].

وكون المنافقين ينتسبون إلى الإسلام يهيء لهم الجو الملائم للإفساد في المجتمع الصالح، لأنهم يختلطون مع المؤمنين اختلاطًا كاملاً، فلا يمكن التحرز منهم ولا تهيئة الجو الصالح لتربية المؤمنين، لأن ما يحاوله دعاة الإسلام من بذل الجهد والوقت الطويل في غرس العقيدة الصحيحة وتوثيق عرى الإيمان في النفوس وبناء المجتمع الصالح قد يضعفه عمل المنافقين في الإفساد، فالهدم أسرع تأثيرًا وأسهل من البناء، لأن الهدم يلبي نداء الغرائز التي جُبل الإنسان عليها بينما البناء يقارعها، فمواجهة نداء الهدم تحتاج إلى نفوس قوية معمورة بالإيمان.

ونظرًا لما للمنافقين من أثر سيء في المجتمع كان حكم الإسلام في المرتدين أن يقتلوا حتى يتطهر المجتمع منهم، وإن من أهم الخطوات التي يجب اتخاذها في سبيل تكوين مجتمع صالح هي محاولة إيجاد البيئة الصالحة التي يتربى فيها المؤمنون، ثم القيام بالرقابة التامة على أفراد هذه البيئة لتطهيرها من عناصر الإفساد.

والنفاق إفساد في الأرض من الناحية السياسية، لأن عمران الأرض لا يمكن أن يتحقق إلاَّ بقيام الدولة الإسلامية التي تنفذ شرع الله في الأرض، فإذ وُجد المنافقون في رعية هذه الدولة أصبحت في خطر عظيم لأنهم يتظاهرون بمحبتها والتفاني في خدمتها، ثم يخونونها في أحرج المواقف وينقلون أسرارها إلى أعدائها، فالمنافقون يكرهون قيام الدولة الإسلامية لأنها تحول بينهم وبين تنفيذ ما يحاولونه من إفساد في مجال الشبهات والشهوات.

ووجود المنافقين في مجتمع الإسلام من أكبر العوامل التي تُقوِّض دعائم الدولة الإسلامية، لأنه يوجد فيهم غالبًا من تتوافر فيهم مؤهلات الزعامة، فلا يتردد المسلمون في تقليدهم أمورهم لأنهم مسلمون في الظاهر، وقد يتغلبون على الحكم بالقوة وحينئذ

ينحرف سير الدعوة الإسلامية وتسود الفوضى في المجتمع لأنهم سيستغلون ما في أيديهم من السلطة لتحقيق منافعهم الشخصية، وتنفيذ مخططاتهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين، وسيقربون منهم ضعفاء الإيمان والمنافقين من أمثالهم، ويسندون إليهم الأمور المهمة، ويبعدون من يتوسمون فيه قوة الإيمان والثبات على الدين، لأنه لا يسير معهم في تنفيذ مخططاتهم التي يدبرونها ضد المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، بل يكشف عن ألاعيبهم وعن وجوه الضعف في إدارتهم.

وإذا وجد تحت إدارتهم من يحاول الإصلاح ويعمل بإخلاص لدينه وأمته عملوا على تحطيمه والقضاء على سلطانه بمختلف الوسائل الدنيئة.. بمضايقته وحرمانه من المنافع المادية، وإلصاق التهم الكاذبة به وغير ذلك.

والمنافق جريء على الظلم والتدمير لأنه يفقد الوازع الديني الذي يأمره بالخير وينهاه عن الشر، فإذا وصل إلى مركز كبير في الدولة الإسلامية بدأ بالعبث والإفساد في الأرض بشكل منظم بطيء، بحيث لا يلفت أنظار الناس إليه كالسوس الذي ينخر في الجسم حتى يتركه هيكلاً متداعيًا لا روح فيه، فالمنافق ينخر في جسم الأمة شيئًا فشيئًا حتى يقضي على كيانها، وتبقى مبادؤها أفكارًا خيالية بعيدة عن الواقع، لأن الذين يؤمنون بها ويستطيعون تطبيقها قد أُبعِدوا عن المراكز الحساسة في الدولة.

وعندما يكون عدو المؤمنين رجلاً كافرًا قد أعلن كفره فإن المؤمنين جميعًا يدركون عداوته ويتكتلون ضده، وأي فرد منهم يتعاون معه يُتهم بالخيانة، أما حين يكون منافقًا فإنه لا يدرك عداوته وخطره على الأمة إلاَّ القليل من المسلمين، وهم أصحاب الوعي الكامل، ولا يتصدى لحربه إلاَّ الذين جمعوا بين الوعي الكامل والإيمان القوي، أما بقية المسلمين فإنهم قد ينخدعون بالمظاهر ويشغلهم التمتع بالوعود الكاذبة، والجري وراء

الدعايات الجوفاء عن النظر والتأمل والنقد الهادف، والاستشهاد بالماضي على الحاضر، ثم بين عشية وضحاها يصبح الأمر قد انفلت من أيدي المؤمنين، وأخذ المنافقون حريتهم الكاملة في تنفيذ مخططاتهم للإفساد في الأرض.

وحينما يتولى المنافق السلطة على المسلمين ويُعمل يده في المخلصين منهم قتلاً وتشريدًا لا ينكر ذلك إلاَّ القليل من المؤمنين، وسائر المؤمنين إما جاهل بخطره على الإسلام والمسلمين، وإما عالم بذلك ولكنه يداجيه لمصلحته الخاصة دفعًا لشره أو رجاء لخيره، ومن هنا كان المنافقون أخطر على الأمة الإسلامية فيما إذا تولوا السلطة عليها مما إذا تولاها الكفار.

ولقد حاول المنافقون القضاء على دولة الإسلام في عهد النبي ﷺ فلم ينجحوا في ذلك رغم محاولتهم بشتى الوسائل إيجاد الفرقة بين المسلمين، كما تبين لنا من خلال هذا الكتاب مع أن دولة الإسلام في تلك الفترة كانت ضعيفة في مبدأ أمرها، وأعداؤها محيطون بها من كل جانب.

وإنما لم ينجحوا في القضاء على دولة الإسلام آنذاك لأمور ثلاثة:

١- أن الوحي كان ينزل بفضيحتهم وكشف حقيقتهم، فيحبط بذلك مساعيهم في الكيد للإسلام والمسلمين.

٢- وجود الإدارة الحازمة الحكيمة من النبي ﷺ حيث استطاع أن يسير بهذه الدولة الفتية بين أكوام من الأشواك والعقبات الشاقة، وأن يخلصها بفضل حكمته وسياسته من مشكلات صعبة ومواقف خطيرة، كان أعداؤها يحاولون دائمًا أن يوقعوها في مخالبها.

٣- تمتع الصحابة رضي الله عنهم بالإيمان الراسخ واليقين الصادق الذي أصبح حاجزًا قويًا وسدًا منيعًا يحول بين أعدائهم وبين محاولة تفريقهم عن النبي ﷺ أو إيقاع الفتنة بينهم.

وقد مر علينا في هذا الكتاب أمثلة توضح هذه الأمور الثلاثة.

أما بعد موت النبي ﷺ فقد انقطع الوحي فتخلف الأمر الأول من هذه الأمور وبقي الثاني والثالث، وقد أصبح كيد المنافقين بعد ذلك يتوقف أثره على قوة تمسك المؤمنين بهذين الأمرين أو ضعفه.

وقد ظهر مفعول سلاحهم الذي يوجهونه لهدم كيان المؤمنين وتقويض دعائم دولتهم عندما قلّت فيهم الإرادة القوية وضعف إيمانهم بدينهم وذلك في النكبات الكثيرة التي مرت بها دولة الإسلام، والتي أفضت إلى زوالها، وفي الفوضى الخلقية التي عمت كثيرًا من المجتمعات الإسلامية.

وسأكتفي بذكر مثلين للآثار السيئة جرها المنافقون على الدولة الإسلامية بعد موت النبي ﷺ، أحدهما في عصر الخلفاء الراشدين، والثاني في أواخر الخلافة الإسلامية التي قامت على يد العثمانيين.

فأما المثل الأول فهو ثورة المنافقين على الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه، وكان الذي دبر هذه الثورة عبد الله بن سبأ، وهو يهودي أظهر الإسلام نفاقًا ليصل إلى أغراضه الهدامة في تفريق المسلمين إلى أحزاب متعارضة وهدم الخلافة الإسلامية، ولهذا الهدف طاف في بلاد الإسلام وأخذ ينفث فيها سمومه القاتلة، وكانت باكورة عمله في الهدم هي إثارة المسلمين على عثمان رضي الله عنه، فجاء إلى العراق ووجد في أهلها بعض الاستجابة لأفكاره، فكوّن له فيها أنصارًا، ثم انتقل إلى الشام فمنعه من التأثير في أهلها سياسة معاوية الحازمة رضي الله عنه، فانتقل إلى مصر فوجد فيها جوًا صالحًا لنشر أفكاره، واستطاع أن يستميل عددًا كبيرًا من أهلها، ولما تم له ما أراد من تأليب الناس على الخليفة، بدأ الثورة من هناك فخرج من مصر ومعه من تأثر به من أهلها بعدما اتفق مع أهل العراق على الخروج في

وقت محدد، فلما وصلوا إلى المدينة حاولوا أن يستميلوا عليًا وطلحة والزبير فلم يفلحوا في ذلك، فحاصروا عثمان وجرت منهم إهانات كثيرة له ﷺ، ثم قتلوه بعدما أبى أن يستجيب لمطالبهم في خلع نفسه من الخلافة[1].

وقد أخبر النبي ﷺ عثمان بن عفان ﷺ بما سيجري عليه من ذلك، وأخبر بأن الذين سيثورون عليه هم من المنافقين، وذلك فيما أخرجه الإمام أحمد قال: حدثنا أبو المغيرة قال حدثنا الوليد بن سليمان قال حدثني ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن عامر عن النعمان بن بشير ﷺ عن عائشة ﷺ قالت: «أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان فأقبل عليه رسول الله ﷺ فلما رأينا رسول الله ﷺ أقبلَتْ إحدانا على الأخرى فكان من آخر كلام كلمه أن ضرب منكبه وقال: يا عثمان إن الله عز وجل عسى أن يلبسك قميصًا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني، يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصًا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني ثلاثًا، فقلت لها يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله فما ذكرته، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين: اكتبي لي به فكتبت إليه به كتابًا»[2].

وهؤلاء الذين ثاروا على عثمان ﷺ بعضهم من المنافقين في الاعتقاد كعبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم نفاقًا، وفيهم منافقون في العمل كأبناء الصحابة الذين شاركوا في الفتنة، حيث وقعوا في الكذب والخيانة وأظهروا الإصلاح وهم يريدون إزالة الخليفة، حتى اعتدوا عليه بالقتل بعد ذلك ففتقوا فتقًا ظهرت آثاره السيئة في تفريق المسلمين.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٣٤٠ فما بعدها، والبداية والنهاية ٧/ ١٧٠ – ١٩٩.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٨٦، ٨٧ وإسناده صحيح.

ولم يكتف ابن سبأ بهذا القدر من محاولة هدم الخلافة الإسلامية وإثارة النزاع بين المؤمنين، بل أصبح يتابع الحلقات التي بدأها بمقتل عثمان رضي الله عنه فصار يثير الخلاف بين الصحابة كلما تقاربوا وأوشكوا على الاتفاق واجتماع الكلمة، ومن ذلك إشعاله نار الفتنة بين الصحابة يوم الجمل بعدما تصالحوا، حتى قامت الحرب بينهم بسببه هو وشيعته من الثوار[(١)].

وهكذا أنجز ابن سبأ هذه الإنجازات الضخمة من أعمال الهدم والإفساد في خلال سنوات قلائل، وكان العامل الأول في نجاحه هو تستره بالنفاق، إضافة إلى ضعف الحواجز الواقية التي تحول بين المؤمنين وتسرب مثل هذه السموم إلى مجتمعهم.

أما المثل الثاني: فهو ما قام به المنافقون في العصر الحديث من هدم الخلافة الإسلامية، ومن أبرز هؤلاء المنافقين طائفة [الدونمة] وهم يهود أظهروا الإسلام نفاقًا، ويبدأ تاريخ هذه الطائفة في الأندلس، حيث كان اليهود يعيشون هناك تحت الحكم الإسلامي ويتمتعون بكامل حريتهم الدينية، ولما سقطت الأندلس في أيدي الأسبان عام سبعة وتسعين وثمانمائة تعرض اليهود لاضطهاد النصارى واضطروا لمغادرة البلاد، وكان أن استقرت طائفة كبيرة منهم في تركيا، التي كانت آنذاك تحت سلطان العثمانيين، وعلى التحديد استقروا في مدينة [سلانيك] القريبة من حدود اليونان يومها، وهي اليوم جزء من بلاد اليونان.

وبعد مائتي سنة تقريبًا من نزوحهم هاجر أحدهم وهو [سباتاي ساوي] إلى فلسطين بعد أن جال في المنطقة العربية، وبعد أن عاد إلى [سلانيك] أعلن أنه قد تلقى الوحي المقدس خلال رحلته، وأنه المسيح المنتظر وأسس المذهب السبتي الجديد، فألقت

(١) انظر تفصيل ذلك في البداية والنهاية ٧/ ٢٣٠ – ٢٤٥.

السلطات القبض عليه بتهمة الدجل وادعاء النبوة فراوغ تخلصًا من العقاب، وأخيرًا أعلن إسلامه وتبعه طائفة كبيرة من اليهود، اشتهروا باسم [الدونمة] وأصبحوا يحتفظون بأسمائهم اليهودية إلى جانب أسمائهم الإسلامية، فمثلاً الكاتب التركي المشهور [أحمد أمين يالمان] اسمه الحقيقي [شالامون]. كما احتفظوا بأعيادهم وتقاليدهم الخاصة.

وقد مكنهم ضعف المسلمين وجهلهم بتعاليم دينهم من الوصول إلى مراكز كبيرة في دولة الإسلام، حتى إن بعضهم بلغ مرتبة الوزارة أكثر من مرة، وشكلوا لهم تنظيمًا سياسيًّا خدموا به إخوانهم من اليهود الذين يحاولون دائمًا أن يقضوا على دولة الإسلام، فكانوا ينقلون أسرار العثمانيين إلى أعدائهم من الأوروبيين، وأخيرًا استطاعوا أن يتسلموا زمام الحكم في تركيا، وأن يعزلوا آخر خلفاء المسلمين [السلطان عبد الحميد] رحمه الله، وأن يقدموا بكل وقاحة ونذالة على إلغاء الخلافة الإسلامية، التي احتضنتهم وضمنت لهم حقوقهم[١].

وهكذا عرفنا من هذين المثلين كيف أن المنافقين قد حاولوا بكل ما أوتوا من قوة وحيلة أن يقضوا على دولة الإسلام، منذ نشوئها، وقد فشلوا في ذلك في أول الإسلام، وإن كانوا قد أحدثوا أضرارًا بالغة في المؤمنين ولكنهم نجحوا أخيرًا فلم تقم للإسلام دولة واحدة منذ أن سقطت الخلافة العثمانية على أيديهم حتى الآن.

* * *

(١) يراجع في أخبار هذه الطائفة: كتاب [يهود الدونمه] لمصطفى طوران، ترجمة كمال خوجه ويراجع أيضًا كتاب «الأفعى اليهودية» لعبد الله التل [ص٧٥، ١٠٠، ١٠٢]، وكتاب «القومية والغزو الفكري» لمحمد جلال كشك [ص٢٦٦].

٣- حكم الإسلام في المنافقين

عرفنا أن النفاق في العقيدة نوع من الكفر، فإذا أخفى المنافق كفره كان معصوم الدم بما أظهر من الإيمان والله يتولى السرائر؛ أما حين يظهر كفره فإنه يكون مرتدًا عن الإسلام، والمرتد حكمه في الإسلام القتل لقول رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله إلاَّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة»، أخرجه الشيخان[1].

والمنافق إذا أظهر الكفر كان في الظاهر مفارقًا لدينه الذي أظهره قبل ذلك، فلهذا كان داخلاً في هذا الحكم.

وقد اختلف الفقهاء في قبول توبة المنافق الذي أصبح بعد عصر صدر الإسلام يسمى [الزنديق][2] على أقوال:

أولاً: أنه لا تقبل توبته لقول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾[البقرة: ١٦٠] والزنديق لا تظهر منه علامة تبين رجوعه وتوبته، لأنه كان مظهرًا الإسلام قبل ذلك فإذا أظهر التوبة لم يزد على ما كان منه قبلها من إظهار الإسلام.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قوله تعالى ﴿أن النفس بالنفس﴾ [فتح الباري ١٢/ ٢٠١] صحيح مسلم، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم ص ١٣٠٣.

(٢) اختلف أهل اللغة في معنى الزنديق فقال ابن منظور في «لسان العرب» هو القائل ببقاء الدهر، فارسي معرب، وهو بالفارسية «زَنْدِكِرَاي» أي يقول بدوام الدهر، وقال الزبيدي في [تاج العروس] بعدما ذكر الخلاف في معناه: «الصواب أن الزنديق نسبة إلى الزند وهو كتاب [ماني المجوسي] الذي كان في زمن بهرام بن هرمز، والزند بلغتهم التفسير،يعني هذا تفسير لكتاب زرادشت الفارسي. ولعل إطلاق الزندقة على من يظهر الإسلام ويبطن الكفر كان لأن الذين أظهروا الإسلام نفاقًا بعد الفتح الإسلامي كان أكثرهم من المجوس فأطلقت الزندقة عليهم نسبة إلى بعض دياناتهم ثم أصبحت بعد ذلك تطلق على كل من أظهر الإسلام نفاقًا.

وقال بعض أصحاب هذا القول:إنْ صدق في توبته نفعه ذلك في الدار الآخرة.

ثانيًا: تقبل توبته إذا جاء تائبًا بغير طلب، ولا تقبل إذا ظهر أمره ولم يتب إلاَّ بعد ظهور أمره.

ثالثًا: تقبل توبته إذا تاب لأول مرة فإن تكررت ردته لم تقبل منه.

رابعًا: تقبل توبته إذا لم يكن داعيًا إلى الضلال، فإن كان داعيًا إلى ضلالة لم تقبل منه.

خامسًا: تقبل توبته مطلقًا لعموم الأدلة الدالة على قبول توبة المرتد ولقول الله تعالى في المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾[النساء: ١٤٥] ولأن النبي ﷺ كف عن المنافقين بما أظهروا من النطق بالشهادتين، مع إخبار الله تعالى بكفرهم باطنًا، وقيامهم ببعض التصرفات التي تبين كفرهم[(١)].

وهذا هو الراجح لما ذُكر ولأن كل من تاب بعد الردة تكون توبته مقبولة في الإسلام من غير بحث عن باطن أمره، لأن علم السرائر عند الله تعالى، فكذلك المنافق تقبل توبته وليس لنا إلاَّ ظاهر أمره.

أما ما استدل به القائلون بعدم قبول توبته من أنه لا يتبين أمره بعد التوبة والله يقول: ﴿وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾ والمنافق مظهر الإسلام قبل ذلك فالجواب على هذا أن المنافق لا يعتبر له حكم المرتد إلاَّ إذا صدر منه ما يبين كفره، فالإصلاح والبيان بالنسبة له أن يترك الحال التي من أجلها حكمنا بردته، ويعود إلى الالتزام بتطبيق الإسلام ولو ظاهرًا فقط.

---

(١) انظر المغني ٨/ ١٢٦، المجموع شرح المهذب ١٨/ ١٤ – ١٥، المحلى ١١/ ٢٠١، مغني المحتاج ٤/ ١٤٠ – ١٤١، التاج والأكليل لمختصر خليل ٦/ ٢٨٢.

وهنا يرد سؤال مهم وهو لماذا أبقى النبي ﷺ على المنافقين فلم يقتلهم وقد صدر من بعضهم ما يظهر كفره؟

والجواب عن ذلك أن المنافقين في عهد النبي ﷺ كانوا يعتذرون عما يصدر منهم مما يتبين به كفرهم ويظهرون التوبة فليس هناك ما يسوغ قتلهم والحالة هذه، لأن تنفيذ الأحكام الشرعية يكون حسب الظاهر، فإذا تلفظ المسلم بالشهادتين حقن بذلك دمه وماله، أما السرائر فعلمها عند الله عز وجل والحساب عليها يكون في الآخرة.

ولقد كان النبي ﷺ يعلم كذب بعضهم في توبته واعتذاره كعبد الله بن أبيٍّ الذي صرح القرآن بكذبه وكفره في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ١-٣] ولكن النبي ﷺ كان يخشى أن يكون في قتله هو وأمثاله من المنافقين فتنة لقومهم من المؤمنين وصد للناس عن الدخول في الإسلام، لكونهم مظهرين الإيمان ومعدودين من أتباع النبي ﷺ، ومما يدل على ذلك قول النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه «دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» وذلك حينما استأذنه عمر في قتل ابن أبيّ[1].

فالرسول ﷺ كان يخشى أن يحدث بسببهم فتنة لقومهم لأنهم قد لا يقتنعون جميعًا بكفر هؤلاء فتثور ثائرتهم لهم، وقد يحدث بسبب ذلك حرب أو نزاع بين المؤمنين يذهب بوحدتهم وأخوتهم، كما يخشى أن يكون في ذلك صد للناس عن الدخول في الإسلام لأن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة المنافقون/ ٥ [فتح الباري ٨/ ٦٤٨] رقم ٤٩٠٥.

الكفار البعيدين عن مجتمع المدينة لا يفهمون حقيقة ما يجري داخلها فهم يعتبرون عبد الله ابن أبيّ وأمثاله من المنافقين أتباعًا للنبي ﷺ وأصحابًا له، فإذا قتل واحدًا منهم بغير جريمة ظاهرة نفروا من الإسلام، وقالوا لا خير في تبعية رجل يقتل أصحابه المؤمنين بدينه حيث إنهم لن يفسروا ذلك إلاَّ بأنه نتيجة لوقوع الخلاف بينهم وبينه في أمور لا يعتبرونها مما يسوغ قتلهم ولن يفهموا الأمر على حقيقته.

ومع أن الإسلام الذي أظهروه قد عصم دماءهم وأموالهم فقد أمرنا الله تعالى بجهادهم وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: ٧٣-التحريم: ٩].

وهذا الحكم فيما إذا لم يكن للمنافقين شوكة وقوة يصلون بها إلى الهيمنة على بلاد الإسلام أو التظاهر بالفسوق والعصيان، فإذا كان الأمر كذلك فإن جهادهم يكون باليد حتى يزول خطرهم وتضعف قوتهم، ويتفرق شملهم، وقد جاء عن عبد الله بن مسعود ﷺ ما يدل على ذلك، وذلك فيما ذكره الإمام الذهبي عن علي بن الأقمر عن عمرو بن جندب عن ابن مسعود قال: جاهدوا المنافقين بأيديكم فإن لم تستطيعوا فبألسنتكم فإن لم تستطيعوا إلاَّ أن تكفهرُّوا في وجوههم فافعلوا[١].

ولقد حكم العلماء بعد ذلك على الزنادقة بالقتل لأنهم لم يكتفوا بالنفاق، وإنما كانوا يدعون إلى دين المجوسية، ويحاولون تشويه الإسلام وتحريفه وتقويض دولته، وذلك بطرق متعددة منها وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ، والتظاهر بالزهد والعبادة ثم التوصل بعد ذلك إلى تحريف الإسلام والدعوة إلى المجوسية.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٧.

وجهاد المنافقين يتحقق في أمور:

١- إظهار معرفة حقيقتهم والخبرة بمكرهم وألاعيبهم، ومصارحتهم بمعرفة حقيقة معتقدهم حتى لا يستمروا في محاولة المكر والخداع.

٢- عدم قبول اعتذاراتهم الكاذبة وإظهار عيوبها حتى يبطل مفعول هذا السلاح الذي اتخذوه وقاية لأنفسهم، وفي هذا يقول الله سبحانه مرشدًا نبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾[التوبة: ٦٦].

٣- أن ينزع المؤمنون ثقتهم بهم وأن لا يسندوا إليهم شيئًا من أمورهم لعدم توافر الكفاءة فيهم، فالكفاءة في أي عمل لابد فيها من توافر أمرين مهمين هما الأمانة والخبرة الفنية، وقد ذكرهما الله سبحانه في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥] وفي قوله حكاية عن إحدى ابنتي صاحب مدين ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] والمنافقون لا تتوافر فيهم الأمانة لانعدام الوازع الديني عندهم، فإذا تولوا مراكز قيادية في دولة الإسلام أفسدوا في الأرض، ولم يُذكر أن النبي ﷺ أسند إلى المنافقين الذين في عصره شيئًا من أمور الدولة، رغم توافر الخبرة الفنية في بعضهم.

٤- إهانتهم واحتقارهم ومحاولة إذلالهم وإن كانوا من الوجهاء لدى عامة الناس، أو من البارزين في علوم الحياة الدنيا، فإن البراعة في علوم هذه الحياة مع خواء الروح والفكر من علم الآخرة أمر مذموم في الإسلام كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾[الروم: ٧].

٥- إغلاظ القول لهم والتشنيع عليهم، كما أمرنا الله تعالى بذلك في قوله ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾.

٦- فضح مؤامراتهم وتحذير المسلمين من الانخداع بهم والاطمئنان إليهم.

٧- عدم الاستعانة بهم في قضاء الحوائج لأن ذلك يترتب عليه احترامهم والاعتراف لهم بالسيادة.

وقد نهى النبي ﷺ عن تسويد المنافقين وتشريفهم، كما أخرج أبو داود في سننه قال: حدثنا عبيد الله بن عمر بن ميسرة قال: حدثنا معاذ بن هشام قال: حدثني أبي عن قتادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سيد فإن يك سيدًا أسخطتم ربكم عز وجل»[1].

وأخرجه الإمام البخاري في [الأدب المفرد] عن علي بن عبد الله عن معاذ بن هشام به[2].

وأخرجه الإمام أحمد عن عفان بن معاذ بن هشام به[3].

وذلك لأن في رفع شأنهم إعلاء للكفر وإهانة للإسلام، ولأن في تواضع المؤمن للمنافق إضعافًا لإيمانه وإذلالاً لنفسه التي أعزها الله بالإسلام، ومن طلب الدنيا بالتذلل للمنافقين فقد وقع في إثم عظيم، وخسر خسرانًا مبينًا لأنه باع آخرته بدنياه وفضل الأدنى على الأعلى.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب لا يقول المملوك ربي، حديث رقم ٤٩٧٥ وإسناده حسن.

(٢) الأدب المفرد، باب لا تقل للمنافق سيد رقم ٣٢٥ ص ١٩٩.

(٣) مسند أحمد ٥/ ٣٤٦.

ومن أسباب التعرض للمذلة على يد المنافقين أن يستشفع بهم المؤمن في حل مشكلاته وقضاء حوائجه، فإذا نفعوه في هذا المجال شعر بشيء من احترامهم، والاستصغار لهم فوقع في الإثم بسبب ذلك.

* * *

٤ - تمييز أفعال النفاق مما يشابهها

تبين لنا من تعريف النفاق أن حقيقته إظهار شيء وإبطان شيء آخر، فهل كل سلوك يختلف ظاهره مع باطنه يعتبر نفاقًا؟

الواقع أنه ليس كذلك فقد أباح الإسلام بعض التصرفات التي من هذا النوع، فمن ذلك مداراة أهل الكفر والفسق اتقاء شرهم وفحشهم أو تأليفًا لقلوبهم، وذلك بإظهار مودتهم والبشاشة في وجوههم والتبسط معهم في الحديث مع إبطان كراهيتهم.

ومن أدلة جواز هذا السلوك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[آل عمران: ٢٨] فقد أباح الله تعالى في هذه الآية التظاهر بمودة الكفار في حال اتقاء شرهم ودرء أذاهم.

ومن أدلة ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث عائشة ﵂ أن رجلاً[(١)] استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة أو بئس ابن العشيرة فلما جلس تَطلَّق النبي ﷺ في وجهه وانبسط له، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة متى عهدتني فاحشًا؟ إن شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»[(٢)].

---

(١) قال ابن حجر: قال ابن بطال: هو عيينة بن حِصْن الفزاري وكان يقال له: الأحمق المطاع [فتح الباري ١٠/ ٤٥٣].

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا [فتح الباري ١٠/ ٤٥٢]. صحيح مسلم، كتاب البر والآداب، باب مداراة من يتقي فحشه ص ٢٠٠٢.

ومما يحمل على هذا المعنى ما أخرجه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: إنَّا لنكْشِر في وجوه أقوام وإنّ قلوبنا لتلعنهم[1].

وقد أباح الله سبحانه للمسلم أن يتفوه بكلام الكفر عند الإكراه على ذلك إذا كان قلبه عامرًا بالإيمان وذلك في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النحل: ١٠٦]. وهذه نعمة من الله ورحمة بعباده لأنه ليس كل المؤمنين يبلغ إيمانهم إلى درجة عالية بحيث يتحملون العذاب في سبيل دينهم، فإذا لم تشرع لهم هذه الرخصة فإنهم يخرجون من الإيمان إذا عرَّضهم الكفار للفتنة..

وإذا كانت المداراة جائزة في حال التَّقيَّة فإنها تجوز في حال تأليف قلوب الكفار والفساق للإيمان من باب أولى بل هي -والحالة هذه- مأمور بها شرعًا لأنها من أهم وسائل تبليغ الدعوة إلى الإسلام.

وليست هذه المداراة المذكورة من المداهنة المحرمة، لأن المداهنة تكون في مجاراة أهل الكفر والفسق في باطلهم، وذلك في السكوت على منكراتهم والاستجابة لمطالبهم في تحريف الدين. ولقد حاول الكفار مداهنة الرسول ﷺ مرات عديدة ليداهنهم فيتنازل عن بعض ما يدعوهم إليه فلم ينجحوا في ذلك، وقد بين الله سبحانه محاولاتهم هذه في آيات منها قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[القلم: ٩][2]، وقوله: ﴿وَإِن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس رقم ٣١٣٢ [فتح الباري ١٠/ ٥٢٧].

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: يقول ودُّوا لو ترخص لهم فيرخصون. أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة [٢٩/ ٢١].

كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾[الإسراء: ٧٣].

وقد حرم الإسلام الخداع والكذب واعتبرهما من أبرز صفات المنافقين؛ ولكنه أباح الخداع في الحرب كما قال رسول الله ﷺ «الحرب خدعة»[1]، وأباح الكذب في الحرب أيضًا، ومن أجل الإصلاح بين الناس، وفي الحديث بين الرجل وامرأته، كما أخرج الشيخان عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا» -زاد مسلم- وقالت: «ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلاَّ في ثلاث: الحرب والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها»[2].

وقد أبيح الكذب والخداع في هذه الأمور للمصلحة المترتبة على ذلك، وهذا منطبق على كل ما فيه مصلحة ولا يترتب عليه مضرة.

قال النووي: «قال القاضي لا خلاف في جواز الكذب في هذه الصور، واختلفوا في المراد بالكذب المباح فيها ما هو، فقالت طائفة هو على إطلاقه وأجازوا قول ما لم يكن في هذه المواضع للمصلحة، وقالوا الكذب المذموم ما فيه مضرة واحتجوا بقول إبراهيم» «بل فعله كبيرهم» و«إني سقيم» وقوله «إنها أختي» وقول منادي يوسف عليه السلام ﴿أَيَّتُهَا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الحرب خدعة رقم ٣٠٢٧ [فتح الباري ٦/ ١٥٧]. صحيح مسلم، كتاب الجهاد باب جواز الخدم في الحرب ص ١٣٦٢ رقم ١٧٤٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب ٢ رقم ٢٦٩٢ [فتح الباري ٥/ ١٩٩]. صحيح مسلم، كتاب البر والآداب، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه ص ٢٠١١، ٢٠١٢ رقم ٢٦٠٥.

ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ قالوا: ولا خلاف أنه لو قصد ظالم قتل رجل هو عنده مختفٍ وجب عليه الكذب في أنه لا يعلم أين هو، وقال آخرون منهم الطبري: لا يجوز الكذب في شيء أصلاً، قالوا وما جاء من الإباحة في هذا المراد به التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب، ومثّل لذلك بأن يقول لعدوه مثلاً مات إمامكم الأعظم، وينوي إمامكم في الأزمان الماضية.

قال: وأما كذبه لزوجته وكذبها له فالمراد به في إظهار الود والوعد بما لا يلزم ونحو ذلك، فأما المخادعة في منع ما عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أو لها فهو حرام بإجماع المسلمين والله أعلم"[1].

وما ذكره من قول إبراهيم عليه السلام قد أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلاَّ ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله عز وجل: قوله عليه السلام إني سقيم «وقوله» بل فعله كبيرهم هذا «وقال: بينا هو ذات يوم و» سارة «إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني..» الحديث[2].

---

(١) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٥٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ [فتح الباري ٦/ ٣٨٨]. وقوله ﴿إني سقيم﴾ قاله لما طلب منه قومه أن يخرج معهم فادعى أنه مريض ليستطيع أن يحطم أصنامهم في خلوة منهم، وقوله ﴿بل فعله كبيرهم﴾ قاله حينما كسر أصنامهم في خلوة منهم، وسأله قومه عمن كسرها، وقوله عن زوجته [سارة] إنها أختي قيل إنه قال ذلك لئلاً يتعرض له الجبار بالأذى إذا علم أنها زوجته بدافع من الغيرة عليها وقيل غير ذلك كما ذكر ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٣٩٣.

هذا وظاهر الحديث السابق يؤيد القول بجواز الكذب في الحرب، والإصلاح بين الناس، وفيما بين الزوجين، وما أشبه ذلك مما يترتب عليه مصلحة ولا يترتب عليه مضرة من غير تورية ولا تعريض.

وقال العلامة الغزالي بعد أن ذكر هذا الحديث: «فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره، أما ماله مثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك، فيقول ما زنيت ما سرقت، وقال ﷺ» من ارتكب شيئًا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله «[1] وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلمًا وعرضه بلسانه وإن كان كاذبًا، وأما عرض غيره فبأن يُسأل عن سر أخيه أن ينكره، وأن يصلح بين اثنين، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يُظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلاَّ بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييبًا لقلبها، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلاَّ بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به، ولكن الحدَّ فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعًا في الشرع من الكذب فله الكذب، وإن كان المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو لحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله» وإسناده حسن [حاشية إحياء علوم الدين ٣/ ١٣٥].

الكذب ما أمكنه، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به[1].

ومن السلوك الجائز بين الزوجين أن يظهر كل واحد منهما للآخر محبته وإن كان يضمر في نفسه عدم محبته كي يحوز على ثقته ويعيشا في سعادة وطمأنينة، ولا يعتبر ذلك من الكذب المحرم، ومما يدل على ذلك ما يُروى أن ابن أبي عذرة الدؤلي -وكان في خلافة عمر ﵁- كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ثم قال لامرأته أنشدك الله هل تبغضينني؟ قالت: لا تنشدني قال: فإني أنشدك الله قالت: نعم فقال لابن الأرقم: أتسمَع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر ﵁ فقال: إنكم لتحدثون أني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال: أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه، فقالت: إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتحرجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم فاكذبي فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك فإن أقل البيوت الذي يُبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب»، ذكره الغزالي[2].

* * *

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١٣٥.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٣٥.

٥- نهاية المنافقين الذين عاصروا التنزيل

تبين لنا مما مضى أن المنافقين في المدينة قد انكسرت شوكتهم وتناقص عددهم بعد تطهير المدينة من اليهود، ولم يزالوا كذلك حتى مات زعيمهم عبد الله بن أبيّ فانطفأت نارهم التي كان يُشعلها ابن أبيّ ويجمعهم حولها.

وقد كان موت ابن أبيّ في السنة التاسعة كما سبق، ولم يكن للمنافقين بعد موته حركة ولا نشاط يذكر..

ولما مات النبي ﷺ كانت الفرصة مواتية للمنافقين كي يعملوا عملهم في تفريق المؤمنين والقضاء على حكم الإسلام لأن النبي ﷺ لن يخلفه أحد يماثله في الهيمنة على النفوس وانقيادها له، وقد انتهز هذه الفرصة المنافقون من الأعراب الذين انقادوا إلى الإسلام خضوعًا لقوته لا اقتناعًا منهم بصحته، فأظهروا كفرهم بالإسلام بعد موت النبي ﷺ، وقد حاربهم أبو بكر رضي الله عنه حتى أخضعهم لحكم الإسلام.

أما المنافقون من أهل المدينة فلم يكن لهم في هذه الفترة أثر بارز في حرب الإسلام، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى فقدهم الزعيم الذي له شرف في قومه يحميه ويحمي من اتبعه، فتفرق شملهم وأصبح كل واحد منهم يخشى على نفسه ويحاول أن يتستر بالانزواء والبعد عما يسلط الأضواء عليه ويبعث على الريبة منه..

وقد أخبر حذيفة رضي الله عنه بما يدل على معرفته بهم كما أخرج البخاري بسنده عن زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية[1] إلاَّ ثلاثة ولا من المنافقين إلاَّ أربعة، فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد تخبروننا فلا ندري، فما بال هؤلاء

---

(١) هي قوله تعالى ﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم﴾ كما ذكر البخاري حيث بوب بهذه الآية لهذا الأثر.

الذين يقرون بيوتنا ويسرقون أعلافنا؟ قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلاّ أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء لما وجد بَرده[1].

والظاهر أن هؤلاء الأربعة هم بقية المنافقين الذين أخبر النبي ﷺ حذيفة بأسمائهم، وقد يكون هؤلاء هم أصحاب العقبة الذين أرادوا قتل النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقد أخرج مسلم في صحيحه خبرهم عن أبي الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال فقال له القوم: أخبره إذ سألك، قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإذا كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم[2].

وقد يكون هؤلاء من بقية الرهط الذين أسرَّ النبي ﷺ بأسمائهم إلى حذيفة رضي الله عنه كما أخرج عبد الرزاق الصنعاني عن معمر عن الزهري قال: فبينا النبي ﷺ سائر إلى تبوك نزل عن راحلته ليوحَى إليه، وأناخها النبي ﷺ، فنهضت الناقة تجر زمامها مطلقة فتلقاها حذيفة فأخذ بزمامها يقودها حتى أناخها وقعد عندها، ثم إن النبي ﷺ قام فأقبل يريد ناقته، فقال: من هذا؟ فقال حذيفة بن اليمان، فقال النبي ﷺ فإني أُسِرُّ إليك سرّا لا تُحدِّث به أحدًا أبدًا، إني نُهيت أن أصلي على فلان وفلان،رهط ذوي عدد من المنافقين، قال: فلما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف عمر فكان إذا مات الرجل من أصحاب النبي ﷺ ممن يظن عمر أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فقاده فإن مشى معه صلى عليه وإن انتزع يده منه لم يصل عليه، وأمر من يصلِّ عليه[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة التوبة/ ٥ [فتح الباري ٨/٣٢٢] رقم ٤٦٥٨.

(٢) صحيح مسلم، باب صفات المنافقين/ ١١ ص ٢١٤٤ رقم ٢٧٨٩.

(٣) مصنف عبد الرزاق ١١/٢٣٨.

ورجاله ثقات إلاَّ أن الزهري لم يسنده إلى أحد من الصحابة.

وهذا مما يوضح كون حذيفة ﵁ قد اختُص بمعرفة بعض المنافقين، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن في هذا حصر للمنافقين في عهد النبي ﷺ، وإنما هو بيان لطائفة منهم، وهذا هو الأنسب، حيث إن المنافقين كانوا أكثر من هذا العدد حتى في أواخر عهد النبي ﷺ. ومما يدل على ذلك أن الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا ثمانين رجلاً أغلبهم كان من المنافقين، وليس كل المنافقين قد تخلفوا بل خرج منهم طائفة مع النبي ﷺ كما سبق.

هذا وقد سبق أن النبي ﷺ قد عين بعض المنافقين فذكرهم بأسمائهم وأخرجهم من المسجد يوم الجمعة .

وهذا يتعارض مع ما سبق في هذه الروايات من اختصاص حذيفة بمعرفة المنافقين، والرواية التي فيها إخراج بعض المنافقين من المسجد ضعيفة، ولكن إنْ ثبتت فيمكن الجمع بين هذه الروايات بأن يقال إنَّ الذين اختص حذيفة بمعرفتهم هم الذين أخبر النبي ﷺ عنهم بأنهم سيموتون على الكفر، ومما يؤيد هذا ما جاء في حديث مسلم السابق، من قول حذيفة (وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أما الذين أخرجهم النبي ﷺ من المسجد بمشهد من الصحابة فلم يخبر عنهم بما يدل على أنهم سيموتون على الكفر، فاختصاص حذيفة بمعرفة بعض المنافقين وهم الذين سيموتون وهم كفار لا يستلزم اختصاصه بمعرفة المنافقين عمومًا.

وسواء كانوا بهذا العدد القليل أو أكثر من ذلك فإن حركتهم قد اختفت ونارهم قد خمدت ولم يَعُد لهم أيُّ أثر على المجتمع الإسلامي.

وهكذا انقرض هؤلاء المنافقون الذين حاولوا بكل ما أوتوا من مكر وحيلة أن يقضوا على دعوة الإسلام وأن يكيدوا للمؤمنين وماتوا وقلوبهم تغلي من الغيظ والكمد، فتحقق

قول الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ وبقي الإسلام شامخًا كالطود العظيم لم يستطع أعداؤه أن ينالوا منه شيئًا لما وُجد المؤمنون الذين يمثلونه تمثيلاً صادقًا.

وبهذا تم ما وفقني الله إليه ويسره لي من إكمال هذه الرسالة فإن يكن صوابًا فمنه تعالى بمنّه وكرمه وإن يكن خطأ أو تقصير فمني، والحمد لله أولاً وآخرًا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

الفهارس وقائمة المراجع

١- فهرس الآيات حسب ترتيبها في المصحف.

٢- قائمة المراجع.

٣- فهرس المحتويات.

فهرس الآيات القرآنية حسب ترتيبها في المصحف

الصفحة	رقمها	الآية
٥٧٥	٦١ – ٦٣	﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾
٥٦٨	٧٣ – ٧٤	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾
٥٨١	٧٥ – ٧٨	﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾
٥٩٤	٨٠	﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾
٥٩٤	٨٤–٨٥	﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾
٥٩٠	١٢٤–١٢٧	﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾
[النور]		
٩٥	٣٣	﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾
٣٨٣	١١ – ٢٠	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾
٣٥٨	٤٧–٥٤	﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾
٤٢٣	٦٢–٦٤	﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾
[العنكبوت]		
١١٦	٢–٣	﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾
١١٦	١٠–١١	﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾
[الأحزاب]		
٣٢٨	١–٦	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾
٣٢٩	٣٦–٤٠	﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾
٤٢٤	٩ – ٢٧	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾
٣٥٢	٥٩ – ٦٢	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾	٧٢ - ٧٣	٢٦٣
[محمد]		
﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾	١٦-٣٢	٢٥١
[الفتح]		
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾	١-٧	٤٦٦
﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾	١١-١٧	٤٦٧
[الحديد]		
﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾	١٢ - ١٥	٢٦٦
[المجادلة]		
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾	١٤ - ٢٢	٤١٥
[الحشر]		
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾	١١-١٧	٣٧٣
[المنافقون]		
﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾	١ - ٨	٣٦٥
[التحريم]		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾	٩	٤٦٣

قائمة المراجع

-ا-

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، مطبعة ومكتبة المشهد الحسيني، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ.
- إحياء علوم الدين للغزالي، الناشر: مكتبة ومطبعة الحلبي ١٣٥٨هـ.
- إرشاد العقل السليم لأبي السعود، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض، مطبعة السعادة.
- أسباب النزول للواحدي، مؤسسة الحلبي وشركاؤه بمصر ١٣٨٨هـ.
- الإستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، المكتبة التجارية الكبرى، سنة ١٣٥٨هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.
- الأفعى اليهودية لعبد الله التل، دار الإرشاد، ١٣٩١هـ.
- إملاء ما مَنَّ به الرحمن من وجوه الأعراب والقراءات في جميع القرآن لأبي البقاء العكبري، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، مطبوع على هامش الفتوحات الإلهية.
- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون للحلبي، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٢هـ.
- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٨٥هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ١٩٦٦م.

-ب-

- البحر المحيط لأبي حيان، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.

- البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف ببيروت، مكتبة النصر بالرياض، الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

- ت -

- تاج العروس للزبيدي، التاج والإكليل لمختصر خليل للمواق، مكتبة النجاح في ليبيا.
- تاريخ الإسلام للذهبي، مكتبة القدس بالقاهرة، ١٣٦٧هـ.
- تاريخ الأمم والملوك للطبري، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، مطبعة السعادة، ١٣٥٥هـ.
- تاريخ خليفة بن خياط، مطبعة الآداب في النجف، الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ.
- التاريخ الكبير للبخاري، مطبعة دار المعارف العثمانية بالهند ١٣٦١هـ.
- تحفة الأحوذي للمباركفوري، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.
- تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث العربي ١٣٧٤هـ.
- التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة، مطبعة الحلبي، ١٣٨١هـ.
- تفسير سورة النور للمودودي، دار الفكر بدمشق.
- التفسير الكبير للرازي، نشر: المطبعة البهية المصرية – الطبعة الأولى.
- تفسير ابن كثير، مكتبة النهضة الحديثة، مكتبة الفجالة الجديدة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ.
- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، مطبعة الحلبي، ١٣٧٨هـ.
- تفسير المنار لرشيد رضا، دار المنار بمصر، الطبعة الرابعة، ١٣٧٣هـ.
- تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني، تهذيب الكمال للمزي.

- ج -

- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان ١٣٨٩هـ.

- جامع البيان عن تأويل آيات القرآن لابن جرير الطبري، مكتبة ومطبعة الحلبي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ والطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر بتحقيق أحمد ومحمود شاكر وهي غير كاملة وقد طبع منها ستة عشر مجلدًا إلى آخر آية ٧٢ من سورة إبراهيم فقط.

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصور عن الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ.

- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر باد الدكن، الهند، ١٣٧١هـ.

- جمهرة أنساب العرب لابن حزم، دار المعارف بمصر، ١٣٨٢هـ.

- جمهرة اللغة لابن دريد، مؤسسة الحلبي وشركاؤه، القاهرة.

- جوامع السيرة لابن حزم، دار المعارف بمصر.

- ح -

- حاشية الجرجاني على الكشاف، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ١٣٨٦هـ.

- د -

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، المطبعة الميمنية بمصر، سنة ١٣١٤هـ.

- ديوان حسان بشرح البرقوقي، دار الأندلس في بيروت، ١٣٨٦هـ.

- ر -

- روح المعاني للألوسي، إدارة الطباعة المنيرية، دار التراث العربي، الطبعة الثانية.

- الروض الأنف للسهيلي، دار الكتب الحديثة بمصر، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ.
- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٤هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، المطبعة المصرية ومكتبتها.

- س -

- سنن الترمذي بشرح المباركفوري، المكتبة السلفية بالمدينة، مطبعة الفجالة بالقاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٧هـ.
- سنن الدارمي، دار إحياء السنة النبوية.
- سنن أبي داوود، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٦٩هـ.
- سنن ابن ماجه، مطبعة الحلبي، دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٣٧٢هـ.
- السيرة النبوية لابن هشام، مكتبة الجمهورية بمصر.

- ش -

- شرح النووي على صحيح مسلم، المطبعة المصرية ومكتبتها.

- ص -

- صحيح البخاري بشرح ابن حجر، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، سنة ١٣٨٠هـ.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الصحاح للجوهري.
- صفة المنافق للفريابي - مخطوط.

- ط -

- الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٦هـ.

- ع -

- عون المعبود في شرح سنن أبي داود.

- ف -

- فتاوى ابن تيمية، مطبعة الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
- فتح الباري لابن حجر، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة ١٣٨٠هـ.
- فتح القدير للشوكاني، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٣هـ.
- في ظلال القرآن لسيد قطب، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة السابعة، ١٣٩١هـ.

- ق -

- القاموس المحيط للفيروزابادي.
- القومية والغزو الفكري لمحمد جلال كشك، دار الإرشاد، ١٩٧٠م.

- ك -

- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٥هـ.
- الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، مطبوع على هامش الكشاف.
- الكشاف، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٨٥هـ.

- ل -

- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية.
- لسان العرب لابن منظور.

- م -

- مجاز القرآن لأبي عبيدة، مطبعة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.
- مجلة الشهاب، مجلة إسلامية تصدرها الجماعة الإسلامية في لبنان.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، دار الكتاب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

- المجموع شرح المهذب للنووي وعدد من المؤلفين، إدارة الطباعة المنيرية ومطبعة الإمام بمصر.
- محاسن التأويل للقاسمي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، مكتبة ومطبعة الحلبي بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ.
- المحلى لابن حزم، مطبعة النهضة، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ.
- المزهر للسيوطي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثالثة.
- المستدرك على الصحيحين، مطابع النصر الحديثة بالرياض.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.
- معاني القرآن للفراء، مطبعة دار الكتاب المصرية، ١٣٧٤هـ.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت.
- معجم ما استعجم للبكري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٤هـ.
- معجم متن اللغة لأحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٧هـ.
- مغازي الواقدي، مطبعة جامعة اكسفورد، ١٩٦٦م.
- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار للحافظ العراقي مطبوع على هامش الأحياء، مطبعة الحلبي، ١٣٥٨هـ.
- المغني لابن قدامة، مكتبة الجمهورية العربية بمصر.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، دار الكتاب العربي.
- مغني المحتاج للشربيني، مطبعة الحلبي، ١٣٧٧هـ.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني.
- مقاييس اللغة لابن فارس.
- منتخب كنز العمال للمتقي الهندي، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ، مطبوع بهامش مسند أحمد.

-ن-

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٨هـ.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر.
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير.

-ي-

- يهود الدونمة، دار الإسلام.

فهرس المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة